تفسير مقتنيات الدرر

تأليف

السيد مير علي الحائري الطهراني

تحقيق

السيد محمد وحيد الطبسي الحائري

مراجعة وتدقيق

محمد تقي الهاشمي

مؤسسة دار الكتب الإسلامي

المجلد السادس

والكاظمين الغيظ

الأمانة العامة للعتبة الكاظمية المقدسة

تفسير

مقتنيات الدرر

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير

مقتنيات الدرر

تأليف

السيد مير علي الحائري الطهراني

المجلد السادس

تحقيق

السيد محمد وحيد الطبسي الحائري

مراجعة وتنقيح

محمد تقي الهاشمي

مؤسسة دار الكتاب الإسلامي

الحائري الطهراني، السيد ميرعلي (١٢٧٠ ـ ١٣٥٣ هـ)
تفسير مقتنيات الدرر و ملتقطات الثمر
العنوان والمؤلف: تفسير مقتنيات الدرر / تاليف السيد ميرعلي الحائري الطهراني
تحقيق: محمدوحيد الطبسي الحائري / مراجعة وتدقيق: محمدتقي الهاشمي /
تصحيح: حسين طه نيا
الناشر: قم. دارالكتاب الإسلامي، ٢٠١٢م ـ ١٣٩١ هـ. ش
المجموعة: (١ ـ ١٢ مجلد) لغة الكتابة: اللغة العربية
الموضوع: تفاسير شيعية ـ القرن ١٤ هـ
تسلسل: ١٣٨٨ ٧م ٢٣ح ٩٨/ BP
تسلسل ديويي: ٢٩٧/١٧٩
رقم الإيداع بالمكتبة الوطنية: ١٨٢٧٥٨٦

با مشاركت و حمايت معاونت امور فرهنگى
وزارت فرهنگ و ارشاد اسلامى چاپ و منتشر گرديد

الكتاب .... تفسير مقتنيات الدرر (ج ٦)
المؤلف........ السيد مير علي الحائري الطهراني
الناشر........ مؤسسة دارالكتاب الإسلامي
الطبعة........ الأولى ١٤٣٣ هـ / ٢٠١٢ م
المطبعة........ ستاره
عدد المطبوع........ (٢٠٠٠) دوره
الترقيم الدولي للمجموعة .... ٩ ـ ٢٧٦ ـ ٤٦٥ ـ ٩٦٤ ـ ٩٧٨
الترقيم الدولي (ج ٦) .... ٠ ـ ٢٨٢ ـ ٤٦٥ ـ ٩٦٤ ـ ٩٧٨
السعر .... ٩٠٠/٠٠٠ ريال

قم ـ ميدان المعلم ـ شارع سمية ـ رقم ٢٢ ـ رقم المبنى ٢٦
تليفون: ٧٧٤٤٩٧٠ ـ ٧٧٣٠٩٩٤ فاكس: ٧٨٣٧٣٨٣

سُورَةُ يُوسُفَ

مكّيّة إلّا أربع آيات نزلن بالمدينة، ثلاث من أوّلها والرابعة: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَـٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾[1] قال أبيّ بن كعب عن النبيّ ﷺ: «**علّموا أرقاءكم سورة يوسف فإنّه أيّما مسلم تلاها وعلّمها ما ملكت يمينه من العبيد هوّن الله عليه سكرات الموت وأعطاه القوّة أن لا يحسد مسلماً**».[2]

وروى أبو بصير عن الصادق عليه السلام قال: «**من قرأ سورة يوسف في كلّ يوم أو في كلّ ليلة بعثه الله يوم القيامة وجماله مثل جمال يوسف ولا يصيبه فزع يوم القيامة وكان من خيار عباد الله الصالحين وقال: إنّها كانت في التوراة مكتوبة**».[3]

وروى إسماعيل بن أبي زياد، عن أبي عبد الله عليه السلام عن أبيه عن آبائه قال: «**قال رسول الله ﷺ: لا تنزلوا نساءكم الغرف ولا تعلّموهنّ الكتابة ولا تعلّموهنّ سورة يوسف وعلّموهنّ الغزل وسورة النور وفيها آية الحجاب وهي ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا...﴾**»[4] أقول: قم يا رسول الله وانظر في تعليمهنّ البال، ونسخوا آية الحجاب في سورة النور فلعن الله من خالف سنتك.

١ـ سورة يوسف: ٧.

٢ـ مستدرك الوسائل، ج٤، ص٣٤٢؛ ومجمع البيان، ج ٥، ص ٣٥٤.

٣ـ ثواب الأعمال، للصدوق، ص١٠٦؛ ووسائل الشيعة (الإسلامية)، ج٤، ص ٨٨٩؛ ومجمع البيان، ج٥، ص٣٥٤.

٤ـ مجمع البيان، ج٥، ص٣٥٤؛ ومن لا يحضره الفقيه، ج٣، ص٤٤٢.

لما ختم قصّة هود من أنباء الرسل افتتح هذه السورة بأنّ من تلك القصص قصّة يوسف.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾

﴿قُرْءَٰنًا﴾ بدل عن «الهاء» أو توطئة للحال وهو ﴿عَرَبِيًّا﴾ كقولك: مررت بزيد رجلاً صالحاً. قوله: ﴿الٓر﴾ قد سبق تفسيره في فواتح السور ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ﴾ في معنى الإشارة، إشارة إلى ما سيأتي من ذكرها على وجه التوقع لها. وقيل: إشارة إلى السورة أي: سورة يوسف، آيات الكتاب الظاهر المبين. الثالث أنّ معناه: هذه الآيات الّتي وعدتم بها في التوراة كما قال: ﴿الٓمٓ * ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ والمبين المظهر للحلال والحرام والبيان هو الدلالة.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ يعني: القرآن أي: أنزلنا هذا الكتاب، أو أنزلنا قصّة يوسف وخبره لأنّ علماء يهود قالوا لكبراء المشركين: سلوا محمّداً لم انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر وسلوه عن كيفيّة قصّة يوسف ﴿قُرْءَٰنًا﴾ بلسان العرب ليتمكّنوا من فهمها والمعرفة بها، والتقدير: إنّا أنزلنا هذا الكتاب الّذي فيه قصّة يوسف الّتي طلبتموها في حال كونه قرآناً عربيّاً و«القرآن» اسم جنس يطلق على البعض والكلّ. واحتجّوا بحدوث الكلام بوجوه بهذه الآية:

الأوّل: قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ يدلّ على الحدوث فإنّ القديم لا يجوز إنزاله وتحويله من حال إلى حال. الثاني: وصفه بكونه عربيّاً والقديم لا يكون عربيّاً ولا فارسياً. الثالث: أنه لمّا قال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ دلّ على أنه

كان قادراً على أن ينزله لا عربيّاً وذلك يدلّ على حدوثه. الرابع أنّ قوله: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يدلّ على أنه مركّب من الآيات والكلمات وكلّما كان مركّباً كان محدثاً. ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وكلمة «لعلّ» يجب حملها على الجزم أي: أنزلنا لكي تعقلوا معانيه في أمور الدين وتعلموا أنّه من عند الله إذا كان عربيّاً وقد عجزتم الإتيان بمثله. ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ ونبيّن لك أحسن البيان كقولك: قمت أحسن القيام ﴿بِمَآ أَوْحَيْنَآ﴾ أي: بوحينا ﴿إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ وإنّما وصف القرآن بأحسن القصص ودخلت الباء لتبيّن القصص، إذ القصص تكون قرآنناً وغير قرآن وهذه القصص بوحي القرآن لأنّه بلغ النهاية في الفصاحة وحسن المعاني وعذوبة اللفظ مع التلازم المنافي للتنافر، وجميع ما يحتاج إليه العباد إلى يوم القيامة بأعذب لفظ وأحسن نظم.

وقيل: المراد بأحسن القصص سورة يوسف وحدها، وكيف كان وهو أيضاً من القرآن وهل يجوز أن يقال في حقّه: «قاصّاً» لا يجوز؟ لأنّ الأسماء توقيفيّ كما لا يجوز أن يقال: معلّم أو مفتي ولأنّ هذه الإطلاقات والاستعمالات في العرف إنّما يقال لمن تمسّك بهذه الطرق على أنّه سوء الأدب وإن وصف نفسه سبحانه بأنّه علّم القرآن وبأنّه يفتيكم في النساء. ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ أي: وما كنت من قبل أن أوحينا إليك هذا القرآن إلّا من الغافلين عن الحكم الّتي في القرآن لا تعلم شيئاً منها، أو المعنى من الغافلين عن قصّة يوسف وعن الحكم الّتي فيها.

إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ

أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾

واذكر ﴿إِذۡ قَالَ يُوسُفُ﴾ ويجوز أن يكون العامل في «إذْ» نقصّ عليك ولكنّ هذا القول ليس بصحيح لأنّ اللّه لم يقصّ على نبيّه هذا القصص في وقت قول يوسف. اذكر واسمع هذه القصّة: ﴿إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ﴾ يعقوب وهو إسرائيل اللّه ومعناه عبد اللّه الخاصّ الخالص ابن إسحاق نبيّ اللّه بن إبراهيم خليل اللّه. في الحديث عن النبيّ ﷺ: «**إذا سئل عن الكريم فقولوا: الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم**»[1].

﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ أصله يا أبي أو أصله يا أبتا فحذف الياء أو الألف ولمّا كثرت هذه الكلمة في كلام العرب ألزموها الحذف والقلب ولذا قرئ بفتح التاء وبكسرها. قال ابن عبّاس: إنّ يوسف عليه السلام رأى في المنام ليلة الجمعة ليلة القدر أحد عشر كوكباً نزلن من السماء فسجدن له ورأى الشمس والقمر نزلا من السماء فسجدا له قال: فالشمس والقمر أبواه أي: أبوه وخالته لأنّ أمّه راحيل قد ماتت[2]. قال وهب: كان يوسف رأى وهو ابن سبع سنين أنّ إحدى عشرة عصا طوالاً كانت مركوزة في الأرض كهيئة الدائرة وإذا عصا صغيرة تشبّثت عليها حتّى اقتلعتها وغلبتها فوصف ذلك لأبيه فقال له: إيّاك أن تذكر هذه لإخوتك. ثمّ رأى وهو ابن اثنتي عشرة سنة الرؤيا الثاني فقصّها على أبيه فقال له يعقوب: ﴿لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ﴾[3] وقيل: إنّه كان بين رؤياه وبين مصير أبيه وإخوته إلى مصر أربعون سنة[4]، وقيل: ثمانون

١ـ مجمع البيان، ج ٥، ص٣٥٩؛ وبحار الأنوار، ج١٢، ص٢١٨؛ والدرّ المنثور، ج ٤، ص ٤.

٢ـ تفسير غريب القرآن، للطريحي، ص١٢٣.

٣ـ مجمع البيان، ج ٥، ص ٣٥٩.

٤ـ المصدر السابق نفسه.

سنة.[١] ويقال: إنّ أخوته لمّا بلغهم رؤياه قالوا: ما رضي أن يسجد له إخوته حتّى يسجد له أبواه. ﴿فَيَكِيدُواْ﴾ أي: فيحسدوك ويقابلوك بما هو هلاكك، وذلك أنّ رؤيا الأنبياء وحي وعلم يعقوب أنّ إخوته يعرفون تأويلها ويخافون علو يوسف عليهم ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ﴾ ظاهر. ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ أي: كما أراك ربّك هذه الرؤيا تكرمة لك كذلك يصطفيك ويختارك للنبوّة، وقيل: لحسن الخلق والخلق ﴿وَيُعَلِّمُكَ﴾ من تعبير الرؤيا لأنّ فيه أحاديث الناس عن رؤياهم ويتحدثون الناس ما يرون في مناماتهم، وسمّي تأويلاً لأنّ ما يرى الإنسان في المنام يؤول إلى ما يعبّر صحيحاً إذا كان التعبير صحيحاً وتكون الرؤيا بشرائطها، قال ابن زيد: كان أعبر الناس للرؤيا. ﴿وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ﴾ بالنبوّة لأنّها منتهى النعمة. وقيل: ويتمّ نعمته عليك بأن يحوّج إخوتك إليك حتّى تنعمهم بعد إساءتهم إليك ﴿وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ﴾ بأن يثبتهم على الإسلام ويجعل فيهم النبوّة.

﴿كَمَآ أَتَمَّهَا﴾ على إبراهيم بالخلّة والنبوّة والنجاة من النار، وعلى إسحاق بأن فداه بذبح عظيم عن الذبح، وهذا على قول من قال: إنّ الذبيح إسحاق مثل عكرمة. ولكن أكثر المفسّرين قالوا بإخراج الأنبياء من صلبه مثل يعقوب وأولاده وقالوا: ليس هو الذبيح وإنّما الذبيح إسماعيل عليه السلام ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ﴾ بمن يصلح للرسالة ﴿حَكِيمٞ﴾ في اختيار الرسل وفي أحكامه.

لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذۡ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ
أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ
أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾

١ـ المصدر السابق نفسه.

﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝١٠﴾

ثم أنشأ سبحانه في ذكر قصّة ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي﴾ قصّة ﴿يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ﴾ عبر ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ عنهم وأعاجيب فمنها أنهم اجتمعوا على إلقائه في البئر للحسد مع أنهم أولاد الأنبياء فصفح عنهم لمّا مكّنه الله منهم وأحسن إليهم ولم يعيّرهم بما كان منهم، وفي هذا العمل عبرة لمن اعتبر به. ومنها الفرج بعد الشدّة والمحنة بعد المحنة، ومنها الدلالة على صحّة نبوّة نبيّنا محمّدﷺ لأنّه لم يقرء كتاباً فعلم أنه لم يأته ذلك إلّا من جهة الوحي فهو بصيرة للذين سألوه أن يخبرهم بذلك. وكان ليعقوب اثنا عشر ولداً لصلبه، قال الزمخشري: أسماء أولاد يعقوب: يوسف يهودا، روبيل، شمعون، لاوي، زبالون، يشجر، دينة، دان، نفتالي، حاد، اشر.

فالسبعة الأولون من: ليا بنت خالة يعقوب والأربعة الآخرون من سريّتين: زلفة وبلهة. ولعلّ بنيامين اسمه في هؤلاء العدد. والحاصل أنّ إخوة يوسف ﴿قَالُواْ﴾ بعضهم لبعض: ﴿لَيُوسُفُ﴾ واللام جواب للقسم أي: والله ليوسف وأخوه من أمّه وأبيه بنيامين ﴿أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ لأنهعليه السلام شديد الحسن وكان يعقوب يحبّه كثيراً ويؤثره على أولاده فحسدوه، ثمّ لمّا سمعوا بالرؤيا اشتدّ حسدهم عليه وقيل: كان يعقوب لصغرهما يقرّ بهما عنده.

وروى أبو حمزة الثماليّ عن السجّادعليه السلام: **«أنّ يعقوب كان يذبح كلّ يوم كبشاً فيتصدّق به ويأكل هو وعياله منه، وأنّ سائلاً مؤمناً صوّاماً اعتبر ببابه عشيّة جمعة عند أوان إفطاره، وكان مجتازاً غريباً فهتف على بابه واستطعمهم وهم يسمعون قوله فلم يصدّقوا فلمّا يئس الفقير وغشيه الليل استرجع واستعبر وشكا جوعه إلى الله، وبات طاوياً وأصبح صائماً حامدا لله وبات يعقوب وآل يعقوب بطنانا وأصبحوا وعندهم**

فضلة من طعامهم فابتلاه الله بيوسف وأوحى إليه أن استعدّ لبلائي وارض بقضائي، والصبر للمصائب فرأى يوسف تلك الليلة الرؤيا»، والحديث طويل.[١]

﴿وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ﴾ أي: نحن جماعة يعين بعضنا بعضاً ونحن أنفع لأبينا ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَـٰلٍ﴾ وخطاء من الرأي ولا يعتدل بيننا في المحبّة ونحن أقوم له بأمور معاشه ومواشيه. وقال أكثر المفسّرين: إنّ إخوة يوسف كانوا أنبياء وقال بعضهم: لم يكونوا أنبياء لأنّ الأنبياء لا يقع منهم القبائح وقال المرتضى قدس سرّه: لم يقم لنا دليل بأنّ إخوة يوسف الّذين فعلوا ما فعلوا كانوا أنبياء ولا يمتنع أن يكون الأسباط الذين كانوا أنبياء غير هؤلاء الإخوة الّذين فعلوا بيوسف ما قصّه اللّه عنهم وليس في ظاهر الكتاب أنّ جميع إخوة يوسف وسائر الأسباط فعلوا بيوسف من الكيد. وقال جماعة من مفسّري أهل الجماعة: إنّ هؤلاء الإخوة الّذين فعلوا وهم في ذلك الحال لم يبلغوا الحلم، وهذا قول البلخيّ والجبّائيّ قالوا: ويدلّ عليه قوله: «نرتع ونلعب» وروى أبو جعفر بن بابويه في كتاب النبوّة بإسناده عن ابن سدير قال قلت لأبي جعفر: أكان أولاد يعقوب أنبياء فقال: «**لا ولكنّهم كانوا أسباط أولاد الأنبياء ولم يفارقوا الدنيا إلّا سعداء تابوا وتذكّروا ما صنعوا**»[٢].

وقال بعض من أهل الجماعة: كانوا رجالا بالغين ووقعت تلك منهم صغيرة. قال الرازيّ: وهم أتوا بما يقدح في العصمة والنبوّة إلّا أنّ المعتبر عندنا عصمة الأنبياء في وقت حصول النبوّة وأمّا قبلها فذلك غير واجب.

﴿ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ﴾ لمّا قوي الحسد وبلغ النهاية قالوا: لابدّ من تبعيد

١ـ تفسير أبي حمزة الثمالي، ص٢٠٥؛ ومجمع البيان، ج٥، ص٣٦٤؛ وبحار الأنوار، ج١٢، ص٢٧١.

٢ـ قصص الأنبياء، الراوندي، ص١٣٢؛ وتفسير الصافي، ج٣، ص٤٦ عن الكافي؛ وبحار الأنوار، ج ١٢، ص ٢٢٠ عن الكتاب النبوة، لابن بابويه.

يوسف عن أبيه وذلك لا يحصل إلّا بأحد أمور: القتل أو التغريب إلى أرض يحصل اليأس من اجتماعه مع أبيه. ثمّ ذكروا الفائدة من هذا الأمر قالوا: الفائدة: ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ ويكون بسبب بعد يوسف عن أبيه قرينا منه وإذا فعلنا هذا الفعل القبيح تبنا إلى الله ونصير من الصالحين بعد التوبة.

واختلفوا في أنّ القائل الّذي أمر بالقتل من كان؟ قيل: أحد إخوته وهو شمعون. وقيل: هو روبيل. وقيل: إنّهم شاوروا أجنبياً فأشار عليهم بالقتل و﴿قَالَ قَآئِلٌ﴾ من الإخوة إمّا روبيل وإمّا يهودا وكان أقدمهم في الرأي والسنّ ﴿لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ وقرئ غيابات بلفظ الجمع ويجوز لأنّ للجبّ أقطار ونواحي و«الغيابة» كلّ ما غيّب شيئاً وستره فغيابة الجبّ غوره وما غاب منه عن عين الناظر فاشار إليهم أن ألقوه في قعر الجبّ وغوره وسمّي بالغيابة لغيبته عن عين الناظر، والجبّ البئر الّتي لم يطو بعد لأنها أرض جبّت جبّاً من غير أن يزاد على ذلك شيئاً ﴿يَلْتَقِطْهُ﴾ ويتناوله ﴿بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ ومارة الطريق والمسافرين فيذهب به إلى ناحية أخرى.

ثمّ اختلفوا في ذلك الجبّ فقيل: هو بئر بيت المقدس. وقيل: بأرض الأردن. وقيل: بين مدين ومصر. وقيل: على ثلاث فراسخ من منزل يعقوب ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ شيئاً ممّا تقولون في يوسف.

قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾

المعنى: ثمّ إنّهم عند اتّفاق آرائهم فيما تآمروا فيه من أمر يوسف سألوا أباهم فقالوا: ﴿يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ﴾ لا تثق بنا ولا تعتمدنا في أمر يوسف وإنّا مخلصون في إرادة الخير له؟ وفي هذه دلالة على أنّه عليه السلام كان يأبى عليهم أن

يرسله معهم ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا﴾ إلى الصحراء ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾[١] وقرئ بالياء أي: نذهب ونجيء وننشط ونلهو والرتع هو التردّد يميناً وشمالاً، وأرادوا اللعب المباح وقد روي أنّ كلّ لعب حرام إلّا ثلاثة: لعب الرجل بقوسه وفرسه وأهله ﴿وَإِنَّا﴾ ليوسف ﴿لَحَٰفِظُونَ﴾. وقيل: في الآية تقديم وتأخير، وذلك أنّ إخوة يوسف قالوا: أرسله. فقال أبوهم: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ...﴾ فحينئذ قالوا: ﴿يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾ ولكن إذا صحّ الكلام من غير تقديم وتأخير فلا معنى لحمله عليه. قال الحسن: جعل يوسف في الجبّ وهو ابن سبع عشرة سنة. وقيل: ابن اثنتي عشرة سنة. وقيل: ابن سبع سنين أو تسع، وكان في البلاء والمشقّة إلى أن وصل إليه أبوه وهو ابن ثمانين سنة، وقيل: لمّا وصل إليه أبوه كان عمر يوسف أربعين سنة ولبث بعد الاجتماع ثلاث وعشرين سنة، وقيل: مات وهو ابن مائة وعشرين سنة.

قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾

١ـ كذا في الأصل.

المعنى: لمّا أظهروا النصح والشفقة على يوسف همّ يعقوب أن يبعثه معهم وحثّهم على حفظه فقال: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ﴾ أي: يغمني أن تغيبوه عنّي ﴿وَأَخَافُ﴾ عليه إذا ذهبتم به إلى الصحراء ﴿أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ في حال كونكم مشغولين عنه، وكانت أرضهم مذأبة، وكانت الذئاب ضارية في ذلك الوقت كثيراً.

قيل: إنّ يعقوب رأى في منامه كأنّ يوسف قد شدّ عليه عشر أذؤب ليقتلوه، وإذا ذئب يحمي عنه، فكأنّ الأرض انشقّت فدخل فيها يوسف فلم يخرج منها إلّا بعد ثلاثة أيّام.

روي عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «**لا تلقنوا الكذب أولادكم فيكذبوا، فإنّ بني يعقوب لم يعلموا أنّ الذئب يأكل الإنسان حتّى لقنهم أبوهم**»[١]، وهذا يدلّ على أنّ الخصم لا ينبغي أن يلقّن حجّة.[٢]

﴿قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ ونحن جماعة متعاضدون نرى الذئب قد قصده ولا نمنعه منه ﴿إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ والعصبة الجماعة من عشرة فصاعداً وقيل: إنّ معناه إنّا إذا عجزة ضعفة. ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ﴾ وعزموا جميعاً أن يجعلوه في قعر البئر فأخرجوه من البلدة مكرماً فلمّا أصحروا أظهروا له العداوة وجعلوا يضربونه وهو يستغيث بواحد واحداً منهم فلا يغيثه، وكان يقول: يا أبتاه، فهمّوا بقتله فمنعهم يهودا منه، وقيل: منعهم لاوي، فانطلقوا إلى الجبّ فجعلوا يدلونه في البئر وهو يتعلّق بشفير البئر، ثمّ نزعوا قميصه وهو يقول: لا تفعلوا ردّوا عليّ قميصي أتوارى به، فيقولون: ادع الشمس

١ـ مجمع البيان، ج٥، ص٣٧٢؛ وبحار الأنوار، ج١٢، ص٢٢١؛ وقصص الأنبياء، الجزائري، ص١٨٣.

٢ـ مجمع البيان، ج ٥، ص ٣٧٢.

والقمر والأحد عشر كوكباً يؤنسنك فدلوه في البئر حتّى إذا بلغ نصفها ألقوه أرادوه أن يموت، وكان في البئر ماء فسقط فيه، ثمّ آوى إلى صخرة فقام عليها وكان يهودا يأتيه بالطعام. وقيل: إنّ الجبّ أضاء له وعذب ماؤه، وكان الماء كدرا فصفا ووكّل الله به ملكاً يحرسه ويطعمه، عن مقاتل. وقيل: إنّ جبرئيل كان يؤنسه.

وقيل: إنّ الله أمر بصخرة حتّى ارتفعت من أسفل البئر فوقع يوسف عليها وهو عريان كما أنّ إبراهيم لمّا القي في النار جرّد وهو عريان فأتاه جبرئيل بقميص من حرير الجنّة فألبسه إيّاه فكان ذلك الثوب عند إبراهيم فلمّا مات ورثه إسحاق فلمّا مات إسحاق ورثه يعقوب فلمّا شبّ يوسف جعل يعقوب ذلك القميص في تعويذ وعلّقه في عنق يوسف فكان لا يفارقه، فلمّا القي في البئر عريانا جاءه جبرئيل، وكان عليه ذلك التعويذ فأخرج منه القميص فألبسه إيّاه. روى ذلك مفضّل بن عمر عن الصادق عليه السلام قال: «**وهو القميص الّذي وجد يعقوب ريحه لمّا فصلت العير من مصر، وكان يعقوب بفلسطين فقال: إنّي لأجد ريح يوسف**»[1].

وفي الحديث عن مسمع عن الصادق عليه السلام قال: «**لمّا ألقى إخوة يوسف يوسف في الجبّ نزل عليه جبرئيل فقال له: يا غلام من طرحك هنا؟ فقال: إخوتي لمنزلتي من أبي حسدوني، قال: أتحبّ أن تخرج من هذا الجبّ قال: ذلك إلى إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، فقال له جبرئيل: فإنّ إله إبراهيم يقول لك: قل: اللهمّ إنّي أسئلك بأنّ لك الحمد لا إله إلّا أنت بديع السماوات والأرض يا ذا الجلال والإكرام أن تصلّي على محمّد وآل محمّد وأن تجعل لي في أمري فرجاً وترزقني من حيث أحتسب ومن حيث لا أحتسب. فجعل الله له من الجبّ مخرجاً وفرجا ومن كيد المرأة مخرجاً وآتاه ملك**

١ـ جوامع الجامع، ج٢، ص٢٠٨؛ ومجمع البيان، ج٥، ص ٣٧٢؛ وبحار الأنوار، ج١٢، ص ٢٧٤.

مصر من حيث لم يحتسب».(1)

وروى عليّ بن إبراهيم في تفسيره أنّ يوسف قال في الجب: يا إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب ارحم ضعفي وقلّة حيلتي وصغري(2).

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ أي: أوحينا إلى يوسف في الجبّ قيل: أعطاه النبوّة والبشارة بالنجاة والملك ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا﴾ أي: لتخبرنّهم بقبيح فعلهم بعد هذا الوقت يريد بقوله: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ ... ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنك يوسف ولك جلالة الأمر وكان فيما أوحى الله إليه أن اكتم أمرك واصبر على ما أصابك وقيل: معناه لتجازينّهم على فعلهم يقول العرب: حين يتوعّد لأنبأنّك أي: لأجازينّك.

﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً﴾ وانقلب إخوة يوسف إلى أبيهم ليلا أو في آخر النهار ليلبسوا على أبيهم وإنّما أظهروا البكاء ليوهموا أنّهم صادقون. وفي هذه دلالة على أنّ البكاء لا يوجب صدق دعوى الباكي لأنه قد يكون البكاء حقيقة، والمراد من الباكي تمويه الأمر فلمّا سمع يعقوب بكاءهم فقال: ما بالكم ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ ونعدوا على الأقدام لننظر أيّنا أعدى وأسبق لصاحبه. وقيل: معناه ننتصل ونترامى فننظر إلى السهام أيّها أسبق إلى الغرض؟ ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا﴾ وتركناه عند الرحل ليحفظه ﴿فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ﴾ بمصدّق لنا وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف أي: ولو كنّا صادقين ما صدّقتنا.

وجاءوا ومعهم قميص يوسف ملطّخاً بدم فقالوا له: هذا دم يوسف حين أكله الذئب. قيل: إنّهم ذبحوا سخلة وجعلوا دمها على قميصه. وقيل: ظبياً ولم يمزّقوا القميص ولم يخطر ببالهم أنّ الذئب إذا أكل إنساناً فإنّه

١ـ قصص الأنبياء، الجزائري، ص١٩٦؛ وبحار الأنوار، ج١٢، ص٢٤٨.

٢ـ تفسير القمي، علي بن إبراهيم قمي، ص٣٤١؛ وبحار الأنوار، ج١٢، ص ٢٢١.

يمزّق ثوبه. وقيل: إنّ يعقوب قال: لهم أروني القميص فاروه إيّاه فلمّا رأى القميص صحيحاً قال: يا بنيّ واللّه ما عهدت كاليوم ذئباً أحلم من هذا أكل ابني ولم يمزّق قميصه.

وروي أنّه ألقى ثوب يوسف على وجهه وقال: يا يوسف لقد أكلك ذئب رحيم أكل لحمك ولم يشقّ قميصك،[١] ومعنى قوله: ﴿بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ أي: مكذوب عليه كماء سكب أي: مسكوب، وصبّ أي: مصبوب[٢].

وقيل: إنّه لمّا قال لهم يعقوب ذلك قالوا: بل قتله اللصوص فقال عليه السلام: فكيف قتلوه وتركوا قميصه وهم إلى قميصه أحوج منهم إلى قتله.

قال يعقوب: ولكن زيّنت لكم أنفسكم أمراً في يوسف غير الّذي قلتموه حتّى سهل عليكم ففعلتموه،[٣] وقيل: إنّما ردّ عليهم يعقوب ذلك الجواب بوحي من اللّه وقيل: بحدس صائب وذهن صادق، فصبري صبر جميل لا جزع فيه ولا شكوى إلى الناس أو المعنى فصبر جميل أحسن وأولى من الجزع من غير فائدة، وإنّ البلاء نزل بيعقوب على كبره وبيوسف على صغره بلا ذنب كان منهما فأكبّ يعقوب على حزنه ويوسف على رقّه، وكلّ ذلك بعين اللّه يرى ويسمع حتّى أتى المخرج وكلّ ذلك امتحان ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ﴾ على دفع ﴿مَا تَصِفُونَ﴾ وعلى تحمّل المشقّة والصبر ومكث يوسف في البئر ثلاثة أيّام.

وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ ۖ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ

١ـ نور الثقلين، ج٢، ص٤١٧؛ ومجمع البيان، ج٥، ص٣٧٥.

٢ـ مجمع البيان، ج٥، ص٣٧٥.

٣ـ المصدر السابق نفسه؛ وانظر: جامع البيان، ج١٢، ص٢١٥.

﴿مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ۝٢٠﴾

فأخبر اللّه عن حال يوسف بعد إلقائه في البئر، جاء جماعة مارّة من قبل مدين يريدون مصر، فأخطئوا الطريق فانطلقوا على غير الطريق حتّى نزلوا قريباً من الجبّ وكان الجبّ في قفرة بعيدة من العمران ﴿فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ﴾ أي: بعثوا من يطلب لهم الماء رجلاً يقال له مالك بن زعر فأرسل دلوه في البئر ليستقي فتعلّق يوسف بالحبل فلمّا خرج إذا هو بغلام من أحسن الغلمان، قال النبيّ: «**اعطي يوسف شطر الحسن والنصف الآخر لسائر الناس**». وقال كعب الأحبار: كان يوسف حسن الوجه جعد الشعر ضخم العينين مستوي الخلقة أبيض اللون، غليظ الساقين والعضدين خميص البطن صغير السرّة وكان إذا تبسّم رئيت النور في ضواحكه وإذا تكلّم رئيت في كلامه شعاع النور يلتهب عن ثناياه وكان حسنه كضوء النهار عند الليل، وكان يشبه آدم عليه السلام يوم خلقه اللّه عزّ وجلّ وصوّره ونفخ فيه من روحه، قبل أن يصيب المعصية ويقال: إنّه ورث الجمال من جدّته سارة وكانت قد أعطيت سدس الحسن.

وبالجملة فلمّا رآه المدنيّ ﴿قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ﴾ وقيل: إنّه نظر في البئر لمّا ثقل الدلو فرأى يوسف فقال: هذا غلام فأخرجوه. وقيل: إنّ ﴿بُشْرَىٰ﴾ رجل من أصحاب المدنيّ ناداه. وأخفى يوسف الّذين وجدوه من رفقائهم وكتموا أمره مخافة أن يطلبوهم الشركة فقالوا: هذا بضاعة لأهل الماء دفعوه إلينا لنبيعه عنهم، وقيل: معناه وأسرّ إخوته يكتمون أنّه أخوهم فقالوا: هو عبد أبق واختفى منّا في هذا الموضع وقالوا له: لئن قلت: أنا أخوهم فقتلناك، فتابعهم يوسف على ذلك لئلاّ يقتلوه ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي: بعمل إخوة يوسف. ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ أي: باعوه

بثمن ناقص قليل وقيل: معنى «البخس» الحرام لأنّ ثمن الحرام حرام وسمّي بخساً لأنّه لا بركة فيه وهو منقوص البركة ﴿دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ﴾ أي: قليلة وذكر العدد عبارة عن القلّة وكانت الدراهم عشرين درهماً وهو المرويّ عن عليّ بن الحسين عليه السلام قال: «**وكانوا عشرة فاقتسموها درهمين درهمين**»[1] وقيل: كانت اثنين وعشرين درهماً وقيل: أربعين درهماً.

واختلف فيمن باعه فقيل: إنّ إخوة يوسف باعوه وكان يهودا منتبذاً ينظر إلى يوسف فلمّا أخرجوه من البئر أخبر إخوته فأتوا مالكاً وباعوه منه، وقيل: باعه الواجدون في بلدة مصر. وقيل: إنّ السيّارة اشتروه من الّذين أخرجوه من البئر. ﴿وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ يعني: أنّ الّذين اشتروه كانوا من الزاهدين في شرائه لأنّهم وجدوا علامة الأحرار وأخلاق أهل البرّ فيه فلم يرغبوا فيه مخافة أن يلحقهم تبعة في استعباده. وقيل: معناه المراد أنّ الّذين باعوه من إخوته ما كان مقصودهم الرغبة في ثمنه بل كان مقصودهم استبعاده وتبعيده عن يعقوب.

قال ابن عبّاس: (إنّ إخوة يوسف لمّا طرحوا يوسف في الجبّ ورجعوا عادوا بعد ثلاثة أيّام يتعرّفون خبره فلمّا لم يروه في الجبّ ورأوا آثار السيّارة طلبوهم فلمّا رأوا يوسف قالوا: هذا عبد أبق منّا فقالت السيّارة لإخوة يوسف: بيعوه لنا فباعوه منهم). والمراد من ﴿وَشَرَوۡهُ﴾ أي: باعوه منهم لأنّ الضمير في قوله: ﴿وَشَرَوۡهُ﴾ وفي قوله: ﴿وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ عائد إلى شيء واحد، وإذا كان كذلك فمعنى «شروه» باعوه. قال محمّد بن إسحاق: ربّك أعلم أإخوته باعوه أم السيّارة والضمير في قوله: ﴿فِيهِ﴾ يحتمل أن يكون راجعاً إلى يوسف ويمكن أن يكون راجعاً إلى الثمن.

١ـ مجمع البيان، ج٥، ص٣٧٩؛ وبحار الأنوار، ج١٢، ص٢٢٣.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ (٢٢)﴾

اعلم أنّه لمّا ثبت من الأخبار أنّ الّذي اشتراه إمّا من الإخوة أو من الواردين على الماء ذهب به إلى مصر، وباعه بمصر، فاشتراه قطعير أو أطفير وهو العزيز الّذي كان يلي خزائن مصر والملك حينئذ ريّان بن الوليد رجل من العماليق وقد آمن بيوسف ومات في حياة يوسف فملك بعده قابوس بن مصعب فدعاه يوسف إلى الإسلام فأبى فلمّا اشتراه العزيز أقام في منزله ثلاث عشرة سنة، وكان بلغ عمره ثلاثين سنة واستوزره ريّان بن الوليد وآتاه الله الملك والحكمة وهو عليه السلام ابن ثلاث وثلاثين سنة وتوفّي وهو ابن مائة وعشرين سنة، وكان فرعون موسى من أولاد قابوس بن مصعب فرعون يوسف.

وبالجملة فاشتراه العزيز بعشرين ديناراً هذا على قول.

وقيل: أدخلوه السوق يعرضونه فترافعوا في ثمنه حتّى بلغ ما يساوي في الوزن من المسك والورق والحرير فاشتراه قطعير بذلك الثمن فقال: ﴿لِٱمْرَأَتِهِۦٓ﴾ وكانت المرأة اسمها زليخا ـ وقيل: راعيل ـ : ﴿أَكْرِمِي﴾ منزله ومقامه عندك وعلّل ذلك بأن قال: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ يقوم بإصلاح مهمّاتنا لأنّه كان لا يولد له ولد وكان حصورا. ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: كما أنعمنا عليه بالسلامة من الجبّ مكّنّاه بأن عطفنا عليه قلب العزيز حتّى توصّل بذلك وتمكّن من الأمر والنهي في أرض مصر ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ أي: نوفّقه لتعبير المنامات الّتي من عمدتها رؤيا الملك وصاحب السجن فأدّى ذلك التعبير إلى الرياسة العظمى، ويمكن

أن يكون المراد إرساله إلى الخلق بتبليغ الأحكام وتحقّق أمر نبوّته ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ فعّال لما يريد لا دافع عن حكمه في أرضه وسمائه يعزّ من يشاء ويذلّ من يشاء كناية عن أنّ أمر يوسف إليها ليس بسعي إخوته لأنّهم أرادوا به كلّ سوء والله أراد له الخير فكان كما أراد. ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ لمّا صبر يوسف على تلك الشدائد والمحن مكّنه الله في الأرض، ثمّ لمّا بلغ أشدّه ومنتهى شبابه وقوّته آتيناه الحكم والنبوّة والعلم والشريعة وقيل: الدعوة إلى دين الله. وقيل: أراد سبحانه الحكم على الناس والعلم بوجوه المصالح فإنّ النّاس كانوا إذا تحاكموا على العزيز أمره بأن يحكم بينهم لما رأى من عقله وإصابته في الرأي ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ما جزينا يوسف بصبره نجزي كلّ من أحسن وصبر على الشدائد.

وقال ابن عبّاس: (بلاغ الأشدّ ليوسف لمّا بلغ ثلاثا وثلاثين سنة). وهذا القول شديد الانطباق على القوانين الطبيعيّة، وذلك لأنّ الإنسان يحدث في أوّل الأمر ويتزايد كلّ يوم شيئاً فشيئاً إلى أن ينتهي لغاية الكمال، ثمّ يأخذ في التراجع والانتقاص فكانت حالته كالهلال ضعفاً، ثمّ لا يزال يزداد إلى أن يصير بدراً تامّاً ثمّ يتراجع إلى أن ينتهي إلى العدم والمحاق، فبين مدّة دور القمر ثمانية وعشرون يوماً وشيء فإذا جعلت هذه الدورة أربعة أقسام، كان كلّ قسم منها سبعة أيّام، فلا جرم رتّبوا أحوال الأبدان على الأسابيع فالإنسان إذا ولد كان ضعيف الخلقة نحيف التركيب إلى أن يتمّ له سبع سنين، ثمّ إذا دخل في السبعة الثانية حصل فيه آثار الفهم والذكاء، ولا يزال في الترقّي إلى أن يتمّ له أربع عشرة سنة، فإذا دخل في السنة الخامسة عشر دخل في الأسبوع الثالث، وهناك يكمل العقل ويبلغ إلى حدّ التكليف وتتحرّك فيه الشهوة. ثمّ

لا يزال يرتقي على هذه الحالة إلى أن يتمّ السنة الحادية والعشرين، وهناك يتمّ الأسبوع الثالث، ويدخل في السنة الثانية والعشرين وهذا الأسبوع آخر الأسابيع النشور والنماء.

فإذا تمّت الثانية والعشرون فقد تمّت مدّة النشوء والنماء، وينتقل الإنسان منه إلى زمان الوقوف وهو الزمان الّذي يبلغ فيه أشدّه، وبتمام الأسبوع الخامس يحصل للإنسان خمسة وثلاثون سنة، ثمّ إنّ هذه المراتب مختلفة في الزيادة والنقصان.

وهاهنا تحقيق وهو أنّ المراد بالحكم صيرورة النفس المطمئنة، قاهرة وحاكمة على النفس الأمّارة بالسوء، مستعلية عليها ومتى صارت القوّة الشهوانيّة مقهورة ضعيفة فاضت الأنوار القدسيّة والأضواء الإلهيّة من عالم القدس على جوهر النفس، وجوهر النفس خلقت قابلة للمعارف الكليّة والأنوار العقليّة وجواهر الأرواح البشريّة مختلفة منها زكيّة ومنها بليدة ومنها خيرة ومنها نذلة وشريفة وخسيسة، ومنها عظيمة الميل إلى عالم الروحانيّات، وعظيمة الرغبة في الجسمانيّات فهذه الأقسام كثيرة، وكلّ واحداً من هذه المقامات قابل للأشدّ والأضعف والأكمل والأنقص، فإذا اتّفق بأن كان جوهر النفس الناطقة جوهراً مشرقاً شديد الاستعداد لقبول الأضواء العقليّة، واللوائح الإلهيّة، فهذه النفس في حال الصغر لا يظهر منها هذه الأحوال لأنّ النفس الناطقة إنّما يقوى على أفعالها بواسطة استعمال الآلات الجسديّة الّتي يعبّر بالحكمة العمليّة، وهذه الآلات في حال الصغر تكون الرطوبات والموانع مستولية عليها، فإذا كبر الإنسان واستولت الحرارة الغريزة على البدن نضجت تلك الرطوبات، واعتدلت وقلّت الموانع، فصارت تلك الآلات البدنيّة صالحة لأن يستعملها النفس الناطقة فإذا كانت النفس في أصل جوهرها شريفة فعند

كمال الآلات البدنيّة تكمل معارفها وتقوى أنوارها وإلى هذا الإشارة بقوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ والمراد من العلم والحكم استكمال النفس في قوّتها العمليّة والنظريّة انتهى.

وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾

ثمّ أخبر سبحانه عن امرأة العزيز وما همّت به وطالب يوسف المرأة التي كان يوسف في بيتها عن نفسه وهي راعيل الملقّبة بزليخا أو بالعكس أي: طلبت منه أن يواقعها ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾ على نفسها باباً بعد باب، وكانت سبعة أبواب أو باب الدار وباب البيت ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ أي: هلمّ لك وأقبل وبادر. وفي كلمة هيت لغات أجودها القراءة المعروفة. قال الشاعر:

أبلـغ أمـير المـؤمنين أخـا العـراق إذا أتينـا

إن العراق وأهلـه عنـق إليـك فهيـت هيتـا[1]

أي أقبل ويقال: فعلى هذا كلمة «هيت» اسم فعل وأمّا على قراءة «هيئت لك» فهو فعل أي: تهيئت لك من هاء يهيئ «والمراودة» المطالبة بأمر بالرفق واللين ليعمل به وهي كناية عمّا تريده النساء من الرجال.

قال يوسف: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ أي: عياذاً بالله أن أجيب إلى هذا وأظهر الإباء ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ قال أكثر المفسّرين: الضمير راجع إلى زوجها أي: إنّ العزيز زوجك مالكي وأحسن تربيتي وإكرامي فلا أخونه. وإنّما سمّاه ربّا لما كان بحسب الظاهر رقّاً له، وقيل: الضمير عايد إلى الله أي: إنّ الله رفع من محلّي وأحسن مثواي وجعلني نبيّاً فلا أعصيه أبداً ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ

١ـ المجازات النبويّة، الشريف الرضي، ص٢٦؛ ومجمع البيان، ج٥، ص٣٨٢.

ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ولو فعلت لكنت ظالماً وفي هذه الآية دلالة على أنّ يوسف لم يهمّ بالفاحشة لأنّ من همّ بقبيح لا يقول مثل ذلك.

وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾

إنّ هذه الآية من المهمّات الّتي تجب الاعتناء بالبحث عنها لأنّ بعض من ادّعى العلم فسّر هذه الآية بما لا يجوز أن ينسب الأنبياء والأولياء إلى مثله.

قال المحقّقون من المفسّرين والمتكلّمين كالفخر الرازي: إنّ يوسف كان بريئاً عن العمل الباطل والهمّ الحرام، وقطع النظر عن الأدلّة الدالّة على وجوب عصمة الأنبياء الّتي قرّرناها في سورة البقرة في قصّة آدم فذكر وجوهاً.

الحجّة الأولى: أنّ الزنا والخيانة في معرض الأمانة وقصدها من منكرات الذنوب ومقابلة الإحسان العظيم بالإساءة الموجبة للفضيحة العامّة والعار، غاية في القبح خصوصاً الصبيّ إذا تربّى في حجر إنسان وهو مكفيّ المؤونة مصون العرض من أوّل صباه إلى زمان شبابه وكمال قوّته، فإقدام مثل هذا الإنسان على مثل هذا القصد السوء من أقبح أنواع الإساءة إلى ذلك المنعم، ومثل هذه المعصية لو نسبوها إلى أفسق خلق الله وأبعدهم عن كلّ خير لاستنكف منه فكيف يجوز إسنادها إلى الرسول عليه السلام المؤيّد بالمعجزات القاهرة الباهرة؟

ثمّ إنّه تعالى قال في عين هذه الواقعة: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ وذلك يدلّ على أنّ ماهيّة السوء والفحشاء مصروفة عنه ولا شكّ أنّ هذه النسبة أعظم أنواع السوء وأفحش أقسام الفحشاء فكيف يليق بربّ العالمين أن يشهد في عين هذه الواقعة بكونه بريئاً من السوء مع أنّه عليه السلام قد أتى بأعظم أنواع السوء؟ ولو فرضنا أنّ الآية لا تدلّ على نفي هذه المعصية عنه إلّا أنّه لا شكّ أنّها تفيد المدح العظيم والثناء البالغ فلا يليق بحكمة الله

أن يحكي عن إنسان مقدم على مثل هذا الفعل الشنيع، ثمّ إنّه تعالى يمدحه ويثني عليه بأعظم المدائح والأثنية عقيب أن حكى عنه ذلك القبيح، وإنّ ذلك يستنكر جداً مثل ما إذا حكى السلطان عن بعض عبيده أقبح الذنوب، ثمّ يذكره بأبلغ المدح.

على أنّ الأنبياء متى ما صدرت منهم زلّة استعظموا ذلك وأتبعوها بإظهار الندامة والتوبة، ولو كان يوسف أقدم على مثل هذا الأمر لكان من المحال أن لا يتبعها بالتوبة والاستغفار، ولو أتى بالتوبة لحكى اللّه تعالى عنه إتيانه بها كما في سائر المواضع، فحيث لم يوجد شيء من ذلك علمنا أنّه ما صدر عنه في هذه الواقعة ذنب ولا معصية.

الدليل الرابع: أنّ كلّ من كان له تعلّق بتلك الواقعة فقد شهد ببراءة يوسف من المعصية، والّذين لهم تعلّق بهذه الواقعة يوسف وتلك المرأة وزوجها والنسوة والشهود وربّ العالمين وإبليس والكلّ بيّنوا براءة يوسف، وإذا كان الأمر كذلك فكيف يبقى للمسلم توقّف في هذا الباب؟

أمّا بيان أنّ يوسف ادّعى البراءة عن الذنب فهو قوله: ﴿هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ﴾ وقوله: ﴿رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾.

وأمّا بيان أنّ المرأة اعترفت بذلك فلأنّها قالت للنسوة: ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ﴾[1] وأيضا ﴿ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[2]. وأمّا بيان أنّ زوج المرأة أقرّ بذلك فهو قوله: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ۞ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ﴾[3]. وأمّا

١ـ سورة يوسف: ٣٢.

٢ـ سورة يوسف: ٥١.

٣ـ سورة يوسف: ٢٨ـ٢٩.

الشهود، فقوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[١]. وأمّا شهادة الله بذلك فقوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[٢]. فقد شهد الله في هذه الآية على طهارته أربع مرات: أولها ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ﴾ واللام للتأكيد والمبالغة. والثاني قوله: ﴿وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ والثالث قوله: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا﴾ مع أنّه قال: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾[٣] والرابع قوله: ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ ورد باسم المفعول والفاعل وبالفاعل يدلّ على أنّه آت بالطاعات والمقرّبات بصفة الإخلاص، وبصيغة المفعول يدلّ على أنّ الله استخلصه لنفسه واصطفاه لحضرته وعلى المعنيين فإنّه من أدلّ الألفاظ على كونه منزّهاً عمّا أضافوا إليه.

وأمّا بيان إبليس فإنّه قال: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[٤] فأقرّ بأنّه لا يمكنه إغواء المخلصين، ويوسف من المخلصين بشهادة الله فكان هذا إقرارا بأنّ إبليس ما تمكّن من إغوائه.

قال الرازي: إنّ هؤلاء الجهّال الّذين نسبوا إلى يوسف هذا الأمر إن كانوا من أتباع دين الله فليقبلوا شهادة الله على طهارته، وإن كانوا من جند إبليس وأتباعه فليقبلوا شهادة إبليس على طهارته، ولقائل أن يقول: إنّهم كانوا من جند إبليس أوّل الأمر إلى أن تتحرّجنا عليه فردّنا عليه في السفاهة.[٥]

ولمّا ثبت بهذه الدلائل أنّ يوسف بريء ممّا قاله بعض الجهّال فنقوم

١ـ سورة يوسف: ٢٦.

٢ـ سورة يوسف: ٢٤.

٣ـ سورة الفرقان: ٦٣.

٤ـ سورة الحجر: ٣٩ـ٤٠، ص ٨٢ـ ٨٣.

٥ـ انظر: قصص الأنبياء، الجزائري، ص٢١٩.

بتفسير الآية: قيل: إنهعليه السلام ما همّ بها والدليل عليه أنه تعالى قال: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ و«همّ» جواب «لو لا» هاهنا مقدّم كما يقال: قد كنت من الهالكين لو لا أنّ فلانا خلّصك.

وردّ الزجّاج هذا القول وقال: تقديم جواب «لو لا» غير فصيح و«لو لا» يجاب جوابها باللام فلو كان المعنى على ما ذكرتم لقال: ولقد همّت ولهمّ بها لو لا أن رأى برهان ربّه.

وذكر غير الزجّاج بياناً آخر وهو أنّه لو لم يوجد الهمّ لما كان لقوله: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ فائدة. وكلّها مردود بقوله تعالى: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾[١] وجواب ﴿لَوْلَآ﴾ باللام جائز لا يلزم من كونه بغير اللام غير جائز، ثمّ تأخير جواب ﴿لَوْلَآ﴾ حسن جائز لا يمنع من جواز تقديم هذا الجواب.

وفي الآية بيان آخر وهو أن يقول: سلّمنا أنّ الهمّ قد حصل لكن لا يمكن حمله على ظاهره لأنّ تعليق الهمّ بذات المرأة محال لأنّ الهمّ من جنس القصد والقصد لا يتعلّق بالذوات الباقية وإنّما يتعلّق القصد بالفعل حتّى يكون ذلك الفعل متعلّق القصد، وذلك الفعل غير مذكور فهم أي: جند إبليس زعموا هو إيقاع الفاحشة ونحن نضمر شيئاً آخر يغاير ما ذكروه فوجب أن يحمل الهمّ فيهما على الهمّ الّذي يليق به فاللائق بالمرأة القصد. إلى تحصيل اللذّة والتمتّع فضلاً عن القرائن في الكلام واللائق بالرسول المبعوث إلى الخلق القصد إلى زجر العاصي عن معصيته وإلى النهي عن المنكر، فهمّعليه السلام بدفعها وضربها ومنعها.

فلو قيل: على هذه الصورة لا يبقى لقوله: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ فائدة.

١ـ سورة القصص: ١٠.

قلنا: فيه أعظم الفوائد لأنّ يوسف لو فعل ما كان همّ من ضربها أو دفعها لقتلته أو لكانت تأمر الحاضرين بقتله فأعلمه اللّه أنّ الامتناع من ضربها أولى صوناً للنفس عن الهلاك أو أنّه لو اشتغل بدفعها عن نفسه فربّما تعلّقت به فكان يتمزّق ثوبه من قدام، واللّه يعلم أنّ الشاهد يشهد بأنّ ثوبه لو تمزّق من قدام لكان يوسف يحسب هو الخائن، وكان يقتل بهذه الشهادة ولو كان ثوبه ممزّقاً من خلف لكانت المرأة هي الخائنة كما وقعت القصّة كذلك.

وفي المسألة تحقيق آخر وهو أن يفسّر «الهم» بالشهوة وهذا مستعمل في اللغة الشائعة في العرف يقول القائل فيما لا يشتهيه: «ما يهمّني هذا» وفيما يشتهيه: «هذا أهمّ الأشياء إليّ» فسمّى اللّه شهوة يوسف همّا. معنى الآية: ولقد اشتهته واشتهاها لو لا أن رأى برهان ربّه لدخل ذلك الميل إلى الوجود.

أو معنى «الهمّ» حديث النفس وذلك لأنّ المرأة الفائقة في الجمال إذا تزيّنت وتهيّأت للرجل الشابّ القويّ فلابدّ وأن يقع هناك بين شهوة الطبيعة وبين النفس والعقل مجاذبات ومنازعات تارة تقوى داعية الشهوة والطبيعة وتارة تقوى داعية العقل والحكمة، فالهمّ عبارة عن جواذب الطبيعة، ورؤية البرهان عبارة عن جواذب العبوديّة والتقوى، مثال ذلك أنّ الرجل الصالح الصائم في الصيف الصائف إذا رأى الجلّاب المبرّد بالثلج فإنّ طبيعته تحمله وتميله على شربه إلّا أنّ دينه وهداه يمنعانه منه فهذا لا يدلّ على حصول الذنب بل كلّما كانت هذه الحالة أشدّ كانت القوّة في القيام بلوازم العبوديّة أكمل.

وبالجملة فالمحقّقون المثبتون للعصمة قد فسّروا رؤية البرهان بوجوه:

الأوّل: حجّة اللّه في تحريم الزنى والعلم بما على الزاني من العقاب.

والثاني: طهر نفوس الأنبياء عن الأخلاق الذميمة فالمراد برؤية البرهان حصول تلك الأخلاق وتذكير الأحوال الرادعة لهم عن الإقدام على المنكرات.

والثالث: أنّه رأى مكتوباً في السقف ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾[1]. والرابع: أنّه النبوة المانعة من ارتكاب الفواحش لأنّ الأنبياء بعثوا لمنع الخلق عن القبائح والفضائح فلو أنّهم منعوا ثمّ أقدموا بأنفسهم على أقبح أنواعها لدخلوا تحت قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۞ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[2] وأيضا إنّ الله عيّر اليهود بقوله: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾[3] وما يكون عيبا في حقّ اليهود كيف ينسب إلى الرسول المؤيّد بالمعجزات؟ وأمّا الّذين نسبوا المعصية إلى الرسول يوسف عليه السلام ـ أجارنا الله من هذه العقيدة الفاسدة ـ فقد ذكروا في تفسير البرهان أموراً:

الأوّل: قالوا: إنّ المرأة قامت إلى صنم مكلّل بالدرّ والياقوت في زاوية البيت فسترته بثوب فقال يوسف: لمَ فعلت ذلك؟ قالت: أستحي من إلهي هذا أن يراني على معصيته. فقال يوسف: أتستحين من صنم لا يعقل ولا يسمع ولا أستحي من إلهي القائم على كلّ نفس بما كسبت؟ فو الله لا أفعل ذلك أبداً فقالوا: فهذا هو البرهان.

الثاني: نقلوا عن ابن عبّاس: أنّه تمثّل له يعقوب فرآه عاضّاً على أصابعه ويقول له: أتعمل عمل الفجّار وأنت مكتوب في زمرة الأنبياء؟ فاستحيى منه، وهو قول عكرمة ومجاهد والحسن وسعيد بن جبير وقتادة والضحّاك ومقاتل وابن سيرين قال سعيد بن جبير: تمثّل له يعقوب فضرب في صدره فخرجت شهوته من أنامله. الثالث: قالوا: إنّه سمع في الهواء قائلاً

ـــــــــــ

١ـ سورة الإسراء: ٣٢.

٢ـ سورة الصف: ٢ـ ٣.

٣ـ سورة البقرة: ٤٤.

يقول: يا ابن يعقوب لا تكن كالطير يكون له ريش فإذا زنى ذهب ريشه.

قال الرازيّ: ولمّا نقل الواحديّ في البسيط هذه البيانات تصلّف وقال: هذا الّذي ذكرناه قول أئمّة التفسير الّذين أخذوا التأويل عمّن شاهد التنزيل. فيقال له: إنّك لا تأتينا إلّا بهذه التصلّفات الّتي لا فائدة فيها فأين هذا من الحجّة والدليل؟ وأيضا فإنّ ترادف الدلائل على الشيء الواحد جائز وإنّه عليه السلام كان ممتنعاً عن الزنى بحسب الدلائل الأصليّة فلمّا انضاف إليها هذه الزواجر قوي الاحتراز عن مثل هذه الأقوال.

والعجب أنّهم نقلوا أنّ جروا[1] دخل حجرة النبيّ صلى الله عليه وآله وبقي هناك بغير علمه قالوا: فامتنع جبرئيل عليه السلام من الدخول عليه صلى الله عليه وآله أربعين يوماً، وهاهنا زعموا أنّ يوسف حال اشتغاله بالفاحشة ذهب إليه جبرئيل، فالأعجب أنّهم زعموا أنّه لم يمتنع عن ذلك العمل بسبب حضور جبرئيل مع أنّه لو كان أفسق الخلق مشتغلا بفاحشة فإذا دخل عليه رجل في زيّ الصالحين استحيا منه وفرّ وترك ذلك العمل، وهاهنا أنّه رأى يعقوب عليه السلام وعضّ على أنامله ولم يلتفت إليه ثمّ إنّ جبرئيل على جلالة قدره دخل عليه، ولم يمتنع أيضاً بسبب حضوره حتّى احتاج جبرئيل إلى أن يركله على ظهره ـ فنسأل الله أن يصوننا عن الغيّ ـ.

والفرق بين السوء والفحشاء قيل: إنّ السوء خيانة اليد والفحشاء هو الزنى أو أنّ السوء مقدّمات الفاحشة كالقبلة والنظر بالشهوة، والفحشاء هو الزنى ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾.

﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ

١ـ ولد الكلب.

رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾

المعنى: تبادرا إلى الباب وطلب كلّ واحداً منهما السبق إلى الباب أمّا يوسف فإنّه كان بقصد أن يهرب منها وأمّا هي فإنّما كانت تطلب يوسف ليقضي حاجتها وتمنع يوسف من الخروج، وتراوده ثانياً عن نفسه ولحقت يوسف فجذبت قميصه فهرب يوسف وشقّته طولاً من خلفه وهي تعدو من خلفه. قيل: إنّ يوسف رأى الأبواب قد انفتحت فعلم أنّ الصواب الخروج فلمّا خرجا وجدا زوجها عند الباب، وسمّاه سيّدها لأنه مالك أمرها.

﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ يعني: أنّ المرأة سبقت بالكلام لتورك الذنب على يوسف فقالت: ليس جزاء من أراد بأهلك خيانة إلّا السجن أو الضرب بالسياط ضرباً وجيعاً.

قال المحقّقون: ولو صدق حبّها لم تقل ذلك ولآثرته على نفسها ولكن كان حبّها له شهوة. فقال يوسف: هي الّتي طالبتني بالسوء لأنه عليه السلام لم يجد بدّاً من تنزيه نفسه بالصدق ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ وكان صبيّ في المهد ابن أخت زليخا وهو ابن ثلاثة أشهر، وقيل: إنّه شهد شاهد أي: كان هناك رجل حكيم من أهلها بتبرئة يوسف قالوا: ولو كان طفلاً لكان قوله معجزاً لا يحتاج معه إلى البيان. وقيل: إنّ ذلك الرجل الحكيم ابن عمّ زليخا وكان جالساً مع زوجها عند الباب.

ثمّ في هذا الأمر شواهد على براءة ساحة يوسف عن السوء غير

الشواهد المذكورة: منها أنّ يوسفعليه السلام في ظاهر الأمر كان عبداً لهم والعبد لا يمكنه أن يتسلّط على مولاه إلى هذا الحدّ.

ومنها أنّهم شاهدوا أنّ يوسفعليه السلام كان يعدو عدوا شديداً ليخرج إلى الباب والرجل الطالب للمرأة لا يخرج من البيت على هذا الوجه بل يمنع طرفه عن الخروج.

ومنها أنّهم رأوا أنّ المرأة تزيّنت نفسها على أكمل الوجوه وأمّا يوسف فما كان عليه أثر من آثار تزيين النفس فإلحاق هذا الأمر ونسبته إلى المرأة أولى.

ومنها أنّ المرأة ما نسبه إلى الفاحشة على سبيل التصريح بل ذكرت كلاماً مجملا مبهماً، وأمّا يوسفعليه السلام فإنّه صرّح بالأمر ولو كان متّهما لما قدر على التصريح باللفظ الصريح فإنّ الخائن خائف.

ومنها أنّ زوج المرأة كان عاجزاً وآثار طلب الشهوة في حقّ المرأة كانت متكاملة، فإلحاق هذا الأمر بها أولى وهذه كلّها أمارات دالّة على صدق يوسف.

وبالجملة فعلى قول أنّ الشاهد كان لها ابن عمّ لها اتّفق في ذلك الوقت أنّه كان مع الملك يريد أن يدخل عليها فقال: قد سمعنا الجلبة من وراء الباب وشقّ القميص إلّا أنّا لا ندري أيّكما قدّام صاحبه، فإن كان شقّ القميص من قدّامه فأنت صادقة ويوسف كاذب وإن كان من خلفه فيوسف صادق وأنت كاذبة، وقد أفتى بحكمته وعقله، ونعم ما أفتى! فلمّا نظروا إلى القميص ورأوا الشقّ من خلفه، قال ابن عمّها ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّ﴾ أي: من عملكنّ ثمّ قال ليوسف: أعرض عن هذا الأمر واكتمه، وقال لها: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِ﴾. وهذا قول طائفة عظيمة من المفسّرين. وقيل: إنّ الشاهد كان صبيّاً كما ذكرناه أنطقه اللّه كما أنطق عيسى في المهد.

وهاهنا قول ثالث بأنّ الشاهد من أهلها المراد شهادة القميص كونه

مشقوقاً من دبره، وهذا القول لا يخلو من الضعف لأنّ إطلاق الشاهد على القميص تعسّف ولا ينسب إلى الأهل. وقوله: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ﴾ قيل: إنّه قال العزيز وقيل: قال الشاهد وأمر يوسف بكتمان هذا الأمر للعار الشديد وأمر الزوجة بطلب العفو والصفح عن العزيز. وقيل: من الله لأنّهم وإن كانوا عابدي أصنام ولكنّهم يثبتون الصانع بدليل أنّ يوسف قال: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾[1] ويمكن على هذا أن القائل الزوج.

﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ وهذا دليل على أنّ الزوج عرف أنّ الذنب للمرأة وأتى بلفظ التذكير تغليباً للذكور على الإناث، ويحتمل أن يكون مراده أنّك من نسل الخاطئين فمن ذلك النسل يرى هذا العرق الخبيث فيك.

وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾

«النسوة» اسم مفرد لجمع المرأة وتأنيثه غير حقيقيّ فلذلك لم يلحق فعله تاء التأنيث كما أنّ «الثبة» اسم لجماعة من الرجال.

المعنى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ﴾ جماعة من النساء أشعن ﴿فِي الْمَدِينَةِ﴾ أي: مدينة مصر هذا الخبر أو المعنى أنّ نسوة من أهل المدينة هكذا قالت ـ وكنّ خمساً: امرأة الساقي وامرأة الخبّاز وامرأة صاحب الدوابّ وامرأة صاحب السجن وامرأة الحاجب ـ: إنّ ﴿امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أي: دخل حبّ الفتى الجلد المحيط بالقلب وتجاوز من الجلد ونفذ

١ـ سورة يوسف: ٣٩.

في القلب بل في حبّة سويداء قلبها، وهو كناية عن الحبّ الشديد والعشق العظيم، وقرئ بالعين المهملة أي: بلغ إلى حدّ الاحتراق قال ابن الأنباريّ: الشعف رؤوس الجبال أي: ارتفعه حبّه إلى أعلى المواضع من قلبه. و«حبّاً» مصدر على التمييز.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ﴾ زليخا ﴿بِمَكْرِهِنَّ﴾ أي: بمقالتهنّ هذه وإنّما سمّيت المقالة بالمكر لأنّ قصدهنّ من هذه المقالة الخدعة مستدعيات لرؤية يوسف والنظر إلى وجهه لأنّهنّ علمن أنّهنّ إذا قلن هذا الكلام، وسمعت زليخا تعرّض يوسف عليهنّ ليتمهّد عذرها في حبّه عندهنّ، أو أنّ زليخا أسرّهن بحبّ يوسف وطلبت منهنّ كتمان هذا السرّ، فلمّا أظهرن كان ذلك مكراً وغدرا منهنّ، ولمّا سمعت أنّهنّ يلمنها على تلك المحبّة المفرطة أرادت إبداء عذرها فاتّخذت مائدة ودعت جماعة من أكابرهنّ.

﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾ قيل: المتّكأ النمرق الّذي يتّكأ عليه. وقيل: المراد من المتّكأ الطعام والأصل فيه أنّ من دعوته ليطعم عندك فقد أعددت له وسادة فسمّي الطعام متّكأ على الاستعارة. وقيل: متّكأ طعاماً يحتاج إلى القطع بالسكّين لأنّ الطعام متى كان كذلك احتاج الإنسان إلى أن يتّكئ عليه عند القطع. وقيل: متّكا بغير الهمزة مشدّدة التاء أي: أنواع الفواكه المحتاجة إلى القطع والاترجّ. وقرء «متكا» خفيفة ساكنة التاء وحاصل ذلك أنّها دعت أولئك النسوة الخمسة مع نساء أخر يبلغ عددهنّ إلى الأربعين وهيّأت لكلّ واحدة منهنّ مجلسا معيناً ومائدة معيّنة.

﴿وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ لأجل أكل الفاكهة أو قطع اللحم، فأمرت يوسف بأن يخرج إليهنّ وأنّه عليه السلام لا يقدر أن يخالفها لأنّها سيّدتها.

﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ وفي ﴿أَكْبَرْنَهُۥ﴾ قيل: أي: أعظمنه.

وقيل: أي: حضن قال الأزهريّ: الهاء للسكت وأكبرت المرأة إذا حاضت وحقيقة: دخلت في الكبر لأنّها بالحيض تخرج عن حدّ الصغر إلى حدّ الكبر، والسبب فيه أنّ المرأة إذا خافت وفزعت أو وقع عليها أمر شديد، ربّما أسقطت ولدها إن كانت حبلى أو تحيض.

﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ من دهشتهنّ فكانت تظنّ أنها تقطع الفاكهة وكانت تقطع يدها ولا تحسّ، وإنّما أكبرنه للجمال الفائق، والحسن الكامل، وكان فضل يوسف على الناس كفضل البدر على الكواكب. وعن النبيّ ﷺ قال: **«مررت بيوسف ليلة عرج بي إلى السماء فقلت لجبرئيل: من هذا؟ فقال: هذا يوسف»**. فسئل عنه ﷺ كيف رأيته؟ قال: «**كالقمر ليلة البدر. وقيل: كان يوسف إذا سار في أزقّة مصر يرى تلألؤ وجهه على الجدران كما يرى نور الشمس من السماء عليها، وكان يشبه آدم يوم خلقه ربّه**»[1].

﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾ بإثبات الألف بعد الشين وهي الأصل لأنّ المادّة من المحاشاة وهي التنحية والتبعيد، والأكثر قرءوا بحذف الألف للتخفيف وهي كلمة تفيد التنزيه والمعنى هاهنا تنزيه اللّه من العجز حيث قدر على خلق جميل مثله.

﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ لأنّه ركز في الطباع أن لا حيّ أحسن من الملك كما أنّه ركز فيها أن لا حيّ أقبح من الشيطان فلمّا أرادت النسوة المبالغة في وصف يوسف بالحسن لا جرم شبّهنه بالملك، ويمكن أنّه لمّا نظرن إلى يوسف وسيماه وأنّه لم يلتفت إليهنّ عرفن أنه بريء من القبائح والشهوة فنزّهنه عن لوث البشريّة وصفة الإنسانيّة ونسبنه إلى الملكيّة صوناً له عن الخطاء.

وبالجملة فقال بعض المفسّرين: إنّهنّ قلن: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾ أي: صار يوسف في حشى وناحية ممّا قذفوه بهذه النسبة فحينئذ نزّهنه عن صفة البشريّة

١ـ انظر: كنز العمّال، ج ١١، ص ٣٩١؛ وحلية الأبرار، ج ١، ص ٤٢٨.

خلقاً أي: نعوذ بالله أن نقول: هذا بشر، بل إنّما هو ملك. وقال آخرون: هذا تنزيه له من شبه البشر لفرط جماله، ويدلّ على هذا المعنى سياق الآية ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ أي: ليس هذه الصورة صورة البشر ولا خلقته، ولكن ملك كريم لحسنه ولطافته.

﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾

المعنى: ﴿قَالَتْ﴾ امرأة العزيز للنسوة اللاتي عذلنها على محبّتها ليوسف: هذا هو ذلك ﴿ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ فأصابكنّ في رؤيته مرّة واحدة ما أصابكنّ من ذهاب العقل وقطع الأيدي، أي: جرح كثير في أيديكنّ، فكيف عذلتنّني في حبّي إيّاه؟ وأنا أنظر إليه آناء ليلي ونهاري. والفاء في قوله: ﴿فَذَٰلِكُنَّ﴾ فاء فصيحة والإشارة إلى يوسف والخطاب للنسوة، واسم الإشارة مبتدأ والموصول خبر أو اسم الإشارة خبر لمبتدء محذوف أي: هو العبد الكنعانيّ الّذي سبق القول منكنّ أنّ امرأة العزيز عشقت عبدها الكنعانيّ وقلتنّ فيه وفيّ ما قلتنّ فالآن علمتنّ من هو؟ وما قلتنّ؟ والمراد تبكيتهنّ من هذه الدعوة من اللوم على ما صدر منهنّ، والحقّ أنّها فعلت من التبكيت بما لا مزيد عليه.

قال ابن الأنباريّ: أشارت بصيغة ذلك إلى يوسف بعد انصرافه من المجلس. ثمّ إنّها بعد هذه المقولات والإشفاقات باحت لهنّ ببقيّة سرّها فأقرّت وقالت: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ حسبما سمعتنّ وقلتنّ ﴿فَٱسْتَعْصَمَ﴾ أي: امتنع طالباً للعصمة. وفي هذا الكلام دلالة على عصمة يوسف وأنّه عليه السلام بريء من هذه التهمة ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ﴾ فهدّدته بقولها: ولو لم يفعل ﴿مَآ ءَامُرُهُۥ﴾ ويوافقني مرادي ﴿لَيُسْجَنَنَّ﴾ ويقع في السجن ﴿وَلَيَكُونًا﴾ من المستصغرين بالإهانة ومن الأذلّاء. والألف في ﴿وَلَيَكُونًا﴾ ألف الوقف بدل

من نون الخفيفة كقوله: «لا تَعْبُدِ الشَّيْطانَ واللَّهَ فَاعْبُدْ» أي: فاعبدن فابدل في الوقف النون ألفاً.

﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾

المعنى: لمّا هدّدته امرأة العزيز بقولها المذكور وسمعت النسوة اجتمعن على يوسف وقلن: لا مصلحة لك في مخالفة أمرها وإلّا وقعت في السجن وفي الهوان. فخاف يوسف على نفسه من هذه الأسباب القويّة من مكر النساء والطاقة البشريّة أن لا تفي قوّة العصمة التجأ إلى اللّه وقال: يا ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ﴾ وتبيّن من هذا الكلام أنّ النسوة كنّ يدعون يوسف لأنفسهنّ كما تدعو زليخا فحينئذ قال: إلهي إن لم توفّقني لحفظ نفسي عن هذه المعصية أخاف من هذه الأسباب القويّة أن أميل إلى هذا الأمر وأنقلب من الجاهلين العاصين. لأنّه اجتمع له جميع أسباب المعصية والمقتضيات لهذا العمل من الخوف على نفسه والطمع من المال ما لا يحصى والجاه والتمتّع بالمنكوح والمأكول واللذائذ بأجمعها وذلك كلّه موجبات وقوع الفعل. والصبوة لطاقة الهوى والميل، فأجاب له ربّه فيما دعا فعصمه من مكرهنّ.

فإن قيل: ما معنى سؤال يوسف اللطف من اللّه وهو عالم بأنّ اللّه يفعله لا محالة؟ فالجواب أنّه يجوز أن يتعلّق المصلحة بالإلطاف عند الدعاء[1] المجدّد ويستحبّ أن يسأل العبد من ربّه لطفاً والعبد ولو علم أنّ في سؤاله

١ـ كذا في الأصل.

لطف عند الدعاء. إنّه سميع الدعاء، العليم بإخلاص العبد عند الدعاء.

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ٣٥﴾

ثمّ بعد هذه الوقائع ظهر لهم وبنوا، وإنّما لم يقل: لهنّ، مع تقدّم ذكر النسوة لأنّه أراد به الملك وزليخا وأعوانها فغلّب المذكّر، والمراد بالآيات العلامات الدالّة على براءة يوسف من قدّ القميص وجزّ الأيدي وإقرار زليخا عند النسوة وأمثالها. فبدالهم أن يسجنوه، وذلك أنّ المرأة قالت لزوجها: إن هذا العبد قد فضحني في الناس من حيث أنّه يخبرهم أنّي راودته عن نفسه ولست أطيق أن اعتذر بعذري فإمّا أن تأذن لي فأخرج وأعتذر وإمّا أن تحبسه كما حبستني، فحبسه بعد علمه ببراءته وكان الغرض من حبسه أن يعلم للناس أنّ الذنب كان له لأنّه إنّما يحبس المجرم وإنّما اقترحت زليخا منه الحبس لأنّ المحبس كان قريباً منها فأرادت أن يكون بقربها حتّى تراه.

و﴿حَتَّىٰ حِينٖ﴾ أي: إلى سبع سنين أو خمس حتّى ينسى حديث الواقعة وتنقطع الخبر بالاندراس. وهذه حيلة من العزيز للإقطاع والانقراض بهذا الحديث وحيلة من زليخا لسبيل الوصول إلى يوسف. وقوله: ﴿لَيَسۡجُنُنَّهُۥ﴾ أقيم الفعل مقام الاسم أي: بدا لهم السجن، وإلّا جعل الفعل مخبرا عنه لا يجوز وهذا مبحث عميق ليس هنا موضع ذكره. والحين اسم لوقت من الزمان غير محدود يقع على القصير منه والطويل. وحبسوه وحذف ذلك. لدلالة قوله: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ﴾.

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٦ قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا

بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٖ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْأٓخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾

المعنى: في الحديث: «**لا يقولنّ أحدكم: عبدي وأمتي، ولكن: فتاي وفتاتي والمملوك يسمّونه فتى**»[١]. وسجن يوسف وسجن معه شابّان حدثان، وقيل: مملو كان لملك مصر الأكبر واسم الملك وليد بن ريّان وكان أحدهما صاحب شرابه والآخر طعامه فنمي إلى الملك أنّ صاحب طعامه يريد أن يسمّه وظنّ أنّ الآخر ساعده على ذلك قال أحدهما ليوسف: إنّي رأيت في النوم ـ وهو الساقي ـ رأيت أصل حملة عليها ثلاثة عناقيد من عنب فجنيتها وعصرتها في كأس الملك وسقيته إيّاها وتقديره: أعصر عنب خمر أي: العنب الّذي يكون عصيره خمراً، تسمية الشيء باسم ما يؤول إليه إذا وضح المعنى، ولم يلتبس يقولون: فلان يطبخ الآجرّ ويطبخ الدبس، وإنّما يطبخ اللبن والعصير. حكى الأصمعيّ أنّه لقي أعرابيًا معه عنب فقال له: ما معك؟ قال: خمر. فيكون معناه: أعصر عنبا. وقال صاحب الطعام: إنّي رأيت كان فوق رأسي ثلاث سلال فيها الخبز وألوان الأطعمة وسباع الطير تنتهش منه.

﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ﴾ وأخبرنا بتعبيره، والتأويل ما يؤول ويرجع إليه المعنى والأمر، والتعليم تفهيم الدلالة المؤدّية إلى العلم ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وتؤثر الأفعال الجميلة. وهو كانعليه السلام في الحبس جميل الأخلاق لأنّه إذا ضاق على رجل مكانه وسّع عليه وإذا احتاج جمع له وإن مرض قام عليه، ويعين المظلوم وينصر الضعيف، وقيل: من المحسنين أي: ممّن يحسن

١ـ انظر: مجمع البحرين، للطريحي، ج٣، ص٣٦٣؛ وخلاصة عبقات الأنوار، ج٩، ص١٠١.

تأويل الرؤيا وإنّه لمّا دخل السجن أخبر بأنّي عالم في تأويل الرؤيا.

فائدة: لو قيل: ما حقيقة علم التعبير؟ الجواب: القرآن والبرهان يدلّان على صحّته أمّا القرآن فهو هذه الآية وأمّا البرهان فهو أنّه قد ثبت أنّ جوهر النفس الناطقة خلقه سبحانه بحيث يمكنها الصعود إلى عالم الأفلاك ومطالعة اللوح المحفوظ والمانع لها من ذلك اشتغالها بتدبير البدن، وفي وقت النوم يقلّ هذا التشاغل فيقوى على هذه المطالعة والقوّة فإذا وقعت الروح على حالة من الأحوال تركت آثار مخصوصة مناسبة لذلك الإدراك الروحانيّ إلى عالم الخيال، فالمعبّر يستدلّ بتلك الآثار الخياليّة على تلك الإدراكات العقليّة.

﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ﴾ اعلم أنّ هذا البيان الّذي أجاب يوسف عليه السلام ليس بجواب لما سألا عنه فلمّا كان هنا مطلب أهمّ من تعبير الرؤيا أعرض عن التعبير وبيّن ذلك المطلب ثمّ عبّر رؤياهم وذلك الأهمّ هو أنّه لمّا علم بعلم النبوّة أنّ أحدهما يصلب وهو على الكفر ادّعى الحقّيّة والنبوّة والإرشاد في الدين لعلّهم يؤمنون بالله فلا جرم اجتهد في أن يدخله في الإسلام حتّى لا يموت على الكفر وليهلك من هلك عن بيّنة ويحيى من حيّ عن بيّنة، فقال عليه السلام: لا يأتيكما طعام ترزقانه إلّا أخبرتكما أي: طعام وأيّ لون هو؟ وكم هو وكيف هو يكون عاقبته؟ وقيل: كان الملك إذا أراد أن يقتل إنساناً صنع له طعاماً مسموماً فأرسله إليه فقال يوسف: لا يأتيكما طعام إلّا أخبرتكما، وادّعى عليه السلام علماً غير عاديّ من قبيل المعجزة والغيب وهو يجري مجرى قول عيسى عليه السلام حيث قال: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾[1] وليس ذلك هذا العلم من قبيل الكهانة والنجامة، وإنّما أخبرتكما بوحي وعلم حصل بتعليم الله.

١ـ سورة آل عمران: ٤٩.

ثمّ قال: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ فأظهر عليه السلام أنّه ليس على دينهم ولعلّه إلى ذلك الوقت ما كان يظهر نبوّته أو إيمانه خوفاً منهم على سبيل التقيّة لأنّه كان مملوكاً لهم، وتقديم لفظ «هم» للاختصاص لهم بالكفر، والتكرار للتأكيد والجهة غير التأكيد لأنّه لمّا دخل بينهما. ﴿بِالْآخِرَةِ﴾ صارت الأولى كالملغاة وصار الاعتماد على الثانية كما قال سبحانه: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾[1].

وبالجملة من تأمّل في القرآن المجيد وتفكّر في كيفيّة دعوة الأنبياء علم من إرسال الرسل وإنزال صرف الخلق إلى الإقرار بالتوحيد والمبدء والمعاد وأنّ ما وراء ذلك عبث. ثمّ قال: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ فبيّن عليه السلام أنّه من أهل بيت النبوة وجدّه وآباؤه كانوا أنبياء الله ورسله لأنّهم متى ما عرفوه عظّموه ووقّروا كلامه ويكون أقرب للقبول ﴿مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ لأنّهم كانوا مختلفون في الشرك: فمنهم من يعبد الأوثان، ومنهم من يعبد النار، ومنهم من يعبد الكواكب، ومنهم من يعبد العقل والنفس والطبيعة فردّ عليه السلام على كلّ هؤلاء الفرق.

و﴿ذَٰلِكَ﴾ التوحيد والتوفيق لنا معاشر الأنبياء والمؤمنين ﴿مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ الله هذه النعمة.

يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾

١ـ سورة المؤمنون: ٣٥.

يريد يا صاحبيَ في السجن، وهذا نداء يوسف للمستفتيين له عن تأويل رؤياهما يا ملازمي السجن ﴿ءَأَرْبَابٌ﴾ وأملاك متباينون من حجر وخشب وحيوان لا تضرّ ولا تنفع ﴿خَيْرٌ﴾ لمن عبدها ﴿أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ الضارّ النافع؟ لأنهعليه السلام لمّا ادّعى النبوّة في الآية السابقة وكان إثبات النبوّة مبنيّاً على إثبات الإلهيّات فحينئذ شرع في تقرير الإلهيّات.

ولمّا كان أكثر الخلق مقرّين بوجود الإله العالم القادر، وإنّما الشكّ في جعل الشريك في العبادة وكانوا يتّخذون أصناماً على صورة الأرواح الفلكيّة ويعبدونها ويتوقّعون حصول النفع والضرّ منها ولذا كان أكثر الأنبياء سعيهم في المنع عن عبادة الأوثان، فاحتجّعليه السلام بالحجج فذكر:

الأولى: قوله: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ﴾ وقد سبق بيانه.

الحجّة الثانية: أنّ هذه الأصنام معمولة ولا عامله ومقهورة ولا قاهرة ولا تأثير لها إذا كانت معمولة ولا عاملة فعبادتها غلط وفاسد وقوله: ﴿مُّتَفَرِّقُونَ﴾ أي: الناحت والصانع صنعه صغيراً وكبيرا وكلّا بشكل مخصوص.

الحجّة الثالثة: أنّ كونه واحداً يوجب عبادته لأنّه لو كان له ثان لم نعلم من الّذي خلقنا ورزقنا ودفع المكروه عنّا فيقع الشكّ في أنّا نعبد هذا أم ذاك؟ وفيه إشارة إلى فساد عبادة الأصنام وذلك لأنّ بتقدير أن يحصل المساعدة منها على كونها نافعة ضارّة إلّا أنّها كثيرة فحينئذ لا نعلم أنّ نفعنا ودفع الضرر عنّا حصل من هذا الصنم أو من ذلك الصنم أو بالمشاركة؟ فحينئذ يقع الشكّ في أنّ المستحقّ للعبادة هو ذاك أم هذا؟ فهذا وجه لطيف مستنبط في قوله: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾.

الحجّة الرابعة: أنّ بتقدير أن يساعد هذه الأصنام في النفع والضرّ على ما يقوله أصحاب الطلسمات إلّا أنه لا نزاع في أنّها تنفع في أوقات مخصوصة

وبحسب آثار معيّنة والإله قادر على جميع المقدورات على الإطلاق لا على التقييد، فالاشتغال بعبادته أولى.

الحجّة الخامسة بكونه قهاراً والقهّار هو أن لا يكون يقهره أحد ويقهر غيره وما سواه. وهذا الوصف يقتضي أن يكون واجب الوجود لذاته إذ لو كان ممكن الوجود لكان مقهوراً لا قاهراً، وأيضا يجب أن يكون واحداً إذ لو كان في الوجود واجبان لما كان قاهراً لكلّ ما سواه. والإله القهّار لا يكون إذا كان واجباً لذاته وواحدا بذاته، فحينئذ يلزم أن يكون الإله غير الفلك وغير الكواكب وغير النور وغير الظلمة وغير العقل والنفس، وكلّما تراه وتتعقّله لأنّ كلّما تراه تراه مقهوراً ومتغيّرا بنوع خاصّ والقاهر غيره وهو الله. فأرباب متفرّقون كلّها حادثة متغيّرة مقهورة ولا تصلح للإلهيّة، وإنّما سمّاهم يوسف أرباباً بزعمهم وبلسانهم على سبيل الفرض.

ثمّ قال: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ أي: هذه الذوات المسمّية بالآلهة غير موصوفة بصفات الإلهيّة فحينئذ أسماء صرفة من غير المسمّيات، فاسم محض والاسم لا يفيد شيئاً، ويمكن نظر يوسف بهذا البيان أنّ عبدة الأوثان مشبّهة فإنّهم تصوّروا أنّ الإله هو النور الأعظم وأنّ الملائكة أنوار صغيرة فوضعوا على صورة تلك الأنوار هذه الأوثان وجعلوا معبودهم هو تلك الأنوار السماويّة، فصار هذا المتخيّل المعبود من الصنم والوثن حينئذ غير موجود فصحّ أنّهم لا يعبدون إلّا مجرّد الأسماء وكان غرض يوسف عليه السلام هذا البيان.

﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ وما جعل الله لهذه الأسماء المنتزعة عن المعاني من حجّة وسلطة وليس الحكم إلّا لله وقد أمر سبحانه أن لا يكون المعبود إلّا ذاته ذلك الّذي بيّنت لكم من توحيده وترك عبادة غيره الدين

المستقيم الّذي لا عوج فيه ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ما تهيّأ للمطيعين من الثواب وللمتمرّدين من العقاب لعدولهم عن النظر والاستدلال.

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْـَٔاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾

المعنى: لمّا أقام عليه السلام الحجّة عليهم في التوحيد شرع في تعبير رؤياهما فقال: أمّا العناقيد الثلاثة فإنّها ثلاثة أيّام تبقى في السجن ثمّ يخرجك الملك اليوم الرابع وتعود إلى ما كنت عليه. وأجرى على مالكه صفة الربّ فأضافه إليه كما يقال: ربّ الدار وربّ الضيعة.

﴿وَأَمَّا ٱلْـَٔاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ﴾ يريد بالآخر صاحب الطعام، فقال عليه السلام له: أما السلال الثلاث فإنّها ثلاثة أيّام تبقى في السجن، ثمّ يخرجك الملك فيصلبك فتأكل الطير من رأسك. فقال صاحب الطعام: ما رأيت شيئاً، ومازحت وكنت ألعب.

قيل: إنّهما ما رأياً في النوم بل لمّا رأوا أنّ يوسف في السجن أظهر لهم علم الرؤيا أرادوا أن يمتحنوه فاخترعوا هذه الرؤيا امتحاناً فعلى هذا تعبير يوسف لهما على جهة الوحي لا على جهة التعبير.

وبالجملة لمّا عبّر لهم يوسف وقالوا: كنّا نلعب ونمازح. قال لهما يوسف: ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ﴾ تطلبان الفتوى وهو كما قلت لكم وإنّه نازل بكم البتّة وكائن لا محالة ﴿وَقَالَ﴾ يوسف: ﴿لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ﴾ ناج، يمكن أن يفسّر الظنّ هاهنا بمعنى الظنّ ويمكن أن يكون بمعنى اليقين، فإذا حملنا بمعنى الظنّ فالمدار من علم التعبير، وإذا كان بمعنى اليقين فالمدار من

الوحي، والظنّ بمعنى اليقين استعمل كثيراً في القرآن وغيره كقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾[1] وقال: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾[2].

وقال للّذي ظنّ أنّه ناج: اذكرني عند سيّدك بأنّي محبوس ظلماً ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ واختلف في عود الضمير في قوله: ﴿فَأَنسَىٰهُ﴾ قالوا: يرجع إلى يوسف يعني: أنسى الشيطان يوسف ذكر الله في تلك الحال حتّى استغاث بمخلوق فالتمس من الساقي هذا الأمر أن يذكره عند سيّده، وكان من حقّه أن يتوكّل على الله في ذلك فلبث لهذه الجهة بضع سنين أي: سبع سنين، روي ذلك عن عليّ بن الحسين وأبي عبد الله عليه السلام[3].

وقيل: معناه فأنسى الشيطان الساقي ذكر يوسف عند الملك ولم يذكره حتّى لبث في السجن سبع سنين، وهذا القول عن جماعة كأبي مسلم والجبّائيّ وغيره روي عنه عليه السلام: «**لو لا كلمته ما لبث في السجن سبع سنين، يعني: ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾**».

وروي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**جاء جبرئيل فقال: يا يوسف من جعلك أحسن الناس؟ قال: ربّي، قال: فمن حبّبك إلى أبيك؟ قال: ربّي، قال: فمن ساق إليك السيّارة؟ قال: ربّي، قال: فمن صرف عنك الحجارة؟ قال: ربّي، قال: فمن أنقذك من الجبّ؟ قال: ربّي، قال: فمن صرف عنك كيد النسوة؟ قال: ربّي، قال: فإنّ ربّك يقول: ما دعاك إلى أن تنزل حاجتك بمخلوق دوني؟ البث في السجن بما قلت بضع سنين**»[4].

وفي رواية أخرى قال: «**فبكى يوسف عند ذلك بكاء بكى ببكائه أهل السجن**

١ـ سورة البقرة: ٤٦.

٢ـ سورة الحاقة: ٢٠.

٣ـ مجمع البيان، ج٥، ص٤٠٤؛ وانظر: التبيان، ج٦، ص١٤٥.

٤ـ مجمع البيان، ج٥، ص ٤٠٤؛ وبحار الأنوار، ج١٢، ص٢٤٦.

فصالحهم على أن يبكى يوماً ويسكت يوماً فكان في اليوم الّذي يسكت أسوء حالاً»[١].

قال الطبرسيّ: فلو صحّت هذه الرواية عوتب يوسف في ترك عادته الجميلة من الصبر والتوكّل على الله[٢].

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**علّم جبرئيل يوسف في حبسه فقال: قل في عقب كلّ صلاة فريضة: اللهمّ اجعل لي فرجاً ومخرجا وارزقني من حيث أحتسب ومن حيث لا أحتسب**»[٣].

وروى شعيب العقرقوفيّ عنه عليه السلام قال: «**ولمّا انقضت المدّة واذن له بالدعاء للفرج وضع خدّه على الأرض**»، ثمّ قال: «**اللّهم إن كانت ذنوبي قد أخلقت وجهي عندك فإنّي أتوجّه إليك بوجوه آبائي الصالحين إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب**»، ففرّج الله عنه. قال: فقلت له: جعلت فداك أندعو نحن بهذا الدعاء؟ فقال: «**ادعوا بمثله: اللهمّ إن كانت ذنوبي قد أخلقت عندك وجهي فإنّي أتوجّه إليك بوجه نبيّك نبيّ الرحمة محمّد وعليّ وفاطمة والحسن والحسين والأئمّة عليهم السلام**»[٤].

واعلم أنّ الاستعانة بالناس في دفع الظلم جائزة في الشريعة سبباً لا أصالة، بشرط أن لا يغفلوا عن مسبّب الأسباب بالكلّيّة، وأمّا في حقّ يوسف من باب حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين، والأولى للصدّيقين يقين أن يقطعوا نظرهم عن الأسباب، ولا شكّ أنّ الاستعانة بالناس في دفع الظلم جائز في الشريعة لا إنكار عليه إلّا أنّه لمّا كان مستدركاً عن المحقّقين المتوغّلين في بحار العبوديّة لا جرم صار يوسف مؤاخذاً به.

فعند هذا نقول في جواب الّذين نسبوا بعض المزخرفات إلى يوسف:

١ـ المصدر السابق، ص٤٠٥.

٢ـ المصدر السابق نفسه.

٣ـ المصدر السابق نفسه.

٤ـ مجمع البيان، ج٥، ص ٤٠٥؛ وبحار الأنوار، ج١٢، ص ٢٣١.

لمّا صار مؤاخذاً بسبب هذه الكلمة للساقي كيف ما صار مؤاخذاً بتلك الأمور العظيمة؟ فلمّا رأينا اللّه تعالى أخذه بهذا القدر ولم يؤاخذه في تلك القضيّة وما عابه بل ذكره بأعظم وجوه المدح والثناء علمنا أنّه كان مبرءًا ممّا نسبه الحشويّة والجهّال إليه. وروي عن النبيﷺ قال: «**رحم الله يوسف لولا الكلمة التي قالها لما لبث في السجن هذه المدّة الطويلة**». قال الحسن ـ وبكى وقال ـ: «**نحن إذا نزل بنا أمر تضرّعنا إلى الناس**».[1]

وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾

ولمّا دنى فرج يوسف رأى ملك مصر وهو ريّان في النوم سبع بقرات ثمان خرجن من قهر يابس وسبع بقرات عجاف أي: مهازيل فابتلعت العجاف السمان، ورأى سبع سنبلات خضر قد انعقد حبّها وسبعا أخر يابسات فالتوت اليابسات على الخضر حتّى غلبن عليها، فجمع الكهنة وذكرها لهم، وهو المراد بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ﴾ فقال القوم: هذه الرؤيا مختلطة وهو المراد بقوله: ﴿أَضْغَٰثُ﴾ جمع الضغث وهو الحزمة من النبت والحشيش بشرط أن يكون ممّا قام على ساق واستطال فشبّهوا هذه الرؤيا لاختلاطها من أشياء غير متناسبة بنظرهم بالضغث أي: هذه أباطيل ﴿أَحْلَٰمٍ﴾ وتخاليط ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ﴾ هذه ﴿ٱلْأَحْلَٰمِ﴾ الفاسدة ﴿بِعَٰلِمِينَ﴾.

وحكى الأزهريّ أنّ «التعبير» مأخوذ من العبر وهو جانب النهر يقال: عبرت النهر أي: قطعته إلى الجانب الآخر فقيل لعابر الرؤيا: عابر لأنّه يتأمّل

١ـ جامع البيان، ج١٢، ص٢٩١، الدرّ المنثور، ج٤، ص٢٠؛ وفتح الباري، ج٦، ص٢٩٢.

جانبي الرؤيا فيتفكّر في أطرافها وينتقل من أحد الطرفين إلى الآخر وبالجملة لمّا قالت الكهنة: إنّ هذه الرؤيا أضغاث أحلام تذكّر الشرابيّ واقعة الحبس فإنّه كان يعتقد فيه كونه متبحّرا لأنه جرّبه.

وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٤٦﴾

قال الشرابيّ: إنّ في الحبس رجلاً فاضلاً صالحاً كثير الطاعة قصصت أنا والخبّاز عليه منامين فذكر تأويلهما فصدق في الكلّ ولم يخط فإن أذنت مضيت إليه وجئتك بالجواب فذلك قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي﴾ أي: تذكّر بعد مدة ما وصّاه يوسف في الحبس.

﴿فَأَرۡسِلُونِ﴾ وهاهنا حذف يدلّ الكلام على المحذوف وتقدير الكلام: فأرسل فأتى يوسف في الحبس وقال له: يا ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ أي: كثير الصدق فيما تخبر به ﴿أَفۡتِنَا﴾ إلخ فإنّ الملك رأى هذه الرؤيا واشتبه تأويله ﴿لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ﴾ إلى الملك وأصحابه والعلماء الّذين جمعهم للتعبير وعجزوا عنه ﴿لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ فضلك وعلمك ويخرجونك من الحبس، فعبّر يوسف:

قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ ﴿٤٩﴾

﴿قَالَ﴾ عليه السلام في مقام التعبير: ﴿تَزۡرَعُونَ﴾ خبر بمعنى الأمر أي: ازرعوا كقوله: ﴿وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ﴾[1] ﴿وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ﴾[2] وإنّما يخرج الخبر

١ـ سورة البقرة: ٢٢٨.

٢ـ سورة البقرة: ٢٣٣.

بمعنى الأمر ويخرج الأمر في صورة الخبر للمبالغة في الإيجاب فيجعل كأنّه وجد فهو يخبر عنه والدليل على كونه بمعنى الأمر قوله: ﴿فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾.

﴿دَأَبًا﴾ أي: مستمراً متوالياً في هذه السنين من غير فتور دائبين على عادتكم أو ازرعوا بجدّ واجتهاد في هذه السنين السبع ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ﴾ من الزرع ﴿فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾ لا تدوسوه ولا تذروه لأنّ السنبل لا يقع فيه سوس وإن بقي مدّة من الزمان وإذا ديس وصفي أسرع إليه الفساد ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ تريدون أن تأكلوه. ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ أي: سنين مجدبات صعبات يشدّ على الناس تأكلون فيها ﴿مَا قَدَّمْتُمْ﴾ في السنين المخصبة لتلك السنين الشديدة، وإنّما أضاف الأكل إلى السنين لأنّه يقع فيها كما قال الشاعر:

نهارك يا مغرور سهو وغفلة ··· وليلك نوم والردى لك لازم[1]

وقيل: أراد بالأكل الإفناء والإهلاك كما يقال: أكل السير لحم الناقة، أي: ذهب به. قال زيد بن أسلم: كان يوسف يصنع طعام اثنين فيقرّبه إلى رجل فيأكل نصفه حتّى كان ذات يوم قرّبه إليه فأكله كلّه فقال يوسف: هذا أوّل يوم السبع الشداد. ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي: من بعد هذه السنين الشداد ﴿عَامٌ فِيهِ﴾ يمطر الناس من الغيث و﴿يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾ فيه أي: ينجون وينقذون من القحط وفي ذلك الطعام الممطر المخصب يعصرون الثمار من العنب للدبس والزيت من السمسم مثلاً وأمثاله أي: تكثر النعم، وهذا القول من يوسف بما اطّلعه اللّه عليه من علم الغيب ليكون من آيات نبوّته.

قال بعض المحقّقين في هذا: التعبير من يوسف يدلّ على بطلان قول من يقول: إنّ الرؤيا على ما عبّرت أوّلاً لأنّهم كانوا قالوا: أضغاث أحلام،

١ـ مجمع البيان، ج٥، ص٤١١؛ والتبيان، ج٦، ص ١٥٠.

وعبّروها بالأضغاث فلو كان كذلك لكان يوسف لا يتأوّلها.

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ (٥٠) قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (٥١) ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ (٥٢) وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ (٥٣)﴾

لمّا رجع الساقي إلى الملك وعرض عليه التعبير الّذي شرحه يوسف استحسنه الملك فقال: ﴿ٱئۡتُونِي بِهِۦ﴾ وهذا يدلّ على فضيلة العلم، فعاد الشرابيّ إلى يوسف عليه السلام وقال: أجب الملك. فأبى يوسف أن يخرج من السجن إلّا بعد أن ينكشف أمره وتزول التهمة عنه لأنه لو خرج في الحال فربّما كان يبقى في قلب الملك أثر التهمة، فالتمس من الملك أن يتفحص عن تلك الواقعة.

وهذا يدلّ على براءة ساحته لأنّ من كان محبوسا في مدّة اثنتي عشرة سنة إذا طلبه الملك، وأمر بإخراجه إذا كان فيه ما نسبوه إليه لما كان تجدّد الواقعة للتفحّص بل كان تبادر بالخروج فحيث لم يخرج عرف طهارته عن تلك النسبة، إذ لو كان ملوثاً لكان خائفاً من مذاكرة هذا الأمر فلمّا جاء الشرابيّ جاذبه يوسف وقال: ارجع إلى سيّدك فاسأله أن يسأل النسوة ما شأن القصّة ليعلم براءتي. وإنّما أتى بهذا القسم من الكلام لئلّا يشتمل اللفظ على ما يجري مجرى أمر الملك بعمل أو فعل مراعاة لحسن الأدب في الكلام لأنّ الصغير لا يأمر الكبير، وأيضا راعى عليه السلام حسن الأدب لمولاتها زليخا وجعل

المسؤول النسوة لا هي فاقتصر ﷺ على قوله: ﴿مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ﴾ ثمّ قال: ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ﴾. وإنّما نسب الكيد إليهنّ لأنّ كلّ واحدة منهنّ طمعت فيه فلمّا لم تجد المطلوب أخذت تطعن فيه وتنسبه إلى القبيح، ويمكن أنّ المعنى لمّا بالغ كلّ واحدة منهنّ على موافقة سيّدتها فامتنع يوسف فنسبهنّ إلى هذا الكيد. وقد حكي أنّه لمّا التمس يوسف هذا الأمر من الملك أمر الملك بإحضارهنّ وقال لهن: ما خطبكنّ؟ أي: ما شأنكنّ وأمركنّ إذ طلبتنّ يوسف وما القصّة؟ فقلن: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ﴾ هذه الكلمة أي: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾ كلمة تنزيه أي: نزّهن يوسف ممّا اتّهم به فقلن: حاش للّه وعياذاً باللّه من هذا الأمر وما علمنا عليه من سوء وخيانة واعترفن ببراءته وبأنّه حبس مظلوماً.

﴿قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ﴾ وكانت حاضرة، وتعلم أنّ هذه المناظرات إنّما وقعت بسببها فكشفت عن الغطاء وصرّحت بالقول الحقّ وقالت: ﴿ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ﴾ واشتقاقه من الحصّة أي: بانت حصّة الحقّ من حصّة الباطل أي: وضح الحقّ ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ وليس له خيانة ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ﴾ ذلك الردّ من الرسول وامتناعي عن الخروج من الحبس ليعلم الملك أو العزيز ﴿أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ﴾ في حال غيبته. والضمير في ﴿أَنِّي لَمۡ﴾ إلى العزيز أي: ليعلم الملك أنّي لم أخنه أي: لم أخن وزيره لأنّ خيانة العزيز خيانة الملك. أو الضمير في قوله: ﴿لِيَعۡلَمَ﴾ يرجع إلى «العزيز» يعني: أردت أن يعلم العزيز أنّي لم أخنه.

وقيل: إنّ هذا الكلام في قوله: ﴿لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ﴾ من قول امرأة العزيز أي: ذلك الإقرار منّي ببراءة يوسف ليعلم يوسف أنّي لم أخنه بترتيب الذنب عليه في الغيبة كما رتّبت عليه في الحضرة. وليعلم ﴿أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ

﴿ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ وهذه من بقيّة قول المرأة.

﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓ﴾ هذا بقيّة كلام يوسف عند أكثر المفسّرين. وقيل: من كلام زليخا أي: ما أبرّئ نفسي عن الخيانة في أمر يوسف ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾ أي: كلّ النفوس كذلك، أو للعهد أي: إنّ نفسي الموصوفة بهذه الصفة إلّا من رحمه الله فعصمه فيكون «ما» بمعنى «من» نحو ﴿مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾[1] ويجوز أن يكون «ما» معناه إلّا مدّة ما عصم ربّي ومن قال: إنّ هذا الكلام من قول يوسف معناه: لا أبرّئ نفسي ممّا لا تعتري منه طباع البشر وإنّما امتنعت عن الفاحشة بهدايته ولطفه لا بنفسي لأنّه عليه السلام كره أن يكون قد زكّى نفسه ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ﴾ لعباده ﴿رَّحِيمٞ﴾ بهم.

وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾

المعنى: لمّا تبيّن أمانة يوسف وبراءته من السوء أمر بإحضاره فقال: ﴿ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ﴾ أجعله خالصاً لنفسي أرجع إليه في تدبير مملكتي وأعمل على صلاحه وإشارته، وهاهنا حذف أي: فلمّا جاء الرسول وأخرجه من الحبس وأحضره عند الملك وكلّمه قال: إنّك عندنا ذو مكانة وشأن مأمون ثقة أي: مكّنتك في ملكي وجعلت سلطانك فيه كسلطاني.

قال الكلبيّ: فلمّا خرج من السجن أقبل يوسف وتنظّف من درن السجن، والبس ثيابا جددا، وأتى الملك وهو يومئذ ابن ثلاثين سنة، فلمّا رآه

١ـ سورة النساء: ٣.

الملك شابًا حدث السنّ، قال: يا غلام هذا تأويل رؤياي ولم يعلمه الكهنة! قال: نعم. فأقعده قدّامه. ولمّا خرج من السجن كتب يوسف على باب السجن: هذا قبور الأحياء وبيت الأحزان وتجربة الأصدقاء وشماتة الأعداء. ولمّا دخل على الملك قال: اللهمّ إنّي أسألك بخيرك من خيره وأعوذ بك من شرّه وشرّ غيره. ولمّا ورد على الملك سلّم يوسف عليه بالعربيّة، فقال له الملك: ما هذا اللسان؟ قال: لسان عمّي إسماعيل. ثمّ دعى له بالعبرانيّة فقال له الملك: ما هذا اللسان؟ قال: لسان آبائي. وكان الملك يتكلّم سبعين لساناً فكلّما كلّم الملك بلسان أجابه يوسف بذلك اللسان فأعجب الملك ما رأى منه.

ثمّ قال له الملك: إنّي أحبّ أن أسمع رؤياي منك شفاها، فقال يوسف: نعم أيّها الملك، رأيت سبع بقرات سمان شهب كشف لك عنهنّ النيل، فطلعن عليك من شاطئه تشخب أخلافهنّ لبنا، فبينا تنظر إليهنّ وتعجبك حسنهنّ إذ نضب النيل فغار ماؤه، وبدا يبسه، فخرج من حمئه ووحله سبع بقرات عجاف، شعث غير مقلّصات البطون ليس لهنّ ضروع ولا أحلاف، ولهنّ أنياب وأضراس وأكفّ كأكفّ الكلاب، وخراطيم كخراطيم السباع، فاختلطن بالسمان فافترسنهنّ افتراس السبع فأكلن لحومهنّ ومزّقن جلودهنّ وحطمن عظامهنّ، فبينما أنت تنظر وتتعجّب إذا سبع سنابل خضر وأخر سود في منبت واحداً عروقهنّ في الثرى والماء فبينا أنت تقول في نفسك: أنّى هذه السنابل خضر مثمرات وهؤلاء سود يابسات والنبت واحداً واصولهنّ في الماء؟ إذ هبّت ريح فذرّت الأرفات من اليابسات السود على المثمرات الخضر فاشتعلت فيهنّ النار وأحرقتهنّ وصرن سودا متغيّرات، فهذا آخر ما رأيت من الرؤيا ثمّ انتبهت من نومك مذعوراً.

فقال الملك: والله ما شأن هذه الرؤيا وإن كانت عجباً بأعجب ممّا

سمعته منك! فما ترى في رؤياي أيها الصدّيق؟ فقال: أرى أن تجمع الطعام وتزرع زرعا كثيراً في هذه السنين المخصبة وتبني خزائن والمحارز فتجمع فيها الطعام بقصبه وسنبله ليكون قصبه وسنبله علفاً للدوابّ وتأمر الناس فيرفعون من طعامهم الخمس فيكفيك من الطعام الّذي جمعته لأهل مصر ومن حولها ويأتيك الخلق من النواحي فيمتارون منك بحكمك ويجتمع عندك من الكنوز ما لم تجمع لأحد ذلك. فقال الملك: ومن لي بهذا الأمر؟ ومن يجمعه ويرتّبه ويبيعه؟

فعند ذلك قال يوسف: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ حافظاً لما استودعتني وعليما بوضع الأمور مواضعها.

قيل: معناه كاتب حاسب وحفيظ للحساب عالم بالألسن وفي هذا دلالة على أنّه يجوز للإنسان أن يعرّف نفسه بالفضل عند من لا يعرفه خصوصاً لفائدة فإنّهعليه السلام عرّف نفسه عند الملك ليقيمه في الأمور الّتي في أيالتها صلاح العباد والبلاد ولم يدخل بذلك تحت قوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾[1] فقال الملك: ومن أحقّ به منك؟ فولّاه ذلك.

واختلفوا في هذا الملك فمنهم من قال: هو العزيز. ومنهم من قال: بل هو الريّان الّذي كان يقال له: الملك الأكبر. وهذا هو الأظهر لقوله: ﴿أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾ وهو يدلّ على أنه قبل ذلك ما كان خالصاً وقد كان قبل ذلك خالصاً للعزيز ولأنّ يوسف قال له: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾ ولأنّ العزيز كان اسمه اطفير والملك الأكبر اسمه ريّان.

فلو قيل: لم طلب يوسف الإمارة من سلطان كافر والنبيّصلى الله عليه وآله قال لعبد

١ـ سورة النجم: ٣٢.

الرحمن بن سمرة أو لأبي ذرّ: «**لا تسأل الإمارة؟**»[١] ولم طلب الخزائن مع أنّه يورث نوع تهمة؟ وكيف مدح نفسه بقوله: ﴿حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ وترك الاستثناء حيث يقول سبحانه: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا * إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[٢]؟

فالجواب أنّ التصرّف في أمور الخلق بطريق الصحّة كان واجباً عليه لأنّه كان رسولاً من الله إلى الخلق والرسول يجب عليه رعاية مصالح الأمّة، وقد علم بالوحي أنّه سيحصل القحط والضيق الشديد الّذي يفضي إلى هلاك الخلق العظيم لو لم يباشر الولاية والسعي إلى إيصال النفع والخير إلى المستحقّين، ودفع الضرر عنهم أمر راجح عقلاً وهو كان مكلّفاً برعاية مصالح الخلق وما كان يمكنه رعايتها إلّا بهذا الطريق فما لا يتمّ الواجب إلّا به فهو واجب فكان هذا الأمر واجباً عليه خصوصاً إذا كانت السلطة الأولى سلطة كفر.

وأمّا ترك الاستثناء لأنّه لا يحصل ترديد للملك بأنّه لعلّ لا يتمكّن على ضبط هذه المصلحة فما استثنى. ولم مدح نفسه لأنّه لا نسلّم أنّه كان مقصوده مدح نفسه بل كان مقصوده بيان هاتين الصفتين النافعتين لحصول المطلوب الواجب عليه وقد غلب على ظنّه أنّه لابدّ من ذكر هذين الوصفين ذهب أنّه وصف نفسه إلّا أنّ مدح النفس إنّما يكون مذموماً إذا قصد الرجل به التطاول والتفاخر والتوصّل إلى غير ما يحلّ، فأمّا على غير هذا الوجه فلا نسلّم أنّه محرّم فقوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ المراد منه تزكية النفس حال ما يعلم كونها غير متزكّية، أو أن يكون المزكّي مرائياً، والدليل عليه بعد الآية بقوله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾[٣].

١ـ انظر: المغني، ج ١١، ص٣٧٦؛ والدرّ المنثور، ج ١، ص٢٦٩.

٢ـ سورة الكهف: ٢٤ـ٢٣ .

٣ـ سورة النجم: ٣٢.

وبالجملة روي عن ابن عبّاس عن رسول اللّه ﷺ أنّه قال: «**رحم الله أخي يوسف لو لم يقل: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِ﴾ لولاه من ساعته ولكنّه أخّره إلى سنة**»[١] فأقام يوسف في بيت الملك سنة فلمّا انصرفت السنة من يوم سأل الإمارة دعاه الملك وتوجّه ورداه بسيفه وأمر بأن يوضع له سرير من ذهب مكلّل بالدرّ والياقوت ويضرب عليه كلّة من إستبرق، ثمّ أمره أن يخرج متوجّاً، لونه كالثلج ووجهه كالقمر يرى الناظر وجهه في صفاء وجه يوسف فانطلق حتّى جلس على السرير، ودانت له الملوك فعدل بين الناس فأحبّه الرجال والنساء وباع من أهل مصر في سني القحط الطعام في السنة الأولى بالدنانير والدراهم، وفي الثانية بالحليّ والجواهر، وفي الثالثة بالدوابّ ثمّ بالضياع والعقار ثمّ برقابهم حتى استرقّهم جميعهم، ثمّ أعتقهم وردّ إليهم أموالهم وذلك قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا﴾ أي: ومثل ذلك الأنعام الّذي أنعمنا على يوسف أقعدنا يوسف على ما يريد في أرض مصر ﴿يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُ﴾ أي: يتصرّف في الملك من غير رجوع إلى الملك بحيث إنّه لا أمر عليه، وفي الآية دلالة على أنّ ذلك التمكين أو الملك كان بلطف اللّه. وفيها دلالة على جواز تولّي القضاء والحكم من جهة الباغي والظالم بشرط أن يتمكّن بذلك من إقامة أحكام الدين، ثمّ بعد أن ملكهم وأعتقهم جميعاً وردّ ما أخذ منهم، قال للملك: ما ترى أيّها الملك فيما خوّلني ربّي من ملك مصر وأهلها؟ أشر علينا برأيك فإنّي لم أصلحهم لأفسدهم ولم انجهم من البلاء لأكون بلاء عليهم ولكنّ اللّه أنجاهم على يدي. قال له الملك: الرأى رأيك. قال يوسف: إنّي اشهد اللّه وأشهدك أنّي أعتقت أهل مصر كلّهم ورددت عليهم أموالهم وعبيدهم ورددت عليك خاتمك وسريرك وتاجك على أن لا تسير إلّا

١ـ تفسير نور الثقلين، ج٢، ص٤٣٢؛ وتفسير الصافي، ج٣، ص ٢٧؛ وقصص الأنبياء، الجزائري، ص٢١٥.

بسيرتي ولا تحكم إلّا بحكمي. قال له الملك: إنّ ذلك لفخري وزينتي، وفخري أن لا أسير إلّا بسيرك ولولاك لما قويت عليه ولا اهتديت له وأنا أشهد أن لا إله إلّا اللّه وحده لا شريك له، وأنّك رسوله فأقم على ما ولّيتك فإنّك لدينا مكين أمين.

وقيل: إنّ يوسف كان في الأيّام المجدبة لا يمتلئ شبعاً من الطعام فقيل له تجوع وبيدك خزائن مصر؟ قال: أخاف أن أشبع فأنسى الجياع.

والحاصل أنّ المراد من تمكين اللّه ليوسف وتمكّنه في أرض مصر هذه الأمور العظيمة المذكورة ثمّ أكّد ثانياً بقوله: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وهذه شهادة من اللّه على أنّ يوسف كان من المحسنين. لو صدق أقوال الحشويّة فيما نسبوه إليه لامتنع أن يقال: إنّه كان من المحسنين والأمر متوقّف بين تكذيب اللّه وهو عين الكفر أو تكذيب الحشويّ وهو عين الإيمان. ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ المراد أنّ يوسف وإن كان وصل بصون نفسه إلى المنازل العالية والدرجات الرفيعة في الدنيا إلّا أنّ الثواب الّذي أعدّه اللّه له في الآخرة خير وأفضل. ولفظ «الخير» قد يستعمل بمعنى التفضيل، وقد يستعمل بمعنى نفس الخير كقولهم: «الثريد خير من ..» وفي هذه الآية دلالة على أنّه سبحانه يؤتي يوسف في الآخرة من الثواب ما هو خير ممّا آتاه اللّه من الملك في الدنيا وشهادة منه سبحانه على تقواه، فكيف يقال فيه ما قالوا؟ فتأمّل!

وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا
جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ
وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا
تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾

لمّا عمّ القحط في البلاد ووصل إلى البلدة الّتي كان يسكنها يعقوب ونزل بآل يعقوب ما نزل بالناس قال يعقوب لبنيه: إنّ بمصر رجلاً صالحاً يمير الناس فاذهبوا بدراهمكم وخذوا الطعام. فخرجوا إليه وهم عشرة ودخلوا على يوسف، وصارت هذه الواقعة كالسبب في اجتماع يوسف مع إخوته وظهور صدق ما أخبر الله ليوسف حين ما ألقوه في الجبّ في قوله: ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا﴾ وكان كلّ من وصل إلى بابه من البلاد البعيدة يتفحّص عنهم ليعرف أنّ الجائين والواصلين هل فيهم إخوته أم لا؟

فلمّا وصل إخوة يوسف إلى باب داره تفحّص عن أحوالهم ظهر له أنّهم إخوته، وأمّا أنّهم ما عرفوه لأنّه أمر حجّابه بأن يوصَفوهم من البعد وما كان يتكلّم معهم إلّا بواسطة، لا سيّما مهابة الملك وشدّة الحاجة يوجبان كثرة الخوف.

ثمّ إنّه عليه السلام لمّا ألقوه في الجبّ كان صغيراً ثمّ إنّهم رأوه بعد تغيير الزيّ والهيئة واللحية ولبس الملوك فنسوا العلائم لطول المدّة وكان بين أن قذفوه بالجبّ وبين أن دخلوا عليه أربعين سنة، وكان من عادة يوسف مع الكلّ أن يعطيه حمل بعير لا أزيد عليه ولا أنقص فأعطاهم عشرة أحمال فقالوا: إنّ لنا أبا شيخا كبيراً وأخا آخر بقي معه، وذكروا أنّ أباهم لأجل سنّه وشدّة حزنه لم يحضر وأنّ أخاهم بقي في خدمة أبيه، ولابدّ لهما أيضاً شيء من الطعام، فلمّا ذكروا ذلك قال يوسف: فهذا يدلّ على أنّ حبّ أبيكم له أزيد من حبّه لكم، وهذا أمر عجيب لأنّكم مع جمالكم وأدبكم وعقلكم إذا كانت محبّة أبيكم لذلك الأخ أكثر من محبّته لكم، وهذا يدلّ على أنّ ذلك أعجوبة في العقل وفي الفضل والأدب فجيئوني به حتّى أراه.

وقيل: إنّهم لمّا دخلوا عليه وأعطاهم الطعام قال لهم: من أنتم؟ قالوا: نحن قوم رعاة من أهل الشام أصابنا الجهد فجئنا نمتار. فقال: لعلّكم جئتم

عيوناً؟ فقالوا: معاذ الله نحن إخوة بنو أب واحداً شيخ صدّيق نبيّ اسمه يعقوب. قال: كم أنتم؟ قالوا: كنّا اثني عشر فهلك منّا واحداً وبقي واحداً مع الأب يتسلّى به عن ذلك المفقود ونحن عشرة، وقد جئناك. قال: فدعوا بعضكم عندي رهينة وائتوني بأخ لكم من أبيكم فعند هذا أقرعوا بينهم فأصابت القرعة شمعون أو يهودا وكان أحسنهم رأياً في يوسف فخلّفوه عنده.

ثمّ إنّ يوسف لمّا طلب منهم إحضار ذلك الأخ جمع بين الترغيب والترهيب أمّا الترغيب فهو قوله: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ وأمّا الترهيب فهو قوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ وذلك لأنّهم في نهاية الاحتياج إلى الطعام فلمّا سمعوا هذا الكلام من يوسف قالوا: ﴿سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ أي: سنجتهد ونحتال على أن ننزعه من يده ﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾ أن نجيئك به وفاعلون ما في وسعنا من هذا الباب.

وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾

«الفتية» جمع فتى في العدد القليل والفتيان للكثير واتّفق الأكثرون على أنّ إخوة يوسف ما كانوا عالمين، فجعل البضاعة في رحالهم ومنهم من قال: كانوا عالمين.

ثمّ اختلفوا في السبب الّذي لأجله أمر يوسف بوضع بضاعتهم في رحالهم لأنّهم متى فتحوا المتاع فوجدوا بضاعتهم فيه علموا أنّ ذلك كان كرماً من يوسف وسخاء فيبعثهم ذلك على العود إليه. وقيل: لأنّه خاف أن لا

يكون عند أبيه من الورق ما يرجعون به مرّة أخرى. ثمّ إنّ أخذ الثمن من الطعام من أبيه وإخوته مع شدّة حاجتهم إلى الطعام لؤم أو لأنّه عليه السلام أراد أن يحسن إليهم على وجه لا يلحقهم به عيب ولا منّة وأراد أن يقابل إساءتهم بالإحسان قال يوسف لعبيده وغلمانه الّذين يكيلون الطعام ـ وقيل: لأعوانه ـ: اجعلوا ثمن طعامهم وما كانوا جاءوا به في أوعيتهم. قيل: كانت بضاعتهم النعال والأدم. وقيل: كانت الورق ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ﴾ أي: يعرفون متاعهم ﴿إِذَا﴾ رجعوا ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لطلب الميرة مرّة أخرى.

﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ﴾ في المستقبل لقول يوسف لهم: فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ﴾ ويكتل وإنّا ضامنون بحفظه ﴿قَالَ﴾ يعقوب ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ أي: إنّكم ذكرتم هذا القول وضمنتم هذا الضمان في أخيه يوسف يعني: كما لم يحصل الأمان هناك كذلك هنا.

ثمّ قال: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ قرئ «حافظاً» على التمييز على تقدير: هو خير لكم حافظاً، كقولهم: هو خيرهم رجلاً ولله درّه فارساً. وقرئ على الحال والأكثر قرءوا «حفظاً» بغير ألف أي: حفظ اللّه له خير من حفظكم. وقيل: معناه وثقت بكم في حفظ يوسف فكان ما كان فالآن أتوكّل على اللّه في حفظ بنيامين. ورد في الخبر أنّ اللّه سبحانه قال: فو عزّتي لأردّنّهما عليك من بعد ما توكّلت عليّ.

وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾

﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ﴾ أوعية الطعام ﴿وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُواْ

﴿يَٰٓأَبَانَا﴾ ما نطلب وراء هذا أوفى لنا الكيل وردّ علينا الثمن ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا﴾ فلا ينبغي أن تخاف على بنيامين ممّن أحسن إلينا هذا الإحسان وما نريد منك دراهم تعطيناه نرجع بها إليه بل تكفينا في الرجوع إليه بضاعتنا هذه ﴿وَنَمِيرُ﴾ ونجلب إلى أهلنا الطعام ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ حتّى نردّه إليك ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ لأجله لأنّه كان يكال لكلّ رجل وقر بعير ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ﴾ سهل ممكن، وهين على الملك. وقيل: معناه: أنّ ذلك الكيل قليل ونحتاج إلى أن يضيفه كيل بعير أخينا حتّى يزداد كيلنا.

قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾

أي لن أرسله معكم حتّى تعطوني عهداً موثوق به. و«الموثوق» مصدر بمعنى الثقة أي: عهد يوثق به، مصدر بمعنى المفعول أي: عهداً مؤكّدا بإشهاد الله وبسبب القسم بالله، أي: تحلفوا بالله لتأتنّي به وتردنّه عليّ. قال ابن عبّاس: يعني: حتّى تحلفوا لي بحقّ محمّد خاتم النبيّين وسيّد المرسلين أن لا تغدروا بأخيكم.

﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ أي: إلّا أن تهلكوا جميعاً أو إلّا أن يحال بينكم وبينه حتّى لا تقدرون على الإتيان به، فلمّا أعطوا مواثيقهم وحلفوا بمحمّد ﴿قَالَ﴾ يعقوب: ﴿ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ يريد أنّ الله شهيد ووكيل أي: هذا العهد موكول إليه فإن وفيتم جازاكم وإن غدرتم كافأكم.

وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى

﴿عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٦٨﴾

ولمّا تجهّزوا للمسير ﴿قَالَ﴾ يعقوب: ﴿يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ﴾ مصر ﴿مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ﴾ خاف عليهم العين لأنّهم كانوا ذو جمال وغاية وهيئة وكمال، وهم إخوة بنو أب واحداً. وأنكر الجبّائيّ خوف العين، بل خاف حسد الناس للطف الملك إيّاهم وجوّزه كثير من المحقّقين، ورووا فيه الخبر عن النبيّ صلى الله عليه وآله، قال: «**إنّ العين حقّ والعين تنزل الحالق**»[1]. والحالق المكان المرتفع من الجبل فجعل صلى الله عليه وآله العين كأنّها تحطّ ذروة الجبل من قوّة أخذها وبطشها.

وأيضاً ورد في الخبر أنّه عليه السلام كان يعوّذ الحسن والحسين بأن يقول: «**أعيذكما بكلمات الله التامّة من كلّ شيطان وهامة ومن كلّ عين لامة**»[2]. وروي أنّ بني جعفر كانوا غلماناً بيضاً فقالت أسماء بنت عميس: يا رسول الله إنّ العين إليهم سريعة أفأسترقي لهم من العين فقال: «**نعم**».[3] وروي أنّ جبرئيل رقى رسول الله وعلّمه الرقية وهي: «**بسم الله أرقيك من كلّ عين وحاسد الله يشفيك**». وروي عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال: «**لو كان شيء يسبق القدر لسبقته العين**».[4] وفي كيفيّة إصابة العين اختلاف كثير: قال عمرو بن بحر الجاحظ: إنّه لا ينكر أن ينفصل من العين الصائبة إلى الشيء المستحسن أجزاء لطيفة تتّصل به وتؤثّر فيه فيكون هذا المعنى خاصيّة في بعض الأعين كالخواصّ في الأشياء. وقد اعترض عليه بأنّه لو كان كذلك لما اختصّ ذلك ببعض الأشياء دون بعض،

١ـ نور البراهين، ج٢، ص٣٦١؛ ومجمع البيان، ج٥، ص٤٢٨.

٢ـ مكارم الأخلاق، الشيخ الطبرسي، ص٢٨٩؛ وبحار الأنوار، ج ٧٣ ص١٩٦.

٣ـ مجمع البيان، ج٥، ص ٤٢٨؛ وبحار الأنوار، ج ٦٠، ص ٧.

٤ـ المصدر السابق نفسه.

ولأنّ الأجزاء تكون جوهراً والجواهر متماثلة، ولا يؤثّر بعضها في بعض.

وقال أبو هاشم: إنّه فعل اللّه بالعباد لضرب من المصلحة، وهو قول القاضي ورأيه.

وقال الشريف الرضيّ الموسوي: إنّ اللّه يفعل المصالح بعباده على حسب ما يعلمه من الصلاح لهم في تلك الأفعال الّتي يفعلها، فغير ممتنع أن يكون تغيير نعمة زيد مصلحة لعمرو، وإذا كان يعلم من حال عمرو أنّه لو لم يسلب نعمته من زيد أقبل على الدنيا بوجهه ويئس عن الآخرة وإذا سلب نعمة زيد للعلّة الّتي ذكرناها عوّضه فيها وأعطاه بدلاً منها عاجلا أو آجلاً فيمكن أن يتأوّل قوله ﷺ: «**العين حقّ**» على هذا الوجه، على أنّه قد روي عنه ما يدلّ على أنّ الشيء إذا عظم في صدور العباد وضع اللّه قدره وصغّر أمره فلا ينكر تغيير الحال لبعض الأشياء عند نظر بعض الناظرين إليه واستحسانه له، وفخامته في عينه. وهاهنا تحقيق آخر ـ وهو قول الحكماء في هذا الباب ـ وهو أنّه قالوا: ليس من شرط المؤثّر أن يكون تأثيره بحسب هذه الكيفيّات المحسوسة أعني الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة بل قد يكون التأثير نفسانيّا محضاً، ولا يكون للقوى الجسمانيّة فيها تعلّق والّذي يدلّ عليه أنّ اللوح الّذي يكون قليل العرض إذا كان موضوعاً على الأرض قدر الإنسان المشي عليه ولو كان موضوعاً بين الجدارين لعجز الإنسان عن المشي عليه، وما ذلك إلّا لأنّ خوفه من السقوط منه يوجب سقوطه. فعلمنا أنّ التأثيرات النفسانيّة موجودة.

وأيضاً إنّ الإنسان إذا تصوّر كون فلان موذيا له حصل في قلبه غضب، ويسخن مزاجه جدّاً فمبدأ تلك الخولة ليس إلّا ذلك التصوّر النفسانيّ، ولأنّ مبدأ الحركات البدنيّة ليس إلّا التصوّرات النفسانيّة فلمّا ثبت أنّ تصوّر النفس

يوجب تغيير بدنه الخاصّ لم يبعد أيضاً أن يكون بعض النفوس بحيث تتعدّى تأثيراتها إلى سائر الأبدان.

فثبت أنّه لا يمتنع في العقل كون النفس مؤثّرة في سائر الأبدان وجواهر النفوس مختلفة بالماهيّة فلا يمتنع أن يكون بعض النفوس بحيث يؤثّر في تغيير بدن حيوان آخر بشرط أن يراه ويتعجّب منه، والتجارب من الزمن الأقدم ساعدت عليه والنفوس النبويّة نطقت به فعنده لا يبقى في وقوعه شكّ.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم﴾ ولمّا دخلوا متفرّقين من أبواب متفرّقة، وكان لمصر خمسة أبواب ﴿مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ أي: لم يكن دخولهم مصر كما أمرهم أبوهم بالتفرّق يغني عنهم أو يدفع منهم شيئاً من مكروه أراد الله إيقاعه بهم من ضرر أو عين أو بلاء، وهو عليه السلام كان يعلم أنّه لا ينفع من قدر الله شيء والتفرّق ليس مانع شيئاً أراده الله، ولكن ما قاله لبنيه حاجة في قلبه فقضى تلك الحاجة فيكون «إلّا» بمعنى لكنّ حاجة قضاها وأظهرها يعني: أنّه عليه السلام يعلم أنّ هذه التوصية وهي ورود مصر من أبواب متفرّقة لا تنفعهم إذا أراد الله بهم، لكن شفقة عليهم من أن يعانوا أظهرها ووصّى بها، والاستثناء منقطع. ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ﴾ وإنّ يعقوب لذو يقين ومعرفة بالله بتعليمنا إيّاه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بتقديرنا وسرّ أمورنا أو لا يعلمون كعلمه.

وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ

زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا
سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي
رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ
أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ
أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوْقَ كُلِّ
ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾

ثمّ أخبر سبحانه عن دخولهم عليه ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ قالوا: هذا أخونا الّذي أمرتنا أن نأتيك به. فقال: أحسنتم. ثمّ أكرمهم وأضافهم وقال: يجلس كلّ بني أمّ على مائدة فجلسوا، فبقي ابن يامين قائماً فرداً فقال له يوسف: مالك لا تجلس؟ قال: إنّك قلت: ليجلس كلّ بني أمّ على مائدة وليس لي فيهم ابن أمّ، فقال يوسف: فما كان لك ابن أمّ؟ قال: بلى، قال يوسف: فما فعل؟ قال: زعم هؤلاء أنّ الذئب أكله! قال: فما بلغ من حزنك عليه؟ قال: ولد لي أحد عشر ابنا كلّهم اشتققت له اسماً من اسمه فقال له يوسف: أراك قد عانقت النساء وشممت الولد من بعده. قال بنيامين: إنّ لي أباً صالحاً وقد قال لي: تزوّج لعلّ اللّه يخرج منك ذرّيّة تثقل الأرض بالتسبيح. فقال له يوسف: فاجلس معي على المائدة ﴿قَالَ﴾ له ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾ أي: اطّلعه على أنّه أخوه، وقيل: إنّه قال: أنا أخوك مكان أخيك الهالك، ولم يعترف له بالنسبة، ولكنّه أراد أن يطيب قلبه. فلا تحزن بشيء سلف من إخوتك.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم﴾ وأعطاهم ما جاءوا لطلبه من الميرة وجعل لكلّ واحداً منهم حمل بعير ويسمّى حمل التاجر جهازاً ﴿جَعَلَ﴾ الصاع في متاع ﴿أَخِيهِ﴾ بنيامين، وقيل: إنّ السقاية الماعون الّذي كان الملك يشرب منه، أو الدوابّ كانت يشرب منها ويكال بها، ثمّ جعل يكال به الطعام، وكان من ذهب

مرصّعة بالجواهر الثمينة. ثمّ ارتحلوا وانطلقوا. ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ ونادى مناد مسمعاً معلماً ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ﴾ والقافلة أي: يا أهل القافلة. وقيل: كانت القافلة من الحمير ﴿إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ إنّما قال ذلك بعض من فقد الصاع من أتباع يوسف من غير أمره، ولم يعلم بما فعل يوسف من جعل الصاع في رحالهم.

وقيل: إنّ يوسف أمر المنادي بأن ينادي به، ولم يرد سرقة الصاع وإنّما عنى أنّكم سرقتم يوسف عن أبيه وألقيتموه في الجبّ. والغرض التسبّب إلى احتباس أخيه عنده، ويجوز أن يكون هذا أمر من اللّه أو استفهام، وإذا كان إدخال هذا الحزن سبباً مؤدّياً إلى إزالة غموم كثيرة عن الجميع، وتعلّق بهذا الأمر هذه المصلحة فقد ثبت جوازه. و﴿قَالُوا﴾ أصحاب العير ﴿وَأَقْبَلُوا﴾ على أصحاب يوسف: ما الّذي فقدتموه من متاعكم؟ ﴿قَالُوا﴾: صاعه وسقايته. وقال المنادي: ﴿وَلِمَن جَاءَ﴾ بالصاع فله ﴿حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ من الطعام ﴿وَأَنَا﴾ بالحمل كفيل ومؤدّ. قال إخوة يوسف: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم﴾ أيّها القوم ﴿مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ قطّ أي: ظهر لكم من حسن سيرتنا ومعاملتنا معكم أنّه ليس من شأننا السرقة قيل: إنّهم لمّا دخلوا مصر شدّوا أفواه دوابّهم كيلاً تتناولوا الحرث والزرع ولهذا قالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ﴾ ﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ﴾ أي: قال الّذين نادوهم: فما جزاء السارق؟ ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ قال: كان في ذلك الزمان يستعبدون كلّ سارق بسرقته، وكان استعباد السارق في شرعهم تجري مجرى وجوب القطع في شرعنا، أي: ذلك السارق هو جزاء ذلك الجرم ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ يجوز أن يكون بقيّة كلام إخوة يوسف ويمكن أن يكون كلام أصحاب يوسف.

ولمّا اشترط إخوة يوسف بأنّ من وجد المسروق في رحله فجزاؤه أن

يسترقّ سنة قال لهم المؤذّن: إنّه لابدّ من تفتيش أمتعتكم، فانصرف بهم إلى يوسف فبدأ يوسف في التفتيش بأوعيتهم لإزالة التهمة.

﴿ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا﴾ يعني: السقاية ﴿مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ وأرجع ضمير المؤنّث إلى السقاية، والمذكّر إلى الصاع، والصواع يذكّر ويؤنّث. وقيل: إنّ حكم السارق في شريعة يعقوب أن يستخدم ويسترقّ على قدر سرقته وفي دين الملك الضرب والضمان ضعفين. فسألهم يوسف: ما جزاء السارق عندكم؟ فقالوا: أن يؤخذ بسرقته كذلك نجزي الظالمين، قال الإخوة: أي: مثل ما ذكرنا جزاء السارقين نجزيهم. فأقبل الإخوة على بنيامين ووبّخوه، وقالوا له: قد فضحتنا وسوّدت وجوهنا متى أخذت هذا الصاع؟ فقال: وضع هذا الصاع في رحلي الّذي وضع الدراهم في رحالكم. ﴿كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَ﴾ أي: مثل ذلك الكيد الّذي كاد الإخوة بيوسف ألهمنا يوسف ليكيد بأمر تهيّأ له أن يحبس أخاه ليكون سبباً لوصول خبره إلى أبيه فجازيناهم على كيدهم بما فعلوا بيوسف من قبل. وقيل: معنى ﴿كِدۡنَا﴾ دبّرنا ودلّلنا بيوسف بدلالة قوله: ﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾ لأنّه علم من صلاح هذا الأمر ما لم يعلمه غيره فحينئذ الكيد استسلامهم لهذا الحكم في حقّ السارق، وإلقاء اللّه في قلوب إخوته تقرير هذا الحكم لأنّه ما كان حكم الملك الاسترقاق، بل كان حكم السارق الضرب والغرامة مضاعفة.

ولمّا أقرّوا أثبتوا على أنفسهم هذا الحكم لأنّ يوسف ﴿مَا كَانَ﴾ يتمكّن ﴿لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ﴾ أنّه تعالى كادله وألهمه هذا الأمر ليتوسّل به إلى أخذ أخيه، ولفظ «الكيد» مشعر بالحيلة والخدعة، وذلك في حقّ اللّه محال لكن أمثال هذه الألفاظ تحمل على نهايات الأغراض المفيدة لا على بدايات الأغراض فالكيد إلقاء الإنسان من حيث لا يشعر في أمر مكروه

عنده ولا سبيل له إلى دفعه لتحقّق المصالح في إيقاعه، فالكيد في حقّ الله تعالى محمول على هذا المعنى لأنّه سبحانه شاء كذلك للمصالح المترتّبة عليه.

﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُ﴾ من العلم والحكمة كما وقع ليوسف من النبوّة والعلم ﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾ لأنّ إخوة يوسف كانوا علماء فضلاء إلّا أنّ يوسف كان زائدا عليهم بالعلم والمعرفة.

قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾

ثمّ أخبر سبحانه عن إخوة يوسف: أنهم ﴿قَالُوٓاْ﴾ ليوسف: ﴿إِن يَسۡرِقۡ﴾ بنيامين ﴿فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن﴾ أمّ وأب ﴿قَبۡلُ﴾ ذلك فليست سرقته أمر بديع فإنّه اقتدى بأخيه يوسف. واختلف في كيفيّة ما وصفوه به من السرقة على أقوال:

فقيل: إنّ عمّة يوسف كانت تحضنه بعد وفات أمّه راحيل وتحبّه حبّاً شديداً، فلمّا ترعرع أراد يعقوب أن يستردّه منها، وكانت أكبر أولاد إسحاق، وكان عندها منطقة إسحاق وكانوا يتوارثونها بالكبر فاحتالت بحيلة، وجاءت بالمنطقة وشدّتها على وسط يوسف وادّعت أنّه سرقها، وكان من سنّتهم

استرقاق السارق، فحبسه بهذا السبب. وقيل: إنّه سرق صنماً لجدّه من أمّه كان جدّه يعبده فأمرته أمّه أن يسرق ذلك الصنم ويكسره فلعلّه ترك عبادة الأوثان ففعل يوسف ما أمرته أمّه فهذا هو السرقة. وقيل: إنّه يسرق من مائدة أبيه الطعام ويدفعه إلى الفقراء.

وقيل: سرق عناقاً من أبيه ودفعه إلى مسكين وكان أبوه راضياً ولكن لا يظهر رضاه لإخوته حذراً من الحسد. وقيل: إنّهم لحسدهم وعداوتهم القديمة نسبوا السرقة من دون هذه الدواعي. ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ﴾ أي: فأخفى يوسف تلك الكلمة الّتي قالوها ولم يبدها لهم. قال الزجّاج: ﴿فَأَسَرَّهَا﴾ إضمار على شريطة التفسير لأنّ قوله: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ بدل من «ها» في «أسرّها» والمعنى: فأسرّ يوسف في نفسه. قوله: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ وقال: أنتم شرّ مكاناً، والتفسير بعد الإضمار يقع بمفرد كقولك: «نعم رجلاً زيد» ففي «نعم» ضمير فاعلها و«رجلاً» تفسير لذلك الفاعل المضمر ويقع بجملة مثل ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فمعنى ضمير القصّة والشأن الله أحد. وبالجملة ليس المعنى أنّه قال هذا الكلام، وهو ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ بل في نفسه قال ثمّ جهر بقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾.

والصحيح في مذهبنا أنّهم ما كانوا أنبياء والأسباط من أولادهم لأنّ النبيّ لا يجوز أن يقع منه القبيح أصلاً حتّى أنّ أغلب أهل السنّة وافقونا على هذا القول قال البلخيّ: إنّهم كذبوا واتّهموا أخاهم ولم يصحّ أنّهم كانوا أنبياء.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ﴾ وسألوه أن يأخذ عنه بدلاً شفقة على والدهم ورقّقوا في الاسترحام بالقول وأنّ أباه كثير السنّ وكبير القدر لا يحبس ابن مثله ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ في الكيل وردّ البضاعة وفي الضيافة ونحن نأمل منك هذا.

فأجابهم يوسف: أعوذ بالله ﴿أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا﴾ وكيف يجوز أن نأخذ بريئاً بمذنب؟ أي: أعوذ بالله من أخذ أحد بغيره، فحينئذ إذا فعلنا كذلك إنّا من الظالمين. فلو قيل: كيف يجوز للرسول هذه الأمور؟ الجواب لعلّه كان مأموراً بذلك تشديداً للمحنة على يعقوب ونهاه الله عن العفو والصفح وأخذ البدل.

﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا﴾ أي: لمّا آيسوا من قبول يوسف قولهم تفرّدوا عن سائر الناس وشرعوا يتناجون ويتشاورون فيما وقعوا فيه ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ في السنّ وهو روبيل أو يهودا، وهو الّذي نهاهم عن قتل يوسف ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ﴾. قال ابن عبّاس: (لمّا قال يوسف: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ غضب يهودا وكان إذا غضب وصاح فلا تسمع صوته حامل إلّا وضعت ويقوم شعره على جسده فلا يسكن حتّى يضع بعض آل يعقوب يده عليه أو يمسّه فقال يهودا لبعض إخوته: اكفوني أسواق أهل مصر وأنا أكفيكم الملك، فقال يوسف لابن صغير له: مسّه، فمسّه فذهب غيظه). وقيل: كان الصبيّ بين يدي يوسف يلعب برمّانة الذهب فأخذ يوسف الرمّانة ودحرجها نحو يهودا فتبعها الصبيّ فمسّ يد الصبيّ يد يهودا فسكن غضبه، وفعل يوسف ذلك ثلاث مرّات، فقال يهودا: إنّ في البيت معنا لبعض ولد يعقوب إنسان. ثمّ بعد اليأس ﴿قَالَ﴾: لا أفارق أرض مصر ﴿حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ﴾ في الانصراف إليه ﴿أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى﴾ بالخروج أو بالانتصاف ممّن أخذ أخي بخلاصه منه بسبب من الأسباب ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ والمراد ظهور عذر يزول حياؤه وخجله من أبيه.

ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا

عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٢﴾

فقال لهم كبيرهم روبيل أو يهودا في العلم أو في السن: ﴿ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ﴾ وقرئ بالتشديد ﴿وَمَا شَهِدْنَا﴾ عندك بهذا إلّا بما شهدنا من الصاع استخرج من رحله ﴿وَمَا كُنَّا﴾ نعلم الغيب حين سألناك أن تبعث بن يامين معنا، ولم ندر أنّ أمره يؤول إلى هذا، وإنّما قصدنا الخير ولو علمنا ذلك ما ذهبنا به وما كنّا بهذا الأمر ووقوعه عالمين. وقيل: معنى الغيب الكيل بلغة حمير.

ونقل أنّ يعقوب قال لهم: فهب إنّه سرق ولكن كيف عرف الملك أنّ شرع بني إسرائيل أنّ من يسرق يسترقّ بل أنتم ذكرتموه له لغرض لكم، فقالوا عند هذا الكلام: إنّا قد ذكرنا له هذا الحكم قبل وقوعنا في هذه الواقعة وما كنّا نعلم أنّ هذه الواقعة نقع فيها. فقوله: ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ إشارة إلى هذا المعنى.

﴿وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ﴾ أي: اسأل أهل القرية ﴿الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ وهي مصر أي: سل من شئت من أهل مصر فإنّ هذا خبر شاع وكان بعض أهل مصر قد صاروا إلى الناحية الّتي أبوهم فيها، واسأل أهل القافلة الّتي كنّا فيها، وكانوا من أهل كنعان راجعين من مصر خبر بن يامين ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ فيما أخبرناك، فلمّا رجعوا إلى أبيهم وقصّوا عليه القصّة، قال لهم: عندي ليس الأمر على ما تقولونه.

قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾

لمّا سمع يعقوب من أبنائه هذا الكلام ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ﴾

قيل: معناه: سوّلت لكم أنفسكم أمراً خيّلت لكم أنّه سرق وما سرق. قال بعض المفسّرين: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ ليس هاهنا المراد الكذب والحيلة، كما في قوله في واقعة يوسف حين قال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ﴾ ومراد يعقوب ذكر التسويل الثاني لا التسويل الأوّل أي: أردتم المنفعة فعاد ذلك شراً وضررا، وقد كنتم لا تعلمون أنّ قضاء اللّه جار على خلاف تدبيركم. ﴿عَسَى اللَّهُ أَن﴾ يجمعهم ﴿جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ بحالي و﴿الْحَكِيمُ﴾ في أفعاله. قيل: إنّ روبيل أو يهودا لمّا عزم على الإقامة بقوله: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ﴾[1] أمره الملك أن يذهب مع إخوته سوى بنيامين فقال: اتركوني وإلّا صحت صيحة لا تبقى بمصر امرأة حامل إلّا وتضع حملها، فقال يوسف: دعوه.

ولمّا رجع القوم إلى يعقوب وأخبروه بالواقعة بكى، وقال: يا بنيّ لا تخرجون من عندي مرّة إلّا ونقص بعضكم: ذهبتم مرّة فنقص يوسف وفي الثانية نقص روبيل وبنيامين، ثمّ بكى وقال: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي﴾ لعلّه تعالى أخبره من بعد محنته أنّ يوسف حيّ أو قال ذلك بحسن ظنّه باللّه وبقوله: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾[2].

وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن

١ـ سورة يوسف: ٨٠.

٢ـ سورة الطلاق: ٧.

﴿يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ (٨٧)

ولمّا سمع يعقوب كلام أبنائه ضاق صدره جداً وأعرض عنهم وفارقهم وفرّ عنهم وعظم حزنه، وذكر يوسف، وقال: ﴿يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ وإنّما عظم حزنه لأنّ الحزن الجديد على بنيامين جدّد حزن يوسف لأنهما من أمّ واحدة وكلاهما متشابهان، فقال: ﴿يَـٰٓأَسَفَىٰ﴾ أي: يا طول حزني على يوسف ولمّا كان البكاء من أجل الحزن أضاف بياض البصر إليه فقال: ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي: مملوء من الغيظ ولا يشكوه لأحد. قال ولد يعقوب لأبيهم: ﴿تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ أي: لا تزال تذكر يوسف حتّى تكون دنفا فاسد العقل أو قريباً من الموت. وقيل: معناه هرماً بالياً، أو تصير من الميّتين. وإنّما قالوا له ذلك إشفاقاً عليه ورحمة له يقال: ما فتئت وفتيت إذا نسيت وحرف النفي مضمر على معنى ما تفتؤ قال امرؤ القيس: «فقلت يمين الله أبرح قاعداً» والمعنى: لا أبرح قاعداً. قال يعقوب: في جوابهم إنّما أشكوا همّي وحاجتي إلى الله.

ونقل الفخر الرازيّ رواية عن النبيّ أنّه قال: «**كان ليعقوب أخ مؤاخ فقال له يوماً: ما الّذي أذهب بصرك وقوّس ظهرك؟ فقال: الّذي أذهب بصري البكاء على يوسف وقوّس ظهري الحزن على بنيامين**».[1]

فأوحى الله إليه أتشكوني إلى غيري فقال:﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى﴾ والبثّ ما أبداه من الهمّ والحزن ما أخفاهَ حُزْنِي إِلَى اللَّهِ. وقال: يا ربّ أما ترحم الشيخ الكبير قوّست ظهري وأذهبت ريحانتيّ يوسف وبنيامين؟

وأتاه جبرئيل بالبشرى وقال: ولو كانا ميّتين لنشرتهما لك فاصنع طعاماً

١ـ مجمع الزوائد، ج٧، ص٤٠؛ وزاد المسير، ج ٤، ص٢٠٦.

للمساكين فإنّ أحبّ عبادي إليّ الأنبياء والمساكين أو تدري لم أذهبت بصرك وقوّست ظهرك؟ لأنّك ذبحت شاة وأتاك مسكين وهو صائم فلم تطعمه شيئاً. فكان يعقوب بعد ذلك إذا أراد الغذاء أمر منادٍ ينادي: ألا من أراد الغذاء من المساكين فليتغدّ مع يعقوب، وإذا كان صائماً أمر منادٍ ينادي: ألا من أراد أن يفطر مع يعقوب فليحضر. ﴿أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: وأعلم من رحمة الله ما لا تعلمون. في كتاب النبوّة بالإسناد عن سدير الصيرفيّ عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «**إنّ يعقوب دعا الله سبحانه في أن يهبط عليه ملك الموت فأجابه فقال له: ما حاجتك؟ فقال عليه السلام: أخبرني هل مرّ بك روح يوسف في الأرواح؟ فقال: لا، فعلم أنه حيّ[1] فقال:** ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ **واستخبروا من شأنهما**».

فلو قيل: كيف خفي أخبار يوسف على يعقوب في المدّة الطويلة مع قرب المسافة وكيف لم يعلم يوسف أباه بخبره لتسكن نفسه ويزول وجده؟

قال المرتضى رحمه الله: يجوز أن يكون ذلك له ممكناً وكان قادراً عليه لكنّ الله سبحانه أوحى إلى يوسف بأن يعدل عن اطّلاعه عن خبره لتشديد المحنة على يعقوب، ولله سبحانه أن يصعب التكليف وأن يسهّله[2].

وقد بلغ حزن يعقوب حزن سبعين ثكلى، قيل: عمي من البكاء. وقيل: ما عمي ولكن صار بحيث يدرك إدراكاً ضعفاً وما جفّت عيناً يوسف من وقت فراق يعقوب يوسف إلى حين لقائه، وتلك المدّة قيل: ثمانون عاماً ـ وما كان على وجه الأرض عبد أكرم على الله من يعقوب ـ أو أربعون سنة.

﴿وَلَا تَايْـَٔسُوا مِن﴾ رحمة ﴿اللَّهِ﴾ ومن فرجه ﴿إِنَّهُ لَا يَايْـَٔسُ مِن﴾

١ـ مجمع البيان، ج٥، ص٤٤٥؛ وعن كتاب النبوة؛ وبحار الأنوار، ج١٢، ص٢٧٨.

٢ـ مجمع البيان، ج٥، ص٤٤٦

رحمته ﴿إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ وفي هذه الآية دلالة على أنّ الفاسق المليء لا ييأس عليه من رحمة الله بخلاف ما يقول أهل الوعيد.

فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾

المعنى: ولمّا قال يعقوب لبنيه ﴿ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ﴾ خرجوا إلى مصر ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟﴾ على يوسف ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ أي: أصابنا ومن يختصّ بنا الجوع والحاجة من السنين الشداد ﴿وَجِئْنَا﴾ بمتاع قليل ندافع بها الأيام دراهم رديئة زيوفاً لا تنفق في ثمن الطعام، وقيل: كانت البضاعة خلق الغرارة والحبل وأمتعة رثّة. وقيل: الصوف والسمن. وقيل: الحبّة الخضراء. وقيل: الأقط والنعال والأدم وقيل: صوف المعز. وقيل: دراهم مصر كانت تنقش فيها صورة يوسف والدراهم الّتي جاءوا بها ما كان فيها صورة يوسف، فما كانت مقبولة عند الناس وما كانت رائجة. و«المزجاة» الشيء القليل الّذي يدفع الإنسان في الزمان به. ولمّا وصفوا شدّة حالهم قالوا: ﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ﴾ ومرادهم أن يساهلهم بأن يقيم الناقص مقام الزائد والرديء مقام الجيّد

﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ بالجيد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ يثيب ﴿ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾ على صدقاتهم.

وفي كتاب النبوة عن أبي عبد الله ـ بحذف الأسانيد ـ أنّ يعقوب كتب إلى يوسف: (بسم الله الرحمن الرحيم إلى عزيز مصر ومظهر العدل وموفي الكيل، من يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن صاحب نمرود الّذي جمع له النار ليحرقه بها فجعلها الله عليه برداً وسلاما، وأنجاه منها. أخبرك أيّها العزيز إنّا أهل بيت لم يزل البلاء إلينا سريعاً من الله ليبلونا عند السرّاء والضرّاء، وإنّ المصائب تتابعت عليّ سنين متطاولة أوّلها أنّه كان لي ابن سمّيته يوسف وكان سروري من بين ولدي وقرّة عيني وإنّ إخوته من غير أمّه سألوني أن أبعثه معهم يرتع ويلعب فبعثته معهم بكره، فجاؤوا عشاء يبكون وجاءوا على قميصه بدم كذب، وزعموا أنّ الذئب أكله فاشتدّ لفقده حزني وكثر على فراقه بكائي حتّى ابيضّت عيناي من الحزن.

وإنّه كان له أخ وكنت به معجباً وكان لي أنيساً، وكنت إذا ذكرت يوسف ضممته إلى صدري سكن بعض وجدي، وأنّ إخوته ذكروا لي أنّك سألتهم عنه وأمرتهم أن يأتوك به فإن لم يأتوك به منعتهم الميرة، وبعثته معهم ليمتاروا لنا قمحاً فرجعوا إليّ وليس هو معهم وذكروا أنّه سرق المكيال للملك، ونحن أهل بيت لا نسرق وقد حبسته عنّي وقد اشتدّ لفراقه حزني حتّى تقوّس ظهري لذلك، فمنّ عليّ بتخلية سبيله وإطلاقه من حبسك وطيّب لنا القمح وأسمح لنا في العسر وأوف لنا الكيل وعجّل سراح آل إبراهيم).(١)

قال: فمضوا بكتابه حتّى دخلوا على يوسف في دار الملك وقدّموا الكتاب إلى يوسف فأخذ يوسف كتاب يعقوب وقبّله ووضعه على عينيه وبكى وانتحب حتّى بلّت دموعه القميص الّذي عليه ثمّ أقبل عليهم وقال: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا

١ـ مجمع البيان، ج٥، ص٤٥٠؛ وبحار الأنوار، ج١٢، ص٣١٢؛ وتفسير الصافي، ج٣، ص٤١.

فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ أي: بإذلاله وإبعاده عن أبيه وإلقائه في البئر والاجتماع على قتله وبيعه بثمن بخس، وما فعلتم بأخيه من أمّه حتّى صار ذليلا بينكم؟ ولم يذكر إيّاه تعظيما له. وحاصل المعنى أنّ ما ارتكبتم ما أعظمه وأقبحه! وفي هذا البيان مصدوق قوله: ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[1] وقوله: ﴿إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴾ أي: فعلتم حين كنتم جاهلين، وكان هذا الكلام تلقينا لهم لما يعتذرون به إليه وهذا هو الكرم إذ صفح عنهم ولقّنهم وجه العذر.

قيل: إنّ يوسف لمّا قال لهم: ﴿هَلْ عَلِمْتُم...﴾ تبسّم فلمّا أبصروا ثناياه وكانت كاللؤلؤ المنظوم شبّهوا بيوسف و﴿ قَالُوٓاْ ﴾ له: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ﴾ فرفع التاج عن رأسه فعرفوه ﴿ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ ﴾ ولم يقل: أنا هو ﴿وَهَٰذَآ أَخِى قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ﴾ بالاجتماع ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ﴾ الله ﴿وَيَصْبِرْ﴾ على المعاصي وعلى المصائب ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾.

﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ ﴾ وفضّلك ﴿عَلَيْنَا﴾ وما كنّا إلّا مخطئين وآثمين فيما فعلنا ﴿ قَالَ﴾ يوسف ﴿لَا تَثْرِيبَ ﴾ ولا توبيخ وتقريع ﴿عَلَيْكُمُ ﴾ الآن فيما فعلتم وإنّي أطلب العفو من الله لكم ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ في عفوه عنكم ﴿ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا﴾ وقد مرّ تفسير القميص ﴿فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾.

قال يوسف: إنّما يذهب بقميصي من ذهب به أولاً فقال يهودا: أنا ذهبت به وهو ملطّخ بالدم فأخبرته أنّه أكله الذئب. قال: فاذهب به أنت أيضاً فأفرحه كما حزنته. فحمل القميص وخرج حافيا حاسرا حتّى أتاه وكان معه سبعة أرغفة وكانت مسافة بينهما ثمانين فرسخاً فلم يستوف الأرغفة في الطريق.

وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن

١ـ سورة يوسف: ١٥ .

تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَـٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ
ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ
مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا
خَـٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾

﴿وَلَمَّا﴾ خرجت القافلة وانفصلت من مصر متوجّهة نحو الشام ﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾ لأولاده الّذين كانوا عنده ولم يخرجوا إلى مصر: ﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ روي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**وجد ريح يوسف حين فصلت العير من مصر وهو عليه السلام بفلسطين من مسير ثمانين فرسخاً**»[1]، وقيل: مسيرة شهر.

قال ابن عبّاس: (إنّ الصبا استأذنت ربّها أن يأتي يعقوب بريح يوسف قبل أن يأتيه البشير فأذن لها فأتته بها ولذلك يستروح كلّ محزون بريح الصبا). قال الشاعر:

فـــإنّ الصـــبا ريـــح إذا مـــا تنسّـمت
على نفـس (قلـب) محـزون تجلّـت همومهـا[2]

﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ و«التفنيد» تضعيف الرأي وتسفيه الشخص و«الفند» الكذب أي: لو لا أن تكذّبوني وتقولون: إنّ هذا شيخ خرف وذهب عقله. قالوا إشفاقاً عليه: إنّك لفي ذهابك القديم عن الصواب في حبّ يوسف لأنّه باعتقادهم أنّ يوسف قد مات منذ سنين.

﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ﴾ وهو يهودا، وقيل: إنّه مالك بن زعر ﴿أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ فعاد ﴿بَصِيرًا﴾ فعادت قواه أجمع، فقال يعقوب للبشير: ما أدري

١ـ مجمع البيان، ج٥، ص٤٥٣؛ وانظر: التبيان، ج٦، ص١٩٢.

٢ـ تاج العروس، ج١٧، ص٦٨٦.

ما أثيبك به؟ هوّن الله عليك سكرات الموت.

﴿قَالَ﴾ يعقوب: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: إنّي كنت أعلم أنّ الله يصدّق رؤيا يوسف وكنتم لا تعلمون قالوا: إنّ الله أعلمه بحياته ولم يعلمه بمكانه! روي أنّ يعقوب لمّا جاءه البشير قال للبشير: كيف يوسف؟ قال: هو ملك مصرا! قال يعقوب: ما أصنع بالملك؟ على أي: دين تركته؟ قال: على دين الإسلام. قال: الآن تمّت النعمة.[1] ثمّ إنّ أولاد يعقوب أخذوا يعتذرون إليه و﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ﴾ وظاهر الكلام أنّه لم يستغفر لهم في الحال بل وعدهم. الأكثرون على أنّه أراد أن يستغفر لهم وقت السحر لأنّ هذا الوقت أوفق للإجابة. وقال ابن عبّاس: (أخّر الاستغفار إلى ليلة الجمعة لأنّه أوفق للإجابة، أو أنّه أراد أن يعلم أنه هل تابوا على سبيل الحقيقة أم لا؟) وقد روي أنّ يعقوب كان يستغفر في كلّ ليلة جمعة من نيّف وعشرين سنة[2]. ويقوم إلى الصلاة إلى وقت السحر ولمّا فرغ من صلاته رفع يده إلى السماء وقال: اللهمّ اغفر جزعي على يوسف وقلّة صبري عليه واغفر لأولادي ما فعلوه بيوسف. فأوحى الله إليه قد غفرت لك ولهم أجمعين.

وروي أن أبناء يعقوب قالوا ليعقوب وقد غلبهم الخوف والبكاء: ما يغني عنّا إن لم يغفر لنا فاستقبل الشيخ القبلة قائماً يدعو ويوسف خلفه يؤمّن وقاموا خلفهما أذلّة خاشعين عشرين سنة حتّى قلّ صبرهم فظنّوا أنّها الهلكة فنزل جبرئيل وقال: إنّ الله تعالى أجاب دعوتك في ولدك.[3]

١ـ تفسير الثعلبي، ج٥، ص٢٥٧.

٢ـ انظر: تفسير الثعلبي، ج٣، ص٣٥١؛ وبحار الأنوار، ج١٢، ص٢٥٠.

٣ـ الدرّ المنثور، ج٤، ص٣٧؛ جامع البيان، ج١٣، ص٩٧.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠)﴾

المعنى هاهنا حذف تقديره: فلمّا خرج يعقوب وأهله من أرضهم وأتوا دخلوا على يوسف، فجنف السير إلى مصر فرحاً وسرورا في تسعة أيّام فلمّا دخلوا على يوسف في دار الملك اعتنق أباه وقبّله وبكى ورفعه ورفع خالته على سرير الملك، ثمّ دخل منزله واكتحل وادّهن ولبس ثياب العزّ والملك فلمّا رأوه سجدوا إعظاماً له وشكرا للّه عند ذلك ولم يكن يوسف في تلك المدّة يدّهن ولا يكتحل ولا يطيب.

وقيل: إنّ يوسف بعث مع البشير مائتي راحلة مع ما يحتاج إليه في السفر فلمّا دنا يعقوب من مصر تلقّاه يوسف في الجند وأهل مصر، فقال يعقوب: يا يهودا أهذا فرعون مصر؟ قال: هذا ابنك. ثمّ تلاقيا. قال الكلبي: تلاقيا على يوم من مصر فلمّا دنا يعقوب بدأ بالسلام فقال: السلام عليك يا مذهب الأحزان.

عن أبي عبد اللّه ـ بحذف الأسانيد ـ قال: **«لما أقبل يعقوب إلى مصر خرج يوسف ليستقبله فلمّا رآه يوسف همّ بأن يترجّل له، ثمّ نظر إلى ما هو من الملك فلم يفعل فلمّا سلّم على يعقوب نزل جبرئيل عليه، وقال: يا يوسف إنّ الله جلّ جلاله يقول: هل منعك أن تنزل إلى عبدي الصالح ما أنت فيه؟ أبسط يدك فبسطها فخرج من بين أصابعه نور فقال: يا جبرئيل ما هذا؟ قال: هذا أنّه لا يخرج من صلبك نبيّ أبداً عقوبة**

على ما صنعت بيعقوب إذ لم تنزل إليه».[١]

﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ﴾ أي: ضمّ يوسف إليه أبويه وأنزلهما عنده وعانقهما. وقال أكثر المفسّرين: إنّه يعني: بأبويه أباه وخالته أمّ يامين لأنّ يعقوب لمّا مضت أمّ يوسف في النفاس بأخيه بنيامين تزوّج خالة يوسف، و«بنيامين» بالعبرانيّة ابن الوجع، فسمّاها بأحد الأبوين لقيامها مقام الأمّ ولأنّ الخالة أمّ كما أن العمّ يسمّى أبا، ومنه قوله: ﴿وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ﴾[٢] وقيل: يريد أباه وامّه وكانا حيّين.

وقيل: إنّ راحيل أمّه نشرت من قبرها حتّى سجدت له تحققاً للرؤيا. وبالجملة قال لهم يوسف قبل دخولهم مصر: ﴿ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ والاستثناء يعود إلى الأمن لأنّهم ما كانوا يدخلون مصر إلّا بجواز ملوك مصر وكانوا يخافون من ملوك مصر وأنّهم لمّا دخلوا مصر كانوا ثلاثة وسبعون إنساناً، وخرجوا مع موسى وهم ستّمائة ألف وخمسمائة وبضع وسبعون رجلاً.

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ أي: رفعهما على سرير السلطنة إعظاماً لهما و«العرش» السرير المرتفع وانحنوا على وجوههم وكان تحيّة الناس بعضهم للملوك يومئذ السجود والتكفير[٣]، ولم يكونوا نهوا عن السجود لغير اللّه في شريعتهم. وقيل: كان سجودهم كهيئة الركوع كما يفعل الأعاجم. وقيل: الهاء راجعة إلى اللّه أي: سجدوا للّه شكراً على هذه النعمة. وهذا ينافي الرؤيا. وقيل: توجّهوا في السجود إليه كما يقال: صلّى للقبلة، ويراد استقبالها.

١ـ مجمع البيان، ج٥، ص ٤٥٦.

٢ـ سورة البقرة: ١٣٣.

٣ـ وضع اليدين على الصدر.

وقال عليّ بن إبراهيم: إنّ يحيى بن أكثم سأل مسائل وعرضوها على أبي الحسن عليّ بن محمّد الجواد عليه السلام، أحدها أن قال: أخبرني أسجد يعقوب وولده ليوسف وهم أنبياء؟ فأجاب أبو الحسن: **«أمّا سجود يعقوب وولده فإنّه لم يكن ليوسف وإنّما كان ذلك طاعة لله منهم وتحيّة ليوسف كما أنّ السجود من الملائكة كان منهم طاعة لله وتحيّة لآدم عليه السلام، فسجد يعقوب وولده ويوسف معهم شكراً لله لاجتماع شملهم، ألم تر أنّ يوسف يقول في ذلك الوقت: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾ الآية وقال يوسف: يا أبت هذا تأويل رؤياي وتصديق رؤياي الّتي رأيتها من قبل»**[1].

فائدة: إنّ من قرأ «يا أبتِ» بكسر التاء فعلى الإضافة إلى نفسه وحذف الياء لأنّ ياء الإضافة يحذف في النداء وأمّا إدخال تاء التأنيث في الأب فإنّما دخلت في النداء خاصّة والمذكّر قد يسمّى باسم فيه علامة التأنيث، فالاسم مثل عيسى ونفس، والصفة نحو غلام لقيته ورجل ربعة فلزمت التاء في الأب عوضاً من ياء الإضافة والوقف عليها بأنّه يقول: يا أبه بالهاء. وأمّا يا «أبت» بالفتح فعلى أنّه أبدل من ياء الإضافة ألفاً ثمّ حذف الألف كما حذف ياء الإضافة وبقيت الفتحة وقول رؤبة: «يا أبتا علّك أو عساكا» فلمّا كثرت هذه الكلمة ألزموها الحذف والقلب، وأمّا الوقف على الهاء لأنّ تاء التأنيث يبدل منها الهاء في الوقف فيغيّر الحرف بذلك في الوقف كما غيّر التنوين إذا انفتح ما قبله، بأن أبدل منه الألف.

فيقول الإمام: ثبت أنّ السجود من آل يعقوب إنّما كان للّه لا ليوسف قال يوسف: يا أبت هذا تعبير رءياي الّتي رأيتها من قبل قد جعلها حقّاً وواقعا وصدقا في اليقظة. وقيل: كان بين الرؤيا وتأويلها ثمانون سنة. وقيل: سبعون، عن سلمان الفارسيّ. وقيل: اثنتان وعشرون. وقيل ثماني عشرة. وولد

١ـ تفسير القمي، ج ١، ص٣٥٦؛ وانظر: قصص الأنبياء ص٢٢٥.

ليوسف من زليخا: إفرائيم، وميسان، ورحمة امرأة أيّوب، وكان بين يوسف وبين موسى أربع مائة سنة.

﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾ أي: أخرجني من السجن إلى أن بلغني إلى هذه المرتبة ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ إلى هاهنا في هذا المقام فإنّهم كانوا يسكنون البادية ويرعون أغنامهم فيها، و«البَدْو» بسيط الأرض يظهر فيه الشخص من بعيد، سمّي المكان باسم المصدر فيقال: «بدو، وحضر» وقيل: إنّ «بدًا» و«شعب» موضعان. قال كثيّر:

وأنت الّذي حبّبت شعبا إلى بـدًا ... إليّ، وأوطـاني بـلاد سـواهما

وعلى هذا القول ما كانوا بدويّين بل حضريّين. وإنّما بدًا يوسف بالسجن في تعداد نعم الله دون إخراجه من الجبّ، مع أنّه أهمّ في الذكر؟ كرماً بصنيع إخوته به.

﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ﴾ وأفسد اللعين بيننا أي: دخل بيننا بالحسد، وأصل النزغ النخس للدابّة وحملها على الجري. واحتجّوا العدليّة بهذه الآية على بطلان الجبر. لأنه عليه السلام أضاف الإحسان إلى الله وأضاف النزغ إلى الشيطان، ولو كان ذلك أيضاً من الرحمن لوجب أن لا ينسب إلّا إلى الله كما في النعم نسبها إلى الله إنّه هو الحكيم في أفعاله العليم بالمصلحة.

﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾

وفي كتاب النبوّة بالإسناد عن أبي عبد الله قال: «**قال يعقوب ليوسف: يا**

بنيّ حدّثني كيف صنع بك إخوتك؟ قال: يا أبه دعني، فقال: أقسمت عليك إلّا ما أخبرتني. فقال له: أخذوني وأقعدوني على رأس الجبّ، ثمّ قالوا: لي انزع قميصك، فقلت لهم: إنّي أسألكم بوجه أبي يعقوب أن لا تنزعوا قميصي ولا تبدوا عورتي، فرفع فلان السكّين عليّ وقال: انزع، فصاح يعقوب وسقط مغشياً عليه، ثمّ أفاق فقال: يا بنيّ كيف صنعوا بك؟ فقال يوسف: يا أبة إنّي أسألك بإله إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلّا أعفيتني عن هذه المقالة، قال: فتركه يعقوب»[١]. وفي رواية أنّ يوسف قال لأبيه: **«لا تسألني عن صنع إخوتي بي واسأل عن صنع الله بي»**.[٢]

وبالجملة عاش يعقوب مائة وسبعا وأربعين سنة ودخل مصر على يوسف وهو ابن مائة وثلاثين سنة، وكان بمصر سبع عشرة سنة، ثمّ توفّي ونقل إلى بيت المقدس في تابوت من ساج ووافق ذلك يوم مات عيصو أخوه فدفنا في قبر واحداً، فمن ثمّ ينقل اليهود موتاهم إلى بيت المقدس، ثمّ رجع يوسف إلى مصر بعد أن دفن أباه ببيت المقدس عن وصيّة منه، وعاش بعد أبيه ثلاثا وعشرين سنة. وفي كتاب النبوّة عن أبي جعفر أنّه عليه السلام قال: **«عاش يعقوب مع يوسف بمصر عامين، قال الراوي: سألته فمن كان الحجّة لله في الأرض يعقوب أم يوسف؟ قال: كان الحجّة يعقوب وكان الملك ليوسف وكان ليوسف بعد يعقوب الحجّة ورسولا نبيّاً، أما تسمع قول الله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾**[٣]**»**.[٤]

قال أبو عبد الله: ولمّا جمع الله شمل يعقوب وأقرّ عين يوسف وأتمّ له رؤياه ووسّع عليه في ملك الدنيا ونعيمها، علم أنّ ذلك لا يبقى له ولا يدوم فطلب من الله نعيما لا يفنى واشتاقت نفسه إلى الجنّة فتمنّى الموت ودعا به،

١ـ مجمع البيان، ج٥، ص٤٥٨؛ وعن كتاب النبوة؛ وبحار الأنوار، ج١٢، ٢٥٢.

٢ـ مجمع البيان، ج٥، ص٤٥٨؛ وبحار الأنوار، ج١٢، ص٢٥٢.

٣ـ سورة غافر: ٣٤.

٤ـ تفسير الصافي، ج٣، ص٥٠؛ وانظر: تفسير العياشي، ج٢، ص١٩٨؛ وجوامع الجامع، ج٢، ص ٢٤٢.

ولم يتمنّ ذلك نبيّ قبله ولا بعده فقال: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾ أي: أعطيتني ملك النبوّة وملك مصر ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ أي: تأويل الرؤيا خالق ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ومنشئهما لا على مثال سبق ﴿أَنتَ وَلِيِّۦ﴾ أي: ناصري وحافظي ﴿فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾ أي: ثبّتني على الإيمان وأمتني مسلماً ﴿وَأَلْحِقْنِي﴾ بأهل الجنّة. فتوفّاه الله بمصر وهو نبيّ فدفن في النيل في صندوق من رخام وذلك أنّه لمّا مات تشاحّ الناس عليه كلّ يحبّ أن يدفن في محلّته لما كانوا يرجون من بركته فرأوا أن يدفنوه في النيل فيمرّ الماء عليه ثمّ يصل إلى جميع مصر فيكون كلّهم فيه شركاء وفي بركته مستفيضون، فكان قبره في النيل في صندوق من رخام.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ ثمّ عاد سبحانه بعد تمام القصّة إلى خطاب النبيّ فقال: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ أي: الّذي قصصت عليك من قصّة يوسف من جملة الأخبار المجهولة عليك ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ على ألسنة الملائكة لتخبر به قومك ويكون علمه دلالة على إثبات نبوّتك ومعجزة على صدقك ﴿وَمَا كُنتَ﴾ يا محمّد عند أولاد يعقوب إذ عزموا على إلقائه في البئر واجتمع آراؤهم عليه ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ ويحتالون في أمر يوسف حتّى ألقوه.

وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ
أَجْرٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم
بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ
ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾

المعنى: لمّا بيّن الآيات الّتي لو تفكّروا فيها عرفوا الحقّ من جهتها، ولم يتفكّروا، بيّن في هذه الآية أنّ التقصير من جهتهم لا من جهته سبحانه ولا من

جهتك لأنك دعوتهم فقال: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ﴾ بمصدّقين نبوتك ﴿وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ـ و«الحرص» طلب الشيء باجتهاد في إصابته ـ لأنّ حرص الداعي لا يفيد إذا كان المدعوّ لا يجيب.
وسبب نزول الآية أنّ جماعة من اليهود طلبوا بيان هذه القصّة من رسول الله وظنّ رسول الله أنّهم بعد سماع القصّة يؤمنون، فلمّا ذكرها ﷺ أصرّوا على كفرهم فنزلت.

وهذا القرآن يشتمل على منافع عظيمة وأنت لا تطلب منهم شيئاً ومالا جعلا، فلو كانوا عقلاء لقبلوا ولم يتمرّدوا لأنّ القرآن تذكرة لهم في دلائل التوحيد والنبوّة، وحاصل المعنى أنّك ما تطلب منهم أجراً ومالا حتّى يكون ذلك مانعاً لقبولهم، فكيف لا يقبلون صلاحهم؟ ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ﴾ أي: كم من آية وحجّة من العدد شتت من العلامات الدالّة على وحدانيّة الله من الشمس والقمر والنجوم والسماوات والجبال والشجر وألوان النباتات وأحوال المتقدّمين ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾ ويبصرونها ﴿وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ عن التفكّر فيها.

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ قريش وعبدة الأصنام كانوا يقرّون بالله خالقا ومحييا ومميتا، ويعبدون الأصنام ويدعونها آلهة مع أنّهم كانوا يقولون: الله ربّنا وإلهنا ورازقنا. فكانوا مع هذا الإقرار مشركين بسبب عبادة الأصنام فحينئذ إيمانهم شرك.

وقيل: إنّها نزلت في مشركي العرب إذا سئلوا: من خلق السماوات والأرض، وينزل المطر؟ قالوا: الله ثمّ هم في تلبيتهم يقولون: لبّيك لا شريك لك إلّا شريكاً هو لك تملكه وما ملك.

وثالث الأقوال: أنّهم أهل الكتاب آمنوا بالله واليوم الآخر والتوراة والإنجيل،

ثمّ أشركوا بإنكار القرآن وإنكار نبوة محمدﷺ. عن عليّ بن موسى عليه السلام.[1]

ورابع الأقوال: أنّهم المنافقون يظهرون الإيمان ويشركون في السرّ.

وخامس الأقوال: أنّ المراد شرك الطاعة لا شرك العبادة أطاعوا الشيطان في المعاصي الّتي يرتكبونها ممّا أوجب الله عليها النار، فأشركوا بالله في طاعته ولم يشركوا بالله شرك عبادة فيعبدون غيره، عن أبي جعفر عليه السلام.[2]

وروي عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قول الرجل: «**لو لا فلان لهلكت**» و«**لو لا فلان لضاع عيالي**» جعل للّه شريكاً في ملكه يرزقه ويدفع عنه وهذا الشرك لا يبلغ به الكفر.

﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ﴾ أي: أفاطمأنوا وأمنوا هؤلاء الكفّار أن يأتيهم عذاب من الله يعمّهم ويحيط بهم كالغاشية الّتي تحيط وتستر السرج، مجلّلة، مجلّلة لجميعهم، وهو عذاب الاستئصال. وقيل: هي الصواعق والقوارع ﴿أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ﴾ القيامة ﴿بَغۡتَةً﴾ فجاءة من غير ترقّب على غفلة منهم ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ بقيامها، قال ابن عبّاس: تهجم الصيحة بهم وهم في الأسواق واللقمة في فيهم والميزان بيدهم.

قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٠٩﴾

المعنى: ثمّ أمر نبيّه أن يبيّن للمشركين ما يدعو إليه فقال: ﴿قُلۡ﴾ يا

١ـ نور البراهين، السيد الجزائري، ج٢، ص ٢٠٦ وبحار الأنوار، ج٩، ص١٠٦ وتفسير نور الثقلين، ج٢، ص٤٧٦.

٢ـ نور البراهين، ج٢، ص٢٠٦؛ وبحار الأنوار، ج٥٥، ص٣١٧؛ ومجمع البيان، ج٥، ص٤٦٢.

محمّد لهم ﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾ وطريقتي وسنّتي ومنهاجي الّذي أدعوكم به و﴿أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ وتوحيده ودينه على يقين وعلم لا على وجه التقليد ﴿أَنَا۠﴾ أدعوكم ﴿وَمَنِ﴾ آمن بطريقتي يدعوكم إلى هذا الأمر وتنزيها لله عمّا يشركون. والتقدير: قل هذه سبيلي وقل سبحان الله. وقيل: اعتراض بين الكلامين والواو فيه مثل قولك: «قال الله وهو منزّه عن الشركاء».

وفي هذه الآية دلالة على أنّ دعوة الخلق إلى دين الله لابدّ وأن يكون على بصيرة من الداعي ويقين وفضيلة فضّلها الله بعض خلقه بها وهي حرفة الأنبياء قال ﷺ: **«العلماء أمناء الرسل على عباد الله من حيث يحفظون لما يدعونهم إليه»**[1].

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ﴾ أي: إنّه سبحانه إنّما أرسل الرسل من أهل الأمصار لأنّهم أرجح عقلاً وعلما من أهل البوادي لبعد أهل البوادي عن العلم قال بعض العلماء: لم يبعث الله نبيّاً قطّ من أهل البادية ولا من النساء.

﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ﴾ هؤلاء المشركون المنكرون لنبوّتك ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ من المكذّبين لرسلهم؟ وكيف أهلكم بعذاب الاستئصال؟ فيعتبروا ويحذروا مثل ما أصابهم ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾ يقول هذا صنيعنا بأهل الإيمان والطاعة، ولدار الآخرة خير لهم من دار الدنيا وما فيها، أفلا تفهمون ما قيل لكم؟

حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ
مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ
عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي
بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿١١١﴾

١ـ مجمع البيان، ج ٥، ص ٤٦٤.

أخبر اللّه نبيّه في هذه الآية عن حال الرسل مع أممهم تسلية للنبي ﷺ فقال ـ وفي الكلام حذف لدلالة الكلام عليه والتقدير: «**إنّا أخّرنا العذاب عن الأمم السالفة المكذّبة لرسلنا كما أخّرناه عن أمّتك يا محمّد حتّى إذا بلغوا إلى حالة يأس الرسل عن إيمانهم وتحقّق يأسهم بإخبار الله تعالى إيّاهم**» ـ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ من إيمان القوم ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾ وفي هذا الضمير اختلاف قيل: إنّ الضمير راجع إلى القوم إنّ القوم لمّا استبطئوا العذاب ظنّوا أنّ الرسل كذبوا فيما وعدوا من النصر والظفر، فحينئذ ﴿كُذِبُواْ﴾ بالتخفيف.

فإن قيل: هذا إضمار قبل الذكر لأنّه لم يجر فيما سبق من الكلام ذكر المرسل إليهم فكيف يجوز عود هذا الضمير إليهم؟ قلنا: ذكر الرسل يدلّ على المرسل إليهم وإن شئت قلت: إنّ ذكرهم جرىٰ في قوله: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ فيكون الضمير عائدا إلى الّذين من قبلهم من مكذّبي الرسل.

وأمّا قراءة التشديد فمعناه أنّ الرسل أيقنوا أنّ الأمم كذّبوهم تكذيباً لا يصدر منهم الإيمان بعد ذلك فحينئذ دعوا عليهم فهنا لك أنزل اللّه سبحانه عليهم عذاب الاستئصال. وورود الظنّ بمعنى العلم كثير في القرآن قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ﴾[1] أي: يتيقّنون. وفسّر وجوهاً أخر لا يليق وهو أنّ الظانّين الرسل.

روي أنّ سعيد بن جبير والضحّاك اجتمعا في دعوة فسأل الضحّاك سعيد بن جبير عن هذه الآية فقال: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾[2] بالتخفيف بمعنى وظنّ المرسل إليهم أنّ الرسل قد كذبوهم. فقال الضحّاك: ما رأيت

١ـ سورة البقرة: ٤٦.

٢ـ سورة القصص: ١٥.

كاليوم قطّ لو رحلت في هذه الآية وتفسيرها إلى اليمن لكان قليلاً.

أقول: ولا يليق أن يقال: إنّ الأنبياء ظنّوا هذا الظنّ الفاسد قالت عائشة: ما وعد اللّه محمّداًﷺ شيئاً إلّا وقد علم أنّه سيوفيه ولكنّ البلاء لم يزل بالأنبياء حتّى خافوا من أن يكذّبهم الّذين كانوا قد آمنوا بهم، وهذا الردّ والتأويل في غاية الحسن.

﴿جَآءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ أي: لمّا بلغ الحال إلى الحدّ المذكور جاءهم نصرنا لهم ﴿فَنُجِّيَ﴾ قرئ بنون وتشديد الجيم على البناء للمفعول وقرئ بنونين على الاستقبال بمعنى نحن نفعل بهم ذلك ونخلصهم، وإنّما حكي فعل الحال والقصّة ماضية كقوله: ﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾[1] إشارة إلى الحاضر والقصّة ماضية. ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ﴾ أي: في قصّة يوسف وقصص إخوته أو القصص من البدو إلى الختم اعتبارا لأهل العقل. و«العبرة» عبارة عن العبور عن الطرف المعلوم إلى الطرف المجهول، ويستنبط من المعلوم إلى المجهول بالتأمّل والتفكّر وهو أنّ التأمّل في مثل هذه الأمور مثل أن ينتهي حال رجل قد ألقوه في البئر وباعوه بثمن وكس، وحبسوه سنين متطاولة، وهو وصل من غير سبب ونسب إلى مثل هذه السلطنة العظيمة في الدنيا والدين ليس إلّا أمر خارج عن حدّ العادة، ولابدّ أن يكون بمشيئة غيره تحصّل هذا الأمر وليس إلّا بتقدير القادر القاهر.

﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ أي: ما كان ما أدّاه محمّد حديثاً يختلق كذباً، ﴿وَلَٰكِن﴾ كان ﴿تَصْدِيقَ﴾ الكتب ﴿الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ لأنّ هذه القصّة وردت على وجه الموافق للتوراة وسائر الكتب ونصب «تصديقاً» على تقدير

١ـ مجمع البيان، ج٥، ص٤٦٨؛ وبحار الأنوار، ج١١، ص٨٦.

ولكن كان تصديقاً كقوله: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[1] أي: هذه القصّة وسائر القرآن تصديق الكتب الّذي بين يديه، ﴿وَتَفۡصِيلَ﴾ بيان ﴿كُلِّ شَيۡءٖ﴾ من الحلال والحرام والشرائع للمؤمنين لأنّهم المنتفعون به دون غيرهم.

تمّت السورة بحمد اللّه.

١ـ سورة الأحزاب: ٤٠.

سُورَةُ الرَّعْدِ

مكيّة كلّها إلّا آخر آية منها نزلت في عبد الله بن سلام، فإنّها مدنيّة، وقيل: إنّها مدنيّة إلّا اثنين فإنّهما مكيّة.

فضلها: عن أبي بن كعب عن النبي ﷺ قال: **«من قرأها أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد كلّ سحاب مضى وكلّ سحاب يكون إلى يوم القيامة، وكان يوم القيامة من الموفين بعهد الله»**.[1]

وقال أبو عبد الله عليه السلام: **«من أكثر قراءة الرعد لم يصبه الله بصاعقة وإن كان مؤمناً ادخل الجنّة بغير حساب، وشفّع في جميع من يعرفه من أهل بيته وإخوانه»**[2].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَاۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾

قد سبق ذكر فواتح السور، في المعاني عن الصادق عليه السلام: « ﴿الٓمٓر﴾: أنا

١ـ تفسير نورالثقلين، ج ٢، ص ٤٨٠؛ ومجمع البيان، ج٦، ص٥؛ ومستدرك الوسائل، ج ٤، ص٣٤٣.

٢ـ تفسير نورالثقلين، ج ٢، ص ٤٨٠؛ ومجمع البيان، ج٦، ص٥؛ ومستدرك الوسائل، ج ٤، ص٣٤٢.

الله المحيي المميت الرازق»[١] ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى أنّ هذه ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الّتي تقدّم الوعد بها، وليست بمفتريات ولا بسحر بل قرآن وحقّ، وقيل: إنّ الكتاب عبارة عن التوراة والإنجيل فيكون المعنى: تلك الأخبار الّتي قصصتها عليك آيات التوراة والإنجيل والكتب المتقدّمة الدالّة على الأمور المؤدّية إلى المعرفة بالله وأنّ القرآن لا يشبه شيئاً من الكلام ولا يشبهه شيء من الكلام في جامعيّته، وأنّه ﴿ٱلْحَقُّ﴾ فاعتصم به ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ لا يصدّقون بأنه الحقّ وبأنّه منزّل من عند الله.

ولمّا ذكر أنّه منزّل منه تعالى ولكن لا يؤمنون به، ثمّ عرّف الدليل الّذي يوجب التصديق به وبخالقيّته: هو ﴿ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ قيل: إنّ السماوات لها عمد ودعائم ولكن لا ترونها[٢]. وقيل: ليس لها دعائم وترونها أنّها فارغة عن العمد. العيّاشيّ قال: قال الرضاؑ: «**فثمّ عمد ولكن لا ترونها**». والعمد جمع العماد ويجوز أن يكون اسم جمع فاستدلّ سبحانه بأحوال السماوات ابتداء.

والمعنى أنّ هذه الأجسام العظيمة بقيت واقفة في الجوّ العالي بغير عمد، ويستحيل أن يكون بقاؤها بذواتها لأنّ الأجسام متساوية في الماهيّة ولو وجب حصول جسم في حيّز معيّن لوجب حصول كلّ جسم في ذلك الحيّز، ولو وجب حصول جسم في حيّز معيّن لوجب حصوله في جميع الأحياز ضرورة أنّ الأحياز بأسرها متشابهة، فحصول الأجرام الفلكيّة في أحيازها وجهاتها المعيّنة ليس أمر واجب لذاته، والخلأ لا نهاية له فحصول جسم معيّن بحيّز معيّن من دون الأحياز مع أنّ الأحياز متساوية والخلأ لا نهاية لابدّ

١ـ بحار الأنوار، ج٨٩، ص٣٧٣؛ تفسير نورالثقلين، ج٢، ص٤٨٠؛ ومعاني الأخبار للصدوق، ص٢٢.

٢ـ بحار الأنوار، ج٥٧، ص٧٩؛ وتفسير نورالثقلين، ج٢، ص٤٨١؛ وتفسير العياشي، ج٢، ص٢٠٣.

من تخصيص مرجّح ومخصّص.

ولا يجوز أن يقال: إنّها اختصّت وبقيت بسلسلة فوقها لأنّه يعود الكلام بتلك السلسلة ولزم المرور إلى ما لا نهاية له وهو محال فثبت أنّ هذه الخصوصيّات بمدبّر غيرها تعالى شأنه العزيز، فهذا برهان قاهر على وجود الإله، وكذلك في الشمس والقمر والأرض والنبات وما سواه لأنّ اختصاصيّتها بتحيّزاتها الخاصّ وتكيّفاتها بكيفيّات مختلفة يدلّ على تخصيص مخصّص متصرّف في ذواتها وخارج عنها قاهر عليها.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أي: استولى على العرش واستوى واستقرّ أمر العرش بعد خلقه، والوجه في إدخال كلمة ﴿ثُمَّ﴾ في الكلام مع أنّه لم يزل كان مقتدراً أنّ المراد اقتداره على تصريفه وتقليبه ولا يوصف به إلّا بعد وجود العرش.

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ وذلّلهما لمنافع خلقه ومصالح عباده، كلّ واحداً منهما يجري ويتحرّك إلى وقت معيّن وهو فناء الدنيا وقيام الساعة الّتي تكوّر عندها الشمس وينخسف القمر وينكدر النجوم أو المراد بالأجل المسمّى منازلهما الّتي ينتهيان إليها ولا تجاوزانها، وللشمس مائة وثمانون منزلاً تنزل كلّ يوم منزلاً حتّى تنتهي إلى آخر المنازل فلا يجاوزه، وترجع إلى أوّل المنازل، وينزل القمر كلّ ليلة منزلاً حتّى ينتهي إلى آخر منازله، فهو سبحانه يدبّر الأمور كلّها من الإيجاد والإعدام والإغناء والإفقار ويكلّف الخلق من أي: جهة على كمال القدرة والحكمة.

﴿يُفَصِّلُ ٱلْآيَـٰتِ﴾ يأتي بآية في أثر آية فصلاً فصلاً مميّزاً بعضها عن بعض ليكون أمكن للاعتبار والتفكّر ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ لكي توقنوا بالبعث والنشور، وفي هذا دلالة على وجوب النظر المؤدي إلى معرفة الله

وعلى بطلان التقليد.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾

لمّا قرّر الدلائل السماويّة أردفها بتقرير الدلائل الأرضيّة ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى﴾ بسطها طولاً وعرضا ليتمكّن الحيوانات من الثبات عليها والاستقرار فيها.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ أي: جعل فوق الأرض جبالاً ثابتة باقية متمكّنة في أحيازها يقال: رسى الوتد وأرسيته، وطبيعة الأرض واحدة فاختصاص البعض بكونه الجبل دون البعض بتخليق الحكيم بالمصالح كما أنّ الأرض واحدة في الطبيعة، والجبل واحداً في الطبع، وتحصل من الأرض والجبال الفلزّات المختلفة الأثر والمعادن المختلفة الكيفيّة كالزاج والأملاح والقير والنفط والكبريت، وهذه أمور مختلفة من موضع واحديّ الطبع حتّى أنّه يوجد في جبل عين ماء حارّ سخين لا يمكن مسّه من شدّة الحرارة وبجنبه عين ماء زلال بارد كالثلج، وبينهما مسافة شبر بل فتر، وكيف يمكن أن يتصوّر أنّ طبيعة هذا الفتر من الأرض غير طبيعة ذلك الفتر في طرفيها فرق من جميع الجهات.

﴿وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي: وشقّ فيها أنهاراً تجري فيها المياه ليتمكّن من الشرب والسقي ولو لا الأنهار لضاع المياه لأنّ الماء جسم سيّال والأرض منبسطة. ومن كلّ الثمرات ﴿جَعَلَ فِيهَا﴾ وفي أصنافها صنفين أسود وأبيض وحلوا وحامضا ورطبا ويابسا وصيفيّا وشتويّا.

والزوج قد يكون فرداً وقد يكون اثنين يقال: زوج نعل وزوجين نعل.

وإنّما قال: اثنين إمّا باعتبار هذا المعنى أو للتأكيد والزوج في الحيوان عبارة عن الذكر والأنثى، وفي الثمار عبارة عن لونين أو باعتبار الذكورة والأنوثة لأنّ جنس من النبات كذلك وإن خفي ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ﴾ ضياء ﴿ٱلنَّهَارَ﴾ ليسكن الحيوانات فيه ويأتي بضياء النهار ليمحو ظلام الليل لمعايشهم. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما سبق ذكره لدلالات واضحة على وحدانيّة الله لأهل الاستدلال والتعقّل.

﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ أي: أبعاض متقاربات مختلفات في التفاضل منها جبل صلب لا ينبت شيئاً، ومنها سهل حرّ ينبت مع تقارب بعضها من بعض ﴿وَجَنَّٰتٌ﴾ وبساتين ﴿مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ أي: من أصل واحداً يكون النخيل ومن نخلات واصول شتّى و«الصنو» الأصل و«الصنوان» النخلة تكون حولها النخلات وغير صنوان النخل المتفرّق.

﴿يُسْقَىٰ﴾ ما ذكرناه ﴿بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾ من الأنهار أو من السماء [و] مع ذلك ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ في الطبع والشكل واللون والطعم، فلو كانت بالطبع لما اختلفت طعومها وألوانها مع كون الأرض والماء والهواء واحداً، وهذا دليل واضح.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ﴾ يعرفون، مثلاً إنّك ترى وردة واحدة من أصله واحدة في غاية الرقّة والنعومة في أرضة واحدة أحد وجهها في غاية الحمرة والوجه الثاني في غاية السواد، أو نصف الوجه في غاية الحمرة والنصف الآخر في غاية البياض، ويستحيل أن يقال: وصل تأثير الشمس إلى أحد طرفيه دون الثاني ونعلم أنّ نسبة الطباع والأفلاك بالنسبة إلى هذا الورد المخصوص بالسويّة فمن أين حصل هذا الاختلاف؟

فهذا التدبّر والتعقّل يوجب لك العلم بوجود مخصّص ومدبّر، لأنّ العلم

بافتقار الحادث إلى المحدث علم ضروريّ.

﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾﴾

العجب والتعجّب هجوم ما لا يعرف سببه على النفس ﴿وَإِن تَعْجَبْ﴾ يا محمّد من قول هؤلاء بتكذيبك في نبوّتك بعد أن حكموا واعترفوا بصدقك، أو إن تعجب منهم بعبادتهم ما لا يضرّ ولا ينفع بعد أن عرفوا بهذه البيّنات من أنّه مدبّر السماوات والأرض وخالق الشمس والقمر والحيوان والنبات ﴿فَعَجَبٌ﴾ إنكارهم البعث حيث قالوا: أنبعث ونعاد بعد ما صرنا تراباً؟ وهذا منهم في غاية العجب.

وسمّي الإعادة خلقاً جديداً فإذا جاز الإنشاء بالاستحالة الأولى حيث التراب صار إنساناً والماء صار علقة ثمّ مضغة ثمّ لحما ثمّ إنساناً فلم لا يجوز تعلّقه بالاستحالة الثانية بأن يجعل التراب ثانياً إنساناً لأنّ القادر على الأقوى الأكمل قادر على الأقلّ الأضعف. هؤلاء المنكرون بالبعث ﴿كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ﴾ فكلّ من أنكر البعث والقيامة فهو كافر بنصّ الآية لأنّ إنكار البعث إنكار القدرة والصدق والعلم ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ﴾ فيه قولان قيل: المراد بالأغلال كفرهم وذلّتهم وانقيادهم للأصنام ونظيره قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾[١] قال الشاعر: «لهم عن الرشد أغلال وأقياد[٢]».

قال العاصي: هذا المعنى وإن كان محتملاً إلّا أنّ حمل الكلام على الحقيقة أولى أو المراد أنّه تعالى يجعل الأغلال في أعناقهم يوم القيامة

١ـ سورة يس: ٨.

٢ـ كنزالفوائد، أبو الفتح الكراجكي، ص٢٥٢.

والدليل عليه قوله تعالى: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ * فِي ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾[1]. ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ وفي الآية صراحة على تأبيد عذاب الكفّار.

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾ يا محمّد هؤلاء المشركون بالعذاب قبل الرحمة، وبالعقاب الّذي توعّدوا به على التكذيب قبل الثواب الّذي وعدوا به على الإيمان وذلك حين قالوا: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾[2] و﴿قَدْ﴾ مضت ﴿مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ﴾ أي: العقوبات وهو ما حلّ بهم من المسخ والخسف والغرق وقد سلك هؤلاء طريقتهم فكيف يتجاسرون على استعجالهم؟ و«المثلة» العقوبة المبيّنة في المعاقب شيئاً من أثرها كتغيّر في الصورة تبقى تغيّر قبيح أو خزي وفضيحة، والمعنى: وقد وقعت المثلات بأقوام قبلهم.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ قال المرتضى: في هذه الآية دلالة على جواز المغفرة للمؤمنين من أهل القبلة لأنه سبحانه دلّنا على أنه يغفر لهم مع كونهم ظالمين لأنّ قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ إشارة إلى الحال الّتي يكونون عليها ظالمين كقولك: «أنا أودّ فلانا على عيبه وأصله على هجره» وأصحاب السنّة والجماعة تمسكوا بهذه الآية على أنّه تعالى قد يعفو عن صاحب الكبيرة قبل التوبة ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن استحقّه.

وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾

١ـ سورة غافر: ٧٢.

٢ـ سورة الأنفال: ٣٢.

﴿وَيَقُولُ﴾ الكفّار لم لم ينزل عليك آية غير القرآن مثل الناقة والعصا؟ والسبب في هذا الاقتراح أنّهم أنكروا كون القرآن من المعجزات وطلبوا غير الآيات الّتي أتى بها فالتمسوا مثل آيات موسى وعيسى ومثل أن اجعل الصفا لنا ذهبا حتّى نأخذ منه ما نشاء، وإنّما لم يظهر اللّه تلك الآيات لأنّه لو أجاب أولئك لاقترح قوم آخرون آية أخرى، وكذلك كلّ كافر فكان يؤدّي إلى غير نهاية.

﴿إِنَّمَآ أَنتَ﴾ مخوّف وهاد لكلّ قوم، وليس إليك إنزال الآيات، وقيل: معناه إنّما أنت منذر يا محمّد ﴿وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾ يهديهم وداع يرشدهم وفي رواية أخرى عن ابن عبّاس قال: لمّا نزلت الآية قال رسول اللّه: «**أنا المنذر وعليّ الهادي من بعدي يا عليّ بك يهتدي المهتدون**».[1]

وروى الحاكم أبو القاسم الحسكانيّ في كتاب «شواهد التنزيل» بالاستناد عن إبراهيم ابن الحكم بن ظهير عن أبيه عن حكم الجبير عن أبي بردة الأسلميّ قال: دعا رسول اللّه ﷺ بالطهور، وعنده عليّ بن أبي طالب عليه السلام فأخذ رسول اللّه بيد عليّ عليه السلام بعد ما تطهّر فألزمها بصدره، ثمّ قال: «**إنّما أنت منذر، ثمّ ردّها إلى صدر عليّ، ثمّ قال: ولكلّ قوم هاد، ثمّ قال: إنّك منارة الأنام وغاية الهدى وأمير القرى وأشهد على ذلك أنّك كذلك**»[2].

ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ

١ـ انظر: التبيان، ج٦، ص٢٢٣؛ وجامع البيان للطبري، ج١٣، ص١٤٢؛ وفتح الباري لابن حجر، ج٨، ص٢٨٥.

٢ـ شواهد التنزيل، الحاكم الحسكاني، ج ١، ص٣٩٣؛ وبحار الأنوار، ج٢٣، ص٢.

ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾

النظم: إنّه تعالى لمّا قال: ﴿وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ﴾ في إنكار البعث وذلك لأنّهم أنكروا البعث بسبب أنّ أجزاء الأبدان عند تفرّقها وتفتّتها يختلط بعضها ببعض ولا يبقى الامتياز فبيّن في هذه الآية أنه إنّما لا يبقى الامتياز في حقّ من لا يكون عالماً بجميع المعلومات.

ثمّ احتجّ على كونه سبحانه عالماً بجميع المعلومات بأنّه ﴿يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ أي: يعلم ما تحمله من الولد أنّه من أي: الأقسام أهو ذكر أم أنثى تامّ أو ناقص حسن أم قبيح طويل أم قصير وغير ذلك من الحاضرة والمترقّبة فيه ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ﴾ وما تغيضه الأرحام و«الغيض» النقص والضمير محذوف ﴿وَمَا تَزۡدَادُ﴾ أي: تأخذه زيادة ومنه قوله: ﴿وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا﴾[١].

واختلفوا فيما تغيضه الرحم وتزداده على وجوه: الأوّل: عدد الولد من زمن العلوق إلى زمن الولادة والمولود في أقل مدّة الحمل والمولود في أكثرها. قيل: إنّ الضحّاك ذو السلعة ولد في سنتين وهرم ابن حيان في أربع سنين ومن ذلك سمّي هرماً، ويروى في العدد أنّ شريكاً كان رابع أربعة.

﴿وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ﴾ أي: في علمه في كمّه وكيفه بقدر وحدّ لا يجاوزه ولا ينقص عنه، وعالم ما غاب عن الخلق علمه وما شهدوه، وقيل: الغائب هو المعلوم والشاهد هو الموجود. وهو الكبير السيّد الملك القادر على كلّ شيء بقدرته.

﴿سَوَآءٞ مِّنكُم﴾ وكلمة سواء يطلب في معناه اثنين وإلّا لا يفرض التساوي لأنّ التساوي لا يتحقّق إلّا في الاثنينيّة، والمعنى: ذو سواء أو متساو

١ــ سورة الكهف: ٢٥.

في علمه ﴿مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ﴾ منكم في نفسه وأخفاه أو أعلنه وأبداه ﴿وَمَنْ هُوَ﴾ مستتر بالليل و﴿مُسْتَخْفٍ﴾ أو ظاهر أي: يعلم ويرى ما أخفاه الليل بظلمته وأظهره النهار بضوئه. ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ﴾ الضمير إمّا راجع إلى ﴿مَن﴾ في قوله: ﴿مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ﴾ أو إلى الله أو إلى النبيّ في قوله: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ﴾ ومن كلّ شيء ما خلف يعقّب ما قبله، و«المعقّبات» الملائكة الحفظة ووصفهم بالمعقّبات لأنّ ملائكة الليل يعقّب ملائكة النهار وبالعكس، أو لأنّهم يتعقّبون أعمال العباد ويتبعونها بالحفظ والكتب من أعمالكم، ومنه العقاب لأنّه يعقّب الجرم، ومنه العقاب لأنّه يتبع الصيد. وأيضا معقّبات يحفظونكم عن وجوه المهالك والجنّ والإنس والهوامّ، ويحفظونه بما لم يقدّر نزوله فإذا جاء المقدّر بطل الحفظ قال كعب: لو لا أنّ الله وكّل بكم ملائكة يذبّون عنكم في مطعمكم ومشربكم وعوراتكم لتتخطّفكم الجنّ.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ من النعمة والحال الجميلة ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ من الطاعة، قال أمير المؤمنين عليه السلام: **«إذا أقبلت عليكم أطراف النعم فلا تنفروا أقصاها بقلّة الشكر»**[1].

﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا﴾ وبلاء ومرضاً فلا مردّ لبلائه ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾ يلي أمرهم ويمنع العذاب عنهم.

فلو قيل: إنّ الملائكة ذكور فلم ذكر في جمعها جمع الإناث وهو المعقّبات؟

قال الفرّاء: واحداً المعقّبات معقّب، والجمع معقّبة، ومعقّبات جمع الجمع كما قالوا: رجالات جمع الجمع من رجال، وقال الأخفش: إنّما انّث لكثرة ذلك منها نحو علّامة ونسّابة، وهو ذكر.

ومعنى يحفظونه من أمر الله على التقديم والتأخير والتقدير: له معقّبات

١ـ نهج البلاغة، ج ٤، ص ٥، الحكمة. ١٣؛ ووسائل الشيعة (الإسلامية)، ج ١١، ص ٥٥٢.

من أمر الله يحفظونه أي: أمرهم الله بحفظه. وقيل: فيه إضمار أي: ذلك الحفظ ممّا أمر الله به، فحذف الاسم وبقي خبره كما يكتب على الكلس السفان والمراد الّذي فيه السفان، وقيل: «من» بمعنى الباء أي: بأمر اللّه، والدليل عليه أنّه لا قدرة للملائكة على أن يحفظوا أحدا من أمر الله وقضائه.

وهذا البيان يعني: أنّ الملائكة الحفظة للإنسان معيّنين لحفظ البشر من المهالك ومدبّرة لأمورهم كلام مقبول عند الفلاسفة والحكماء وأصحاب الطلسمات، النهاية أنّهم عبّروا بالأرواح الفلكيّة وخالفوا لسان الشرع بهذه الطريقة المقبوحة، ومن المعلوم بالبداهة في العقل أن يكون الملك المشتعر الحيّ المقتدر بقدرة اللّه حافظاً لنوع البشر أقرب للقبول من أن يكون الكوكب حافظاً ومدبّرا للإنسان لأنّ المنجّمين يعتقدون على أنّ التدبير في كلّ يوم لكوكب على حدة، وكذلك في كلّ ليلة على حدة، ويقولون: إنّ لتلك الكواكب أرواحا وتلك التدبيرات المختلفة لتلك الأرواح، وكذلك قولهم في تدبير القمر والهيلاج والكدخدا، وكذلك أصحاب الطلسمات، وكذلك يقولون: أخبرني الطباعيّ التامّ ومرادهم بالطباعيّ التامّ أنّ لكلّ إنسان روحاً فلكيّة يتولّى إصلاح مهمّاته ودفع بليّاته وآفاته.

ومن هذه الأقوال لعلّ انتشاء مذهب التصابؤ. وباليقين أن يكون يؤيّدك ويحفظك ملك من ملائكة اللّه أحرى بالقبول من أن يؤيّدك ويحفظك المرّيخ مثلاً لأنّ القوّتين ناشئتان من غيرهما، فإن قلت: منهما ـ عياذاً باللّه ـ فقد تعدّدت الآلهة إلى عدد لا يتناهى، وإن قلت: من غيرهما. فتعلّق هذه القوّة بالملك أقبل بالقبول من تعلّقها بجرم كمد مجهول الماهيّة والصورة كالقمر مثلاً على أنّ تمام الكتب السماويّة ناطقة بذلك، آمنت بما أنزل إليه في كتبه على لسان رسله.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿١٥﴾﴾

لمّا بيّن في الآية السابقة بأنّ اللّه إذا أراد بقوم سوء لا مردّ لقضائه أخبر في هذه الآية كمال قدرته فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾ تخويفاً وإطماعا فأقام الخوف والطمع مقام التخويف والإطماع، والخوف من الصواعق الّتي يكون معها وطمعا في الغيث الّذي ينزل، أو خوفاً لمن يخاف ضرر المطر، وطعما لمن يرجوا الانتفاع به فيشبه النعم والإحسان من بعض الوجوه، ويشبه العذاب والقهر من بعض الوجوه. قال المتنبّي:

فتى كالسحاب الجون يخشى ويرتجى ... يرجّى الحيا منها ويخشى الصواعق

واعلم أنّ حدوث البرق دليل عجيب على قدرة اللّه، وبيانه أنّ السحاب جسم مركّب من أجزاء رطبة مائيّة، ومن أجزاء هوائيّة وناريّة، ولا شكّ أنّ الغالب عليه الأجزاء المائيّة، والماء جسم بارد رطب، والنار جسم حارّ يابس، وكوّن الضد في الضدّ، فظهور الضدّ من الضدّ التامّ على خلاف العقل والعادة، فلابدّ من صانع مختار يظهر الضدّ من الضدّ. فإن قيل: إنّ الريح احتبس في داخل حرم السحاب واستولى البرد على ظاهره فانجمد السطح الظاهر منه، ثمّ إنّ الريح يمزّقه تمزيقا عنيفا فيتولّد من التمزيق الشديد حركة عنيفة والحركة موجبة للسخونة وهي البرق.

وهذا الكلام خلاف المعقول لأنّه لو كان كذلك لوجب أن يقال: أينما يحصل البرق يكون يحصل الرعد لأنّ الرعد صوت حادث من تمزّق السحاب وليس الأمر كذلك فإنّه كثيراً مّا يحدث البرق القويّ من غير حدوث الرعد، ثمّ إنّ السخونة الحاصلة بسبب قوّة الخرق والحركة تعارضه القوّة المائيّة الموجبة للبرد والرطوبة وعند حصول هذا العارض القويّ كيف تحدث الناريّة؟ بل نرى النيران العظيمة تنطفئ بصبّ الماء عليها وأنّ السحاب أكثره ماء فكيف يمكن أن يحدث فيه شعلة ضعيفة ناريّة؟

على أنّ النار الصرفة لا لون لها بمذهبكم، فمن أين حدث ذلك اللون؟ فثبت أنّ حدوث النار الحاصلة في جرم السحاب مع كونه ماء خالص لا يمكن إلّا بأمر خارج من الطبيعة، وذلك بقدرة الحكيم القادر.

النوع الثاني من الدلائل في هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ بالماء و«السحاب» اسم جنس والواحدة سحابة، واعلم أنّ هذا أيضاً من دلائل القدرة وذلك لأنّ هذه الأجزاء المائيّة إمّا أن نقول: إنّها حدثت في جوّ الهواء ويقال: إنّها تصاعدت من وجه الأرض فإن كان الأوّل وجب أن يكون حدوثها بإحداث محدث قادر، وأمّا الثاني وهو أن يقال: إنّ تلك الأجزاء تصاعدت من الأرض، فلمّا وصلت إلى الطبقة الباردة من الهواء بردت فثقلت فرجعت إلى الأرض، فهذا باطل لأنّ الأمطار مختلفة فتارة تكون القطرات كبيرة وتارة تكون صغيرة وتارة تكون متقاربة، واخرى تكون متباعدة وتارة تدوم مدّة نزول المطر، وتارة تقصر المدّة فاختلاف هذه الكيفيّة مثلاً في يوم واحداً مع أنّ طبيعة الأرض واحدة وطبيعة الشمس المسخّنة للحارّات واحدة من غير تخصيص الفاعل المختار غير معقول، على أنّ التجربة دلّت على أنّ للتضرّع والدعاء في نزول الغيث أثرا محسوسا فعلم أنّ

المؤثّر فيه القدرة لا الطبيعة والخاصيّة.

ومن آياته الدالّة على القدرة قوله: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾ تسبيح الرعد دلالته على تنزيه الله ووجوب حمده فكأنّه هو المسبح، وقيل: إنّ الرعد هو الملك الّذي يسوق السحاب ويزجره بصوته، وهو يسبّح الله تعالى ويحمده، روي عن النبيﷺ أنّه قال: «**إنّ ربّكم سبحانه يقول: لو أنّ عبادي أطاعوني لأسقيتهم المطر بالليل وأطلعت عليهم الشمس بالنهار ولم أسمعهم صوت الرعد**».[١]

وكانﷺ إذا سمع صوت الرعد قال: «**سبحان من يسبّح الرعد بحمده**»[٢]. وروى سالم بن عبد الله عن أبيه قال: «**كان رسول الله إذا سمع الرعد والصواعق قال: اللّهم لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك**».[٣] وقال ابن عبّاس: (من سمع صوت الرعد فقال: سبحان الّذي يسبّح الرعد بحمده والملائكة من خيفته وهو على كلّ شيء قدير، فإن أصابته صاعقة فعليّ ديته)[٤]. وفي كيفيّة تسبيح الرعد أقوال: الأوّل: أنّ الرعد اسم ملك من الملائكة وهذا الصوت المسموع هو صوت ذلك الملك بالتسبيح والتهليل.

قال ابن عبّاس: (إنّ اليهود سألت النبيﷺ عن الرعد ما هو؟ فقالﷺ: «**ملك موكّل بالسحاب معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب حيث شاء الله**». قالوا فما الصوت الّذي نسمع؟ قالﷺ: «**زجره السحاب**»)[٥].

وعن النبيﷺ قال: «**إنّ الله ينشئ السحاب الثقال فينطق أحسن النطق**

١ـ الدرّ المنثور، ج ٤، ص ٥١، وكنز العمال، ج ١٥، ص ٧٧٧.

٢ـ بحار الأنوار، ج ٥٦، ص ٣٥٦؛ ومن لايحضره الفقيه، ج ١، ص ٥٢٦؛ ووسائل الشيعة (طبعة الإسلامية)، ج ٥، ص ١٦٧.

٣ـ بحار الأنوار، ج ٥٦، ص ٣٥٧؛ وتفسير الثعلبي، ج ٣، ص ٣٦٤.

٤ـ مجمع البيان، ج ٦، ص ٢٢.

٥ـ بحار الأنوار، ج ٥٦، ص ٣٥٧.

ويضحك أحسن الضحك فنطقه الرعد وضحكه البرق».[١]

واعلم أنّ البنية ليست شرطاً لحصول الحياة مع الإرادة من اللّه، فيخلق الحياة والعلم والنطق في أجزاء السحاب فيكون هذا الصوت المسموع فعلاً له، وكيف يستبعد ذلك ونحن نرى أنّ السندل يتولّد في النار، والسمك في الماء، كما كان يسبّح الجبال في زمن داود وتسبيح الحصىّ في زمن محمّد ﷺ. وقيل: إنّ الرعد اسم لهذا الصوت المخصوص ولو كان كذلك فإنّ الرعد يسبّح اللّه لأنّ التسبيح وما يجري مجراه ليس إلّا وجود لفظ يدلّ على حصول التنزيه للّه فلمّا كان حدوث هذا الصوت دليلاً على وجود موجود متعال عن النقص والإمكان فهو في الحقيقة تسبيح وهو معنى قوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾[٢] وهذا تأويل، وأيّ شيء يلزمنا بهذه التأويلات مع علمنا بالقدرة الإلهيّة؟ فيحمل الكلام على ظاهره كما نطقت به الشريعة الغرّاء والكتاب المبين.

﴿وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ وخشيته قال ابن عبّاس: والملائكة تسبّح اللّه من خيفته لا كخوف ابن آدم، ولا يشغلهم عن عبادة اللّه طعام ولا شراب ولا شيء.

﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ﴾ ويصرفها عمّن يشاء إلّا أنّه حذف للدلالة. قال الباقر عليه السلام: «**إنّ الصواعق تصيب المسلم وغير المسلم ولا تصيب ذاكراً»**[٣]. قوله: ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ﴾ أي: هؤلاء الجهلة مع مشاهدتهم لهذه الآيات يخاصمون أهل التوحيد أي: يفتلون عن مذهب الحقّ لأنّ معنى الجدال فتل الخصم عن مذهبه بطريق الحجاج.

١ـ الدرّ المنثور، ج٤، ص٥٠؛ وبحار الأنوار، ج٥٦، ص٣٥٧؛ ومجمع الزوائد، ج٢، ص٢١٦.

٢ـ سورة الإسراء: ٤٤.

٣ـ مجمع البيان، ج٦، ص٢٣؛ ونورالثقلين، ج٢، ص٤٩٠؛ وبحار الأنوار، ج٥٦، ص٣٥٧.

واعلم أنّ آية الصاعقة الناشئة من السحاب أمر عجيب جدّاً ومع أنّها تتولّد من السحاب المملوءة من الماء ربما نزلت وغاصت في البحر وتحرق الحيتان مع أنّها تغوص في لجج البحر، ولا يؤثّر الماء فيها من قوّتها وحدّتها بل شاهدنا مرارا أنّها تحرق المسامير في الأبواب وتجعلها فحما. فكيف يمكن أن تتصوّر أنّها قد أحدثت من اصطكاك السحاب والخرق! لأنّها لو كانت من أسباب عالم الطبيعة لابدّ وأن تكون حرارتها أضعف من الحرارة الموجودة لمجاورة ماء السحاب ومسّها فضلاً عن غوص البحر، فاختصاصها بمزيد هذه القوّة الغريبة بتخصيص الفاعل والأمر الغيبيّ علمه عنّا، فتأمّل.

وبالجملة لمّا بيّن هذه الآيات قال سبحانه: هؤلاء الكفّار مع ظهور هذه الدلائل يجادلون في اللّه، ويحرّفون الناس عن الإيمان به والحال أنّه سبحانه شديد الحول والقوّة والعقوبة. وفي لفظ المحال أقوال قيل: الميم زائدة وهو من الحول ونحوه مكان. وقيل: أصليّة لأنّ الكلمة إذا كانت على مثال فعال أوّله ميم مكسورة فهي أصليّة نحو «مهاد ومداس وملاك ومداد» وقيل: أخذ مادّته من «محل» إذا عرضه للهلاك ويحمل إذا تكلّف استعمال الهلاك بطريق لا يتوقّعونه أو عبارة عن المدّة سنة، ماحلة أي: شديدة.

﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّ﴾ أي: للّه دعوة الحقّ قيل: دعوة الحقّ قول «لا إلهَ إلّا اللّهُ» ودعوته وتنزيهه هي الحقّ والصدق فذكر وجوده بالثناء عليه بالإلهيّة والكمال هو الحقّ في الأذكار واعتقاد وجود واجبيّته هو الحقّ في الاعتقادات.

والآلهة ﴿ٱلَّذِينَ﴾ يدعونهم الكفار غير اللّه ﴿لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ﴾ ممّا يطلبونه ﴿إِلَّا﴾ استجابة كاستجابة باسط ﴿كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ﴾ وهو عطشان والماء جماد لا يشعر ببسط كفّيه ولا بعطشه ولا يقدر أن يجيب دعاءه ويبلغ فاه لأنّه لا يحسّ بدعائه، وقيل: شبّهوا هؤلاء الداعين في قلّة فائدة دعائهم لآلهتهم

بمن أراد أن يغرف الماء بيديه ليشربه فيبسطها ناشراً أصابعه ولم يصل كفّاه إلى ذلك الماء ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ اعلم أنّ في المراد بهذا السجود وجوه أشهرها: أنّ المراد السجود الحقيقيّ أي: وضع الجبهة على الأرض وعلى هذا المعنى ففيه وجهان:

أحدهما: أنّ اللفظ وإن كان عاماً لكنّ المراد به الخصوص وهم المؤمنون في الأرض والملائكة في السماء وبعض المؤمنين يسجدون للّه طوعاً بسهولة ونشاط وميل، ومن المسلمين من يسجد كرهاً لصعوبة ذلك عليه مع أنّه يحمل نفسه على أداء تلك الطاعة شاء أم أبى.

والثاني: أنّ اللفظ عامّ والمراد أيضاً العامّ. وعلى هذا ففي الآية إشكال لأنّه كلّ من الأرض لا يسجدون لأنّ الكفّار لا يسجدون.

والجواب من وجهين: الأوّل: أنّ المراد ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي: شأنهم وجوب السجود، ويجب عليهم أن يسجدوا فعبّر عن الوجوب بالوقوع والحصول. والثاني هو أنّ المراد من السجود الاعتراف بالعبوديّة، وكلّ من في السماوات والأرض يعترفون بالعبوديّة على ما قال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ... لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[1] ونظير هذه الآية: ﴿بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾[2] أي: في نفس الأمر كذلك.

﴿وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾ أي: كلّ شخص سواء كان مؤمناً أو كافراً فإنّ ظلّه يسجد للّه. في التفسير أنّ الكافر يسجد للصنم وظلّه يسجد للّه. قال ابن الأنباري: لا يبعد أنّ اللّه يخلق للظلال عقولاً وأفهاما يسجد ويخشع للّه

١ـ سورة العنكبوت: ٦١.

٢ـ سورة البقرة: ١١٦.

كما جعل الله للجبال أفهاماً اشتغلت بتسبيح الله ويظهر فيها أثر للتجلّي. وقيل: إنّ المراد من سجود الظلال وأمثالها ميلانها من جانب إلى جانب فهي منقادة مستسلمة في طولها وقصرها. وإنّما خصّص الغدوّ والآصال بالذكر لأنّ الظلال إنّما تعظم وتكثر في هذين الوقتين.

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾﴾

لمّا بيّن سبحانه أنه المستحقّ للعبادة عقّبه بما يجري مجرى الحجّة على ذلك فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد لهولاء الكفّار ﴿مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ومدبّرهما على ما فيهما من البدائع؟ فإذا استعجم عليهم الجواب ولا يمكنهم أن يقولوا: الأصنام المنحوتة، فقل أنت لهم: الله ربّ السماوات والأرض وما بينهما من الأنواع.

فإذا أقرّوا بذلك ﴿قُلِ﴾ لهم على وجه التبكيت والتوبيخ: ﴿أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ توجّهون عبادتكم إليهم والحال أنّهم ﴿لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾، ومن لا يملك لنفسه فبالحريّ والأولى أن لا يملك لغيره فكيف يستحقّ العبادة؟ واعلم أنّ الأمر الّذي لا يجاب الخصم إلّا به لا يمتنع أن يبادر السائل إلى ذكره ثمّ يورد الكلام عليه تفاديا من التطويل.

ثمّ ضرب سبحانه مثلاً بعد إلزام الحجّة فقال: كما لا يستوي الأعمى والبصير والظلمات والنور كذلك لا يستوي الكافر والمؤمن لأنّ المؤمن يعبد الله الّذي يملك النفع والضرّ والكافر بعكسه.

﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ أي: هل هؤلاء الشركاء الّذين جعلهم الكفّار

شركاء لله في العبادة خلقوا أشياء أو أموراً مثل خلق الله من الأجسام والألوان والطعوم والأرائيح والحياة؟ ﴿فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡ﴾ فاشتبه عليهم ذلك حتّى يشتبه لهم ما الّذي خلق الله وما الّذي خلق الأصنام، فإذا لم يكن إلّا وكذلك ولم يبق شبهة فقل لهم: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ﴾ القديم لذاته لا ثاني له القاهر سواه.

أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۖ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿١٨﴾

المعنى: لمّا شبّه المؤمن والكافر والإيمان والكفر بالأعمى والبصير والظلمات والنور ضرب للإيمان والكفر مثلاً آخر فقال: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ﴾ بقدرها ومن حقّ الماء أن يستقرّ في الأودية المنخفضة عن الجبال بمقدار سعة تلك الأودية وما زاد ينبسط على الأرض ومن حقّ الزبد والوغف الّذي يحتمله الماء أن يطغو ويربو عليه ثمّ يتبدّد في الأطراف ويضمحلّ. شبّه سبحانه الحقّ والإسلام بالماء الصافي النافع للخلق والباطل بالزبد الذاهب الباطل الّذي لا ينفع للناس أبداً، فالماء مثل القرآن الّذي يوجب اليقين المفيد، والوساوس الباطل مثل الزبد الّذي لا يفيد إلّا الشكّ. ثمّ ذكر نوعاً آخر من الزبد غير المفيد الّذي لا يظهر إلّا بالنار كالذهب والفضّة والرصاص ممّا يذاب لاتّخاذ الحلية وجواهر الأرض يتّخذ منها الأواني مثل

زبد الماء فإنّ هذه الأشياء الّتي تستخرج من المعادن وتوقد عليها النار لتميز الخالص من الخبيث لها فإنّه أيضاً ينفصل عنها نوع من الزبد والخبيث لا يفيد أصلاً بل يضيّع ويبطل ويبقى الخالص، فكذلك الكفر والإيمان فالزبد يجمع منها ويذهب ويترك هدراً ويلقى بحيث لا ينتفع به، والماء الصافي والأعيان من الجواهر فيمكث وينتفع به الناس ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾.

﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ قيل: إنّه تمّ الكلام عند قوله: ﴿يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ ثمّ استأنف بقوله: ﴿لِلَّذِينَ﴾. وقيل: متّصل بما قبله يعني: أنّ الّذي يبقى مثل الّذين استجابوا لربّهم والّذي يذهب جفاء مثل الّذين لا يستجيب. والمراد بـ ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟﴾ الّذين أطاعوه وآمنوا به فلهم الحسنى أي: لهم الحالة الحسنة وهي الجنّة.

﴿وَٱلَّذِينَ﴾ ما أطاعوه وآمنوا به ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [و] يضاعف [مِثْلَهُ] جعلوا ذلك فدية عن أنفسهم من العذاب لا يقبل منهم، ومفعول ﴿لَٱفْتَدَوْا۟﴾ محذوف، هؤلاء الموصوفين لهم عدم قبول عذرهم بالفداء وعدم العفو ـ أجارنا الله من هذه العقوبة ـ و﴿لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾ لأنّ كفرهم أحبط أعمالهم ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ﴾ المقرّ والمأوى وسوء الحساب، أخذهم بذنوبهم كلّها من دون أن يغفر لهم بشيء، ومن نوقش في الحساب عذّب والكافر يحاسب للتقريع والتوبيخ. وقيل: إنّ المراد من سوء الحساب سوء الجزاء.

أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً

وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾

المعنى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ﴾ بيّن الفرق بين المؤمن والكافر. أخرج الكلام مخرج الاستفهام والمراد الإنكار إشارة إلى المثل المتقدّم ذكره. ولا يكون متساوياً من يعلم ﴿أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ في هذا القرآن ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ هو ﴿الْحَقُّ﴾ مع من هو كالأعمى الّذي لا يبصر.

إنّما يتعقّل ويبصر من هو ذو لبّ وإدراك فحال العالم كالبصير، والجاهل كالأعمى والعالمون هم ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ﴾ ويؤدّون ما عهد الله إليهم بإتيانه وألزمهم إيّاه عقلاً وسمعا فالعقد العقليّ ما جعله في عقولهم من اقتضائه بصحّة أمور وفساد أمور كاقتضاء العقل للفاعل والمصنوع للصانع وأنّ للعالم خالق غير العالم، والعهد الشرعيّ ما أخذه النبيّ على المؤمنين من الميثاق المؤكّد بأن يطيعوه ولا يعصوه في الأوامر منه والنواهي.

﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾ قيل: المراد الإيمان بجميع الأنبياء والكتب وقيل: هو صلة محمّد ومعاونته وقيل: صلة الرحم. وروى أصحابنا أنّ أبا عبد الله عليه السلام لمّا حضرته الوفاة أوصى قال: «**أعطوا الحسن بن الحسين بن عليّ بن الحسين وهو الأفطس سبعين ديناراً**». فقالت له أمّ ولد: أتعطي رجلاً حمل عليك بالشفرة؟[1] فقال لها: «**ويحك أما تقرئين قول الله:** ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾ »[2] وقيل: هو ما يلزم من صلة المؤمنين بالأخوة بأن يتولّوهم وينصروهم ويذبّ عنهم، ويدخل فيه صلة الرحم وغير

١ـ الشفرة: السكين العظيم.

٢ـ الكافي، ج٧، ص٥٥؛ وسائل الشيعة (الإسلامية)، ج١٣، ص٤٧١؛ وتفسير العياشي، ج٢، ص٢٠٩.

ذلك قال رسول الله ﷺ: «**صلة الرحم وبرّ الوالدين يهوّنان الحساب**»، ثمّ تلا هذه الآية[1]. وروى محمّد بن الفضيل عن موسى بن جعفر عليه السلام في هذه الآية قال: «**صلة آل محمّد معلّقة بالعرش يقول: اللّهم صل من وصلني واقطع من قطعني، وهي تجري في كلّ رحم**»[2] وروى الوليد بن أبان عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: قلت له هل على الرجل في ماله سوى الزكاة؟ قال: «**نعم أين ما قال الله: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ...﴾**»[3]. ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ ويخافون عقاب ربّهم في قطعها ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ الْحِسَابِ﴾ أي: المداقّة والمناقشة عند الحساب، فليكن المؤمن خائفاً من المداقّة في الحساب.

﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ﴾ أي: الّذين صبروا على القيام بما أوجبه الله عليهم وعلى البلاء من الأمراض والعقوبة وعن معاصي الله لطلب ثواب الله. ومعنى الوجه عبارة عن الإخلاص وترك غيره تقول في تعظيم الشيء: هذا وجه الرأي وهذا نفس الرأي، للرأي المعظم، يريد خالصة وماحضة ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ﴾ أي: أدّوها بحدودها وداموا على فعلها ﴿وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ ظاهراً وباطنا ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ﴾ أي: يدفعون بالطاعة المعصية وبالعمل الصالح العمل القبيح كما قال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل: «**إذا عملت سيّئة فاعمل حسنة بجنبها تمحها**»[4] وقيل: معناه يدفعون إساءة من أساء إليهم بالإحسان ولا يكافئون، إذا أحرموا أعطوا، وإذا ظلموا عفوا، وإذا قطعوا

١ـ الدعوات، قطب الدين الراوندي، ص١٢٦؛ مشكاة الأنوار، ص٢٨٨؛ للطبرسي؛ وبحار الأنوار، ج٧١، ص٩٨.

٢ـ تفسير القمي، ج١، ص٣٦٣؛ وبحار الأنوار، ج٢٣، ص٢٦٨؛ وتفسير العياشي، ج٢، ص٢٠٨.

٣ـ مجمع البيان، ج٦، ص٣٣.

٤ـ مجمع البيان، ج٦، ص٣٤؛ وبحار الأنوار، ج٦٦، ص٣٥٧؛ وكنز العمال، ج٤، ص٢٠٩؛ والمغني، لابن قدامة، ج١١، ص١٦٤.

وصلوا وقيل: يدفعون بالتوبة المعصية ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ أي: هؤلاء الموصوفين لهم ثوابهم الجنّة والعاقبة المحمودة أي: الدار المحمودة هي جنّات عدن بساتين إقامة تدوم ولا تفنى. وقيل: هي الدرجة العليا وسكّانها الشهداء والصدّيقون. وقيل: قصر من ذهب لا يدخله إلّا نبيّ أو صدّيق أو شهيد أو حاكم عدل.

ثمّ بيّن ما يتكامل به سرورهم من اجتماع قومهم معهم فقال: ﴿يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ﴾ أي: أولادهم من آمن منهم لأنّ من إتمام السرور اجتماعهم بشرط القابليّة ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ من أبواب الجنّة الثمانية، وقيل: من كلّ باب من أبواب البرّ كالصلاة والزكاة والصوم أو أبواب قصورهم وبساتينهم بالتحيّة من الله والتحف والهدايا ويقولون: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾ والقول محذوف لدلالة الكلام عليه أي: سلّمكم الله من الأهوال والمكاره بصبركم على المكاره والشدائد ﴿فَنِعْمَ﴾ عاقبة ﴿ٱلدَّارِ﴾ الجنّة ما أنتم فيه من الكرامة في داركم.

واعلم أنّ الصبر على ترك المعاصي وأداء الطاعات مشروط بكونه ابتغاء لوجه الله لا أن يكون مقصود الصابر أن يقال له: ما أصبره وأشدّ قوّته على النوازل! أو يصبر لئلّا يعاب بسبب الجزع، أو يصبر لئلّا يحصل له شماتة الأعداء، أو يصبر لعلمه بأن لا فائدة في الجزع، وكلّ هذه الأقسام خارج عن شمول الابتغاء. أمّا إذا صبر على البلاء لعلمه بأنّ ذلك البلاء قسمة حكم بها القسّام العلّام المنزّه من الباطل والسفه بل لابدّ أن تكون تلك القسمة مشتملة على حكمة بالغة ومصلحة ورضي بذلك حقيقة، فهذا وجه الابتغاء ومقام الصدّيقين.

قال الواحديّ: العقبى كالعاقبة ويجوز أن يكون مصدراً كالشورى والقربى والرجعى، وقد يجيء على فعلى كالنجوى والدعوى وعلى فعلى كالضيزى والذكرى.

﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴿٢٩﴾

لمّا بيّن حال السعداء أتبعها بذكر الأشقياء ليكون البيان كاملاً فقال: ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ﴾ وذكرنا معنى العهد، ونقصوا العهد من أحكامه، وقطعوا أموراً أمروا بوصلها وأفسدوا في الأرض بالدعاء إلى غير الله، أو بقتال النبيّ والمؤمنين أو بالعمل فيها بمعاصي الله والظلم لعباده والتخريب في بلاده ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمُ﴾ الإبعاد من رحمة الله والتبعيد من جنّته ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ ضدّ العقبى أي: عذاب النار والخلود فيها.

﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ﴾ أي: يوسّع على من يشاء من عباده بحسب المصلحة ويضيّقه على آخرين إذا كانت المصلحة في التضييق ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بما أتوا من حطام الدنيا فرح البطر أي: وفرح الّذين بسط لهم الرزق في الحياة الدنيا فكأنّه قيل: لو كانوا أعداء الله هؤلاء المتنعّمين لما فتح الله عليهم أبواب النعم واللّذات في الدنيا فأجاب الله عنه بأنّه يبسط الرزق ويقدر ولا تعلّق له بالكفر والإيمان فقد يوجد الكافر مرزوقاً ويوجد المؤمن مضيّقا عليه والحياة الدنيا بالنسبة إلى الآخرة كالمتاع مثل القدح والقصعة والقدر والمعول يتمتّع به زماناً ثمّ ينكسر ويفنى. ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هلّا انزل على محمّد ﷺ آية نقترحها ولم يعتدّوا بتلك الآيات قل لهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن

يَشَآءُ ﴾ عن طريق الجنّة بعظم معاصيه وسوء اختياره ﴿وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ ورجع إليه بالطاعة وهم الّذين آمنوا وتطمئنّ قلوبهم بذكر اللّه واعترفوا بتوحيد اللّه ونبوّة نبيّه، واستأنسوا بذكر اللّه، والمعنى الحاضر للنفس دائماً وهو العمدة.

ومعنى ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ ﴾ بيّنا هذا المعنى كراراً، أي: يضلّ من يشاء عقوبة على كفره وهداية إلى رحمته وجنّته استحقاقاً لإيمانه وليس المراد: إضلالا عن الدين بالكفر على ما ذهب إليه من خالفنا، تعالى اللّه عن ذلك علواً كبيراً.

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ بدل من قوله: ﴿مَنْ أَنَابَ ﴾ قال ابن عبّاس: (يريد إذا سمعوا القرآن خشعت قلوبهم واطمأنّت). ولا ينافي الوجل والاطمينان وهما ضدّان لأنّهم لمّا فكّروا في المعاصي وذكر العقاب وجلوا، والطمأنينة حين اشتغالهم بالطاعات وتصوّر المثوبات. وقيل: المراد بالطمأنينة علمهم بكون القرآن حقّاً ودين محمّد حقّاً وأنّ اللّه صادق في وعده ووجلهم وشكّهم بأنّهم هل ارتكبوا المعاصي؟ أو هل أتوا بالطاعة المقبولة؟

﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ واعلم أنّ الإكسير إذا وقعت ذرّة منه على الجسم النحاسيّ انقلب باقياً على كرّ الدهور والأزمان ولا يفسده التراب وتكون صابرا على الذوبان في النار فإكسير معرفة اللّه وجلاله إذا وقع في القلب كذلك يغلبه جوهراً صافياً باقياً نورانيّاً لا يقبل التغيّر والفناء والتبدّل فقال: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾.

وبعبارة أخرى الموجودات على ثلاثة أقسام: مؤثّر لا يتأثّر ومتأثّر لا يؤثّر وموجود يؤثّر في شيء ويتأثّر عن شيء فالمؤثّر الّذي لا يتأثّر هو اللّه والمتأثّر الّذي لا يؤثّر هو الجسم، فإنّه ذات قابلة للصفات المختلفة والآثار

المتنافية وليس له إلّا القبول فقط، وأمّا الموجود الّذي يؤثّر تارة ويتأثّر أخرى فهي الموجود الروحانيّة وذلك لأنها إذا توجّهت إلى الحضرة الإلهيّة صارت قابلة للآثار الفائضة عن مشيئة اللّه وقدرته وتكوينه وإيجاده، وإذا توجّهت إلى عالم الأجسام اشتاقت إلى التصرّف فيها لأنّ عالم الأرواح مدبّر لعالم الأجسام. وإذا عرفت هذا فالقلب كلّما توجّه إلى مطالعة عالم الأجسام حصل فيه الاضطراب والفلق والميل الشديد إلى الاستيلاء عليها والتصرّف فيها، أمّا إذا توجّه القلب إلى مطالعة الحضرة الإلهيّة حصل فيه أنوار الصمديّة والأنوار الإلهيّة فيكون هناك ساكناً فاطمئنّت القلوب بذكر اللّه.

ثمّ إنّ القلب كلّما وصل إلى شيء يريده فإنّه يطلب الانتقال منه إلى حالة أخرى أشرف منها لأنه لا سعادة في عالم الأجسام إلّا وفوقها مرتبة أخرى من اللذّة أمّا إذا انتهى القلب إلى الاستسعاد بالمعارف الإلهيّة بقي واستقرّ فلم يقدر على الانتقال منه لأنّه ليس هناك درجة أخرى في السعادة أعلى منها وإنّما هي الدرجة ليس فوقها غيرها، نعم هذه الدرجة قابلة للزيادة والتكميل فالاطمينان قد حصل بذكره واستقرّ القلب.

فـ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وأعملوا الفكر في المعرفة والقلب بالذكر والطاعة ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ عن رسول اللّه: «**أن طوبى شجرة في الجنّة غرسها الله بيد قدرته تنبت الحلل والحليّ**». قيل: أصلها في دار النبيّ وأغصانها في دور المؤمنين، وسئل عنه ﷺ عن طوبى قال: «**شجرة أصلها في داري وفرعها لأهل الجنّة**»، ثمّ سئل ثانياً فقال: «**أصلها في دار عليّ**». فقيل له في ذلك؟ فقال ﷺ: «**إنّ داري ودار عليّ في الجنّة بمكان واحد**»[1]. وفي معنى طوبى أقوال أخر قيل: فرح وقرّة عين،

١ـ مناقب آل أبي طالب، ابن شهر آشوب، ج٣، ص٣٢؛ والصراط المستقيم، ج١، ص١٨٢؛ وجوامع الجامع، ج٢، ص٢٦٢.

عن ابن عبّاس. وقيل: نعم مالهم. و«طُوبى» مصدر من طاب كبشرى وزلفى، ومعنى طوبى لك أي: أصبت خيراً وطيبا.

والحاصل على كلّ التقادير معناه مبالغة في نيل الطيّبات، ويدخل فيه جميع اللذّات. وقيل: ليست بعربيّة وإنّما هي هنديّة ومعناها الجنّة.

قال صاحب «الكشّاف»: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ مبتدأ و﴿طُوبَىٰ لَهُمۡ﴾ خبره.

﴿وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ﴾ أي: مرجع.

كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٞ لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوۡ تَحُلُّ قَرِيبٗا مِّن دَارِهِمۡ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴿٣١﴾

الكاف للتشبيه ووجه التشبيه أي: مثل ذلك الإرسال الّذي أرسلنا الأنبياء قبلك، أرسلناك.

سبب النزول: نزلت الأولى في صلح الحديبية حين أرادوا كتاب الصلح، فقال رسول اللهﷺ لعليّ: **«اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم»**، فقال سهيل بن عمرو، والمشركون قالوا: ما نعرف الرحمن إلّا صاحب اليمامة ـ يعنون مسيلمة الكذّاب ـ اكتب بسمك اللّهم، وهكذا كان أهل الجاهليّة يكتبون. فقال النبيّﷺ: **«اكتب: هذا ما صالح عليه محمّد رسول الله»**. فقال: مشركوا قريش: لئن كنت رسول اللّه ثمّ قاتلناك وصددناك فقد ظلمناك، ولكن اكتب: هذا ما صالح محمّد بن عبد اللّه. فقال أصحاب رسول اللّه: دعنا

نقاتلهم، قال ﷺ: «**لا ولكن اكتبوا كما يريدون، فنزلت الآية**»[١].

﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ﴾ قد تقدّمتها امم ﴿لِّتَتْلُوَ﴾ وتقرأ ﴿عَلَيْهِمُ﴾ الكتاب العظيم ﴿الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ﴾ أي: وحال هؤلاء أنّهم يكفرون بالرحمن الّذي رحمته وسعت كلّ شيء، وكفروا بنعمته في إرسال مثلك إليهم وإنزال هذا القرآن الكريم، قل لهم: ﴿هُوَ رَبِّي﴾ الواحد المتعالي عن الشركاء ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في نصرتي عليكم وإليه رجوعي. وقوله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ نزلت في عبد اللّه بن أميّة المخزوميّ لمّا قال: أمّا اللّه فنعرفه وأمّا الرحمن فلا نعرفه إلّا صاحب اليمامة. ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾: النظم، روي: أنّ أهل مكّة قعدوا في فناء كعبة فأتاهم الرسول وعرض عليهم الإسلام، فقال له عبد اللّه بن أميّة: سوّلنا جبال مكّة حتّى ينفسح المكان علينا، واجعل لنا فيها أنهاراً نزرع فيها أو أحيي لنا بعض موتانا لنسأله أحقّ ما تقول أم باطل؟ فإنّ عيسى كان يحيي الموتى ولست بزعمك بأهون على اللّه منه، وكذلك ولست بزعمك أهون على ربّك من داود حيث سخّر له الجبال تسبّح معه، أو سخّر لنا الريح فنركبها إلى الشام فنقضي عليها جوائجنا ثمّ نرجع من يومنا فقد كان سليمان سخّرت له الريح فكما زعمت لست أهون على ربّك من سليمان. فنزلت: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا﴾[٢] وآية بإنزاله سيّرت الجبال وزعزعت عن مقارّها كما فعل ذلك بالطور لموسى. ﴿أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ﴾ وشقّقت وجعلت أنهاراً وعيونا كما فعل بالحجر حين ضربه ﷺ بعصاه. ﴿أَوْ كُلِّمَ﴾ بسبب تلاوته ﴿الْمَوْتَىٰ﴾ ويحيون ويتكلّمون كما وقع لعيسى لكان ذلك هذا القرآن لعظم محلّه وجلالة

١ـ مجمع البيان، ج٦، ص٣٩؛ أسباب نزول الآيات، ص١٨٤؛ وتفسير القرطبي، ج٩، ص٣١٨.

٢ـ انظر: مجمع البيان، ج٦، ص٤٠.

قدره، ويمكن أن يكون المحذوف من جواب «لو» «لما آمنوا» وحذف جواب «لو» شائع كثير في الكلام. قال امرؤ القيس:

فلو أنّها نفس تموت سويّة ولكنّها نفس تساقط أنفسا[١]

﴿بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ﴾ أي: لكنّ الأمر لله: إن شاء فعل وإن يشأ لم يفعل.

﴿أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ قيل: اليأس هاهنا العلم في لغة النخع واحتجّوا بقول الشاعر:

ألم ييأس الأقوام أنّي أنا ابنه وان كنت عن أرض العشيرة نائيا؟[٢]

وقال أبو عبيدة:

أقول لهم بالشعب إذ ياسرونني ألم تيأسوا أنّي ابن فارس زهدم؟[٣]

أي ألم يعلموا، وأنكر بعض هذه اللغة كالكسائيّ، وقيل: معناه أفلم يعلم الّذين آمنوا علماً يئسوا معه من أن يكون غير ما علموه. وقيل: معناه: أفلم ييأس الّذين آمنوا من إيمان هؤلاء الّذين وصفهم الله بأنّهم لا يؤمنون، وهذا المعنى قاله الزجّاج لأنّه قال: أن لو يشاء الله وكانوا قابلين للهداية ﴿لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا﴾ إلى الجنّة لكنّه كلّفهم لينالوا الثواب بالتكليف وقبوله لا على سبيل الإلجاء كما مرّ هذا المعنى في الآيات كراراً.

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ﴾ من كفرهم وأعمالهم الخبيثة ﴿قَارِعَةٌ﴾ وداهية تقرعهم من الحرب والجدب والأسر للتنبيه والزجر ﴿أَوۡ تَحُلُّ﴾ تلك القارعة قريباً من دورهم فتجاورهم حتّى تحصل لهم المخافة لتتنبّهوا. وقيل: إنّ التاء للخطاب أي: أو تحلّ أنت يا محمّد بنفسك ﴿قَرِيبٗا مِّن

١ـ الأمالي، السيد المرتضى، ج٢، ص١٢٦.

٢ـ كتاب العين، الخليل الفراهيدي، ج٧، ص٣٣١.

٣ـ الصحاح، الجوهري، ج٢، ص٨٥٨.

﴿دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ﴾ أي: ما وعد الله من فتح مكّة عن ابن عبّاس قال: (وهذه الآية مدنيّة). وقيل: المراد حتّى يأتي يوم القيامة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ﴾ ميعاده.

قال بعض المعتزلة: كالقاضي عبد الجبّار وهذا يدلّ على بطلان قول من يجوّز الخلف على الله في ميعاده، قال: وهذه الآية وإن كانت واردة في حقّ الكفّار إلّا أنّ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، إذ بعمومه يتناول كل وعيد ورد في حقّ الفسّاق. وأجاب الرازيّ بأنّ الخلف غير وتخصيص العموم غير، ونحن لا نقول بالخلف ولكنّا نخصّص عمومات الوعيد بالآيات الدالّة على العفو.

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٣٢) أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ (٣٣) لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ (٣٤)﴾

المعنى: اعلم أنّ القوم لمّا طلبوا سائر المعجزات المذكورة من الرسول على سبيل الاستهزاء، وكان ذلك يشقّ على الرسول وكان يتأذّى من تلك الكلمات فالله أنزل هذه الآية تسلية له وتصبيرا على سفاهة قومه فقال: «**إنّ أقوام سائر الأنبياء استهزءوا بهم فأطلت لهم المدّة بتأخير العقوبة وأمهلتهم فلم ينتهوا** ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ﴾ **عقابي لهم**»، وهو إشارة إلى تفخيم ذلك العقاب وتعظيمه.

ثمّ عاد سبحانه إلى الحجاج مع الكفّار قوله: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ﴾ بالتدبير ﴿عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ﴾ وحافظ على كلّ نفس أعمالها ويرزقها كمن ليس بهذه الصفة، والمراد الأصنام الّتي لا تضرّ ولا تنفع. ويدلّ على هذا الحذف قوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ يعني: أنّ هؤلاء الكفّار جعلوا لله شركاء في العبادة.

﴿قُلْ﴾ يا محمّد ﴿سَمُّوهُمْ﴾ بما يستحقّون من الصفات أي: كما يوصف الله بالخالق والرازق والمحيي والمميت أي: إن الصنم لو كان إلها لتصور منه أن يخلق الرزق فيحقّ حينئذ أن تسمّى بالخالق أو الرازق، يعني: سمّوهم بالأسماء الّتي هي صفاتهم، ثمّ انظروا هل يدلّ صفاتهم على جواز عبادتهم واتّخاذهم آلهة؟ أي: سمّوهم ماذا خلقوا أو هل ضرّوا أو نفعوا؟ هل ﴿تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾ يعني: أتخبرون الله بشريك له ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وهو لا يعلمه على معنى أنّه ليس ولو كان يعلم، وإنّما يقال للشيء الحقير المستحقر الّذي بلغ في الحقارة إلى أن لا يذكر ولا يوضع له اسم، فعند ذلك يقال: سمّه إن شئت يعني: أنّ أخسّ من أن يسمّى ويذكر ولكنّك إن شئت أن تضع له اسما فافعل وإنّما خصّ الذكر بالأرض لأنّهم ادّعوا أنّ له شركاء في الأرض لا في غيرها.

﴿أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ يعني: تموّهون بإظهار قول لا حقيقة له صورة مجازا وقيل: المراد أم بظاهر كتاب أنزل الله سمّيتم الأصنام آلهة.

﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ﴾ قال الواحديّ: بل هاهنا دع كأنّه يقول: دع ذكر ما كنّا فيه من الدليل فإنّه لا فائدة في ذكره لأنّه زيّن لهم كفرهم ومكرهم، فلا ينتفعون بذكر هذه البيّنات قال القاضي: لا شبهة في أنّه ذكر ذلك في مقام الذمّ لهم، وإذا كان كذلك امتنع أن يكون المزيّن هو الله ﴿وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ يعني: صدّهم الشيطان أو أنفسهم وبعضهم لبعض، وقرئ بالمعلوم أي: أعرضوا وصرفوا غيرهم، وهو لازم متعدّ، وحجّة القراءة الثانية قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[1].

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ أي: ومن يضلّله الله عن ثواب الجنّة لكفره ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ يهديه، منبئ بأنّ الثواب لا ينال إلّا بالطاعة خاصّة ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ﴾ في

١ـ سورة النساء: ١٦٧.

الدنيا بالقتل والأسر ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَقُّ﴾ وأغلظ للنفس لدوامه وكثرته ﴿وَمَا لَهُم﴾ من دافع يدفع عنهم العذاب.

مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾

لمّا ذكر سبحانه عذاب الكفّار أتبعه يذكر ثواب المتّقين فقال: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي: شبهها وصورتها وصفتها ﴿ٱلَّتِي وُعِدَ﴾ بها ﴿ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾ وثمارها غير منقطع كثمار الدنيا ﴿وَظِلُّهَا﴾ لا يزول ولذّتها ونعيمها لا ينقطع بموت ولا آفة، وقيل: معناه أنّ لذّة أكل الجنّة باقية في الأفواه ﴿تِلْكَ﴾ الجنّة عاقبة المتّقين فالطريق إليها التقوى، وعاقبة الكافرين أمرهم يؤول إلى النار.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ فقيل: المراد بالكتاب القرآن وقيل: المراد التوراة والإنجيل. فعلى معنى أن يكون الكتاب القرآن المراد أصحاب النبيّ والّذين آمنوا معه فرحوا بالقرآن، والمراد من الأحزاب بقيّة أهل الكتاب وسائر المشركين لأنّه بعض معاني القرآن يخالف أحكامهم، ولهذا ينكرون. وقيل: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ هم الّذين كانوا من أهل التوراة كعبد الله بن سلام وأصحابه ساءهم قلّة ذكر الرحمن في القرآن مع كثرة ذكره في التوراة فأنزل الله: ﴿قُلِ ٱدْعُوا ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا ٱلرَّحْمَٰنَ﴾[1] ففرحوا بذلك وكفر المشركون بالرحمن وقالوا: ما نعرف الرحمن إلّا رحمن اليمامة.

١ـ سورة الإسراء: ١١٠.

والمراد من الأحزاب الّذين تحزّبوا على رسول اللّه بالمعاداة و﴿مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾ قيل: المراد بذكر الرحمن فحينئذ هو كقوله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾[1] ﴿قُلْ﴾ يا محمّد ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ﴾ في عبادته أحدا ﴿إِلَيْهِ أَدْعُوا۟﴾ وإلى الإقرار بتوحيده وصفاته وتوجيه العبادة إلى الله نؤتي وأدعوا ﴿وَإِلَيْهِ﴾ مرجعي.

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾

الخطاب للنبيّ والمراد الأمّة لئن وافقت أهواءهم أي: كما أنزلنا الكتب السابقة على الأنبياء بلسانهم، كذلك أنزلنا عليك القرآن بلسان قومك حكمة عربيّة بلسان العرب ولمّا كان القرآن سبباً للحكم جعل نفس الحكم في التعبير على سبيل المبالغة، ووصف القرآن بالعربيّ دليل على حدوث الكلام كما أنّ الإنزال يدلّ على الحدوث.

قيل: سبب النزول أنّ المشركين كانوا يدعونه إلى ملّة آبائهم وأن يصلّي إلى قبلتهم، فنزلت الآية ﴿لَئِنِ﴾ وافقت ﴿أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ باللّه والمعجزات الموجبة للعلم مالك ناصر يعينك ويمنعك عن عذابه، و«مِن» زائدة للتأكيد.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾

١ـ سورة الرعد: ٣٠.

سبب النزول: عيّروا رسول اللّه بكثرة التزويج قالوا: لو كان نبيّاً لشغلتة النبوّة عن تزوّج النساء، فنزلت.

المعنى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا﴾ من قبل رسالتك رسلاً ﴿وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ عديدة ونساء وأولادا أكثر من نسائك وأولادك. وكان لسليمان عليه السلام ثلاثمائة امرأة مهيرة وسبعمائة سريّة ولداود مائة امرأة، فلا ينبغي أن يستنكر منك أن تتزوّج.

ثمّ أوردوا شبهة أخرى وعيّروه بأنّه لو كان نبيّاً من عند اللّه لكان أي: شيء طلبنا منه يأتي به فأجاب اللّه عنها ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ﴾ ومعجزة إلّا بمشيئة اللّه وأمره أظهرها، وإن شاء منعها ولا اعتراض عليه.

ثمّ إنّه صلى الله عليه وآله في تبليغاته كان يخوّفهم بنزول العذاب وظهور النصرة وذلك الموعود كان يتأخّر احتجّوا بالتأخير على الطعن في نبوّته وقالوا: لو كان نبيّاً صادقاً لما ظهر كذبه فأجاب اللّه عن شبهتهم بقوله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ يعني: نزول العذاب وظهور النصرة وكلّ أمر له وقت مكتوب معيّن في اللوح، فالآية الّتي اقترحوا لها وقت أجله اللّه لا على شهواتهم كتب وقته في كتابه كأجل الحياة والموت وغيره. وقيل: معناه لكلّ كتاب وقت يعمل به فللتوراة وقت وللإنجيل وقت وكذلك يمحو اللّه ما يشاء ويثبت.

ثمّ أوردوا شبهة أخرى قالوا: لو كان في دعوى الرسالة صادقاً لما نسخ الأحكام الّتي كان في الشرائع المتقدّمة نحو التوراة والإنجيل لكنّه نسخها وحرّفها نحو تحريف القبلة وأمثالها فوجب أن لا يكون نبيّاً فأجاب اللّه بقوله: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ﴾ بحسب ما اقتضته مصلحة العباد ﴿وَيُثۡبِتُ﴾ بحسب المصلحة لهم.

وفي معنى المحو والإثبات أقوال: أحدها: أنّ ذلك في الأحكام من

الناسخ والمنسوخ. والثاني: أنّه يمحو من كتاب الحفظة المباحات وما لا جزاء فيه ويثبت ما فيه الجزاء من الطاعات والمعاصي. والثالث: يمحو ما يشاء من ذنوب المؤمن فضلاً ورحمة، ويسقط عقابها، عن ابن عبّاس، ويثبت ذنوب من يريد عقابه عدلاً واستحقاقا، عن سعيد بن جبير. الرابع: أنّه عامّ في كلّ شيء فيمحوا من الرزق ويزيد فيه ومن الأجل ويزيد فيه ويمحو السعادة والشقاوة ويثبتهما، عن ابن مسعود. وروى أبو قلابة عن ابن مسعود أنّه كان يقول: اللهمّ إن كنت كتبتني في الأشقياء فامحني من الأشقياء وأثبتني في السعداء فإنّك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أمّ الكتاب[١]. وروي ذلك عن أئمّتنا في دعواتهم المأثورة.[٢]

وروى عكرمة عن ابن عبّاس قال: هما كتابان سوى أمّ الكتاب يمحو اللّه منه ما يشاء ويثبت وأمّا أمّ الكتاب لا يتغيّر منه شيء وهو أصل الكتاب الّذي اثبت فيه الحادثات والكائنات، وروى هذه الرواية عمر بن حصين عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم[٣].

وروى محمّد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال: سألته عن ليلة القدر فقال: «**ينزل الله فيها الملائكة والكتبة إلى السماء الدنيا فيكتبون في أمر السنة وما يصيب العباد وأمر ما عنده موقوف له فيه المشيئة، فيعدم منه ما يشاء ويؤخّر ما يشاء ويمحو ويثبت وعنده أمّ الكتاب**».[٤]

وروى الفضيل قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: «**العلم علمان علم علّمه**

١ـ مجمع البيان، ج٦، ص ٤٨؛ الدرّ المنثور، ج ٤، ص٦٧.

٢ـ انظر: إقبال الأعمال، ج ١، ص٣٧٩.

٣ـ مجمع البيان، ج٦، ص٤٧.

٤ـ تفسير العياشي، ج٢، ص٢١٥؛ ودعائم الإسلام، النعمان المغربي، ج١، ص٢٨١؛ ومستدرك سفينة البحار، ج٨، ص٤٣٥.

الملائكة ورسله وأنبياء، وعلم عنده مخزون لم يطّلع عليه أحد يحدث فيه ما يشاء».[١]

وروى زرارة عن حمران عن الصادق عليه السلام قال: «**هما أمران موقوف ومحتوم فما كان من محتوم أمضاه فما كان من موقوف فله فيه المشيئة يقضي فيه ما يشاء**».[٢] والخامس: أنّه في مثل تقتير الأرزاق والمحن والشدائد يثبته ثمّ يزيله بالدعاء والصدقة. والسادس: معناه أنّه يمحو بالتوبة جميع الذنوب ويثبت بدل الذنوب حسنات يؤيّد هذا المعنى قوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾[٣] والسابع: أنّه يمحو ما يشاء من القرون ويثبت ما يشاء من القرون كقوله: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾[٤] وروي ذلك عن علي عليه السلام[٥]. والثامن: أنّه يمحو ما يشاء يعني: القمر، ويثبت يعني: الشمس. ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾[٦] وقيل: إنّ ابن عبّاس سأل كعباً عن أمّ الكتاب فقال: علم الله ما هو خالق وما خلقه عاملون، فقال لعلمه: كن كتاباً، فكان كتاباً وسمّي أمّ الكتاب لأنّه الأصل الّذي كتب فيه أولاً سيكون كذا وكذا لكلّ ما يكون فإذا وقع بعد كتب أنّه قد كان ما قيل إنّه سيكون. والوجه في ذلك ما فيه من المصلحة لمن تفكّرت من الملائكة الّذين يشاهدونه إذا قابلوا ما يكون بما هو مكتوب فيه وعلموا أنّ ما يحدث على كثرته قد أحصاه الله.

١ـ انظر: الكافي، ج١، ص١٤٧؛ والحدائق الناظرة، ج١٣، ص٤٥٠؛ والتوحيد، للصدوق، ص٤٤٤.

٢ـ نور البراهين، ج٢، ص١٤٨؛ والسيد الجزائري؛ نور الثقلين، ج٢، ص٥١٧؛ وتفسير الصافي، ج٣، ص٧٥.

٣ـ سورة الفرقان: ٧٠.

٤ـ سورة السجدة: ٢٦.

٥ـ نور البراهين، السيد الجزائري، ج٢، ص١٤٩؛ ومجمع البيان، ج٦، ص٤٩؛ ونورالثقلين، ج٢، ص٥٢٠.

٦ـ سورة الإسراء: ١٢.

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ﴾ يا محمّد ﴿بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ﴾ هؤلاء الكفّار من العذاب. لمّا تقدّم في الآية أنّ لكلّ أمر وقتاً وأجلا بيّن أنّ لعذابهم وقتاً سيفعله إمّا في حياتك أو بعد وفاتك. وقوله «إما» أصله «إن» الشرطيّة و«ما» مزيدة للتأكيد. وإن نريك ما أوعدناهم في حياتك أو بعد مماتك من العذاب ما عليك وإنّما ﴿عَلَيۡكَ﴾ الإبلاغ ﴿وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ﴾ ولا عليك الحساب.

أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَاۚ وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَلِلَّهِ ٱلۡمَكۡرُ جَمِيعٗاۖ يَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٖۗ وَسَيَعۡلَمُ ٱلۡكُفَّٰرُ لِمَنۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ هؤلاء الكفّار ﴿أَنَّا﴾ نقصد ﴿ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَا﴾ وجوانبها بالفتوح على المسلمين فننقص من أهل الكفر ونزيد في المسلمين كما أنّا فتحنا لمحمّد ما حول مكّة من القرى. أو المعنى: أولم يروا ما يحدث في الدنيا من الخراب بعد العمارة والموت بعد الحياة والنقصان بعد الزيادة لا رادّ لحكمه ﴿وَهُوَ سَرِيعُ﴾ المجازات على أفعال العباد ثواباً وعقاباً.

ثمّ بيّن سبحانه أنّ الكفّار الّذين قبلهم قد مكروا بالمؤمنين واحتالوا في كفرهم ودبّروا في تكذيب الرسل بما في وسعهم فأبطل الله مكرهم كذلك يبطل الله مكر هؤلاء ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡمَكۡرُ﴾ أي: له التدبّر والأمر ﴿جَمِيعٗا﴾ فيردّ مكرهم بنصب الحجج عليهم. وقيل: معناه: يملك الجزاء على المكر، وإنّما أتى بلفظ المكر كقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ﴾[1]. ﴿يَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٖ﴾ من الإيمان والكفر والطاعة والمعصية إلى النفس. وقد أسند الفعل إلى العباد وهذا

١ـ سورة الشورى: ٤٠.

صريح في بطلان قول المجبّرة، ولو كان حدوث الفعل بخلق الله لم يكن لقدرة العبد فيه أثر فوجب أن لا يكون للعبد كسب وقد أسند سبحانه الكسب إلى النفس ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ ولمن العاقبة المحمودة والمذمومة.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ لك يا محمّد ﴿لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ من جهة الله إلينا ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ شاهداً ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ بسبب ما أظهر لكم من الآيات الدالّة على نبوّتي ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ واختلف فيه:

قيل: إنّه الله على قراءة «من» بمعنى الموصول ومن قرأ «من» بالكسر على الابتداء أي: ومن عنده علم الكتاب.

وقيل ـ على القراءة الأوّليّة المشهورة ـ: إنّ المراد شهادة أهل الكتاب من الّذين آمنوا كابن سلام وأصحابه وسلمان الفارسيّ وتميم الداريّ.[١]

وقيل: معناه ومن عنده يعني: الّذي يعلم علم القرآن، فمن علم الكتاب القرآن وعرف جامعيّته من المعارف يعرف أنّه معجزة ودليل على صدق نبوّتك فحينئذ شهادة الله على نبوّته عليه السلام إنزال القرآن على وفق دعواه، ولا يعلم كون القرآن معجزاً إلّا أن يعلم علم القرآن.

وقيل: إنّ المراد به عليّ بن أبي طالب والأئمّة الهداة، وهذا القول الأخير عن أبي جعفر وأبي عبد الله[٢]. وروي عن بريد بن معاوية عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال: «**إيّانا عنى، وعنى أوّلنا، وأفضلنا وخيرنا بعد النبيّ**»[٣]. وروى عنه عبد الله بن كثير أنّه وضع يده على صدره ثمّ قال: «**عندنا والله علم الكتاب كملاً**».[٤]

١ـ مجمع البيان، ج٦، ص٥٣.

٢ـ مجمع البيان، ج٦، ص٥٣.

٣ـ مجمع البيان، ج٦، ص٥٤؛ وبصائر الدرجات، ص٢٣٥؛ والحدائق الناضرة، ج١، ص٢٨؛ ونورالثقلين، ج٢، ص٥٢٢.

٤ـ بحار الأنوار، ج٩، ص١١١؛ ومجمع البيان، ج٦، ص٥٤.

ويؤيّد ذلك ما روي عن الشعبيّ أنّه قال: «**ما أحد أعلم بكتاب الله بعد النبيّ من عليّ بن أبي طالب ومن الصالحين من أولاده**»[١].

وروى عاصم بن أبي النجود عن أبي عبد الرحمن السلميّ، قال: ما رأيت أحدا أقرأ من عليّ بن أبي طالب للقرآن أي: أعلم[٢]. وروى أبو عبد الرحمن أيضاً عن عبد الله بن مسعود قال: (لو كنت أعلم أنّ أحدا أعلم بكتاب الله منّي لأتيته، قال: فقلت له فعلي؟ قال: ولم ير في كتاب ولم يسمع في حديث أنّ أحدا يدّعي الأعلميّة أو التساوي في علم القرآن من عليّ بن أبي طالب بعد النبيّ من الخلفاء وغيرهم).

تمّت السورة.

١ـ مناقب آل أبي طالب، ج١، ص٣٢١، الصراط المستقيم، ج١، ص٢١٩، ونهج الإيمان، ابن جبر، ص٢٧٤؛ وبحار الأنوار، ج٨٩، ص٩٣.

٢ـ شواهد التنزيل، ج١، ص٣٣؛ وتاريخ مدينة دمشق، ج٤٢، ص٤٠٢؛ وانظر: مناقب آل أبي طالب، ج١، ص٣٢١.

سُورَةُ إبراهِيمَ

هي مكّيّة إلّا آيتين نزلتا في قتلى بدر من المشركين: قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ ـ إلى قوله ـ وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾[1].

فضلها عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: **«من قرأ سورة إبراهيم والحجر أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من عبد الأصنام وبعدد من لم يعبدها»**.[2] روى عنبسة بن مصعب عن أبي عبد الله قال: **«من قرأ سورة إبراهيم والحجر في ركعتين جميعاً في كلّ جمعة لم يصبه فقر ولا جنون ولا بلوى»**.[3]

افتتح هذه السورة ببيان الغرض من الرسالة والكتاب، فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ
رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ
يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ

١ـ سورة إبراهيم: ٢٨.

٢ـ مجمع البيان، ج٦، ص٥٥؛ نور الثقلين، ج٢، ص٥٣٥.

٣ـ مصباح المتهجد، ص٣١٩؛ وثواب الأعمال، ص١٠٧؛ ووسائل الشيعة (الإسلامية)، ج٥، ص٥٩، بحار الأنوار، ج٨٦، ص٣٦٩.

﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ ٣﴾

اعلم أنّ الكلام في هذه السورة مكيّة أو مدنيّة طريقة الآحاد ومتى لم يكن في السورة ما يتّصل بالأحكام الشرعيّة فنزولها بمكّة والمدينة سواء، وإنّما يختلف الغرض في ذلك إذا حصل فيه ناسخ ومنسوخ فذلك فيه فائدة عظيمة.

﴿الٓر﴾ معناه أنّ السورة المسمّاة بالر ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ﴾ لغرض أن تخرج جميع الناس من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان بأمر الله وإطلاقه، وفي هذا دلالة على أنّه سبحانه يريد الإيمان من جميع المكلّفين، واللام للغرض لا للعاقبة لأنّه لو كان كذلك لكان الناس كلّهم مؤمنين والمعلوم بخلافه.

ثمّ بيّن النور أنّه الصراط العزيز الحميد المؤدّي إلى معرفة الله المنيع في سلطانه المحمود في أفعاله، ثمّ في الآية دلالة في أنّ طرق الكفر متعدّدة، وطريق الإيمان والخير واحداً للجمع في الظلمات والإفراد في النور، وكذلك طرق الجهل كثيرة وطريق العلم واحداً وتكرير «إلى» على البدل كقوله: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾[1]. ﴿ٱللَّهِ﴾ هو ﴿ٱلَّذِى﴾ يتصرّف فيهما على وجه لا اعتراض عليه فيه، وأخبر أنّ الويل والعذاب للكافرين يجحدون نعم الله ولا يعترفون بوحدانيّته فلهم الويل والعذاب الشديد وكلمة «اللّهِ» علم لذات الله، وليس بمشتقّ لكونه لو كان مشتقّاً لكان مفهومه صالحاً لوقوع الشركة فيه، ويدلّ على هذا القول قوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾[2] والمعنى هل تعلم من اسمه الله غير الله؟ وهذا يدلّ على أنّ قولنا: الله اسم لذاته المخصوصة.

﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ﴾ وصف الكافرين، يحبّون المقام في هذه الدنيا

١ـ سورة الأعراف: ٧٥.

٢ـ سورة مريم: ٦٥.

العاجلة ﴿عَلَى﴾ الكون في ﴿ٱلْآخِرَةِ﴾ ويمنعون غيرهم من اتّباع الطريق المؤدّي إلى معرفة اللّه ويطلبون طريقاً بعيداً عن الاستقامة و«السبيل» يذكّر ويؤنّث ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفين ﴿فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ﴾ عن الحقّ.

وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٤﴾

شرع في بيان نعمه على الخلق حيث إنّه سبحانه أرسل إليهم رسولاً من خلّصهم من ظلمات الكفر، وهو من أهل لسانهم ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ﴾ ما ينفعهم وما يضرّهم، وكذلك كان سنّة المرسلين فيما مضى من الأزمان لابدّ وأن يكون لسانه لسان أهل بلده وقومه المجاورين له حتّى إذا فهموا عنه فهّموا غيرهم من الّذين لسانهم غير لسانهم، فكأنّه أهل بلده وقومه يكونون تراجمة للغير، وقد أرسل اللّه محمّداً إلى الخلق كافّة بلسان قومه وهم العرب بدلالة قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾[1].

وقيل: المعنى أنّا كما أرسلناك إلى الناس بلغة العرب لتبيّن لهم الدين ثمّ إنّهم يبيّنونه للناس كذلك أرسلنا كلّ رسول بلغة قومه ليظهر لهم الدين.

ثمّ استأنف فقال: ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ﴾ من طريق الجنّة إذ كانوا مستحقّين للعقاب بكفرهم ﴿وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ إلى طريق الجنّة وقيل: يلطف لمن يشاء بمن له لطف. ويضلّ عن ذلك اللطف من لا لطف له فمن تفكّر وتدبّر اهتدى وثبّته اللّه، ومن أعرض عنه خذله اللّه وهو الغالب ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ في أفعاله.

وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ

١ـ سورة سبأ: ٢٨.

ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾

ثمّ ذكر سبحانه إرساله موسى فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ﴾ بالمعجزات الدالّة على نبوّته بأن ﴿أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ إلى سبيل الهداية يعني أمرناه بذلك لأنهم بسببه خرجوا من الكفر إلى الإيمان ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ فيه أقوال: أحدها أن يذكّرهم وقائع الله في الأمم الخالية وإهلاك من أهلك منهم ليحذروا بذلك. والثاني: يذكّرهم بنعم الله أي: يرغّبهم ويرهّبهم، مثلاً أيّام موسى منها ما كان أيّام المحنة كما كانت بنو إسرائيل فيها تحت قهر فرعون، ومنها أيّام المحنة والنعماء مثل إنزال المنّ والسلوى وغلبتهم على فرعون وكذا السابقين عن موسى. وكنّي عن الأيّام بالنعمة والنقمة لأنّ الأيّام ظرف لهما.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ التذكير دلالات لكلّ من عادته الصبر والشكر وهو المؤمن لأنّه لا يخلو من الصبر على البلاء أو الشكر على النعماء.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ﴾ أي: واذكر يا محمّد إذ قال موسى: لهم ﴿ٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم﴾ حين كنتم معذّبين ﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ﴾ ويذيقونكم أنواع العذاب ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ للاسترقاق ولغرض الاسترقاق وإبقاؤهنّ منفردات عن الرجال بلاء عظيم للرجال والنساء.

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي
لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ
حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ
وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ
فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا
تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ
مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ
آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ﴾ من بقيَة قول موسى حين قال: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ﴾ أي: واذكروا إذا أعلم ﴿رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ نعمتي ﴿وَلَئِن﴾ جحدتم نعمتي ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ لمن كفر بنعمتي. قال أبو عبد الله في هذه الآية: «**أيما عبد أنعم الله عليه فأقرّ بها بقلبه وحمد الله عليها بلسانه لمْ لم ينفد كلامه حتى يأمر الله له بالزيادة**».

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا﴾ وتجحدوا نعم الله ﴿أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ من الخلق لم تضرّوا الله شيئاً وإنّما يضرّكم ذلك بأن تستحقّوا عليه العذاب ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ﴾ عن شكركم ﴿حَمِيدٌ﴾ في أفعاله لأنه متى كان غنياً لا يزداد بشكر الشاكرين ولا ينقص بكفر الكافرين، وحينئذ لا يتفاوت الكفر والكفران، أي: سواء حمل الآية على الكفر المقابل للإيمان أو الكفران المقابل للنعمة.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ قيل: هذا الخطاب متوجه إلى أمّة نبيّنا. وقيل: إنه قول موسى فالخطاب إلى امته أي: ألم يجئكم ﴿نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ من

الأمم مثل ﴿قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ أي: لا يعلم تفاصيل أحوالهم وعددهم وما فعلوه وما فعل بهم إلّا اللّه، قال ابن الأنباري: إنّ اللّه أهلك أمما من العرب وغيرها فانقطعت أخبارهم وعفت آثارهم فليس أحد يعرفهم إلّا اللّه.

وكان ابن مسعود إذا قرأ هذه الآية قال: كذب النسّابون. وقيل: إنّ النبيّ ﷺ كان لا يتجاوز في انتسابه معدّ بن عدنان بن أدد وقال: «**تعلّموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم وتعلّموا من النجوم ما تستدلّون به على الطريق**». قال بعض العلماء: وبهذا الطريق لا يمكن القطع على مقدار السنين من لدن آدم عليه السلام إلى هذا الوقت.

﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ والآيات والأحكام من الحلال والحرام ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ﴾ إلى ﴿أَفْوَاهِهِمْ﴾ في معناه أقوال:

أحدها: عضّوا على أصابعهم من شدّة الإنكار والغيظ لأنّه ثقل عليهم مكان الرسل وكلامهم، عن ابن عبّاس وابن مسعود والجبّائيّ.

وثانيها: جعلوا أيديهم في أفواه الأنبياء تكذيباً لهم وردّا لما جاءوا به فالضمير في «أَيْدِيَهُمْ» إلى «الكفّار» وفي «أفْواهِهِمْ» إلى «الأنبياء» كأنّهم لمّا سمعوا كلام الأنبياء أشاروا بأيديهم إلى أفواه الأنبياء تسكيتا لهم.

وثالثها: وضعوا أيديهم على أفواههم مؤمين بذلك إلى الرسل أن اسكتوا عمّا تدعوننا إليه كما يفعل الواحد منّا إلى غيره إذا أراد أن يسكته.

ورابعها: أنّ كلّا الضميرين إلى المرسل أي: أخذوا أيدي الرسل فوضعوها على أفواههم ليسكتوهم وليقطعوا كلامهم.

هذا كلّه إذا حملنا معنى الأيدي والأفواه على الحقيقة، ومن حملها على التوسّع والمجاز، وإلّا فقيل: المراد باليد ما نطقت به الرسل من الحجج لأنّ

الحجج يخرج من الأفواه.

وقيل: معناه كذّبوا رسلهم وتركوا ما أمروا به وبعض أنكروا هذا المعنى وقالوا: إنّما المعنى عضّوا على الأيدي حقدا أو غيظاً كقول الشاعر:

يردّون في فيه عشر الحسود

يعني: أنّهم يغيظون الحسود حتّى يعضّ على أصابعه العشر.

﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا﴾ أي: جحدنا ما ﴿أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ﴾ من الدين نوقع في الريبة، الريبة قلق النفس وعدم الاطمئنان ﴿قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ﴾ حينئذ: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ مع هذه الحجج؟ ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ وخالقهما لا يقدر على ذلك غيره فوجب أن يعبد وحده ولا يشرك به من لم يقدر أن يخلق و﴿يَدۡعُوكُمۡ﴾ إلى الإيمان ﴿لِيَغۡفِرَ لَكُم﴾ وينفعكم لا ليضرّكم وقال: ﴿مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾ أي: بعض ذنوبكم لأنّه قد يغفر ما دون الشرك ولا يغفر الشرك ﴿وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ أي: يؤخّركم إلى الأجل الّذي ضرب الله وقدّره لكم أن يميتكم فيه. ﴿قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا﴾ أي: قال لهم قومهم: ما أنتم إلّا خلق ﴿مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ﴾ أن تمنعونا ﴿عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ من الأصنام ﴿فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ﴾ وحجة، وإنّما قالوا ذلك لأنّهم ما اعتقدوا بأنّ جميع ما جاءت به الرسل معجزة لأنّهم طلبوا معجزات سوى ما ظهرت منهم.

وفي هذه الآية دلالة على أنّ الله لا يريد الكفر والشرك وإنّما يريد الخير والإيمان، وإنّما بعث الرسل إلى الناس فضلاً ورحمة، فإنّه سبحانه قال: ﴿يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم﴾.

قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأۡتِيَكُم بِسُلۡطَٰنٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ

﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١١ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ۝١٢﴾

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ﴾ لسنا ﴿نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ في الخلقة والصورة ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ وينعمه النبوة ولقد منَ الله علينا، وليس ﴿لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم﴾ بحجة على صحة دعوانا ﴿إِلَّا﴾ بأمر ﴿ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ﴾ المصدقون به وبأنبيائه، وأيَ شيء لنا إذا لم ﴿نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ ولم نفوّض له أمورنا إليه؟ ولا عذر لنا في أن لا نتوكل عليه ﴿وَقَدْ﴾ عرّفنا الطريق و﴿هَدَىٰنَا﴾ إلى سبيل الإسلام ودلّنا على معرفته وضمن لنا على الإيمان جزيل الثواب ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ﴾ أذا كم فإنه تعالى يكفينا أمركم.

وروى الواقديّ عن أبي مريم عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا آذاك البراغيث فخذ قدحا من الماء فاقرأ عليه سبع مرات: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ، إلى آخر الآية﴾ وقل: فإن كنتم آمنتم بالله فكفوا شركم وأذاكم عنّا، وترش الماء حول فراشك فإنك بتّ تلك الليلة آمنا من شرّها».(١)

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٣ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ۝١٤ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝١٥ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ۝١٦ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ۝١٧ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ

---

١ ـ كنز العمال، ج ١٠، ص ١٠٤؛ ومجمع البيان، ج ٦، ص ٦٤؛ ونور الثقلين، ج ٢، ص ٥٣٠.

﴿مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾

المعنى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وما قبلوا الإيمان ﴿لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم﴾ من بلادنا إلّا أن ترجعوا إلى أدياننا ومذاهبنا الّتي نحن عليها ﴿فَأَوْحَىٰ﴾ الله إلى رسله لمّا ضاقت صدورهم بما لقوا من قومهم إنّا نهلك هؤلاء ﴿الظَّالِمِينَ﴾ الكافرين ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ﴾ أي: نسكنكم أرضهم، يريد اصبروا فإنّي أهلك عدوّكم وأورثكم أرضهم. وفي معناه ما جاء: من آذى جاره أورثه الله داره.

﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي﴾ أي: ذلك الفوز لمن خاف وقوفه في الحساب للجزاء بين يديّ في الموضع الّذي أقيمه فيه، وأضاف المقام إلى نفسه سبحانه لأنهم يقومون بأمره ﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾ وعقابي وإنّما قالوا: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ ظنّا منهم ـ بزعمهم الفاسد ـ أنّهم على ملّتهم فطاما وهذا الزعم لأنّهم نشأوا فيهم.

﴿وَاسْتَفْتَحُوا﴾ قيل: استفتح الرسل. وقيل: استفتح الأمم أي: طلبوا النصر على الكافرين أو الأمم استفتحوا العذاب على وجه التكذيب لهم ﴿وَخَابَ﴾ وخسر ﴿كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي: خسر كلّ متكبّر معاند للحقّ من وراء هذا الجبّار المعاند نار ﴿جَهَنَّمُ﴾ أي: يأتيه العذاب من خلفه ﴿وَيُسْقَىٰ﴾ ماء ممّا يصيل من النار، والقيح عن فروج الزواني في النار لونه لون الماء وطعمه طعم الصديد. عن النبيّ ﷺ قال: **«يقرب إليه ... فإذا دنى منه شوى وجهه ووقع فروة رأسه، فإذا شرب قطع أمعاءه حتّى يخرج من دبره»**.[1]

قال رسول الله ﷺ: **«من شرب الخمر لم تقبل صلاته أربعين يوماً، فإن مات وفي بطنه شيء من ذلك كان حقّاً على الله أن يسقيه من طينة خبال وهو صديد أهل**

١ـ بحار الأنوار، ج٨ ، ص٢٤٤، وكنز العمال، ج٢. ص٢٨؛ والتبيان، ج٦، ص٢٨٤.

النار وما يخرج من فروج الزناة فيجتمع ذلك في قدور جهنّم فيشربه أهل النار فيصهر به ما في بطونهم والجلود»[١]، رواه شعيب بن واقد عن الحسين بن زيد عن الصادق عن آبائه عليهم السّلام.[٢]

﴿يَتَجَرَّعُهُ﴾ أي: يشرب ذلك الصديد جرعة جرعة ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾ أي: لا يقارب أن يشربه كراهة له وهو يشربه، و«يكاد» نفيه إثبات وإثباته نفي فقوله: ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾ أي: ويسيغه بعد إبطاء تقول العرب: ما كدت أقوم أي: قمت بعد إبطاء كقوله: ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾[٣] يعني: فعلوا بعد إبطاء.

﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي: يأتيه شدائد الموت وسكراته من كلّ موضع جسده من ظاهره وباطنه حتّى يأتيه من أطراف شعره ومن فوقه ومن تحته وعن يمينه وشماله، ومع إتيان أسباب الموت والشدائد الّتي يكون من الموت لا يموت فيستريح ﴿وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ أي: يستقبله ويتلقّى بعد هذا العذاب المذكور عذاب أشدّ منه وهو الخلود في النار قال المفضّل: المراد بعد العذاب الأوّل وقبل الخلود، قطع الأنفاس وحبسها في الأجساد[٤].

﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ أي: مثل أعمال الّذين كفروا بربّهم، حذف المضاف لدلالة الكلام الواقع بعد المضاف إليه في قلّة انتفاعها ﴿أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ﴾ وذرّته ونسفته ﴿فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ أي: شديد الريح فكما لا يقدر أحد على جمع ذلك الرماد المتفرّق فكذلك هؤلاء الكفّار لا يقدرون ممّا كسبوا على شيء من أعمالهم ومثله قوله: ﴿مَا عَمِلُوا مِنَ

١ـ من لايحضره الفقيه، ج٤، ص٨؛ وبحار الأنوار، ج٨، ص٢٤٤.

٢ـ مجمع البيان، ج٦، ص٦٧؛ ونورالثقلين، ج٢، ص٥٣٢.

٣ـ سورة البقرة: ٧١.

٤ـ أي: وذلك العذاب الغليظ قطع الأنفاس.

عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾[١].

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ عن النفع والخطاء البعيد عن الصواب. وفي هذه الآية دلالة واضحة على بطلان قول المجبّرة لأنّه سبحانه أضاف العمل إليهم ولو كان العمل مخلوقاً له لما صحّ الإضافة إليهم.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾

المعنى: بيّن في هذه الآية أنّه إنّما خلق الخلق ليعبدوه وليؤمنوا به لا ليكفروا فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ وتعلم، لأنّ الرؤية قد تكون بمعنى العلم كما يكون الإدراك للبصر ﴿أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ على ما تقتضيه الحكمة، والخلق معناه فعل الشيء على تقدير وترتيب ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: للغرض الصحيح وهو الدين والعبادة ﴿إِن يَشَأْ﴾ يهلككم ويفنيكم ﴿وَيَأْتِ﴾ بقوم آخرين مكانكم لأنّ من قدر على بناء الشيء كان على هدمه أقدر وما هلاككم بأمر ممتنع ولا متعذّر على الله.

﴿وَبَرَزُوا۟﴾ إنّ الخلق يبرزون ﴿لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ ورد بلفظ الماضي وإن كان معناه الاستقبال لأنّ كلّ ما أخبر الله صار كأنّه حصل ودخل في الوجود نظيره ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾[٢] والمراد من البروز خروجهم من

١ـ سورة الفرقان: ٢٣.

٢ـ سورة الأعراف: ٥٠.

القبور وانكشفوا وقيل: برزت سرائرهم والأحوال الكامنة فيهم للحاكم الحكيم، فإن كانوا من السعداء برزوا بصفاتهم القدسيّة ووجوههم المشرقة وأرواحهم المستنيرة، فتجلّى لها نور الجلال فما أجلّ تلك الأحوال! وإن كانوا من الأشقياء برزوا للمواقف العظيمة ذليلين مهينين خائفين واقعين في خزي الخجالة، وموقف الإهانة والفزع، نعوذ بالله منها.

ثمّ يقول الضعفاء للرؤساء من أهل الضلال: هل تقدرون على دفع عذاب الله عنا؟ ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ في الكفر ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ﴾ شيئاً من عذاب واقع؟ قال المتبعون للأتباع: ﴿لَوْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ أي: لو خلصنا لخلصناكم ولو هدانا الله إلى طريق الخلاص أو هدانا إلى طريق الرجعة إلى الدنيا فنصلح ما أفسدناه ﴿لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ يعني: أنّ الصبر والجزع سواء، لا لنا مهرب من عذاب الله.

وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾

لمّا بيّن الله المناظرة الّتي وقعت بين الرؤساء والأتباع من كفرة الإنسان بيّن في هذه الآية المناظرة الّتي وقعت بين الشيطان وأتباعه من الإنس فقال: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ﴾ أي: لمّا استقرّ أهل الجنّة في الجنّة وأهل النار في النار أخذ أهل النار في لوم إبليس وتقريعه فيقوم في النار خطيبا لهم على منبر من نار، فقال رسول الله: إذا جمع الله الخلائق وقضى بينهم يقول الكافر: قد وجد المسلمون من يشفع لهم فمن يشفع لنا ما هو إلّا إبليس هو الّذي أضلّنا

فيأتونه ويسألونه فعند ذلك يقول هذا القول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ وقوله: وعد الحقّ من باب إضافة الشيء إلى نفسه كقوله: «حبّ الحصيد» و«مسجد الجامع» على قول الكوفيّين. وعلى قول البصريّين يكون التقدير وعد اليوم الحقّ فوعدكم وصدقكم ووعدتكم فأخلفتكم وعدتكم أن لا جنّة ولا نار ولا حشر ولا حساب ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم﴾ من قدرة وقهر فأقهركم على الكفر والمعاصي والجئكم إليها ﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ﴾ بوسوستي وتزييني.

﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾ ما أنا بمغيثكم ولا أنتم بمغيثي ومعيني. وفي هذه الآية دلالة على أنّ الكفر والمعصية لو كان بتخليق الله لوجب أن يقول إبليس: لا تلوموني ولا أنفسكم وإنّما الله قضى عليكم الكفر وأجبركم عليه. وكذلك تدلّ على أنّ الشيطان لا قدرة له على تصريع الإنسان وعلى تعويج أعضائه وعلى إزالة العقل عنه كما يقوله العوامّ.

﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ أي: كفرت الآن بما كان من إشراككم إيّاي مع الله في الطاعة، يعني: جحدت أن أكون شريكاً لله فيما أشركتموني فيه من قبل هذا اليوم. ولعلّ مراده استكباره عن سجود آدم ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قيل: إنّه من تمام قول الشيطان. وقيل: استئناف وعيد الله لأهل النار.

وبقي هاهنا سؤال: كيف يتعقّل ويتمكّن الشيطان من النفوذ في داخل أعضاء الإنسان وإلقاء الوسوسة إليه؟ فيه قولان: الأوّل أنّ ما سوى الله بحسب القسمة العقليّة على أقسام ثلاثة: المتحيّز والحالّ في المتحيّز والّذي لا يكون متحيّزاً ولا حالاً فيه. وهذا القسم الثالث هو المسمّى بالأرواح، فهذه الأرواح إن كانت طاهرة مقدّسة في عالم الروحانيّات فهم الملائكة وإن كانت

خبيثة شريرة داعية إلى الشرور وعالم الأجساد ومنازل الظلمات فهم الشياطين، فعلى هذا التقدير الشيطان لا يكون جسما يحتاج إلى الولوج في داخل البدن، بل هو جوهر روحانيّ خبيث الفعل فعلى هذا التقدير لا يبعد في أن يلقي شيء من تلك الأرواح أنواعاً من الوساوس والأباطيل إلى جوهر النفس الناطقة بالمشاكلة وتلك الوسوسة تؤثّر في النفس الناطقة فيحصل الإضلال من غير ولوج فهذه المشاكلة تختلف فإن كانت مشاكلة الخير والبركة كان ذلك من الملك إلهاماً، وإن كانت المشاكلة من أبواب الشرّ كان وسوسة من الشيطان، وهذا التقرير على القول بإثبات جواهر مبرّأة عن الجسميّة والتحيّز، والقول بالأرواح الخبيثة والطاهرة كلام مشهور عند قدماء الفلاسفة فليس لأحد أن ينكر وجود الشيطان والجنّ والملائكة على أن نطقت به الشرائع والشريعة الأحمديّة فمن أنكر أنكر القرآن.

والقول الثاني هو أنّ الملائكة والشياطين لابدّ وأن تكون أجساما لكن أجساما لطيفة والله سبحانه ركّبها تركيباً عجيباً وهي أن تكون مع لطافتها لا تقبل التفرّق والتمزّق والفساد والبطلان، ونفوذ الأجرام اللطيفة في عمق الأجرام الكثيفة غير مستبعد كما في الروح، فإنّه نفذ في داخل عمق البدن فإذا عقل ذلك فكيف يستبعد نفوذ أنواع كثيرة من الأجسام اللطيفة في داخل هذا البدن؟ كالشيطان مثلاً وكماء الورد في الورد ودهن السمسم في السمسم فكذلك القول في الشيطان والجنّ، فلمّا ثبت القول في إمكان وجودهما فحينئذ الأولى أنّ الملائكة يكونون من النور مخلوقين، والشياطين مخلوقين من اللهب والدخان كما قال الله: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾[1].

وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ

١ـ سورة الحجر: ٢٧.

خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡۖ تَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٖ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٖ ﴿٢٦﴾

المعنى: لمّا تقدّم وعيد الكفّار عقّبه بالوعد للمؤمنين فقال سبحانه: ﴿وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ﴾ صدّقوا باللّه ورسوله ﴿وَعَمِلُواْ﴾ الطاعات ﴿جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ بأمر ﴿رَبِّهِمۡۖ تَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ بعضهم يحيّي بعضهم بهذه الكلمة والملائكة يحيّونهم بهذه الكلمة والربّ الرحيم يحيّيهم بهذه الكلمة كما قال: ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾[1] وكذلك قال: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ * سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم﴾[2] والتحيّة التلقّي بالكرامة في المخاطبة والجمع التحيّات لأنّه كان الملوك يحيّون بتحيّات مختلفة يقال لبعضهم: أبيت اللعن. ولبعضهم: أسلم وأنعم. ولبعضهم: عش ألف سنة. وبالجملة ثمّ ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ﴾ مثالين للمؤمن والكافر أي: بيّن اللّه شبها وضرب وجعل مثل الكلمة الطيّبة، وهي كلمة التوحيد أعني كلمة لا إله إلّا اللّه أو كلّ كلام أمر اللّه به من الطاعات، وإنّما سمّاها طيّبة لأنّها نامية زاكية لصاحبها بالخيرات مثل شجرة طيّبة المنظر والشكل والرائحة والثمرة الّذيذة المستطابة المتولّدة منها، وكثيرة المنفعة بسبب أكلها جامعة لهذه الوجوه لأنّ الطيّب يصدق على جميع هذه المراتب ويكون أصل الشجرة ﴿ثَابِتٞ﴾ راسخ في الأرض باق آمن من الانقلاع والزوال لأنّ الطيّب إذا كان في معرض الانقراض ولو أنّه

١ـ سورة يس: ٥٨.

٢ـ سورة الرعد: ٢٣ـ٢٤.

يحصل الفرح بسبب وجوده إلّا أنّه يعظم الحزن بسبب زواله فليس بطيّب. ويكون فَرْعُها ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ وهذه الصفة تدلّ على قوتها من التصاعد مرتفعة وبعيدة عن عفونات الأرض وقاذورات الأبنية فحينئذ ثمرتها نقيّة طاهرة عن جميع الشوائب. ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ والشجرة الموصوفة بهذه الصفات ثمراتها دائمة حاضرة في كلّ الأوقات وليست مثل سائر الأشجار، ومن المعلوم بالضرورة أنّ الرغبة في تحصيل هذه الشجرة بحسب أن تكون عظيمة وأنّ العاقل متى أمكنه تحصيلها وتملّكها فلا يجوز له أن يتغافل عنها في الفوز بها، فالمعرفة بالله والاستغراق في إطاعته ومحبّته تشبه هذه الشجرة بهذه الصفات المذكورة، وهيهات من هذه اللذّة والالتذاذ بالفاكهة أين الثرى والثريّا؟ لأنّ المدرك من تلك اللّذة جوهر النفس القدسيّة والمدرك معرفة الجلال، والمدرك من هذه القوة الذائقة الفانية والمدرك الفاكهة ونسبة أحد المدركين إلى الأخرى كنسبة أحد اللذّتين إلى الأخرى لأنّ اللذّه الحاصلة بتناول الفاكهة سريعة الاستحالة شديدة التغيّر، ولذّة المعرفة وكمال جلال الله ممتنع التغيّر. وبالجملة، فالمراد من هذه الشجرة روي عن أنس بن مالك عن النبيّ ﷺ: **«أنّ هذه الشجرة الطيّبة هي النخلة»**[١] وقيل: إنّها شجرة في الجنّة. وروى ابن عقدة عن أبي جعفر عليه السلام: **«أنّ الشجرة رسول الله وفرعها عليّ وعنصر الشجرة فاطمة وثمرها أولادها، وأغصانها وأوراقها شيعتنا»**، ثمّ قال: **«إنّ الرجل من شيعتنا ليموت فيسقط من الشجرة ورقة وإنّ المولود من شيعتنا ليولد فيورق مكان تلك الورقة ورقة»**[٢]. وروي عن ابن عبّاس قال: قال جبرئيل للنبيّ: **«أنت الشجرة وعليّ غصنها وفاطمة ورقها والحسن والحسين ثمارها»**[٣].

١ـ التبيان، ج٦، ص ٢٩١؛ ومجمع البيان، ج٦، ص ٧٤.

٢ـ مجمع البيان، ج٦، ص٧٤؛ وبحار الأنوار، ج٩، ص١١٢.

٣ـ مجمع البيان، ج٦، ص٧٤؛ وبحار الأنوار، ج ٢٤، ص ١٣٧.

وقيل: المراد بالكلمة الطيّبة الإيمان وبالشجرة الطيّبة المؤمن. قوله: ﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا﴾ أي: تخرج هذه الشجرة ما يؤكل منها كلّ حين، قيل: المراد كلّ السنة. وقيل: كلّ غدوة وعشيّة. وقيل: معناه في جميع الأوقات لأنّ التمر يكون أولاً طلعاً ثمّ بلحاً ثمّ بسراً ثمّ رطباً ثمّ تمراً، فيكون تمره موجوداً في كلّ الأوقات، ويدلّ على أنّ الحين بمنزلة الوقت، قول النابغة في صفة الحيّة:

يبادرها الراقون من سوء سمّها   تطلّقه حينا وحينا تراجع[١]

وقيل: إن معنى آية ﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ ما يفتي به الاثنا عشر من آل محمّد شيعتهم في الحلال والحرام.

﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ لكي يتدبّروا.

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ وهي كلمة الكفر والشرك، وقيل: كلّ كلام في معصية الله ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ غير زاكية وهي شجرة حنظل. وقيل: شجرة لا قرار لها في الأرض. وقيل: إنّها الكشوت. وعن أبي جعفر عليه السلام: «**أنّ هذا مثل بني أميّة**»[٢] ﴿ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: اقتطعت واستأصلت واقتلعت جثّتها من الأرض ما لتلك الشجرة من ثبات فإنّ الريح يكشفها وتذهب بها، فكما أنّ هذه الشجرة لا ثبات لها ولا ينتفع بها أحد فكذلك الكلمة الخبيثة لا ينتفع بها صاحبها، ولا يثبت له منها نفع ولا ثواب.

وروي عن ابن عبّاس أنّها شجرة لم يخلقها الله بعد وإنّما هو مثل ضربه بهذا وحقيقة الشجرة الخبيثة هي الجهل بالله فإنّه أوّل الآفات ورأس الشقاوات. وقيل: المراد بالشجرة الخبيثة الثوم لأنّه صلى الله عليه وآله وصف الثوم بأنّها

١ـ التبيان، ج٦، ص٢٩٢

٢ـ مجمع البيان، ج٦، ص٧٥؛ وبحار الأنوار، ج٦٤، ص٣٨، انظر: الاستعانة، ابوالقاسم الكوفي، ج١، ص٧٤.

شجرة خبيثة. وقيل: الشوك. وبالجملة لمّا كانت معلومة الصفة كان التشبيه بها نافعا في المطلوب.

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾

لمّا ذكر الكلمة الطيّبة عقّبه بذكر ما يحصل لصاحبها من المثوبة والكرامة، فقال: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ويثبّتهم في الآخرة في كرامته وثوابه بقولهم الثابت الّذي قالوا، وهو كلمة الإيمان وكلمة التوحيد حتّى لا يزلّوا ولا يضلّوا عن طريق الحقّ في الدنيا ولا يضلّوا عن طريق الجنّة ﴿فِي ٱلْآخِرَةِ﴾ وباسكانهم فيها.

وقال أكثر المفسّرين: إنّ المراد بقوله: ﴿فِي ٱلْآخِرَةِ﴾ في القبر وقالوا: الآية وردت في سؤال القبر، وهو المرويّ عن أئمتنا عليهم السلام.[1] وروى محمّد بن يعقوب الكلينيّ في كتاب «الكافي» بإسناده عن سويد بن غفلة عن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام قال: «**إنّ ابن آدم إذا كان آخر يوم من الدنيا وأوّل يوم من الآخرة مثّل له ماله وولده وعمله فيلتفت إلى ماله فيقول: والله إنّي كنت عليك لحريصا شحيحاً فما لي عندك؟ فيقول: خذ منّي كفنك. فيلتفت إلى ولده فيقول: والله إنّي كنت لكم محبّاً ومحاميا فمالي عندكم؟ فيقولون نؤدّيك إلى حفرتك نواريك فيها. قال: فيلتفت إلى عمله فيقول والله إنّي كنت فيك لزاهداً وإن كنت عليّ لثقيلاً فمالي عندك؟ فيقول: أنا قرينك في قبرك ويوم نشرك حتّى أعرض أنا وأنت على ربّك. قال: فإن كان لله وليّا أتاه أطيب الناس ريحاً وأحسنهم منظراً ورياشا فقال: ابشر بروح وريحان وجنّة نعيم ومقدمك خير مقدم! فيقول له: من أنت؟ فيقول: أنا عملك الصالح قرينك**

١ـ مجمع البيان، ج٦، ص٧٦؛ ونور البراهين، ج١، ص٢٢١؛ وبحار الأنوار، ج٦، ص٢١٠.

أو تحلّ إلى الجنة، وإنّه ليعرف غاسله ويناشد حامله أن يعجّله فإذا ادخل قبره أتاه ملكاً القبر يجرّان أشفارهما ويخدّان الأرض بأنيابهما أصواتهما كالرعد القاصف، وأبصارهما كالبرق الخاطف، فيقولان له: من ربّك وما دينك ومن نبيك؟ فيقول: الله ربّي وديني الإسلام ونبيّي محمّد. فيقولان: ثبتك الله بالقول الحق، وهو قوله سبحانه: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ ثمّ يفسحان له مدّ نظره ثمّ يفتحان له باباً إلى الجنّة ثمّ يقولان له: نم قرير العين نوم الشابّ الناعم فإنّ الله يقول: ﴿أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾[1].

قال: وإذا كان لربّه عدوّا فإنّه يأتيه أقبح خلق الله زيّاً وأنتنه ريحاً فيقول: ابشر بنزل من حميم وتصلية جحيم، وإنّه ليعرف غاسله ويناشد حملته أن يحبسوه فإذا ادخل القبر أتاه ملكاً القبر فألقيا أكفانه، ثمّ يقولان له: من ربّك وما دينك ومن نبيك؟ فيقول: لا أدري. فيقولان: لا دريت ولا هديت، فيضربان يافوخه بمرزبة معهما ضربة ما خلق الله دابّة إلّا تذعر بها ما خلا الثقلين ثمّ يفتحان له باباً من النار ثمّ يقولان له: نم بشرّ حال فيه مثل ما فيه القناة من الزجّ حتّى أنّ دماغه ليخرج من بين ظفره ولحمه ويسلّط الله حيّات الأرض وعقاربها وهوامّها، فتنهشها حتّى يبعثه الله من قبره وإنّه ليتمنّى قيام الساعة بسبب ما هو فيه من الشرّ»[2]، نعوذ بالله من عذاب القبر.

﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ﴾ عن هذه التثبيت في الدنيا وفي الآخرة ﴿ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ بسبب اختيارهم الظلم وإنّما فسّر الآخرة هاهنا بالقبر بسبب أنّ الميّت انقطع بالموت عن أحكام الدنيا ودخل في أحكام الآخرة ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ من الإمهال والانتقام وضغطة القبر ومساءلة منكر ونكير ولا اعتراض عليه.

١ــ سورة الفرقان: ٢٤.

٢ــ الكافي، ج٣، ص٢٣١؛ من لا يحضره الفقيه، ج١، ص١٣٧؛ الأمالي للطوسي، ص٣٤٨.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾﴾

نزلت في أهل مكّة حيث أسكنهم الله حرمه الآمن وجعل عيشهم في السعة والدعة وبعث فيهم محمّداًﷺ فلم يعرفوا قدر هذه النعمة. ثمّ حكى عنهم أنواعاً من الأعمال القبيحة من تبديل ﴿نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ أي: بدّلوا الشكر بالكفر ﴿وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ﴾ الهلاك وهي جهنّم وأخرجوهم إلى بدر وأنزلوهم جهنّم بدعائهم إيّاهم إلى الكفر. وسئل عليّ‌ؑ عن هذه الآية فقال: «**هم الأفجران من قريش بنو أميّة وبنو المغيرة**»[1]. وقيل: إنّهم جبلة بن الأيهم ومن اتّبعوه من العرب تنصّروا ولحقوا بالروم.

﴿جَهَنَّمَ﴾ يدخلونها ﴿وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ قرارهم في النار ﴿وَجَعَلُواْ﴾ هؤلاء الكفّار ﴿لِلَّهِ﴾ نظراء وأمثالا للعبادة زيادة على كفرهم ﴿لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ وقرئ «ليضلوا» بفتح الياء فحينئذ معنى اللام للعاقبة أي: صار عاقبة أمرهم الهلاك، ومن قرأ بضمّ الياء أي: ليضلّ الناس عن سبيل الله، وعلى هذه القراءة فاللّام لام «كي» للغرض. وكانوا يصرّحون الشريك لله في القول والعمل لأنّهم كانوا يعبدون الأصنام ويقولون في الحجّ: لبّيك لا شريك لك إلّا شريك هو لك تملكه وما ملك.

﴿قُلْ﴾ يا محمّد لهؤلاء الكفّار: ﴿تَمَتَّعُواْ﴾ وانتفعوا قليلاً ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ والمراد التهديد وإن كان بصورة الأمر.

﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا

١ـ الكافي، ج٨، ص١٠٣؛ وجامع البيان، ج١٣، ص٢٨٨؛ ومجمع البيان، ج٦، ص٧٨.

وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾

المعنى: لمّا أمر الكافرين على سبيل التهديد والوعيد بالتمتّع بنعيم الدنيا أمر المؤمنين في هذه الآية بترك التمتّع بالدنيا والمجاهدة بالنفس والمال فقال: ﴿قُل﴾ يا محمّد ﴿لِعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أقيموا وأنفقوا، وهو في المعنى أمر محذوف منه اللام أي: ليقيموا ولينفقوا، وإنّما جاز حذف اللام لأنّ قوله: ﴿قُل﴾ عوض منه كقولك: قل لزيد يضرب عمراً، وإنّ الإنسان بعد الفراغ من الإيمان مأمور بالصلاة وأداء الزكاة، وهما بذل النفس في مجاهدة الصلاة وبذل المال في إنفاق الزكاة، فهذه الأمور الثلاثة هي الطاعات المعتبرة، لقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾[1]. ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ أي: قل لهم: أنفقوا في النوافل سرّاً لتدفعوا عن أنفسكم تهمة الرياء وفي الفرائض تهمة المنع ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ القيامة، وهو يوم لا يمكن فيه إعطاء الفدية للتخلّص عن النار ولا مصادقة ولا مخاللة لأنّ المصادقة والمخاللة إنّما تحصل بسبب ميل الطبيعة ورغبة النفس وفي ذلك اليوم تنقرض هذه الموادّ الطبيعيّة.

فإن قيل: كيف الجمع بين هذه الآية وبين قوله: ﴿يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾[2]؟ الجواب أنّ إثبات الخلّة للمؤمنين في تلك الآية

١ـ سورة البقرة: ٢.

٢ـ سورة الزخرف: ٦٧.

بسبب عبوديّة الله ومحبّة حاصلة لا بسبب ميل الطبيعة. ثمّ بيّن سبحانه أنّه المستحقّ للإلهيّة فقال: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ وأنشأهما من غير شيء ومثال وروية، وبدأ بذكرهما لعظم شأنهما في القدرة ولأنّهما مادّة كلّ شيء ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ غيثاً ومطرا ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ ﴾ أرزاقكم لأنّ الماء مادّة الثمرات ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ﴾ السفن والمراكب ﴿لِتَجْرِيَ ﴾ الفلك في البحر بأمر الله لأنّها تسير بالرياح والله هو المنشئ للرياح ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴾ الّتي تجري بالمياه الّتي ينزلها من السماء وتجريها في الأودية وينصبّ منها في الجداول ولو لا النهار لما انتفع الناس من المياه دائماً وذلّل لمنافعكم ﴿الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ في سيرهما لتنتفعوا بضوء الشمس نهارا وبضوء القمر ليلا وليبلغ به الثمار والنبات في النضج الحدّ الّذي عليه يتمّ النعمة ﴿دَائِبَيْنِ ﴾ ومستمرّين لا يفتران ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ ومهّدهما لمنافعكم لتسكنوا في الليل للراحة ولتبغوا المعاش والرزق في النهار من فضله.

﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾ لأنّ الإنسان قد يسأل الله العافية فيعطى والنجاة من المهالك فيعطى والغنى فيعطى والعزّ فيعطى فهذه الأمور من مسؤولاته يعطي الله له ما لم يكن مفسدة، فأين يذهب هذا الإنسان مع هذه النعم الّتي لا تحصى كثرة عن الله ويعبد غيره؟ وإنّما قال: ﴿مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾ لأنّه سبحانه لا يعطي جميع ما سأله العبد لاختلال عالم نظام الأمور في عالمه أو عالم غيره. ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ لكثرتها و«النعمة» هنا اسم أقيم مقام المصدر، ولذلك لم يجمع وفيه معنى الجمع، وكيف يقدر العبد أن يحصي أمراً غير متناهي؟ لأنّ الشيء إذا لم يتناهى لم تحص، كيف لا وما من فرد من أفراد الناس وإن كان في أقصى مراتب الفقر والإفلاس مبتلى بأنواع البلايا والرزايا لو تأمّلته ألقيته منقلباً في نعم لا تحدّ

ومنن لا تحصى كأنّه قد أعطي كلّ ساعة وآن من اللّه لنعماء ما حواها حيطة الإمكان؟ وإن كنت في ريب من هذا فتأمّل في حال ملك ملك الأقطار ودانت له كافّة الأمم وأذعنت لطاعته السراة، وخضعت لهيبته رقاب العتاة، ونال كلّ منال وفاز بكلّ مراح وحاز جميع ما في الدنيا من أصناف الجواهر والأموال والنفائس والأعلاق، وصارت أحجار الجبال بأسرها يواقيت غالية ومدر الأرض درر نفيسة من غير ندّ يزاحمه، أو شريك يساهمه ثمّ اتّفق هذا الملك في فلاة قد نزل وفقد مشروب أو مطعوم في حالة بلغت نفسه الحلقوم فهل يشتري وهو في تلك الحال بجميع ماله من الدنيا بلقمة تنجيه عن جوعه؟ أو شربة ترويه من ظمائه أم يختار الهلاك؟ كلّا! بل يبذل لذلك كلّ ما يملك وليس في صفقته شائبة الخسران فإذن تلك اللقمة والشربة خير ممّا في الدنيا بألف رتبة. أو قدّر أنّ ذلك الملك احتبس عليه النفس فلا دخل منه ما خرج ولا خرج منه ما ولج، والحين حان وأتاه الموت من كلّ مكان أما يعطي ذلك كلّه بمقابلة نفس واحداً؟ بل يعطيه وهو لرأيه حامد فانظر حينئذ ذلك الفقير المبتلى يقدر أن يحصي نعم اللّه عليه؟ فكيف بغيره؟ على أنّ الإنسان بمقتضى حقيقته الممكنة بمعزل عن استحقاق الوجود وما يتبعه من الكمالات اللائقة، بحيث لو انقطع ما بينه وبين العناية الإلهيّة من العلاقة لما استقرّ له القرار ولا اطمأنّت به الدار إلّا في مطمورة العدم، لكن يفيض عليه من الجناب الأقدس تعالى شأنه في كلّ زمان يمضي وكلّ آن يمرّ وينقضي من أنواع الفيوض المتعلّقة بقدرته المنيعة ما لا يحيط به نطاق التعبير ولا يعلم مقداره إلّا العليم الخبير.

وبالجملة قال طليق بن حبيب: إنّ حقّ اللّه تعالى أثقل من أن يقوم به العباد ونعمه أكثر من أن يحصيها الخلق، ولكن أصبحوا تائبين وأمسوا تائبين ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ كثير الظلم لنفسه كثير الكفران لنعم ربّه.

والنظم في الآية: لمّا ذكر ما هم عليه من اتّخاذ الأنداد بيّن في هذه الآية أنّ المستحقّ للعبادة واجب الوجود هو الله الّذي خلق السماوات، إلخ.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾

لمّا بيّن سبحانه في الآيات السابقة المنع عن عبادة غيره حكى عن نبيّه إبراهيم مبالغته في إنكار عبادة الأصنام.

واذكر يا محمّد ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ﴾ يعني: مكّة وحولها من الحرم. وإنّما دعا إبراهيم بهذا الدعاء لمّا فرغ من بناء الكعبة، وإنّما ذكر البلد هنا معرّفاً وفي البقرة منكراً، لأنّ النكرة إذا تكرّرت وأعيدت صارت معرفة، ومثله: ﴿مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ﴾[1] فاستجاب الله دعاءه حتّى كان الإنسان يرى قاتل أبيه فيها فلا يتعرّض له ويدنو الوحوش فيها من الناس فيأمن منهم.

﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ﴾ أي: والطف لي ولبنيّ لطفاً نجتنب به عن عبادة

١ـ سورة النور: ٣٥.

الأصنام وكان سؤاله مخصوصاً بمن علم الله من حاله أن يكون مؤمناً لا يعبد إلّا الله وقد أذن له في الدعاء لأنّ النبيّ لا يدعو بدعاء بغير إذن الله، واستجاب دعاءه فيهم.

﴿رَبِّ﴾ إنّ الأصنام بسببهنّ وعبادتهنّ ضلّ كثير من الناس كما يقال فتنتي فلانة وفلان أضلّ بعيره أي: ضلّ بعيره لأنّ أحدا لا يضلّ بعيره قاصدا إلى إضلاله ﴿فَمَن تَبِعَنِي﴾ من ذرّيّتي الّذي أسكنتهم هذا البلد على ديني في عبادة الله وحاله كحالي ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ﴾ ساتر على العباد معاصيهم ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم.

ثمّ قال إبراهيم: ﴿رَبَّنَا إِنِّيَ أَسْكَنتُ﴾ بعض أولادي أي: إسماعيل مع أمّه هاجر وهو أكبر ولده، وروي عن الباقر عليه السلام أنّه قال: «**نحن بقيّة تلك العترة**»[١]، وقال عليه السلام: «**كانت دعوة إبراهيم لنا خاصّة**»[٢] ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ يريد وادي مكّة وهو الأبطح لأنّه يومئذ لم يكن بها زرع ولا ضرع ﴿عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ لأنّ البيت قد كان قبل ذلك وقد خربه طسم وجديس أو رفعه الله إلى السماء أيّام الطوفان وإنّما سمّاه الله محرماً لأنّه حرّم فيه ما أحلّ في غيره من البيوت من الجماع والملابسة بشيء من الأقذار والدماء. وقيل: معناه: العظيم الحرمة.

﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلَوٰةَ﴾ أي: أسكنتهم هذا الوادي ليداوموا على الصلاة ويقيموا بشرائطها ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ هذا سؤال من إبراهيم أن يجعل الله قلوب الخلق تحنّ إلى ذلك الموضع ليكون ذلك أنسا لذرّيّته بمن يرد عليهم من الوفود، إمّا للدين كالحجّ والعمرة وإمّا للتجارة،

١ـ مناقب آل أبي طالب، ج٣، ص٣١٤؛ وتفسير العياشي، ج٢، ص٢٣٢؛ وبحار الأنوار، ج٢٣، ص٢٢٣.

٢ـ مناقب آل أبي طالب، ج٣، ص٣١٤؛ وبحار الأنوار، ج٢٣، ص٢٢٣؛ ومجمع البيان، ج٦، ص٨٤؛ وتأويل الأيات، ج١، ص٢٤٦، شرف الدين الحسيني.

وروي عن مجاهد أنّه قال: إنّ إبراهيم لو قال: «أفئدة الناس» لازدحمت عليه فارس والروم. قال سعيد بن جبير: لو قال: «أفئدة الناس» لحجّت اليهود والنصارى والمجوس ولكنّه قال: «مِنَ النَّاسِ» فهم المسلمون ﴿وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ لكي يشكروا لك ويعبدوك.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُ﴾ قال إبراهيم: لمّا طلب التيسير في المنافع لأولاده وتسهيلها عليهم ذكر أنّه لا يعلم عواقب الأمور أحد، وأنّك عالم بأحوالنا ومصالحنا من الوجد بسبب حصول الفرقة بيني وبين إسماعيل وما نعلن من البكاء، وما نخفي من الحزن المتمكّن في القلب و«ما نُعْلِنُ» يريد ما جرى بينه وبين هاجر حيث قالت له عند الوداع: إلى من تكلنا؟ قال: إلى اللّه أكلكم، قالت: آللّه أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذن لا نخشى.

ثمّ قال إبراهيم: ﴿وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ قيل: هذا من كلام إبراهيم. وقيل: كلام اللّه تصديقاً لإبراهيم.

ثمّ استحمد اللّه وقال: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ﴾ والشيخوخة ﴿إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ﴾ فأمّا مقدار السنّ فغير معلوم من القرآن لكنّ الروايات تدلّ على أنه لمّا ولد إسماعيل كان سنّ إبراهيم تسعا وتسعين، ولمّا ولد إسحاق كان سنّه مائة واثنتي عشرة سنة، وإنّما ذكر هذا الاستحماد بعد مدّة من الدعاء وما كان متّصلاً هذا الكلام بالدعاء.

﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ وبعض ﴿ذُرِّيَّتِي﴾ لأنّ «من» للتبعيض لأنّه علم بإعلام اللّه إيّاه أنّه يكون في ذرّيّته جمع من الكفّار وذلك قوله: ﴿لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1] ولمّا دعا اللّه بهذا الدعاء فقال: ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ﴾ يريد أجب دعوتي فإنّ قبول الدعاء إنّما هو الإجابة وقبول الطاعة الإثابة.

﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ واستدلّوا أصحابنا بهذه الآية على أنّ أبوي إبراهيم لم يكونا كافرين لأنّه إنّما يسأل المغفرة لهما ليوم القيامة فلو كانا

١ـ سورة البقرة: ١٢٤.

كافرين لما سأل ذلك لأنّه يعلم أنّ الله لم يكن ليغفر للكافر أبداً لأنّه قال: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾[1] فصحّ أنّ أباه الّذي كان كافراً إنّما هو جدّه لأمّه أو عمّه على الخلاف فيه، ولا يمكن أن يكون حال أبويه مجهولاً عنده وهو على سنّ الشيخوخة حتّى أنّه يقال: إنّه بعد علمه تبرأ منه ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: واغفر للمؤمنين يوم [يقوم الخلق] للحساب كما يقول: قامت السوق.

وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾

المعنى: قوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ﴾ في الآية دلالة على وجود القيامة لأنّه لو لم ينتقم للمظلوم من الظالم لزم أن يكون إمّا غافلاً عن ذلك المظلوم والظالم أو عاجزاً عن الانتقام أو كان راضياً، والثلاثة محال على الله فامتنع أن لا ينتقم للمظلوم من الظالم، ولمّا كان امتناع هذه الغفلة معلوماً لا جرم عدم الانتقام كان محالاً، وهذا البيان تهديد للظالم وتعزية للمظلوم ولمّا ثبت الانتقام ثبت المعاد. [وإنّما يؤخّر] عقابهم ﴿لِيَوْمٍ﴾ تبقى عيونهم مفتوحة لا يطرفها لأجل الدهشة والهول ومع شخوص أبصارهم مسرعين إلى نحو ذلك العذاب على ما يقتضي حال المدهوش أذلّاء خاشعين ﴿مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ﴾ أي:

١ـ سورة التوبة: ١١٤.

رافعين رؤوسهم على خلاف ما يقتضي حال الذليل لأنّه من يشاهد العذاب يطرق رأسه لكي لا يراه أحد وهؤلاء على خلاف ذلك يرفعون رؤوسهم شاخصة أبصارهم على الدوام، وقلوبهم خالية عن الشواغل حيث لا قوّة فيها ولا تشغلها الخواطر والأفكار لعظم ما ينالهم من الحيرة، ومن كلّ رجاء وأمل لما تحقّقوه من العذاب خوفاً وفزعا وقيل: خالية من كلّ سرور وطمع في الخير كالهواء الّذي بين السماء والأرض. وقيل: معناه أنّ أفئدتهم زائلة عن مواضعها قد ارتفعت إلى حلوقهم لا تخرج ولا تعود إلى أماكنها بمنزلة الشيء الذاهب في جهات مختلفة، المتردّد في الهواء.

﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ معناه دم يا محمّد على شغلك وإنذارك الناس بتخوّفهم يوم القيامة ﴿فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ أنفسهم بارتكاب المعاصي ﴿رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ﴾ أي: ردّنا في الدنيا واجعل ذلك مدّة قريبة ﴿نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ﴾ فيها ﴿وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾ فيما يدعوننا إليه فيقول الله مخاطبا لهم أو يقول الملائكة بأمره: ﴿أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ﴾ حلفتم ﴿مِّن قَبۡلُ﴾ في دار الدنيا ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ﴾ أي: كنتم تعتقدون أنّه ليس لكم انتقال من الدنيا إلى الآخرة، وتكذّبون بها. ﴿وَسَكَنتُمۡ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ﴾ كذّبوا رسلهم من قبلكم فأهلكهم الله وعرفتم ما أنزل بهم من البلاء والعذاب المعجّل لقوم عاد وثمود، والمقتولون ببدر، وبيّنّا لكم أخبار الماضين قبلكم لتعتبروا بها ﴿وَضَرَبۡنَا لَكُمُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ في القرآن فلم تتّعظوا وهي الأمثال المنبّهة على الطاعة والزاجرة عن المعصية.

وفي هذه الآية دلالة على أنّ الإيمان من فعل العباد ولو كان من فعل الله لم يكن لتمنّي العود إلى الدنيا معنى.

وَقَدۡ مَكَرُواْ مَكۡرَهُمۡ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ

لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ
عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ
ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾
سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ
مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ
وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾

المعنى: ثمّ أبان سبحانه عن مكر الكفّار ودفعه عن رسله تسلية لنبيّه فقال: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا۟﴾ بالأنبياء قبلك ما أمكنهم من المكر كما مكروا بك فعصمهم الله كما عصمك ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ أي: جزاء مكرهم، وحذف المضاف كما حذف من قوله: ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾[1] أي: جزاؤه واقع بهم ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ قرأ بعض بفتح اللام الأولى ورفع اللام الأخرى والأكثر بكسر الأولى ونصب الثانية أمّا القراءة الأولى فمعناها أنّ مكرهم كان مكراً عظيماً معدّاً لأن تزول منه الجبال، وليس المراد الأخبار عن وقوعه بل المبالغة في الشدّة والتهويل أي: إنّهم مكروا في إبطال الحقّ وإثبات الباطل مكرهم العظيم الّذي ينبغي من عظمه أن تزول الجبال عن مقارّها. فحينئذ تكون «إن» وصليّة وهو كقوله: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾[2] وأمّا القراءة الثانية وهي أن تكون اللام الأولى مكسورة والثانية مفتوحة، فحينئذ «إن» إن النافية بمعنى «ما» والجبال مثل لأمر الدين والحجج الإلهيّة أي: لم يكن مكرهم ليبطل أمرك يا محمّد الّذي هو كالجبال في الثبات وأثبت من الجبال.

١ـ سورة الشورى: ٢٢.

٢ـ سورة مريم: ٩١.

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾ من النصر والظفر بالكفار ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب على أمره ينتقم من أعدائه.

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ﴾ بيّن سبحانه زمان انتقامه، وعظّم في البيان حال ذلك اليوم لأنّ تعبير السماوات والأرض أمر عظيم في العقول والنفوس وليس أمر بأعظم منه، يقال: بدّلت الحلقة خاتما إذا أذبتها وسوّيتها ونقلتها من شكل إلى شكل. وروي عنه قال: تبدّل آكامها وآجامها وجبالها وأشجارها والأرض تبقى أرضاً نقيّة بيضاء كالفضّة لم يسفك عليها دم، ولم يعمل عليها خطيئة، وتبدّل السماوات فيذهب بشمسها وقمرها ونجومها. وعن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «**يبدّل الله الأرض غير الأرض فيبسطها ويمدّها مدّ الأديم العكاظيّ فلا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً، ثمّ يزجر الله الخلق زجرة فإذا هم في هذه المبدّلة مثل مواضعهم من الأولى**»[(١)].

وقيل: إنّ المعنى تبدّل الأرض وتنشأ أرض غيرها والسماوات كذلك تبدّل بغيرها وتفنى هذه. وفي تفسير أهل البيت بالإسناد عن زرارة ومحمّد بن مسلم وحمران بن أعين عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام، قالا: «**تبدّل الأرض خبزة نقيّة يأكل الناس منها حتّى يفرغ من الحساب**»[(٢)]. وروى سهل بن ساعدة عن النبي صلى الله عليه وآله أنّه قال: «**يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء كقرصة النقيّ ليس فيها معلم لأحد**»[(٣)]. وروي عن ابن مسعود أنّه قال: «**تبدّل الأرض بنار فتصير الأرض كلّها يوم القيامة ناراً والجنّة من ورائها ترى كواعبها وأكوابها، ويلجم الناس العرق، ولم يبلغ الحساب بعد. وقال كعب: تصير السماوات أجناناً ويصير مكان النحر النار، وتبدّل الأرض غيرها**».

١ـ بحار الأنوار، ج٧، ص٧١؛ ومجمع البيان، ج٦، ص٩٤؛ وانظر: التبيان، ج١٠، ص٣٠٨.

٢ـ الكافي، ج٦، ص٢٨٦؛ ووسائل الشيعة (الإسلامية) ج١٦، ص٤٦١؛ وبحار الأنوار، ج٧، ص٧٢.

٣ـ مجمع البيان، ج٦، ص٩٤؛ وبحار الأنوار، ج٧، ص٧٢.

وروى أبو أيّوب الأنصاريّ قال: أتى النبيّ حبر من أحبار اليهود فقال: أرأيت إذ يقول اللّه تعالى في كتابه: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ فأين الخلق عند ذلك؟ فقال: «**أضياف الله فلن يعجزهم ما لديه**»[١]. وقيل: تبدّل الأرض لقوم بأرض الجنّة، ولقوم بأرض النار وقال الحسن: يحشرون على الأرض الساهرة وهي أرض غير هذه وهي أرض الآخرة وفيها تكون جهنّم. وتقدير الكلام: وتبدّل السماوات غير السماوات، إلّا أنّه حذف لدلالة الكلام.

﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ﴾ أي: يظهرون من أرض قبورهم للمحاسبة لا يسترهم شيء للّه الغالب الّذي لا يقهره شيء، ولمّا وصف ذاته سبحانه بالقدرة والقهر بيّن عجزهم وذلّتهم أي: المجرمين يومئذ بصفات:

الأولى: كونهم ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ في القبور يقال: قرنت الشيء بالشيء إذا شددته ووصلته و«القرآن» اسم للحبل الّذي يشدّ به الشيئان أي: كلّ كافر مع شيطان. وقيل: قرنت أيديهم بها إلى أعناقهم أو يقرن بعضهم إلى بعض، وهو المراد بقوله: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ﴾[٢].

والثانية: ﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٖ﴾ أي: قميصهم من قطران وهو ما يطلى به الإبل شيء أسود لزج منتن يطلّون به كالقميص عليهم، ثمّ يرسل النار فيهم ليكون أسرع عليهم وأبلغ في الاشتعال وأشدّ في العذاب. وقيل: نحاس أو صفر مذاب قد انتهى حرّه. وجوّزوا على المعنيين أن يسربلوا سربالين أحدهما من القطران، والآخر من القطران الآني. و«القطران» بمعنى الأوّل شيء يتحلّب من شجر اسمه الأبهل، فيطبخ ويطلى به الإبل الجربيّ فيحرق الجرب بحرارته وحدّته وقد تصل حرارته إلى داخل الجوف، ومن شأنه أن يتسارع فيه اشتعال النار وهذا أسود اللون منتن الرائحة فتطلى به

١ـ مجمع البيان، ج٦، ص٩٥؛ وبحار الأنوار، ج٧، ص٧٢؛ والدرّ المنثور، ج٤، ص٩١.

٢ـ سورة التكوير: ٧.

جلود أهل النار حتّى تصير ذلك الطلى كالسرابيل فيحصل بسببها أربعة أنواع من العذاب: لذع القطران وحرقته وإسراع النار في جلودهم واللون الوحش ونتن الريح، والتفاوت بين قطران القيامة وقطران الدنيا كالتفاوت بين النارين، وإذا كان القطران معناه الصفر المذاب والآني المتناهي حرّه وتلك النار لا تبطل ذلك القطران ولا تفنيه كما لا تهلك النار أجسادهم والأغلال الّتي كانت عليهم.

والثالثة: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ وإنّما خصّ الذكر لأنّ في هذا العضو تبين الأثر أكثر من سائر الأعضاء كما أنّ القلب كذلك. ومعنى «تغشى» أي: تتغشّى قوله: ﴿لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ المراد أنفس الكفّار لأنّ ما سبق لا يليق أن يكون جزاء لأهل الإيمان، ويمكن إجراء اللفظ على عمومه لأنّ الجزاء لائق بالعمل والكسب.

ثمّ قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ ولا يزيد على عقابهم الّذي يستحقّونه. ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ﴾ إشارة إلى القرآن أي: هذا القرآن عظة ﴿لِّلنَّاسِ﴾ بالغة كافية أو إشارة إلى الوعيد المذكور ﴿وَلِيُنذَرُوا﴾ وليبلّغوا غيرهم بما فيه.

﴿وَلِيَعْلَمُوٓا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ لا شريك له ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ وأهل النهى والعقل، وفي هذه الآية دلالة على أنّ القرآن كاف في جميع ما يحتاج إليه الناس في أمر الدين جملها وتفاصيلها يعلم بالقرآن إمّا بنفسه وإمّا بواسطة فيجب على المؤمن المجتهد لأمور الدين أن يشمّر عن ساق الجدّ في طلب فهم القرآن ويصرف عنايته بمعرفته مكتفياً به عمّا سواه، لينال السعادة.

وفي قوله: ﴿وَلِيَعْلَمُوٓا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ دلالة على أنّه أراد عن الناس علم التوحيد خلافا لأهل الجبر في قولهم: إنّه سبحانه أراد من النصارى التثليث ومن المجوس التشبيه والاثنينيّة، تعالى اللّه عن ذلك.

تمّت السورة بحمد اللّه.

سورة الحجر

مكّيّة إلّا آيتين. فضلها: أبيّ بن كعب عن النبيّ ﷺ قال: «**من قرأها أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد المهاجرين والأنصار والمستهزئين بمحمّد ﷺ**»[1].

ولمّا ختم الله السورة أي: سورة إبراهيم بأنّ القرآن بلاغ وكفاية لأهل الإسلام افتتح هذه السورة بذكر القرآن وأنّه مبيّن للأحكام فقال:

بسم الله الرحمن الرحيم

الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ﴿٤﴾ مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ﴿٥﴾

المعنى: قد تقدّم الكلام في ﴿الٓر﴾ كراراً. ﴿تِلۡكَ﴾ أي: هذه السورة تلك الآيات ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ الموعود به محمّد ﷺ ﴿وَقُرۡءَانٖ﴾ عطف على الكتاب وإن كان هو الكتاب باعتبار اختلاف اللفظين ووصفه بالقرآن لأنّه ممّا يؤلّف ويجمع بعض حروفه إلى بعض.

و«ربّ» لا يدخل على الفعل إلّا إذا فصلت كلمة «ما» بينها وبين الفعل،

١ـ مجمع البيان، ج٦، ص٩٧؛ جوامع الجامع، ج٢، ص٢٩٣.

ويقال: لم جاز ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ والكفّار كثيرون وهي للتقليل؟

وجوابه على وجهين: أحدهما: أنّه أبلغ في التهديد كما يقول: ربّما ندمت على هذا، وأنت تعلم أنه يندم ندماً طويلاً أي: يكفيك قليل الندم، فكيف كثيره؟ والثاني: أنّه يشغلهم العذاب عن تمنّي ذلك إلّا في أوقات قليلة لأنّهم يتمنّون الإسلام إذا صار المسلمون إلى الجنّة والكفّار إلى النار.

وروي عن ابن عبّاس قال: (ما يزال الله يدخل الجنّة ويرحم ويشفع حتّى يقول: من كان من المسلمين فليدخل الجنّة فحينئذ ﴿يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾). وقال الصادقعليه السلام: **«ينادي مناد يوم القيامة يسمع الخلائق: إنه لا يدخل الجنة إلّا مسلم فثم يودّ سائر الخلق أنّهم كانوا مسلمين»**[1]. وروي مرفوعاً عن النبيّصلى الله عليه وآله قال: **«اجتمع أهل النار في النار ومعهم من يشاء الله من أهل القبلة، قال الكفّار للمسلمين: ألم تكونوا مسلمين؟ قالوا: بلى، قالوا: فما أغنى عنكم إسلامكم وقد صرتم معنا في النار؟ قالوا: كانت لنا ذنوب فأخذنا بها فيسمع الله ما قالوا فأمر من كان في النار من أهل الإسلام فاخرجوا منها، فحينئذ يقول الكفار: يا ليتنا كنّا مسلمين»**![2]

﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾ أي: دعهم يأكلوا في دنياهم أكل الأنعام ويستلذّوا حالاً بعد حال ويشغلهم آمالهم الكاذبة عن اتّباع الدين والقرآن ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ وبال ذلك حين يحلّ بهم العذاب يوم القيامة، وفي هذه الآية دلالة على أنّ الإنسان يجب أن يكون مستعداً للموت مسارعاً إلى التوبة ولا يأمل الآمال المؤدّية إلى الصدّ عنها قال أمير المؤمنينعليه السلام: **«إنّ أخوف ما أخاف عليكم اثنان: اتّباع الهوى وطول الأمل فإنّ اتّباع الهوى يصدّ عن الحقّ وطول الأمل ينسي الآخرة»**[3].

١ـ بحار الأنوار، ج٧، ص١٨٨.

٢ـ مجمع البيان، ج٦، ص١٠١.

٣ـ تحرير الأحكام، العلامة الحلي، ج١، ص٣؛ والكافي، ج٨، ص٥٨؛ وبحار الأنوار، ج٧٠، ص٩٦.

﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ﴾ أي: لم تكن أمّة فيما مضى تسبق أجلها قبل ذلك ولا تأخّر عن أجلها الّذي قدّر لها، بل إذا استوفت أجلها أهلكها اللّه.

وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا
بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا
كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ
أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ
يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ
وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ
يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ
جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ
شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾

المعنى: وقال المشركون للنبيّ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى﴾ بزعمه أنه ﴿نُزِّلَ عَلَيْهِ﴾ القرآن ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ وفيه احتمالان: الأوّل: أنه ﷺ كان يظهر عليه عند نزول الوحي حالة شبيهة بالغشي فزعموا أنّها جنون. أو أنّهم[١] كانوا يستبعدون منه كلاماً يسمعون منه كترك العبادة للآلهة وأمثاله فنسبوه إلى الجنون لبعد ما يذكره من طريقتهم.

﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا﴾ ولو ما وهلّا ولو لا للتحريض بمعنى واحداً أي: هلّا تأتينا الملائكة يشهدون بصدق نبوّتك ﴿إِن كُنتَ﴾ صادقاً في دعواك، ويحتمل أن يكون المعنى أنّ النبيّ صلى اللّه عليه وآله كان يخوّفهم بالعذاب النازل فكانوا يقولون ويطالبوه بالعذاب: لو ما تأتينا بالملائكة ينزلون علينا

١ـ هذا ثاني الوجهين.

بذلك العذاب الّذي تخوّفنا به.

فأجاب سبحانه ﴿ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ الّذي هو الموت لا يقع فيه تقديم وتأخير أو هو عذاب الاستئصال، ونحن ما حكمنا عليهم بعد بعذاب الاستئصال للإمهال بهم وعلمنا من إيمان بعضهم ومن إيمان أولاد الباقين وإذا أنزلنا الملائكة ﴿مَا كَانُوٓاْ﴾ ممهلين ومؤخّرين أي: لا يمهلون ساعة.

ثمّ زاد سبحانه في البيان ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ ﴾ أي: القرآن ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ عن الزيادة والنقصان والتحريف ومثله: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ﴾[1] عليه متكفّل يحفظه إلى آخر الدهر عصراً بعد عصر لقيام الحجّة به. ويحتمل أن يكون الهاء راجعة إلى النبيّ ﷺ لدلالة حافظون للنبيّ عن كيد المشركين. وفي هذا دلالة على حدوث القرآن إذ المحفوظ المنزّل لا يكون إلّا حادثاً.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾ يا محمّد رسلاً ـ فحذف المفعول لدلالة الكلام عليه ـ في فرق الأوّلين والأمم السابقين عليك ﴿ وَمَا ﴾ كان ﴿يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا ﴾ كانت الأمم ﴿بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ وهنا تسلية للنبيّ واستهزاؤهم استنكارهم لهم. ﴿ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ ﴾ وفي إرجاع الضمير قولان:

الأوّل: يرجع إلى الشرك والاستهزاء والكفر وهو قول علماء الجبريّة. وهذا كلام بديهيّ البطلان لأنّه تعالى لو كان هو الّذي يسلك الكفر والشرك في قلب الكافر ويخلقه فيه فما أحد أولى بالعذر من هؤلاء الكفّار، ولكان على هذا التقدير يمتنع أن يذمّهم في الدنيا وأن يعاقبهم في الآخرة عليه ولكان الكفّار محمودين إذا كانوا لا يؤمنون، ولا خلاف في أنّ الآية وردت على سبيل الذمّ لهم ولو كان الله قد سلك الكفر في قلوبهم لسقط عنهم الذمّ

١ـ سورة فصلت:٤٢.

ولما جاز أن يقول لهم: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ... لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا * تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾[1] وكيف ينكر عليهم هذا الإنكار وهو الواضع في قلوبهم ذلك الكفر؟ وكيف يأمرهم بإخراجه من حيث وضعه فيه؟ تعالى عن ذلك.

والقول الثاني ـ وهو الصحيح ـ: أنّ الضمير في «نَسْلُكُهُ» عائد إلى الذكر وهو القرآن أي: هكذا نسلك القرآن أي: نسمعهم ونخلق في قلوبهم حفظ هذا القرآن كما سلكنا دعوة الرسل في قلوب من سلف من الأمم.

وبعبارة أوضح كما سلكنا كتب رسل ممّن تقدّم دعوتهم في قلوب أممهم كذلك سلكنا القرآن والذكر في قلوب قومك يا محمّد ومع ذلك ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ وماضين على سنّة الجهل في تكذيبهم أنبياءهم وقد مضت ﴿سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ على هذه الطريقة.

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا﴾ على هؤلاء المشركين، اعلم أنّ هذا الكلام هو المذكور في سورة الأنعام ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[2] وهذه الآية في قوله: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا﴾ وقعت عن قوم مخصوصين سألوا الرسول إنزال الملائكة فبيّن الله في هذه الآية أنه إنّا لو فتحنا عليهم ﴿بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ ينظرون إليه ﴿فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ يعني: لو يرون الكفّار أنّ الملائكة تصعد وتنزل من ذلك الباب، أو المعنى أنّ هؤلاء المشركين يعرجون إلى السماء من ذلك الباب وشاهدوا ملكوت السماء ﴿لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ﴾ وشدّت وغطّيت وعميت ﴿أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ﴾ سحرنا محمّد فيخيّل الأشياء إلينا على خلاف حقيقتها.

١ـ سورة مريم: ٩٠ـ٨٩.

٢ـ سورة الأنعام: ٧.

ثمّ ذكر سبحانه دلالات التوحيد فقال: ﴿وَلَقَدْ﴾ هيأنا و﴿جَعَلْنَا فِي السَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ أي: منازل الشمس والقمر ﴿وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ﴾ بالكواكب النيّرة، وهي اثنا عشر برجاً [وحفظنا] السماء ﴿مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ﴾ مرجوم مرميّ بالشهب أو ملعون مشؤوم، وحفظ الشيء عبارة عن نفي تطرّق الفساد فيه، وحفظ السماء من الشيطان المنع من ورود الشياطين إليها لاستراق السمع، والمراد بالسمع المسموع ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ﴾ أي: حاول أخذ المسموع من السماء في خفية فلحقه شعلة نار ظاهرة لأهل الأرض بيّن لمن رآه.

وروى ابن عبّاس: (أنّه كان في الجاهليّة كهنة ومع كلّ واحداً شيطان، فكان يقعد من السماع مقاعد للسمع فيستمع من الملائكة ما هو كائن في الأرض فينزل ويخبر به الكاهن فيفشيه الكاهن إلى الناس، فلمّا بعث الله عيسى منعوا من ثلث من السماوات ولمّا بعث محمّداً منعوا من الكلّ وحرست السماوات بالنجوم، فالشهاب من معجزات نبيّنا لأنّه لم ير قبل زمانه والمارد من الشياطين يعلو فرمى بالشهاب فيحرقه ولا يقتله، ومنهم من يخبله فيصير غولا يضلّ الناس في البراري).

وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾
وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا
عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ
فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا
لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ
عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾

لمّا تقدّم ذكر السماء وما فيها من الأدلّة والنعم أتبعه بذكر الأرض فقال:

﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا ﴾ أي: بسطناها وجعلنا لها طولاً وعرضا ﴿وَأَلْقَيْنَا ﴾ وطرحنا ﴿فِيهَا﴾ جبالاً ثابتة ﴿وَأَنۢبَتْنَا﴾ في الأرض ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ مقدّر معلوم، وقيل: يعني: من كلّ شيء يوزون في العادة كالذهب والفضّة والصفر ونحوها، أو ما يخرج من الأرض وإنّما خصّ الموزون بالذكر دون المكيل لأنّ غاية المكيل تنتهي إلى الوزن.

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ﴾ من زرع ونبات ومطاعم ومشارب تعيشون، وقيل: هي التصرّف في أسباب الرزق. قال ابن عبّاس: لمّا بسط اللّه الأرض على الماء مالت بأهلها كالسفينة فأرساها اللّه بالجبال الثقال لكي لا تميل والضمير في قوله: ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا﴾ الضمير إلى الأرض، وقيل: إلى الجبال الرواسيّ لأنّ المعادن إنّما تتولّد من الجبال.

واعلم أنّ هذا العالم عالم الأسباب واللّه تعالى إنّما يخلق المعادن والنبات والحيوان بواسطة تركيب طبائع هذا العالم فلابدّ وأن يحصل من الأرض قدر مخصوص ومن الماء والهواء كذلك ومن تأثير الشمس والكواكب في الحرّ والبرد مقدار مخصوص، ولو قدّرنا حصول الزيادة على القدر المخصوص أو النقصان لم تتولّد المعادن والنبات والحيوان فكأنّه تعالى وزنها بميزان الحكمة.

﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ أي: وجعل لكم من لستم له برازقين من العبيد والدوابّ يرزقهم اللّه ولا ترزقونهم. وليس ﴿مِّن شَيْءٍ﴾ ينزل من السماء وينبت في الأرض ﴿إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ ونحن مالكوه وقادرون عليه، وخزائن اللّه مقدوراته. وقيل: المراد به الماء الّذي منه النبات وهو مادّة كلّ شيء ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ﴾ ملقحة للسحاب محملة بالمطر ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ أي: مطراً فأسقيناكم ذلك الماء ﴿وَمَآ أَنتُمْ﴾ أيها الناس لذلك الماء

﴿بِخَٰزِنِينَ﴾ وحافظين بل الله يحفظه ثمّ يرسله من السماء ثمّ يحفظه في الأرض ثمّ يخرجه من العيون بقدر الحاجة.

﴿وَمَآ أَنتُمۡ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ المطر وقادرين على تحفّظه بأن تنزلوه على وفق الحاجة موقع الاحتياج لأنّه هو السبب الأتمّ لمعايش الخلق والأرزاق لبني آدم وغيرهم.

﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ﴾ هذه الآية من دلائل التوحيد أنّه لا يقدر أحد على الإحياء والإماتة وأنّه إذا مات جميع الخلايق يزول ملك كل أحد أي: تزول هذه الملكيّة العارية عن جميع الخلق ويكون الله باق المالك للكلّ وحده فكان هذا الأمر شبيهاً بالإرث فكان وارثاً من هذا الوجه.

وأمّا قوله: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَقۡدِمِينَ﴾ يريد أهل الطاعة و﴿ٱلۡمُسۡتَـٔۡخِرِينَ﴾ يريد المتخلّفين عن طاعة الله، وقيل: أراد بالمتقدّمين الصفّ الأوّل من أهل الصلاة وبالمستأخرين الصفّ الآخر. روي أنّه ﷺ رغّب في الصفّ الأوّل في الصلاة فازدحم الناس عليه فأنزل الله هذه الآية[1]. والمعنى أنّا نجزيهم على قدر نيّاتهم. وقيل: المراد في صفّ القتال. وقيل: ـ والقائل ابن عبّاس ـ قال في رواية أبي الجوزاء: (كانت امرأة حسناء تصلّي خلف رسول الله ﷺ وكان قوم يتقدّمون إلى الصفّ الأوّل لئلّا يروها وآخرون يتخلّفون ويتأخّرون ليروها وإذا ركعوا جافوا أيديهم لينظروا من تحت آباطهم فأنزل الله هذه الآية)[2]. وقيل: المراد بالمستقدمين الأموات وبالمستأخرين الأحياء. وقيل: المراد بالمستقدمين الأمم السالفة وبالمستأخرين أمّة محمّد. وقيل: المستقدمين من خلق والمستأخرون من لم يخلق، يعني لا يخفى على الله خافية منهم في

١ـ أسباب نزول الآيات، ص١٨٦؛ الدرّ المنثور، ج ٤، ص٩٧.

٢ـ جامع البيان، ج١٤، ص٣٥؛ وبحار الأنوار، ج١٧، ص١٨٩.

الحدوث والوجود والطاعة والمعصية ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ عالم بأحوالهم و﴿هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ فيثيبهم ويعاقبهم، و﴿حَكِيمٌ﴾ في أفعاله ﴿عَلِيمٌ﴾ باستحقاقهم.

وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾

لمّا ذكر سبحانه عالم الحياة والموت والبعث في الآية السابقة عقّبه ببيان النشأة الأولى فقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ يعني: آدم من طين يابس متصلصل أي: له صوت يسمع عند النقر ويقعقع. وقيل: طين صلب يخالطه الكثيب. وقيل: منش ﴿مِّنْ حَمَإٍ﴾ متغيّر إلى السواد ﴿مَّسْنُونٍ﴾ أي: مصبوب كأنّه افرغ كما يصبّ الذهب والفضّة.

واعلم أنّه ثبت بالدلائل والبراهين أنّه يمتنع القول بوجود حوادث لا أوّل لها وإذا ثبت هذا ظهر وجوب انتهاء الحوادث إلى حادث أوّل هو أوّل الحوادث، وإذا كان كذلك فلابدّ انتهاء الناس إلى إنسان هو أوّل الإنسان، فذلك الإنسان الأوّل غير مخلوق من الأبوين فيكون مخلوقاً لا محالة بقدرة الله.

فقوله: ﴿خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ إشارة إلى ذلك الإنسان الأوّل، والمفسّرون أجمعوا على أنّ المراد منه هو آدمعليه السلام ونقل حديث عن محمّد بن عليّ الباقر

عليهما السّلام أنّه قال: «**قبل آدم الّذي هو أبونا قد انقضى ألف ألف آدم أو أكثر**»[١].
وهذا لا يقدح في حدوث العالم بل الأمر كيف كان فلابدّ من الانتهاء إلى إنسان أوّل هو أوّل الناس. واعلم أنّ الجسم محدث فوجب القطع بأنّ آدم وغيره من الأجسام يكون مخلوقاً عن عدم محض، فحينئذ بيّن أنّه خلقه أوّلاً من تراب ثمّ من طين ثمّ من حمأ مسنون ثمّ من صلصال يتصلصل وهو غير مطبوخ وإذا طبخ فهو فخار.

قال المفسّرون خلق الله آدم من طين فصوّره وتركه في الشمس أربعين سنة، فصار صلصالا يتقرقع كالخزف مصوّر بهذه الصورة الحسنة إلى أن نفخ فيه الروح فكانت الريح إذا مرّت به سمع له صلصلة.

وقوله: ﴿حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ وهو الطين الأسود المنتن، والمسنون المتغيّر من قوله: ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾[٢] أي: لم يتغيّر ولا تناقض لأنّ هذه الأمور مراتب من الترابيّة إلى الطينيّة إلى التصلصل إلى الحمئيّة إلى نفخ الروح.

﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل خلق آدم ﴿مِن نَّارِ﴾ لها ريح حارّة تقتل. قيل: هي نار لا دخان لها، والصواعق تكون منها. والجانّ، قيل: إنّه إبليس. وقيل: هو أب الجنّ وسمّي جانّاً لتواريه عن أعين الناس كما يسمّى الجنين جنيناً لهذا السبب. فالجانّ يمكن أن يكون بمعنى الفاعل لأنّه تستر نفسه عن الأعين، ويمكن أن يكون بمعنى المفعول كماء دافق وعيشة راضية.

واختلفوا في الجنّ فقيل: إنّهم جنس غير الشيطان. والأصحّ أنّ الشياطين قسم من الجنّ فكلّ من كان منهم مؤمناً يسمّى الجنّ وكلّ من كان كافراً يسمّى الشياطين وليس فيهم نتاج إنّما يبيض ويفرخ وولده ذكور وليس فيهم إناث.

١ـ انظر: بحار الأنوار، ج ٥٤، ص٣٣٦؛ وج ٢٥، ص ٢٥.
٢ـ سورة البقرة: ٢٥٩.

والقميّ قال: الجنّ من ولد الجانّ منهم مؤمنون وكافرون يهود ونصارى، ويختلف أديانهم، والشياطين من ولد إبليس، وليس فيهم مؤمن إلّا واحداً اسمه هام بن هيم بن لا قيس ابن إبليس، جاء إلى رسول اللّه فرآه جسيماً عظيماً وأمرا مهولاً، فقال له: «**من أنت؟**» قال: أنا هام بن هيم كنت يوم قتل قابيل هابيل غلاماً أبا أعوام، أنهى عن الاعتصام وامر بإفساد الطعام. فقال رسول اللّه: «**بئس لعمري الشباب المؤمّل والكهل المؤمّر**» فقال: دع عنك هذا يا محمّد فقد جرت توبتي على يد نوح، ولقد كنت معه في السفينة، فعاتبته على دعائه على قومه، ولقد كنت مع إبراهيم حيث القي في النار فجعلها اللّه برداً وسلاما، ولقد كنت مع موسى حين غرق اللّه فرعون ونجّى بني إسرائيل، ولقد كنت مع هود حين دعا على قومه فعاتبته، ولقد كنت مع صالح فعاتبته على دعائه على قومه، ولقد قرأت الكتب فكلّها يبشّرني بك والأنبياء يقرءونك والسلام، ويقولون: أنت أفضل الأنبياء وأكرمهم.

فعلّمني ممّا أنزل اللّه إليك شيئاً فقال رسول اللّه لأمير المؤمنين عليّ عليه السلام: «**علّمه**». فقال هام: إنّا لا نطيع إلّا الأنبياء أو وصيّ نبي فمن هذا؟ قال: «**هذا أخي ووصيّي ووزيري ووارثي عليّ ابن أبي طالب**». قال هام: نعم نجد اسمه في الكتب إليا. فعلّمه أمير المؤمنين فلمّا كانت ليلة الهرير جاء إلى أمير المؤمنين عليه السلام[١].

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ واذكر يا محمّد إذ قال ربّك: ﴿إِنِّي﴾ سأخلق ﴿بَشَرًا﴾ أي: آدم، وسمّي بشراً لأنّه ظاهر الجلد غير متوار بشعر وصوف ونحوه ﴿مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ قال سيبويه: المسنون هو المصوّر بصورة، مرّ معناه ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ بإتمام الخلقة وتعديل صورته وأجريت فيه

١ـ تفسير القمي، ج ١، ص ٣٧٥.

الروح فخرّوا ﴿لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ وأضاف الروح إلى نفسه تكرمة له كسبة البيت إليه للتعظيم كإضافة الملك إليه.

﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ تأكيد بعد تأكيد، وقيل: إنّ «أجْمَعُون» تأكيد للسجود بأنّ السجود وقع في حالة واحدة دفعة وكلمة «كلهم» تأكيد للساجدين ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ امتنع أن يسجد معهم ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ﴾ وهذا خطاب من الله أي: أيّ شيء وقع لك في امتناعك عن السجود كما سجدوا؟ والخطاب وقع على لسان بعض رسله لأنّه لا يصحّ أن يكلّمه الله بلا واسطة في زمان التكليف ﴿قَالَ﴾ إبليس مجيباً ﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ﴾ ولا ينبغي أن أسجد ﴿لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ﴾ لأني أشرف أصلاً منه. ولم يعلم الخبيث أنّ التفاضل بالدين والامتثال لا بالبنية والأصل. ﴿قَالَ﴾ الله ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ من الجنّة ﴿فَإِنَّكَ﴾ مطرود ملعون، وقوله تعالى: ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ قيل: المراد أي: من جنّة عدن. وقيل: من السماوات قيل: من زمرة الملائكة. وقوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ مشعر بأنّ اللعن ثابت له إلى يوم القيامة أي: انتهاء الغاية يوم القيامة وعند القيامة يزول اللعن، وأجابوا بأنّ ذكر الغاية للتأبيد وذكر القيامة لأنّها أبعد غاية يذكرها الناس في كلامهم كقولهم: ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ أو المراد أنّك مذموم ملعون إلى ذلك اليوم من غير عذاب فإذا جاء ذلك اليوم يفنى اللعن ويأتي العذاب وبسبب شدّة العذاب يذهل اللعن.

قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ
يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ
وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا
صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ

﴿اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (٤٢) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٣) لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ (٤٤)﴾

المعنى: ثمّ بيّن سبحانه ما سأله إبليس عند إياسه من الآخرة فقال: ربّي فأمهلني وأخّرني ﴿إِلَى يَوْمِ﴾ يحشرون للجزاء، استنظره لئلّا يموت إلى يوم القيامة فلم يجبه اللّه إلى ذلك بل ﴿قَالَ﴾ له ﴿فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ وغرض إبليس أن لا يموت أبداً لأنّه إذا أنظره سبحانه إلى يوم القيامة فحينئذ لا يموت أبداً لأنّ يوم القيامة لا يموت أحد ولذا لم يجبه اللّه إلى مسؤوله.

وإنّما أنظره إلى الوقت المعلوم عنده سبحانه ولا يعلم ذلك العلم غيره وهو وقت النفخة الأولى حين يموت جميع الخلائق وقيل: الوقت المعلوم يوم القيامة أنظره اللّه في رفع العذاب عنه إلى يوم القيامة. وقيل: هو الوقت الّذي قدّر اللّه أجله فيه. ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ﴾ قيل فيه أقوال:

أحدها: أنّ الإغواء والثاني بمعنى الإضلال أي: كما أضللتني لأضلّنّهم.

وهذا لا يجوز لأنّ اللّه سبحانه لا يضلّ عن الدين لأنّ هذه الصفة لو كان في إنسان لكان قبيحا عنه فكيف باللّه الغني؟ إلّا أن يحمل على أنّ إبليس كان معتقده معتقد من فسّر هذه الآية بهذا المعنى وهو الجبر. وثانيها: بمعنى التخيّب أي: بما خيّبتني من رحمتك لأخيّبنّهم بالدعوة إلى معصيتك كما قال الجبّائي. وثالثها: أنّ معناه بما أضللتني عن طريق جنّتك لأضلّنّهم بالدعاء إلى معصيتك، ورابعها: بما كلّفتني السجود لآدم الّذي غويت عنده فسمّي ذلك غواية كما قال: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾[1]، ﴿وَجَزَاؤُا سَيِّئَةٍ

١ـ سورة التوبة: ١٢٥.

سَيِّئَةٌ ﴾[1] والباء في قوله: ﴿بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ للقسم وقيل: بمعنى السبب أي: بكوني غاوياً لأزيّننّ كما يقال: بطاعته لتدخل الجنّة وبمعصيته لتدخل النار، ومفعول التزيين محذوف أي: لأزيّننّ الباطل لهم.

واعلم أنّ إمهال الله إبليس هذه المدّة ما أجبر الخلق على الكفر والمعاصي وما نفى الاختيار عن المكلّف، وإنّما للمكلّف الاختيار فإطاعته لإبليس من سوء اختيار المكلّف وحكم إمهال إبليس كحكم خلق السمّ وإنّما خلق السمّ لمصلحة أخرى فأنت إذا شربته وهلكت فهل على خالق السمّ بأس فالشيطان كذلك وإنّما أمهله جزاء على عبادته ومنعك أيّها المكلّف عن إطاعته وأكّد البيان لك بأنّه عدوّ مبين فهلّا أطعت مولاك وخالفت عدوّك فتسعد؟

ثمّ إنّ الشيطان يعترف بأنّه ما كان له عليكم من سلطان وقدرة قاهرة. وإنّما يأتيكم بالوسوسة، والكافر والعاصي بسبب ميله إلى ذلك الأمر يقبل تلك الوسوسة نهاية الأمر أنّ عدم الوسوسة أسهل حالاً من الوسوسة، والتكليف لابدّ فيه من صعوبة ولا يمنع الحكيم من فعله.

﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ وهم الّذين أخلصوا عبادتهم لله وامتنعوا عن إطاعة الشيطان وانتهوا عمّا نهاهم الله عنه، ومن قرأ بصيغة المفعول فهم الّذين أخلصهم الله ووفّقهم لذلك ليس للشيطان عليهم سبيل.

﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ قيل: في تفسيره وجوهاً: الأوّل: أنّ إبليس لمّا قال: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ فقوله: ﴿هَذَا﴾ إشارة إلى الإخلاص، والمعنى أنّ الإخلاص طريق عليّ وإليّ ويؤدّي إلى كرامتي وهو طريق مستقيم: وقيل: ﴿عَلَيَّ﴾ بمعنى «إليّ».

وقيل: معناه هذا الإخلاص صراط من مرّ عليه فكأنّه مرّ عليّ وعلى

١ـ سورة الشورى: ٤٠.

رضواني وهو كقولك: طريقك عليّ. وقيل: «عليّ» بالتنوين بمعنى الصفة يعني: صراط عال رفيع مستقيم لا عوج فيه. وقيل: معناه أنّ هذا صراط حقّ عليّ أن اراعيه مستقيم وهو أن لا يكون لك سلطان على المخلصين. وقيل: «صراط عليّ» بالإضافة، عن السجّاد، أي: صراط عليّ أمير المؤمنين مستقيم، قاله العيّاشيّ وجماعة[1].

﴿إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ﴾ لأنّ من قبل منه صار له عليه سلطاناً يعدله عن الهدى فاستثنى من الّذين ليس له عليهم سلطة فصار متّصلاً. وقيل: إنّ الاستثناء منقطع والمراد: لكن من اتّبعك من الغاوين جعل لك على نفسه سلطاناً.

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: موعد الإبليس ومن تبعه ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ فيه قولان: أحدهما ما روي عن أمير المؤمنين: «**أنّ جهنّم لها سبعة أبواب أطباق بعضها فوق بعض**»، ووضع إحدى يديه الشريفة على الأخرى فقال: «**هكذا، وإنّ الله وضع الجنان على العرض، ووضع النيران بعضها فوق بعض فأسفلها «جهنّم» وفوقها «لظى» وفوقها «الحطمة» وفوقها «السقر» وفوقها «الجحيم» وفوقها «السعير» وفوقها «الهاوية»**». وفي رواية الكلبيّ أسلفها «الهاوية»[2] وأعلاها «جهنّم»[3].

وقيل: سبعة أدراك بعضها فوق بعض فأعلاها لأهل التوحيد يعذّبون على قدر أعمالهم وأعمارهم في الدنيا، ثمّ يخرجون. والثاني فيه اليهود، والثالث فيه النصارى، والرابع فيه الصابئون، والخامس فيه المجوس، والسادس فيه مشركوا العرب، والسابع فيه المنافقون وذلك قوله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾[4]. ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ﴾ أي: من الغاوين ﴿جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ ونصيب

١ـ تفسير العياشي، ج٢، ص٢٤٢.

٢ـ مجمع البيان، ج٦، ص١١٨؛ وبحار الأنوار، ج٨، ص٢٤٥.

٣ـ المصدر السابق نفسه.

٤ـ سورة النساء: ١٤٥.

مفروض وذلك أنّ مراتب الكفر مختلفة بالشدة والخفّة.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾

لمّا ذكر سبحانه عبادة المخلصين عقّبه بذكر حالهم في الآخرة فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ الّذين يتّقون عقاب اللّه باجتناب معاصيه في بساطين خلقت لهم ﴿وَعُيُونٍ﴾ من ماء وخمر وعسل تفور من الفوّارة ثمّ تجري في مجاريها يقال لهم: ﴿ٱدْخُلُوهَا﴾ الجنّات بسلامة من الآفات والمكاره ﴿ءَامِنِينَ﴾ من الإخراج منها ساكني النفس، وأزلنا عن صدور أهل الجنّة ما فيها من أسباب الحسد والعداوة والتنافس حال كونهم ﴿إِخْوَٰنًا﴾ متوادّين، فيصفو لذلك عيشهم كائنين ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ متواجهين ينظر بعضهم إلى وجه بعض حتّى قيل: إنّ أهل الجنّة لا يرى الرجل قفا زوجته، ولا ترى زوجته قفاه لأنّ الأسرّة تدور بهم كيف ما شاؤوا حتّى يكونوا متقابلين في عموم أحوالهم ﴿لَا يَمَسُّهُمْ﴾ في الجنّة عناء وتعب ويبقون فيها مؤبّدين. ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ﴾ ثمّ أمر سبحانه نبيّه أن يخبر عباده بكثرة رحمته لأوليائه وشدّة عذابه لأعدائه. قال الرازيّ: واعلم أنّه قد ثبت في أصول الفقه أنّ ترتيب الحكم على الوصف المناسب مشعر بكون ذلك الوصف علّة لذلك الحكم ففي الآية وصفهم بكونهم عباداً له ثمّ ذكر بعد هذا الوصف بكونه غفوراً رحيماً، ومن خالف عبادته وأنكر كان مستوجباً للعقاب الأليم.

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ

وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ
أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ
ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾
قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ
مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ
قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾

لمّا ذكر سبحانه الوعد للمتّقين والوعيد للعاصين وشرح أحوال السعداء والأشقياء أتبعه بذكر قصص الأنبياء ليكون سماعها مرغباً في الطاعة ومحذّرا عن المعصية فبدأ بقصّة إبراهيمعليه السلام، والضمير في قوله: «وَ نَبِّئْهُمْ» عائد إلى قوله: ﴿عِبَادِى﴾ والضيف الوارد إلى غيره لطلب القرى وهو في الأصل مصدر يقع على الواحد والاثنين والجمع وصف به، وقد تجمع على الضيفان والضيوف والأضياف. قوله: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ يعني: الملائكة لأنّهم وردوا بصورة الضيف ﴿فَقَالُوا سَلَٰمًا﴾ أي: سلّموا عليه سلاماً على وجه التحيّة وبشّروه بالولد وبإهلاك قوم لوط ﴿قَالَ﴾ إبراهيم ﴿إِنَّا مِنكُمْ﴾ خائفون وإنّما خاف منهم لأنّهم وردوا بغير إذنه ولم يأكلوا ﴿إِنَّا مِنكُمْ﴾ لا تخف ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ ونخبرك بما يسرّك بولد يكون غلاماً ويكون عليما إذا بلغ.

﴿قَالَ﴾ إبراهيم: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي﴾ بالمولود في حال الكبر الّذي يوجب اليأس ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ أبأمر الله فأثق به أم من جهة أنفسكم؟ ومعنى «مَسَّنِيَ الْكِبَرُ» أي: غيّرني الكبر ﴿قَالُوا بَشَّرْنَٰكَ﴾ على وجه الحقيقة بأمر الله ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ﴾ الآيسين فأجابهم إبراهيم: ﴿وَمَن يَقْنَطُ﴾ أي: ومن الّذي ييئس ﴿مِن رَّحْمَةِ﴾ الله ﴿إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ عن الحقّ الجاهلون بقدرته. وقولهم لإبراهيم: «فَلا تَكُنْ مِنَ الْقانِطِينَ» لا يدلّ على أنّ إبراهيم كان قانطاً ونهي

الإنسان عن الشيء لا يدلّ على كون المنهيّ فاعلاً للمنهيّ عنه كما في قوله: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾[1]. ثمّ قال بعد ذلك للملائكة: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ أي: ما شأنكم؟ وسمّاهم مرسلين لأنّهعليه السلام علم أنّهم ملائكة ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ وأخبروه بهلاكهم ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾ وهم خاصّته وإنّما استثناهم وما كانوا مجرمين من حيث إنّهم كانوا من قوم لوط ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ لأنها كانت كافرة ﴿قَدَّرْنَآ إِنَّهَا﴾ وقضينا وحكمنا بحكم الله أنّها من الباقين في المدينة مع المهلكين.

فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾

ثمّ لمّا خرجوا من عند إبراهيم أتوا لوطاً يخبرونه بهلاك قومه ﴿فَلَمَّا جَآءَ﴾ المرسلون إلى لوط بهيئة حسنة وجمال لم ير مثلهم أنكر شأنهم وهيئتهم وما عرفهم ﴿قَالَ إِنَّكُمْ﴾ غير معروفين عندي عرّفوني أنفسكم قالت الملائكة: ﴿قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ﴾ بأمر كانوا يشكّون في وقوعه إذا كنت تخوّفهم ولا يصدّقون بقولك ﴿وَأَتَيْنَٰكَ﴾ بالعذاب المستقين به ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ فيما أخبرناك.

١ـ سورة الأحزاب: ١.

﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ ﴾ الإسراء سير الليل أي: سر بأهلك بعد ما يمضي أكثر الليل وتبقى قطعة منه واقتف آثار أهل بيتك وكن وراءهم لتكون عيناً عليهم فلا تتخلّف أحد منهم ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ إلى ما خلف وراءه في المدينة أي: لا ينظر منكم وراءه لئلاّ يرون العذاب فيفزعوا ﴿وَامْضُوا حَيْثُ﴾ أمركم الله بالذهاب إليه وهو الشام، وحاصل المعنى: إذا بقي من متاعكم شيء في المدينة فلا ترجعوا إليه وامضوا حيث تؤمرون، لأنّ جبرئيل أمر لوطاً أن ينزل قرية معيّنة لم يعملوا عمل قوم لوط ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ﴾ أي: آخر من يبقى منهم يهلك وقت الصبح ومستأصلون بالعذاب على وجه لا يبقى منهم أثر ولا نسل ولا عقب.

﴿ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ ﴾ يبشّرون بعضهم بعضاً بنزول من هو في صورة الأضياف بلوط طمعاً في أن ينالوا الفجور منهم ﴿ قَالَ ﴾ لوط لهم: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي﴾ ولا تخزون في ضيفي ﴿ قَالُوا ﴾ له: ﴿أَوَلَمْ نَنْهَكَ ﴾ أن تجير أحدا؟ وإنّما قال لوط لهم هذا الكلام قبل أن يعلم أنّهم الملائكة بعثوا لإهلاك قومه ﴿قَالَ ﴾ لوط لقومه لمّا قصدوا السوء: ﴿هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي ﴾ فتزوّجوهنّ لكم إن كان لكم رغبة وتطلبون التزويج، قيل: إنّه عرض بنات قومه عليهم وقد كان يجوز تزويج المؤمنة من الكافر، أو بناته من صلبه لرئيسهم حتّى يسلم من شرّهم.

﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ أي: لعمرك قسمي أي: وحياتك يا محمّد ومدّة بقائك وقال المبرّد: هو دعاء ومعناه أسأل عمرك. قال ابن عبّاس: (ما خلق الله عزّ وجلّ ولا أذر ولا برأ نفساً أكرم عليه من محمّد وما سمعت الله أقسم بحياة أحد إلّا بحياته. لفي غفلتهم يتحيّرون ويتردّدون فلا يبصرون طريق الرشد).

فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾

﴿فَأَخَذَتْهُمُ﴾ صيحة جبرئيل أو مطلق الصيحة ﴿مُشْرِقِينَ﴾ أي: وقت بزوغ الشمس وطلوعها وعذّبوا بثلاثة أنواع من العذاب: أحدها الصيحة الهائلة المنكرة، والثاني: أنه جعل عاليها سافلها، والثالث: أنّه أمطر عليهم حجارة من سجّيل ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الأمور الواقعة دلالات للمتفرّسين المتدبّرين، قال ﷺ: «**إنّ لله عباداً يعرفون الناس بالتوسيم**»[1]. قال الصادق عليه السلام: «**نحن المتوسّمون، والسبيل فينا مقيم**»[2] والسبيل طريق الجنّة. والوسم العلامة. ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ والضمير عايد إلى مدينة قوم لوط أي: هذه القرى وما ظهر فيها من آثار قهر الله وغضبه لبطريق مسلوك ثابت يسلكها الناس في حوائجهم ويرونها، لأنّ آثارها باقية وهي مدن أربعة، أكبرها سدوم بين المدينة والشام، وهي عبرة ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ وأمّا الّذين لا يؤمنون فإنّهم يحملونها على حوادث العالم ووقائع القرانات الكوكبيّة والاتّصالات الفلكيّة.

﴿وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾

هذه القصّة الثالثة، الأولى قصّة إبليس وآدم، الثانية قصّة إبراهيم ولوط، وهذه قصّة أصحاب الأيكة، وهم قوم شعيب كانوا أصحاب غياض فكذّبوا شعيباً فأهلكهم الله بعذاب يوم الظلّة، والأيكة الشجر الملتفّ يقال: أيكة

١ـ بحار الأنوار، ج٢٤، ص١٢٣؛ وكنز العمال، ج١١، ص٨٨؛ وتفسير الصافي، ج٣، ص١١٨.

٢ـ الكافي، ج ١، ص٢١٨؛ الاختصاص للمفيد، ص٣٠٣؛ وبصائر الدرجات، ص٣٧٥.

وأيك كشجرة وشجر. وقيل: الأيك شجرة المقلّ. وقيل: الأيكة الغيض.

﴿وَإِن كَانَ﴾ «إن» هي المخففة أي: إنّ الشأن كان ﴿أَصْحَٰبُ﴾ شعيب أهل ﴿ٱلْأَيْكَةِ﴾ فكانوا ظالمين ومتجاوزين عن الحدّ ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ بالعذاب من الطائفتين من قوم شعيب ومن قوم لوط والانتقام نقيض الأنعام ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ أي: وإنّ مدينتي قوم لوط وشعيب بطريق يؤمّ ويتّبع ويهتدى به، وسمّي الطريق إماماً لأنّ الإنسان يؤمّه. وقيل: معناه أنّ حديث مدينتيهما لمكتوب مذكور في اللوح المحفوظ نظير قوله: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾[1] والمبين الظاهر.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ هذا هو القصّة الرابعة وهي قصّة صالح، الحجر اسم واد كان بسكنها ثمود. ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ المراد صالح وحده. لعلّ القوم كانوا براهمة منكرين لكلّ الرسل ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا﴾ يريد الناقة وكان في الناقة آيات كثيرة ﴿فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ أو المعنى أنّ المراد من تكذيب صالح تكذيب تمام المرسلين لأنّ تكذيب نبيّ واحداً تكذيب الأنبياء لأنّهم بأجمعهم يدعون الناس إلى توحيد الله وليس فيهم اختلاف.

وكان قوم صالح أقوياء ﴿يَنْحِتُونَ﴾ لمساكنهم ﴿مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ وكانوا ﴿ءَامِنِينَ﴾ من خرابها ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ في وقت الصبح ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ﴾ ونفع ودفع ما كانوا جامعين من الأولاد والمال وأنواع الملاذّ.

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ

١ــ سورة يس: ١٢.

أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾

النظم: تصبير النبيّ على سفاهة قومه فإنّه إذا سمع مكرّرا أنّ الأمم السالفة يعاملون أنبياءهم بمثل هذه المعاملات الفاسدة سهل عليه تحمّل تلك السفاهات. ولمّا ذكر في الآيات السابقة الإهلاك والتعذيب فكأنّه قيل: الإهلاك والتعذيب كيف يليق بالرحيم الكريم؟ فأجاب عنه بأني إنّما خلقت الخلق ليكونوا مشتغلين بالعبادة والطاعة فإذا تركوها وجب في الحكمة إهلاكهم وتطهير وجه الأرض منهم فقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: إنّا ما خلقنا خلقاً عبثاً بل لما اقتضته الحكمة وما خلقنا أمراً باطلاً، بل خلقناهم، ثمّ نجازيهم بما عملوا ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٌ﴾ وجائية للمجازاة وإنّ الله لينتقم ممّن خالف دين الحقّ. ثمّ صبّره وأمره أن يعرض عنهم في موضع الإعراض ويتحلّم ويعفو عنهم عفوا جميلا ويعظهم. قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**إنّ الصفح الجميل هو العفو من غير عتاب وتوبيخ وتعنيف**».[1]

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ﴾ للأشياء عليم بمصالح الأمور وهو يعلم المصالح فتارة يأمرك بالعفو وتارة يأمرك بالسيف، وهذه الآية صريحة على أنّ الله لم يخلق الباطل والكفر أبداً ولا يرضى به وما أبقى حجّة للجبريّة ونقضت غزلهم. ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾ ولمّا أمر بالصفح والتجاوز أتبع بذكر النعم العظيمة الّتي خصّ الله محمّد بها فقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾ والمثاني جمع واحدته مثناة. والمثناة كلّ شيء يثنى أي: يجعل اثنين

١ـ الأمالي، للصدوق، ص١٣١؛ ووسائل الشيعة (الإسلامية) ج٨، ص٥١٩؛ وتفسير الصافي، ج٣، ص١١٩؛ وبحار الأنوار، ج٦٨، ص٤٢١.

من قولك: ثنَيت الشيء إذا عطفته أو ضممت إليه آخرا، ومنه يقال لمرفقي الدابّة: مثاني، لأنّها تثنّى بالعضد، فمفهوم سبع المثاني سبعة أشياء من جنس الأشياء الّتي تثنّى. وبالجملة للناس فيه أقوال:

الأوّل: عن عليّ عليه السلام وجمع من الصحابة أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قرأ الفاتحة وقال: «**هي السبع المثاني**»[١]، والسبب في وقوع هذا الاسم على الفاتحة أنّها سبع آيات تثنّى في كلّ صلاة ويقرأ مرّتين ولأنّها قسّمت قسمان ثناء ودعاء يقول اللّه: «**قسّمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين: نصف حقّ الربوبيّة ونصف حقّ العبوديّة وهو الدعاء**». أو لأنّ كلماتها مثنّاة مثل الرحمن الرحيم إيّاك نعبد وإيّاك نستعين. ثمّ هاهنا تحقيق وهو أنّ إفرادها بالذكر مع كونها جزءا من أجزاء القرآن بقوله: ﴿سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ يدلّ على مزيّة فضل وشرف في هذه السورة، ثمّ إنّه لمّا رأينا أنّ رسول اللّه واظب على قراءتها في جميع الصلوات وما أقام سورة غيرها مكانها في شيء من الصلوات وقوله: «**لا صلاة إلّا بفاتحة الكتاب ولا يجوز الإبدال**» دلّ على خصوصيّة شرافتها.

الثاني: هي البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف، والأنفال والتوبة معاً. قالوا: وسمّيت هذه السور بالمثاني لأنّ الفرائض والحدود والأمثال والعبر ثنّيت فيها.

وأنكروا هذا القول وقالوا: هذه الآية مكّيّة وأكثر هذه السور السبعة مدنيّة فكيف يمكن حمل هذه الآية عليها؟

وأجابوا بأنّ اللّه تعالى أنزل القرآن كلّه إلى السماء الدنيا ثمّ أنزله نجوماً فلمّا أنزله إلى السماء الدنيا فهو من جملة ما أتاه وإن لم ينزل عليه بعد. وأجابوا عن هذا الجواب بأن الإتيان إنّما يصدق إذا وصل إلى محمّد فأمّا

١ـ وسائل الشيعة (آل البيت) ج٦، ص٥٩؛ وتفسير الثعلبي، ج١، ص١٦٣.

الّذي أنزله إلى السماء الدنيا وهو لم يصل إليه بعد لا يصدق عليه الإتيان. وقيل أقوال آخر ذكرها يوجب التطويل. ﴿وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ يعني: وآتيناك القرآن العظيم لأنّه يتضمّن جميع ما يحتاج إليه من أمور الدين بأوجز لفظ وأحسن نظم.

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ أي: لا تنظر ولا ترفع عينيك من هؤلاء الكفّار إلى ما متّعناهم وأنعمنا عليهم من زهرات الدنيا فإنّها في معرض الزوال والفناء مع ما يتبعها من الحساب والجزاء به ﴿أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ منصوباً على الحال والمراد به أشباها وأمثالا من النعم يشبه بعضها بعضاً، وقيل: أزواجاً منهم يعني: أصنافاً من الكفّار، والزوج في اللغة الصنف.

وبالجملة فالمراد أنّه لا تنظر إلى ما متّعناهم من النعم، فإنّ ما أنعمنا عليك وعلى من اتّبعك من أنواع النعم خير وأحسن كالإسلام والقرآن والنبوّة وكان رسول اللهﷺ لا ينظر إلى ما يستحسن من الدنيا، ومنه الحديث: «**ليس منّا من لم يستغن بالقرآن ومن اوتي القرآن فرأى أنّ أحدا اوتي من الدنيا أفضل ممّا أوتي فقد صغّر عظيماً وعظّم صغيراً**».[1]

وقيل: وافت من بعض البلاد سبع قوافل ليهود بني قريظة والنضير فيها أنواع البزّ والطيب والجواهر وسائر الأمتعة فقال المسلمون: لو كانت هذه الأموال لنا لتقوّينا بها ولأنفقناها في سبيل الله، فقال الله لهم: لقد أعطيتكم سبع آيات هي خير من هذه القوافل السبع.

وروي أنّهﷺ نظر إلى نعم بني المصطلق وقد عبست في أبو الها وأبعارها فتقنع في ثوبه وقرأ هذه الآية[2]. و«عبست في أبوالها» المراد سمنها

١ـ انظر: الكافي، ج٢، ص٦٠٥؛ ومعاني الأخبار للصدوق، ص٢٧٩؛ ووسائل الشيعة، ج٣، ص٥٨٢.

٢ـ الفايق في غريب الحديث، للزمخشري، ج٢، ص٣٢٤ ح وسبل الهدى والرشاد، ج٧، ص٢٨٨.

وكثرة شحومها ولحومها. الخطاب وإن كان له إلّا أنّ المراد أمّته.

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على الكفّار إن لم يؤمنوا أو نزل بهم العذاب وبما يصيرون إليه من عذاب النار بكفرهم ولما أنعمت عليهم دونك ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: وألن لهم جانبك وارفق بهم، وفلان خافض الجناح إذا كان وقورا حليماً، وأصله أنّ الطائر إذا ضمّ فرخه إلى نفسه بسط جناحه ثمّ خفضه، أي: تواضع للمؤمنين لكي يتّبعك الناس في دينك. ﴿وَقُلْ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي: أنا المعلم بموضع المخافة، فيدخل تحت كونه نذيرا كونه مبلّغاً لجميع التكاليف لأنّ كلّ ما كان واجباً ترتّب على تركه عقاب وكلّ ما كان حراماً ترتّب على فعله عقاب، فكان الأخبار بحصول العقاب داخلاً تحت لفظ النذير.

﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾ قيل: هم الّذين اقتسموا طرق مكّة يصدّون الناس عن الإيمان برسول اللّه ويقرب عددهم من أربعين. وقيل: كانوا ستّة عشر رجلاً بعثهم الوليد ابن مغيرة أيّام الموسم فاقتسموا عقبات مكّة يقولون لمن يسلكها: لا تغترّوا بالخارج منّا يدّعي النبوّة فإنّه مجنون. وكانوا ينفّرون الناس عنه بأنّه ساحر أو كاهن أو شاعر فأنزل اللّه عليهم خزيا فماتوا شرّميتة. والمعنى أنذرتكم مثل ما نزل على المقتسمين. وفي بعض الروايات أنّ المقتسمين هم اليهود والنصارى[١] واختلفوا في أنّ اللّه لم سمّاهم مقتسمين؟ لأنهم ﴿جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ آمنوا بما وافق التوراة وكفروا بالباقي، وقيل: لأنّهم اقتسموا القرآن استهزاء به كقسمة الجزور، فقال بعضهم: سورة كذا لي وسورة كذا لي. أو قال بعضهم: سحر. وقال بعضهم: شعر. وقال بعضهم: أساطير الأوّلين، وأنزل اللّه على المقتسمين عذاباً فرمتهم

١ـ مجمع البيان، ج٦، ص١٣٠.

الملائكة بالحجارة حتّى ماتوا شرّ ميتة، فالتشبيه يرجع إلى هذا.

المعنى: وقل إنّي أنا النذير المبين عذاباً كما أنزلنا على المقتسمين، أو المعنى إنّا آتيناك السبع المثاني كما آتينا العذاب على المقتسمين، والجملة المعترضة بقوله: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ وقعت بين المشبّه والمشبّه به للتسلية من حال الرسول. ومفرد «العضين» عضة مثل ثبة، وأصلها عضوة أي: قطعة والتعضية التجزية فالمعنى جزّءوا القرآن أجزاء متفرّقه.

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾

لمّا بيّن سبحانه كفرهم بالقرآن عقّبه بأنّهم المسؤولون أجمعون وأقسم بنفسه أنّهم المسؤولون أو جميع الخلق مسؤولون عن الكفر وغيره من عامّة أفعالهم ﴿فَاصْدَعْ﴾ وفرّق بين الحقّ والباطل وأبن ما أمرتك لهم، وتكلّم جهاراً لهم، وتأويل الصدع في الزجاج بتباين بعض عن بعض ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ ولا تلتفت إلى لومهم ولا تبال بهم.

﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ وشرّهم بأن أهلكناهم، وبيان إهلاكهم أنّ جبرئيل أتى النبيّ والمستهزئون يطوفون بالبيت فأشار جبرئيل إلى بعض منهم بساقه وإلى بعض برأسه وبعينه فمرضوا في برهة قليلة من الزمان وماتوا شرّ ميتة[1].

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ﴾ من سفاهة قومك واستهزائهم لك فقل:

١ـ انظر: نور الثقلين، ج ٣، ص ٣٣.

سبحان الله وبحمده واحمد ربّك على نعمه إليك، وكن من المصلّين، قال ابن عبّاس: (كان رسول الله إذا حزنه أمر فزع إلى الصلاة). ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ﴾ إلى أن ﴿يَأْتِيَكَ﴾ الموت وهذا أمر بالإقامة على العبادة أبداً ما دام حياً، والفائدة في هذا التوقيت أنّ الإنسان يكون مادام عمره لابدّ أن لا يخلو عن النظر في عبوديّته بلحظة واحدة.

تمّت السورة.

سُورَةُ النَّحْلِ

بعضها مكّيّة وبعضها مدنيّة.

فضلها أبيّ بن كعب عن النبي ﷺ: **«من قرأها لم يحاسبه الله على النعم الّتي أنعمها عليه في الدنيا وأعطي من الأجر كالّذي مات وأحسن الوصيّة وإن مات في يوم تلاها أو ليلة كان له من الأجر كالّذي مات وأحسن الوصيّة»**[1].

وروى محمّد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال: **«من قرأ سورة النحل في كلّ شهر كفي المغرم في الدنيا وسبعين نوعاً من أنواع البلاء أهونه الجنون والجذام والبرص، وكان مسكنه في جنّة عدن وهي وسط الجنان»**[2].

واعلم لمّا ختم سورة الحجر بوعيد الكفّار افتتح هذه السورة بوعيدهم أيضاً، فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾

البيان: كان رسول الله ﷺ يخوّف المشركين بعذاب الدنيا، تارة بالقتل

١ـ مستدرك الوسائل، ج٤، ص٣٤٣؛ ومجمع البيان، ج٦، ص١٣٥.

٢ـ مجمع البيان، ج٦، ص١٣٥؛ نور الثقلين، ج٣، ص٣٨.

والاستيلاء عليهم كما حصل، وتارة بعذاب يوم القيامة وهو الّذي يحصل عند قيام الساعة، ثمّ إنّ القوم لمّا لم يشاهدوا شيئاً من ذلك أقاموا على تكذيبه وطلبوا منه الإتيان بالعذاب وقالوا له: ائتنا به.

في معنى الآية أقوال: أحدها: أنّ معناه قرب أمر الله وكلّما هو آت قريب أي: قرب عقاب هؤلاء المشركين المقيمين على التكذيب. وثانيها: أنّ أمر الله أحكامه وفرائضه. وثالثها: أنّ أمر الله يوم القيامة فيكون «أتى» بمعنى «يأتي» ومستقبل هو محقّق الوقوع يأتي بلفظ الماضي فصار بمنزلة ما مضى لأنّ الله سبحانه قرّب أمر الساعة وقال: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾[١].

وبالجملة قال الكفّار فيما بينهم: إنّ محمّداً يزعم أنّ القيامة قد قربت فأمسكوا عن بعض ما تعملون حتّى ننظر ما هو كائن، فلمّا امتدّت الأيّام قالوا: يا محمّد ما نرى شيئاً ممّا تخوّفنا به، فنزلت: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ فوثب رسول الله ﷺ ورفع الناس رؤوسهم فنزل: ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ﴾ هذه كلمة تنزيه عمّا لا يليق به وبصفاته من أن يكون له شريك في العبادة ﴿يُنَزِّلُ﴾ الله الملائكة بالوحي أو بالقرآن ﴿مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾ لأنه حياة القلوب بسبب الإرشاد إلى حسن العاقبة والدين ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ﴾ ممّن يصلح للنبوّة والسفارة بينه وبين خلقه ﴿أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ هذا تفسير للروح المنزل وبدل منه. أي: أيّها الأنبياء مروهم بتوحيدي واتّقوا مخالفتي. وبيّن سبحانه أنّ الحال حال التكليف لا حال نزول العذاب وأنّه لا يأخذ أحدا حتّى يحتجّ عليه بالإنذار وبيان الأدلّة.

ثمّ شرع في ذكر الدليل فقال:

خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ

١ـ سورة القمر: ١.

ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ
فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ
تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ
إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾

المعنى: خلقهما على سبيل الحقيقة فيستدلّ بهما على معرفته ويتوسّل بالنظر إليهما إلى العلم بكمال قدرته وينتفعون بهما في الدين والدنيا فليعمل العامل ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ تقدّس من أن يكون له شريك. ثمّ بيّن دليلاً آخر فقال: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ و«النطفة» اسم للماء القليل ثمّ في العرف صار اسما لماء الفحل، حتّى صارت هذه النطفة في تقلّب الأحوال إنساناً يخاصم عن نفسه فبيّن أضعف أحواله وأنقصها وأكملها منها على كمال قدرته، أو المعنى مجادل بالباطل مبين ظاهر الخصومة، وفيه تعريض لفاحش ما ارتكبه من تضييع حقّ نعمة الله عليه.

ثمّ بيّن سبحانه نعمته في خلق الأنعام فقال: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا﴾ أكثر ما يتناول الأنعام الإبل والبقر والغنم، وفي اللغة هي ذوات الأخفاف والأظلاف دون ذوات الحوافر ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ أي: لباس وما يستدفأ به ممّا يعمل من صوفها ووبرها وشعرها ومنافع أخر من الحمل والركوب وإثارة الأرض والزرع والنسل ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ من لحومها.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾ حسن منظر وزينة حين تردّونها من سراحها وحيث تأوي إليه ليلا ﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ أي: حين ترسلونها بالغداة إلى مراعيها والجمال حين الإراحة أكثر من حين التسريح لأنّها تقبل ملائي البطون والضروع مع الثغاء والرغاء ويعظم موقعها عند الناظر ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ إلى البلاد ولم تكونوا تبلغون لولاها إلّا بالمشقّة، والشقّ نصف الشيء

والمشقّة، والمعنيان مناسبان. ثمّ عطف على الأنعام:

﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾
وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾
هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ
تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ
وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ
لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ
فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ
مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾

لمّا ذكر في الآية السابقة منافع الحيوانات الّتي ينتفع بها الإنسان من المنافع الضروريّة والحاجات الأصليّة ذكر في هذه الآية المنافع الغير الضروريّة فقال: وخلق «الْخَيْلَ والْبِغالَ والْحَمِيرَ» للركوب وللزينة، ونصب «زينة» على المفعول له. واحتجّ القائلون بتحريم لحوم الخيل بهذه الآية فقالوا: منفعة الأكل أعظم من منفعة الركوب فلو كان الأكل جائزا لكان هذا المعنى أولى بالذكر وحيث لم يذكر علمنا أنّه يحرم أكله، ثمّ إنّه سبحانه قال في صفة الأنعام: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ وهذه الكلمة تفيد الحصر فيقتضي أن لا يجوز الأكل من غير الأنعام فوجب أن يحرم أكل لحم الخيل بمقتضى هذا الحصر.

وأجابوا بأنّه لو كان الأمر كذلك لكان قول عامّة المفسّرين والمحدّثين: «إنّ لحوم الحمير الأهليّة حرّمت عام خيبر» باطلاً لأنّ التحريم لمّا كان حاصلاً قبل هذا اليوم لم يبق لتخصيص هذا التحريم فائدة. وقد روى البخاريّ في الصحيح مرفوعاً إلى أسماء بنت أبي بكر قالت: أكلنا لحوم الفرس على عهد

رسول اللهﷺ. ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من أنواع الحيوان والنبات والجماد لمنافعكم ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: واجب على الله في عدله بيان الطريق المستقيم والهداية من الضلالة ليتّبع الهداية ويترك الضلالة ﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾ أي: ومن السبيل ما هو جائر أي: مائل عن الحقّ وهو أنواع الكفر، والسبيل يذكّر ويؤنّث ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ على طريق الإلجاء ولكنّه ينافي التكليف، والإيمان مقدور للمكلّفين.

وحاصل المعنى من هذه الآيات بيان فوائد نعم الله من النعم المفيدة لدينكم ولمعايشكم كخلق الأنعام للفوائد الّتي تحتاجونها لدنياكم وترون فوائدها وخلق ما لا تعلمون فوائدها وهو مفيدة لكم، وقد ذكره بطريق الإجمال لأنّ أصنافها وأنواعها خارجة عن الإحصاء ولو خاض الإنسان في شرح عجائب أحوالها لكان المذكور في المجلدات الكثيرة كالقطرة في البحر.

قال ابن عبّاس: (إنّ على يمين العرش نهراً من نور مثل السماوات السبع ومثل الأرضين السبع والبحار السبعة، يدخل فيه جبرئيل كلّ سحر ويغتسل فيزداد نوراً إلى نوره وجمالا إلى جماله ثمّ ينتفض فيخلق الله من كلّ نقطة تقع من ريشه كذا وكذا ألف ملك يدخل منهم كلّ يوم سبعون ألفاً البيت المعمور، وفي الكعبة سبعون ألفاً ثمّ لا يعودون إلى أن تقوم الساعة ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾)[1]. وفي الآية دلالة على أنّه سبحانه لا يضلّ أحدا ولا يغويه ولا يصدّه عن الحقّ لأنّه لو كان فاعلاً للضلال لقال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ﴾ اعلم أنّه أشرف أجسام العالم السفلى بعد الحيوان النبات فاستدلّ سبحانه به، ومادّة النبات الماء، والمنزل المنزل من السحاب أو

١ـ سورة إبراهيم: ٣٤؛ وسورة النحل: ١٨.

من السماء و﴿لَكُم﴾ من ذلك الماء ﴿شَرَابٌ﴾ تشربونه أي: منه لشربكم ﴿وَمِنْهُ﴾ لشرب الشجر وسقيه وحذف المضاف كقول زهير: «أ من أمَّ أوفى دمنة لم تكلّم» أي: أمن ناحية أمَّ أوفى دمنة لم تكلّم ﴿تُسِيمُونَ﴾ أي: ترعون أنعامكم، والسوم الرعي، من غير كلفة والتزام مؤونة لعلفها.

قال ابن قتيبة: المراد في هذه الآية من «الشجر» الكلاء وفي حديث عكرمة: «**لا تأكلوا ثمن الشجر فإنّه سحت**»[١] يعني: الكلاء. وقيل: النجم ما ينجم من الأرض ممّا ليس له ساق ومن الشجر ما له ساق، وعطف الجنس على النوع والنوع على الجنس شايع، ولفظ الشجر مشعر بالاختلاط يقال: تشاجر القوم إذا اختلط أصواتهم.

﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ﴾ فذكر بعد ما ينفع للحيوان ما ينفع للإنسان، ينبت بالماء المنزل من السماء ما هو غذاء للإنسان والغذاء للإنسان حيوانيّ وقد ذكر في خلق الأنعام، ونباتيّ وهو الحبوب والفواكه من ﴿وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ من أنواعها ومنافعها لا تعدّ ولا تحصى، مثلاً العنب قشرة وعجمه باردان يابسان كثيفان ولحمه وماؤه حارّان رطبان لطيفان ونسبة الطبائع السفليّة إلى هذا الجسم متشابهة ونسبة التأثيرات الفلكيّة والكوكبيّة إلى الكلّ متشابهة ومع التشابه ترى هذه الأجسام مختلفة في الطبع والطعم واللون والصفة وليس ذلك إلّا لتقدير فاعل حكيم قادر ﴿إِنَّ﴾ في هذه الأمور لآيات لمن تفكّر واعتبر.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ﴾ في حركاتها المختلفة بأوقاتها وهي مقهورة بنسق لا يختلف بأمره القاهر فلو فرضنا أنّ حدوث الحوادث في العالم السفلى مستندة إلى الاتّصالات الفلكيّة والتشكّلات الكوكبيّة إلّا أنّه

١ـ المحلى، ابن حزم، ج٩، ص٥٥.

لابدّ لحركاتها من أسباب، وأسباب تلك الحركات إمّا ذواتها وإمّا أمور مغايرة لها والأوّل باطل لأنّ ذات الجسم لو كانت علّة لحصول هذا الجزء من الحركة لوجب دوام هذا الجزء من الحركة بدوام تلك الذات ولو كان كذلك لوجب بقاء الجسم على حالة واحدة من غير تغيّر أصلاً وعدم التغيّر يوجب كونه ساكناً لذاته ويمتنع من كونه متحرّكاً فالقول بأنّ الجسم متحرّك لذاته يوجب كونه ساكناً لذاته، وما أفضى ثبوته إلى عدمه كان باطلاً.

وبعبارة أخرى أوضح من هذا: إنّ الأجسام متماثلة في الجسميّة فلو كان جسم علّة لصفة لكان كلّ جسم واجب الاتّصاف بتلك الصفة وهو محال فثبت أنّ تخصّص ذلك المخصّص بغيره لا بذاته ولابدّ من أن ينتهي لبطلان التسلسل فثبت أنّ الغير قادر عليه مباين له متصرّف فيه كيف يشاء وهو اللّه ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ لدلالات للعقلاء. ﴿وَمَا ذَرَأَ﴾ وخلق ﴿لَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ لقوام أبدانكم من المطاعم والملابس والمناكح من الحيوان والنبات والمعادن ﴿مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ وأشكاله لا يشبه بعضها بعضاً فيها دلالات للمتذكّرين والمتدبّرين. واختلاف الألوان دليل قاهر على أنّ المؤثّر غير الطبيعة لأنّ الطبيعة الواحدة في المادّة الواحدة يجب أن يكون متشابهاً ومتشاكلا مثلاً إذا وضعت الشمعة فإذا استضاء ذراع من جوانب الشمع وجب أن يكون الضوء في هذا الذراع متساوياً ولا يمكن أن يكون الضوء مختلقا في الفضاء من الذراع بحسب النور.

إذا ثبت هذا فنقول: إنّ نسبة الشمس والقمر والأنجم والأفلاك والطبائع بالنسبة إلى ورقة لطيفة من الورد نسبة واحدة ومتى كانت نسبة المؤثّر واحدة لابدّ وأن يكون الأثر متشابهاً ونحن نرى أنّ الأثر غير متشابه فنصفه في غاية السواد ونصفه في غاية البياض فاختلاف الأثر دليل قاهر على أنّ الطبيعة

بنفسها ليست مؤثّرة بل هي أيضاً متأثرة والمؤثر غيرها وهو اللّه.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ
حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن
فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ
بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ
يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟
نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾

ثمّ عدّد نوعاً آخر من النعم فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ﴾ وإنّما عبّر بالتسخير لأنّه تعالى لمّا دبّر الأمور على طريقة مطابقة لمصالح العباد صارت شبيهة بالعبد المنقاد المطاع فلذا أطلق على هذا النوع من التدبير لفظ التسخير.

واعلم أنّ علماء الهيئة قالوا: ثلاثة أرباع الأرض غائصة في الماء وذاك هو المحيط وهو كلّيّة عنصر الماء وحصل في هذا الربع المسكون سبعة من البحار كما قال سبحانه: ﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾[١] والبحر الّذي سخّره اللّه تعالى للناس هو هذه البحار السبعة ومعنى التسخير جعلها بحيث يتمكّن الإنسان من الانتفاع بها إمّا بالركوب أو بالغوص، ومنافع البحر كثيرة لكن ذكر سبحانه ثلاثة أنواع في الآية: الأوّل: ﴿لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ وهو السمك مع أنّه خرج من البحر الملح الزعاق[٢] مثل هذا الحيوان الّذي لحمه في غاية العذوبة فعلم أنّه إنّما حدث لا بحسب الطبيعة بل بقدرة اللّه حيث أظهر الضدّ من الضدّ. والثاني: من منافع البحر قوله: ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا۟

١ـ سورة لقمان: ٢٧.

٢ـ ما كثر ملحه.

﴿مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ والمراد اللؤلؤ والمرجان وتزيّنون بها. المنفعة الثالثة: ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ مخر السفينة شقّ الماء بصدرها قال ابن عبّاس،: مواخر أي: جواري لتركبوها للتجارة فتطلبوا الربح من فضل الله بسفر البحر وتحصيل التجارة فيه فلعلّكم إذا وجدتم فضل الله وإحسانه تقدمون بالشكر له.

﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ أي: جبال عاليات ثابتات لئلاّ تميد وتتحرّك وتضطرب وجعل فيها أنهاراً وطرقا لكم. ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ كقوله: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا﴾[١] أي: كراهة أن تضلّوا ومعنى الإلقاء الجعل والخلق كقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾[٢] وجعل في الأرض ﴿سُبُلًا﴾ وطرقا لكي تهتدوا وأظهر فيها |علامات| حتّى يتمكّن الإنسان من الاستدلال بها فيصل بواسطتها إلى مقصوده، وهذه العلامات هي الجبال والرياح حتّى قيل: إنّ جماعة كانوا يشمّون التراب ويتعرّفون الطرق.

﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ وقرئ بضمّتين والمراد بالنجم، قيل: المراد بالنجم الثريّا والفرقدان وبنات النعش والجدي. قال ابن عبّاس: سألت رسول الله عن النجم فقال: «**الجدي علامة قبلتكم وبه تهتدون في برّكم وبحركم**»[٣]. وقال أبو عبد الله: «**نحن العلامات والنجم رسول الله**»[٤]. وقال: «**إنّ الله جعل النجوم أماناً لأهل السماء وجعل أهل بيتي أماناً لأهل الأرض**»[٥].

﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ لمّا ذكر الدلائل على وجود القادر وشرح

١ـ سورة النساء: ١٧٦.

٢ـ سورة طه: ٣٩.

٣ـ تفسير مجمع البيان، ج٦، ص١٤٦؛ وبحار الأنوار، ج٢٤، ص٦٧.

٤ـ الكافي، ج١، ص٢٠٧؛ وتفسير العياشي، ج٢، ص٢٥٦؛ وشواهدالتنزيل، الحسكاني، ج١، ص٤٢٦.

٥ـ مجمع البيان، ج٦، ص١٤٦؛ شواهدالتنزيل، الحسكاني، ج١، ص٤٢٦.

أنواع النعم أتبعه بذكر إبطال عبادة غيره وكيف يحسن في العقول الاشتغال بعبادة ما سواه؟ فقال: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ ولا يقدر؟ أفلا تنبّهون وتلتفتون! ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ﴾ أي: إنّكم لا تعرفونها على سبيل التمام والكمال، وإذا لم تعرفوها امتنع منكم الشكر كاملاً ولذلك قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ﴾ للتقصير الصادر عنكم في القيام بالشكر و﴿رَّحِيمٌ﴾ بكم حيث لم يقطع نعمه عنكم بسبب تقصيركم.

وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾

لمّا تقدّم سبحانه الدعاء إلى عبادته بذكر نعمه عقّبه بذكر علمه بسريرة كلّ أحد وعلانيته وذكر بطلان الإشراك في عبادته فقال: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ﴾ وما تظهرونه فيجازيكم على أفعالكم. ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ غيره، المراد به الأصنام الّتي لا يمكنها خلق شيء بل هي مخلوقة منحوتة من الحجر والخشب ونحوهما، ثمّ قال: هي ﴿أَمْوَاتٌ﴾ ثمّ أكّد بقوله: ﴿غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ ونفى الحياة عنها على الإطلاق فإنّ من الأموات من سبقت له الحياة أو من الأشياء ما له حالة منتظرة في الحياة بخلاف الأصنام فإنّه ليس له حياة سابقة ولا منتظرة. وقيل: إنّ المراد إنّ الّذين يعبدون الأصنام أموات وفي حكم الكفّار لذهابهم عن الدين والحياة الأبديّة.

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ قيل: المراد الكفّار لا يعلمون متى يبعثون. وقيل: المراد الأصنام. والضمير في ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ عائد إلى

الأصنام، والضمير في «يبعثون» إلى الكفّار يعني: أنّ الأصنام لا يشعرون متى تبعث عبدتهم ولا تعلم وقت بعث عبدتهم، فكيف يكون لهم وقت جزاء منهم على عبدتهم؟ وقيل: إنّ ناساً كانوا يعبدون الملائكة فقال الله: إنّهم أموات أي: سيموتون وغير باقية حياتهم وما يشعرون الملائكة متى يبعثون ولا علم لهم بموتهم وبعثهم.

ثمّ قرّر بأنّ ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أي: الّذين يؤمنون بالآخرة يرغبون في الفوز بالثواب الدائم ويخافون الوقوع في العذاب الدائم إذا سمعوا الدلائل والترغيب والترهيب، وأمّا الّذين لا يؤمنون بالآخرة وينكرونها فيبقون منكرين لكلّ كلامٍ يسمعونها ويخالف قولهم ويستكبرون عن الرجوع من كفرهم فلا ﴿جَرَمَ﴾ وهذه الكلمة بمنزلة اليمين أي: حقّاً. ومعنى الجرم الكسب يعني: لا يحتاج علم هذا الأمر إلى اكتساب علم، بل هو معلوم ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ﴾ سرّهم وعلنهم وإنّه لا يحبّ الّذين يأنفون أن يكونوا أتباعاً للأنبياء ويتكبّرون.

وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوا
أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا
سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم
مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ
لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ
كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى
الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا
نَعْمَلُ مِن سُوءٍ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ٢٩﴾

﴿وَإِذَا قِيلَ﴾ لمشركي قريش ﴿مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ﴾ على محمّد؟ أجابوا هذا المنزل في زعمكم هو عندنا أحاديث الأوّلين الكاذبين، وروي أنّها نزلت في المقتسمين[1] إذا سألهم الناس عمّا أنزل اللّه على رسول اللّه ﴿قَالُوٓاْ﴾ أحاديث ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ ليصدّون الناس عن رسول اللّه، على كلّ عقبة على طريق مكّة أيام الحجّ أربعة منهم.

﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ﴾ واللام للعاقبة أي: كان عاقبة أمرهم حين فعلوا ذلك أن حملوا أوزار كفرهم تامّة ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍ﴾ أي: يحملون بعض أوزار الّذين أضلّوهم عن الحقّ وأغووهم وهو وزر الإضلال، ولم يحملوا وزر غوايتهم وضلالهم وعلى هذا ما روي عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «**أيّما داع دعى إلى الهدى فاتّبع فله مثل أجورهم من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً وأيّما داع دعى إلى ضلالة فاتّبع عليه فإنّ عليه مثل أوزار من اتّبعه من غير أن ينقص من أوزارهم**»[2] شيئاً ﴿أَلَا سَآءَ﴾ أي: بئس الوزر والحمل حملهم. ﴿قَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ﴾ قبل هؤلاء المشركين بأنبيائهم من جهة التكذيب. ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم﴾ أمر اللّه الّتي بنوها من أطراف قواعد بنيانهم فهدمها، عن ابن عبّاس: المراد منهم نمرود بن كنعان، بنى صرحاً عظيماً ببابل طوله خمسة آلاف ذراع ـ وقيل: فرسخان ـ ورام منه الصعود إلى السماء ليقاتل أهلها فأرسل اللّه ريحاً فألقت رأس الصرح في البحر وخرّ عليهم الباقي، هو[1] البناء الّذي بناه بخت نصّر. وقيل: هو مثل لبناء الكفر. فحينئذ

١ـ مجمع البيان، ج٦، ص١٥٠؛ وموسوعة التاريخ الإسلامي، ج١، ص٦١٤.

٢ـ مستدرك الوسائل، ج١٢، ص٢٣٠؛ والتبيان، ج٦، ص٣٧٢.

١ـ كذا في الأصل.

المعنى: عاد ضرر الكفر على الكافرين.

﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ﴾ وإنّما قال: ﴿مِن فَوْقِهِمْ﴾ مع أنّ السقف لا يكون إلّا من فوق لأحد وجوه: منها أنّه للتوكيد كقولهم: «مشيت برجلي» ومنها أنّما قال ذلك ليدلّ على أنّهم كانوا تحتهم ﴿وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: جاءهم عذاب الاستئصال من حيث لا يعلمون ولا يتوقّعون العذاب. ﴿ثُمَّ﴾ مع ذلك ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ ويفضحهم يوم القيامة ﴿وَيَقُولُ﴾ الله ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ في زعمكم واعتقادكم ﴿تُشَٰٓقُّونَ﴾ وتعادّون المؤمنين أو تعادّوني وتشاركونهم معي.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ بالله وبدينه من المؤمنين ـ وقيل: هم الملائكة ـ: ﴿إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ والجاحدين لنعم الله ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: يقبض ملك الموت وأعوانه أرواحهم ففارقوا الدنيا وهم ظالمون لأنفسهم ﴿فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ﴾ أي: استسلموا وانقادوا حين لا ينفعهم الانقياد ويقولون عند الموت أو عند القيامة: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ﴾ من شرك، والمراد بالسوء الشرك فقالت الملائكة ردّاً عليهم.

ثمّ اختلفوا فالّذين جوّزوا الكذب على أهل القيامة قالوا: هذا القول منهم على سبيل الكذب لغاية الخوف. والّذين لا يجوّزون الكذب قالوا: معنى ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ﴾ باعتقادنا وعند أنفسنا.

فردّ عليهم ﴿بَلَىٰٓ﴾ عملتم السوء والشرك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بعملكم ﴿فَٱدْخُلُوٓاْ﴾ طبقات ﴿جَهَنَّمَ﴾ ودركاتها حال كونكم مؤبّدين فيها ﴿فَلَبِئْسَ﴾ المثوى ﴿مَثْوَى﴾ المتعظّم عن قبول الحقّ، واللام للتأكيد.

وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ

يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾

لمّا ذكر حال الكافرين وأقوالهم عقّبه بذكر أقوال المؤمنين فقال: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ الشرك والمعاصي وهم المؤمنون ﴿مَاذَآ﴾ أي: أيّ شيء ﴿أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟﴾: أنزل الله ﴿خَيْرًا﴾ لأنّ القرآن كلّه هدى وشفاء وخير. قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟﴾ يجوز أن يكون هذه جملة مستأنفة ابتداء كلام من الله للمحسنين ﴿فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا﴾ حسنة ومكافأة لهم، وهي الثناء والمدح على ألسنة المؤمنين والتوفيق للإحسان.

﴿وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: وما يصل إليهم من ثواب الآخرة ﴿خَيْرٌ﴾ ممّا يصل إليهم في الدنيا، ويجوز أن يكون من كلام المتّقين ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي: والآخرة نعم دار المتّقين الّذين اتّقوا عقاب الله.

والظاهر أنّ هذا الكلام كان في أيّام الموسم يأتي الرجل مكّة فيسأل من المشركين عن محمّد ﷺ وأمره فيقولون: إنّه ساحر وكاهن وكذّاب. ويأتي المؤمنين ويسألهم عن محمّد ﷺ وما أنزل الله عليه فيقولون: خيراً. وقيل: المراد ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ المراد الدار الدنيا للمتّقين لأنّهم نالوا فيها الثواب الجزيل والجزاء الحسن.

وقيل: المعنى: ولنعم دار المتّقين ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ عدن دائم يدخلونها ﴿تَجْرِى مِن﴾ تحت الجنات ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾

ويشتهون من النعم ﴿كَذَٰلِكَ﴾ يجازي الله الّذين اتّقوا الشرك والمعاصي وهم ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ الأعمال صالحين طاهرين القلوب من دنس المعاصي طيّبة نفوسهم لعلمهم بمالهم عند اللّه من الثواب يقول الملائكة لهم: سلامة لكم من كلّ سوء ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ أي: حصلت لكم الجنّة، وقيل: إنّما يقولون ذلك عند خروجهم عن قبورهم. ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ أي: إنّ هؤلاء المكذّبين بنبوّتك، ولا يزجرون عن الكفر ولا يقبلون القرآن ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ يشهدون على صدق نبوّتك أو يأتيهم عذاب الاستئصال ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ﴾ القوم ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ بالأنبياء فأصابهم العذاب المعجّل. ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن﴾ هم ظلموا أنفسهم واستوجبوا ما نزل بهم ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ﴾ أعمالهم ﴿وَحَاقَ﴾ ونزل بهم على وجه الإحاطة بجوانبهم عقاب استهزائهم.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ مع الله إلها آخر ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ وأراد ﴿مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ﴾ شيئاً من الأصنام والأوثان ﴿نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ الّذين اقتدينا بهم كما تقوله الجبريّة ﴿وَلَآ

﴿ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ﴾ من البحيرة والسائبة وغيرهما بل شاء منّا ذلك.

فأنكر الله سبحانه هذا القول عليهم وقال: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الكفّار كذّبوا رسل الله وقالوا مثل قولهم وفعلوا مثل فعلهم ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ الظاهر، وهذا الإنكار من الله ردّ صريح على مذهب الجبريّة حيث وبّخهم على هذا القول.

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ﴾ جماعة وقرن ﴿رَّسُولًا﴾ كما بعثناك ليقول الرسول لهم ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ ويعني: بالطاغوت الشيطان وكلّ داع إلى الضلالة ﴿فَمِنْهُم مَّنْ﴾ هداه ﴿ٱللَّهُ﴾ بأن لطف له بما علم أنّه يؤمن عنده فآمن فسمّي ذلك اللطف هداية، ويجوز أن يريد: فمنهم من هداه الله إلى الجنّة بإيمانه. ولا يجوز أن يكون المعنى[1]. ويريد بالهداية هنا نصب الأدلّة كما في قوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾[2] لأنّه سبحانه سوّى في ذلك بين المؤمن والكافر وسوّى التوفيق بين الضعيف والشريف.

﴿وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ أي: ومنهم من أعرض عمّا دعا إليه الرسول فخذله الله فثبت عليه الضلالة ولزمته فلا يؤمن ووجبت عليه الضلالة وهي العذاب، وقد سمّى الله العقاب ضلالاً بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾[3].

﴿فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ الذين عاقبهم الله إن لم تصدّقوني وانظروا كيف صارت عاقبتهم.

﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ﴾ أي: على أن يؤمنوا ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾ هذا تسلية للنبيّ في دعائه لمن لا يفلح بالإجابة لانهماكه في الكفر.

١ـ كذا في الأصل.

٢ـ سورة السجدة: ١٧.

٣ـ سورة القمر: ٤٧.

وفي هذا البيان إعلام للنبيّ بأنّهم لا يؤمنون أبداً وإذا كان الأمر كذلك فإنّ الله لا يهديهم بل يضلّهم على المعنى الّذي فسّرناه أي: يعاقبهم، وليس المراد ما فسّره أهل الجبر.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾

سبب النزول: قالوا: كان لرجل من المسلمين على مشرك دين فتقاضاه فوقع في كلامه: والّذي أرجوه بعد الموت إنّه لكذا. فقال المشرك: وإنّك لتزعم أنّك تبعث بعد الموت واقسم بالله ﴿لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ فأنزل الله الآية، عن أبي العالية. أي: حلفوا بالله مجتهدين في أيمانهم وبلغوا في القسم كلّ مبلغ ﴿لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ ولا يحشرهم يوم القيامة ولا يحيي من يموت بعد موته.

فكذّبهم الله بقوله: ﴿بَلَىٰ﴾ يحشرهم الله وعدهم به وعليه سبحانه إنجازه وتحقيقه ﴿حَقًّا﴾ ذلك الوعد ليس فيه خلف إذ لو لا البعث لما حسن التكليف لأنّ التكليف إنّما يحسن لإثابة أو لعقوبة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ صحّة ذلك ووجه الحكمة فيه لأنّ الله إنّما يحشر الخلائق ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ﴾ الحقّ فيما كانوا فيه يختلفون ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ في الدنيا.

وإنّما أنكروا البعث بزعمهم يدّعون بالعلم الضروريّ بأنّ الشيء إذا فني وصار عدما محضاً ونفيا صرفا فإنّه بعد العدم لا يعود بعينه بل العائد يكون شيئاً آخر، والحال في أمر القدرة أنّ البنية ليست شرطاً في الإيجاد وأنّه

تعالى كونه موجداً للأشياء ومكوّنا لها لا يتوقّف على سبق مادّة ولا مدّة ولا آلة وإنّما يكوّنها بمحض مشيئته وقدرته فقال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن﴾ يكون ﴿نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ ولا يتعذّر عليه سبحانه شيء. ولو قال قائل: إنّ قوله: ﴿كُن﴾ إن كان خطابا مع المعدوم فهو محال وإن كان خطابا مع الموجود كان أمراً بتحصيل الحاصل.

فالجواب أنّ هذا تمثيل لنفي الكلام من تعقّلاتهم وليس خطابا للمعدوم لأنّ ما أراد الله كائن، والغرض من الإيجاد الإسراع بالإرادة كقوله: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾[1].

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾

نزلت الآية الأولى في المعذّبين بمكّة مثل صهيب وعمّار وبلال وخباب وغيرهم مكّنهم الله بالمدينة، وذكر أنّ صهيبا قال لأهل مكّة: أنا رجل كبير إن كنت معكم لم ينفعكم وإن كنت عليكم لم يضرّكم فخذوا مالي ودعوني فأعطاهم ماله وسار إلى رسول الله فقال له بعض أصحاب النبيّ: ربح البيع يا صهيب.

المعنى: ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ فارقوا أوطانهم وديارهم فراراً بدينهم واتّباعا لنبيّهم في سبيله ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا﴾ ظلمهم المشركون وعذّبهم الكافرون وبخسوا

١ـ سورة القمر: ٥٠.

حقوقهم ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ﴾ وننزلنّهم بلدة ﴿حَسَنَةً﴾ بدل أوطانهم وهي المدينة أو لنعطينّهم حالة حسنة ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ ممّا أعطيناهم في الدنيا. وهذا صهيب هو الّذي قال عمر في حقّه: نعم الرجل صهيب لو لم يخف اللّه لم يعصه. وهو ثناء عظيم يريد: لو لم يخلق اللّه النار لأطاعه وما خالفه. والضمير في قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ﴾ عائد إلى الكفّار أو المستضعفين أو المهاجرين.

﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ بدل من قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟﴾ أي: صبروا على الشدائد في طاعة اللّه وتوكّلوا في أمورهم على اللّه.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾ من الأمم الماضية ﴿إِلَّا رِجَالًا﴾ من البشر، وذلك أنّ مشركي قريش كانوا ينكرون أن يرسل إليهم بشر مثله فبيّن اللّه سبحانه أنّه لا يصلح من يكون رسولاً إلّا وأن يكون من جنسهم حتّى يخاطبهم ويخاطبونه ويباشرون ويعاشرون معه. ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ وفي أهل الذكر أقوال:

أحدها: أنّ المقصود بأهل العلم العلماء بأخبار من مضى من الأمم سواء كانوا مؤمنين أو كافرين، وسمّي العلم ذكراً لأنّ الذكر هو ضدّ السهو فهو بمنزلة السبب المؤدّي إلى العلم فحسن أن يقع موقعه.

وثانيها: أنّ المراد بأهل الذكر أهل الكتاب ويخاطب مشركي قريش وأنّهم كانوا يصدّقون أخبار اليهود والنصارى من كتبهم.

وثالثها: أنّ المراد بأهل الذكر أهل القرآن لأنّ الذكر هو القرآن، ويقرب منه ما رواه جابر ومحمّد بن مسلم عن أبي جعفر أنّه قال: «**نحن أهل الذكر**»[1]، وقد سمّى اللّه رسوله ذكراً في قوله: ﴿ذِكْرًا * رَّسُولًا﴾[2].

١ـ بصائر الدرجات، ص٥٨؛ والكافي، ج١، ص٢١٠؛ والتوحيد، للصدوق، ص٣٢٠.

٢ـ سورة الطلاق: ١٠ـ١١.

واحتجّ نفاة القياس بهذه الآية فقالوا: المكلّف إذا نزلت به واقعة فإن كان عالماً بحكمها لم يجز له القياس وإن لم يكن عالماً بحكمها وجب عليه سؤال من كان عالماً بها لظاهر هذه الآية، ولو كان القياس حجّة لما وجب عليه سؤال العالم لأجل أنّه يمكنه استنباط الحكم بواسطة القياس فتجويز العمل بالقياس يوجب ترك العمل بظاهر هذه الآية، فوجب أن لا يجوز.

وأجاب مثبتوا القياس كالرازيّ بأنّ جواز العمل بالقياس بإجماع الصحابة والإجماع أقوى.

﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ﴾ متعلّق بأرسلنا أي: أرسلنا الرسل. وأرسلناك بالبشرى والكتب، أو أرسلناهم بالبيّنات والكتب ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ القرآن ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ من الأحكام والدلائل على توحيد الله والشرائع ﴿وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ بالنظر المؤدي إلى المعرفة.

أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ
مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ (٤٥) أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ (٤٦)
أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ (٤٧) أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ
ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدٗا لِّلَّهِ وَهُمۡ دَٰخِرُونَ (٤٨)
وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمۡ لَا
يَسۡتَكۡبِرُونَ (٤٩) يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ۩ (٥٠)

المكر عبارة عن السعي بالفساد على سبيل الإخفاء، والتقدير في الآية: المكرات السيّئات. والمراد الّذين كانوا يسعون في إيذاء رسول الله ﷺ على سبيل الخفية فهدّدهم الله بأمور أربعة:

الأوّل: ﴿أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ كما خسف بقارون.

والثاني: أن ﴿يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ويفجؤهم بغتة كما فعل بقوم لوط.

والثالث: أن ﴿يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ﴾ في أسفارهم ويهلكهم وهم لا يعجزون الله بسبب ضربهم في البلاد البعيدة بل يدركهم حيث كانوا أو يأخذهم بالليل والنهار في إقبالهم وإدبارهم وذهابهم ومجيئهم.

والرابع: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ وقرئ بالحاء المهملة من الحافة إذا تنقّصته من حافاته.

﴿عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ أي: يعذّب أهل قرية ويخوّف به أهل قرية أخرى فيخافون أن ينزل بهم العذاب كما نزل بتلك أو بأن ينقص من أموالهم وأنفسهم بالبلايا والأسقام إن لم يعذّبهم بعذاب الاستئصال. وإنّما أمهلكم لتتوبوا وترجعوا ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ﴾ بكم و﴿رَّحِيمٌ﴾ عليكم. ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ وينظروا هؤلاء الكفّار الّذين جحدوا وحدانيّة الله وكذّبوا نبيّه ﴿إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ له ظلّ من شجر وجبل وبناء وجسم فإذا يتميّل ﴿ظِلَـٰلُهُۥ عَنِ﴾ جانب ﴿ٱلْيَمِينِ﴾ وجانب اليسار كالشمس مثلاً إذا طلعت وأنت متوجّه إلى القبلة كان الظلال قدامك وإذا ارتفعت الشمس كان الظلال عن يمينك فإذا كان بعد ذلك كان خلفك فإذا كان قبل أن تغرب الشمس كان عن يسارك فهذا تفيّؤ الشيء، ومعنى سجود الظلّ دورانه من جانب إلى جانب لانقياده بالتسخير ﴿وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾ ومسخّرون وذليلون.

فإن قيل: الظلال ليست من العقلاء فكيف جاز جمعها بالواو والنون؟ لأنّه لمّا وصفهم بالانقياد والطاعة أشبهوا العقلاء.

والسجود على قسمين: سجود على سبيل الحقيقة كسجود المسلمين لله تعالى، وسجود هؤلاء عبارة عن الانقياد ويرجع حاصل هذا السجود إلى

أنها تذلّ بانقيادها بأنّها ممكنة الوجود والعدم قابلة لهما وأنّه لا يترجّح أحد الطرفين إلّا لمرجّح. وبالجملة فمن الناس من قال: المراد بالسجود المذكور في الآية السجود بمعنى الانقياد والتواضع والدليل عليه أنّ اللائق بالدابّة ليس إلّا هذا السجود. ومنهم من قال: المراد بالسجود هو المعنى الحقيقيّ، أو يكون السجود في حقّ الملائكة والمسلمين على سبيل الحقيقة وفي الباقي بمعنى الانقياد الحقيقيّ، وقد صحّ عن النبيّ ﷺ أنه قال: «**إنّ لله تعالى ملائكة في السماء السابعة سجودا منذ خلقهم الله إلى يوم القيامة يرعد فرائصهم من مخافة الله لا تقطر من دموعهم قطرة إلّا صارت ملكاً فإذا كان يوم القيامة رفعوا رؤوسهم وقالوا: ما عبدناك حقّ عبادتك**».[1]

﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٥١) وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ (٥٢) وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (٥٣) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٥٤) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٥٥)﴾

لمّا بيّن في الآية الأولى أنّ كلّ ما سوى الله سواء كان من عالم الأرواح أو من عالم الأجسام منقاد خاضع لجلال الله أتبعه في هذه الآية بالنهي عن الشرك بقوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ أي: لا تعبدوا مع الله إلها آخر فتشركوا بالعبادة بينهما وذكر اثنين ـ كما يقال: فعلت ذلك الأمرين اثنين ـ للتأكيد ﴿فَإِيَّايَ﴾ فارهبوا عقابي وسطواتي ولا تخشوا غيري، وهذا رجوع من الغيبة إلى الحضور للالتفات، ويفيد الكلام الحصر لأنّ الموجود إمّا قديم وإمّا

١ـ بحار الأنوار، ج٦٧، ص٣٣٨؛ ومجمع البيان، ج٦، ص١٦٤؛ وتفسير الصافي، ج٣، ص١٣٩.

محدث فالقديم هو الإله فهو واحداً فما سواه محدث، وحدث بتخليق ذلك القديم وإذا كان كذلك فلا رغبة إلّا إليه ولا رهبة إلّا منه.

ثمّ قال: وبتخليقه خلقت السماوات والأرض وله الطاعة دائمة واجبة على الدوام أي: إنّه يعبد دائماً وغيره إنّما يعبد في وقت دون وقت. وقيل: معنى «واصبا» أي: خالصاً ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ﴾ تخشون؟ استفهام بمعنى التوبيخ أي: كيف تعبدون غيره ولا تتّقونه؟

﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ﴾ ولكم من الصحّة والرزق فكلّ من جهة اللّه ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ﴾ من المرض والبلاء وسوء الحال ﴿فَإِلَيْهِ﴾ تتضرّعون وتستغيثون لصرفه ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ﴾ ورفع ما حلّ بكم من الضرّ والشدّة عاد طائفة منكم إلى الشرك بربّهم في العبادة جهلاً منهم، ويقابلون النعمة بالكفران، وهذا عجب من فعل العاقل المميّز.

﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ قيل: إنّ اللام للعاقبة أي: آل أمرهم في مقابلة إنعامنا عليهم إلى الكفر. وقيل: اللام للأمر على وجه التهديد أي: ليفعلوا ما شاؤوا فإنّ اللّه يجازيهم جزاءهم وتمتّعوا أيها الكفّار في الدنيا قليلاً ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ما يحلّ بكم في العاقبة من العقاب وأليم العذاب.

وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾
وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ
ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ
عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ
مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾

ثمّ ذكر سبحانه فعلاً آخر من أفعال المشركين فقال: ﴿وَيَجْعَلُونَ﴾ المشركون ﴿لِمَا لَا يَعْلَمُونَ﴾ ولا يفهمون ولا يضرّون ولا ينفعون ﴿نَصِيبًا﴾

من أموالهم من الحرث والزرع وغيره بقولهم: هذا لله وهذا لشركائهم، وربّما اعتقدوا في بعض الأشياء أنّه إنّما حصل بإعانة بعض الأصنام كما أنّ المنجّمين يوزّعون موجودات هذا العالم على الكواكب السبعة فيقولون بزعمهم: لزحل كذا من المعادن والنبات، وللمشتري كذا، فكذا هاهنا.

فأقسم الله سبحانه بنفسه أنه يسألهم، وهذا تهديد شديد. قيل: هذا السؤال يقع عند الموت ومعاينة ملائكة العذاب. وقيل: عند عذاب القبر. وقيل: في الآخرة.

ومن كلماتهم الفاسدة أنّهم ﴿يَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ﴾ وهم خزاعة وكنانة الّذين يقولون: الملائكة بنات الله. ويضيفون إليه ما يكرهونه ويجعلون لأنفسهم ما يحبّونه ويشتهونه لأنّهم كانوا يكرهون البنات ويحبّون البنين، فنزّه نفسه عن هذه المقالة. وإنّما أطلقوا لفظ البنات على الملائكة لأنّهم لمّا كانوا مستورين عن العيون أشبهوا النساء في الاستتار، كما أنّ قرص الشمس يجري مجرى المستتر عن العيون بسبب ضوئه الباهر فأطلقوا عليه لفظ التأنيث.

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم﴾ بأنه قد ولد لهم بنت ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ﴾ أي: صار وجهه متغيراً إلى السواد لما يظهر فيه أثر الكراهة والكآبة وهو ممتلئ غيظاً وكراهة، والكظيم المغموم الّذي يطبق فاه لا يتكلّم من الغيظ والحزن، مأخوذ ممّا يشدّ به فم القربة.

﴿يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ﴾ أي: يستخفي من القوم الّذين يستخبرونه عمّا ولد له استنكافاً منه وخجلا وحياء ﴿مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ﴾ من الأنثى، وقبحه عنده وبنظره يميل نفسه ويتدبّر في أمر البنت المولود له أيمسك المولود على ذلّ وتحمّل العار؟ أم يخفيه في التراب ويدفنه حياً؟ وهو الوئد الّذي كان من عادتهم دفنه ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ في ارتكاب هذا الأمر الشنيع وكانوا

يفعلون هذا الفعل خوفاً من الفقر وخوفا من لحوق العار.

وكان الرجل في الجاهليّة إذا ظهر آثار الطلق بامرأته اختفى من القوم إلى أن يعلم ما يولد له، فإن كان ذكراً انبسط روح قلبه ووصل إلى الأطراف لا سيّما الوجه فأشرق الوجه وتلألأ واستنار وظهر الفرح في بشرته من تلك البشارة، وإن كان أنثى احتبس الروح في باطن القلب فاغبرّ واسودّ وجهه وبشرته وكمد.

وروي أنّ قيس بن عاصم قال: يا رسول الله إنّي واريت ثماني بنات في الجاهليّة، فقال صلى الله عليه وآله: **«أعتق عن كلّ واحدة منهنّ رقبة»**[1]. وقال صلى الله عليه وآله: **«ما كان في الجاهليّة فقد هدمه الإسلام وما في الإسلام يهدمه الاستغفار»**. وكانوا مختلفين في قتل البنات: فمنهم من يحفر الحفيرة ويدفنها حياً فيها إلى أن تموت، ومنهم من يرميها من شاهق جبل، ومنهم من يغرقها، ومنهم من يذبحها فبئس الحكم حكمهم.

ثمّ قال سبحانه: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ أي: إنّ لهؤلاء الكفّار الّذين وصفهم الله ﴿مَثَلُ ٱلسَّوْءِ﴾ وهي الصفة القبيحة كسواد الوجه والحزن والجهل والاحتياج والخوف من الفقر ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ والصفة الحسنة من السلطنة والقدرة والاستغناء عن الولد والصاحبة.

فلو قيل: كيف يمكن الجمع بين قوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ وقوله: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾؟[1] الجواب أنّ المراد بالأمثال الأشباه أي: لا تشبّهوا الله بشيء، والمراد بالمثل الأعلى الوصف الأعلى وهو كونه قادراً عالماً حياً قيوّماً وأمثاله، وهو الغالب المقتدر على حكمه.

١ـ التبيان، ج ١٠، ص ٢٨٢؛ ومجمع البيان، ج ١٠، ص ٢٧٥.

١ـ سورة النحل: ٧٤.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾﴾

احتجّ الطاعنون بعصمة الأنبياء بقوله: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم﴾ فأضاف الظلم إلى كلّ الناس ولا شكّ أنّ الظلم من المعاصي وهذا يقتضي كون كلّ إنسان آتياً بالذنب والمعصية.

والجواب أنّه ثبت بالدليل والنصّ أنّ كلّ الناس ليسوا ظالمين لأنّه تعالى قال: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ﴾[1] ولو كان المقتصد والسابق ظالماً لفسد ذلك التقسيم، فعلم أنّ المقتصدين والسابقين ليسوا ظالمين. ولا يجوز أن يقال: كلّ الخلق ظالمون.

وبالجملة المعنى: أخبر سبحانه أنّه لو كان يؤاخذ الكفّار والعصاة ويعاجلهم بالعقوبة لما ترك على ظهر الأرض من الظالمين من أحد ولكن يمهلهم ويؤخّرهم إلى وقت معلوم مسمّى وهو يوم القيامة أو وقت لا يكون في بقائهم مصلحة كما إذا كان يعرف أنّهم لا يؤمنون ولا يخرج من نسلهم مؤمن، وإنّما يؤخّرهم

١ـ سورة فاطر: ٣٢.

تفضّلاً منه سبحانه ليراجعوا التوبة أو لما في ذلك من المصلحة.

قالت المعتزلة: إنّ الآية صريحة على أنّ الظلم والمعاصي ليست فعلاً للّه بل يكون أفعال العباد لأنّه تعالى أضاف ظلم العباد إليهم وما أضافه إلى نفسه فلو كان خلقاً للّه لكانت مؤاخذتهم لها ظلماً من اللّه تعالى، ولمّا منع اللّه الظلم عن العباد فبأن يكون سبحانه منزّهاً عن الظلم أولى.

ويدلّ أيضاً دليل آخر على هذا المعنى وهو أنّ أعمالهم مؤثّرة في وجوب الثواب والعقاب.

وهاهنا مسألة: وهي أنّ الّذي معلوم من حاله أنّه لا يؤمن فيما بعد هل يجوز اخترامه[1] أو لا؟ فقال بعض: يجوز لأنّ التكليف تفضّل فلا تجب التبقية، وهو قول أبي هاشم وإليه ذهب المرتضى قدّس روحه. وقال آخرون: لا يجوز اخترامه ويجب تبقيته، وهو قول البلخيّ وأبي عليّ الجبّائيّ وإليه ذهب الشيخ المفيد أبو عبد اللّه.

فلو قيل: إنّ الظالم يستحقّ العقوبة بظلمه فما بال الحيوانات تؤخذ بغير جرم كزمان نوح مثلاً؟ لأنّ الظالم يظلم نفسه وغيره حتّى أنّ الحبارى تهلك فيه أو كارها بظلم الظالم.

فالجواب أنّه لها كالأمراض النازلة بالأولياء وغير المكلّفين فيعوّضون عنها، ثمّ إنّها خلقت للمكلّفين فإذا هلك المكلّف فلا فائدة في بقائها بعدهم.

﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ سبق معناه كراراً. ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ حكى عن الكفّار أنّهم يجعلون ما يكرهون لأنفسهم للّه أي: البنات الّتي يكرهونها يصفون اللّه بذلك ويحكمون به له ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ﴾ وهو ما يقولون: ﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: لهم البنون، وقيل: معناه أنّهم مع

١ـ الاخترام: الإهلاك.

قبح قولهم يزعمون أنّهم فازوا برضوان الله بسبب هذا القول القبيح وأنّهم يعتقدون بأنّهم على الدين الحقّ والمذهب الحسن ويحكمون لأنفسهم بالجنّة والثواب من الله.

فإن قيل: كيف يحكمون بهذا الحكم وهم كانوا منكرين للقيامة والحشر؟

قلنا: كلّهم ما كانوا منكرين للقيامة وكان في العرب جمع يقرّون بالبعث، وكذلك كانوا يربطون البعير النفيس والفرس الجواد على قبر الميّت ويتركونه إلى أن يموت ويقولون: إنّه يحشر فيكون معه مركوبه. وكان بعضهم يقول: إن كان محمّد صادقاً فيما يقول من أمر البعث والآخرة فنحن أهل الجنّة. وهذا القول منهم كذب ألسنتهم.

وقرئ «الكذب» بضمّ الذال والباء على معنى الصفة للألسنة جمع كاذب.

فردّ سبحانه قولهم. فقال: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ أي: ليس الأمر على ما وصفوا وكسب فعلهم وقولهم حقّاً أنّ لهم النار أو لابدّ أنّ لهم النار ﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ قرئ بصيغة الفاعل أي: إنّهم مفرطون على أنفسهم بالذنوب والافتراء على الله، أو المعنى أي: صاروا ذوي فرط وسبقة وعجلة إلى النار، كأنّهم أرسلوا من يهيّئ مواضع في النار. وأمّا بصيغة المفعول المعنى أنّهم متروكون في النار قال الكسائيّ: ما أفرطت أي: ما تركت أو مفرطون أي: معجّلون.

ثمّ أقسم سبحانه بأنّ هذا الصنع الّذي يصدر من مشركي قريش قد صدر عن سائر الأمم قبلك ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ تسويلاتهم وكفرهم ﴿فَهُوَ﴾ أي: الشيطان ﴿وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ في الدنيا ويتّبعون إغواءه فأمّا يوم القيامة فيتبرأ بعضهم من بعض. وقيل: المراد باليوم يوم القيامة لشهرة ذلك اليوم ﴿وَلَهُمْ﴾ أي: التابع والمتبوع ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ موجع.

قالت المعتزلة: الآية تدلّ على فساد قول المجبّرة من وجوه:

الأوّل: لو لا كان خالق أعمالهم هو اللّه فلا فائدة في التزيين.

والثاني: أنّ ذلك التزيين لمّا كان بخلق اللّه لم يجز ذمّ الشيطان بسببه.

والثالث: أنّ التزيين هو الّذي يدعو الإنسان إلى الفعل، وإذا كان حصول الفعل فيه بخلق اللّه كان ضرورياً فلم يكن التزيين داعياً.

والرابع: أنّ على قولهم، الخالق لذلك العمل أجدر أن يكون وليّهم من الداعي لهم.

والخامس: أنّه تعالى أضاف التزيين إلى الشيطان، ولو كان ذلك المزيّن هو اللّه لكانت إضافته إلى الشيطان كذباً.

﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ ثمّ بيّن أنه ما أنزلنا عليك القرآن ﴿إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ﴾ بواسطة بيانات هذا القرآن الأشياء الّتي اختلفوا فيها، وما اختلفوا فيه هو الدين مثل التوحيد والشرك والطاعة والمعصية واثبات المعاد ونفيه ومثل الأحكام من الواجب والحرام وغيره، وأنزلناه ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ثمّ أخبر عن بعض نعمه فقال: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ غيثاً ومطرا فأحيا بذلك الماء الأرض بعد موتها أي: أحياها بالنبات بعد جدوبها وقحطها ويبسها ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الإنزال لحجة وآية ﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ الأدلّة بعين الإنصاف والتدبّر.

وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ

فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٦٩) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٧٠)

اعلم أنّ المقصود الأعظم من القرآن العظيم الإلهيّات والنبوّات والمعاد والأحكام فلا جرم يذكر في الأدلّة نفي الإلهيّات بالأجرام الفلكيّة والإنسان والحيوان والنبات وعجائب الأرض والبحار وأمثالها فعطف هذه الآية على ما تقدّم فقال: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ﴾ أي: الأنعام الثلاثة من الإبل والبقر والغنم لعظة واعتبارا ودلالة على قدرة الله ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ أي: من بعض ما في بطونه، قال الكسائيّ: لفظ «الأنعام» مفرد ومعناه جمع كالرهط والقوم فيجوز أن يؤتى الضمير بالتذكير والتأنيث كما قال في سورة المؤمنين ﴿فِي بُطُونِهَا﴾[١] ﴿مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ﴾ قال ابن عبّاس: (إذا استقرّ العلف في الكرش صار أسفله وثفله فرثا أي: سرجيناً وأعلاه دماً وأوسطه لبناً فيجري الدم في العروق واللبن في الضرع ويبقى الفرث وهو السرجين فذلك قوله: ﴿مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا﴾ لا يشوبه الدم ولا الفرث ﴿سَائِغًا﴾ مريئاً في حلوقهم، وإنّ من قدر على إخراج لبن أبيض من بين الفرث والدم من غير أن يختلط بهما قادر على إخراج الموتى من الأرض وأيضا لكم طريق استدلال وعظة فيما أخرج لكم).

﴿وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ﴾ ما ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ وماء الموصولة مضمرة في الكلام كقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا﴾[١] والتقدير: ما ثمّ رأيت نعيما، كذلك هاهنا.

وفي تفسير السكر وجوه: الأوّل: الخمر سمّيت بالمصدر من سكر سكراً وسكرا نحو رشداً ورشدا.

١ـ سورة المؤمنون: ٢١.

١ـ سورة الإنسان: ٢٠.

فإن قيل: الخمر محرّمة فكيف ذكرها اللّه في معرض الأنعام؟ فأجابوا أنّ هذه السورة مكّيّة وتحريم الخمر نزل في سورة المائدة فكان نزول هذه الآية قبل تحريم الخمر. وقيل: لا حاجة إلى إلزام النسخ لأنّه خاطب المشركين وعدّ أنعامه عليهم من الثمرات، والخمر من أشربتهم فكانت نعمة عليهم. وقيل: المراد بالسكر ما يشرب من أنواع الأشربة ممّا يحلّ والرزق الحسن ممّا يؤكل فالمعنى حينئذ: تتّخذون منها أصنافاً من الأشربة والأطعمة.

وقال ابن عبّاس: (السكر ما حرّم من ثمرها والرزق الحسن ما أحلّ من ثمرها وأنّه نبّه سبحانه في هذه الآية على تحريمها لأنّه ميّز بينهما وبين الرزق، فوجب أنّ الرجوع عن كونه حسناً بحسب الشريعة وهذا إنّما يكون كذلك إذا كانت محرّمة).

قال الطبرسيّ: وقد أخطأ من تعلّق بهذه الآية في تحليل النبيذ لأنّه سبحانه إنّما أخبر أنّه خلق هذه الثمار لينتفعوا بها فاتّخذوا منها ما هو محرّم عليهم، ولا فرق بين قوله هذا وبين قوله: ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾[1] [2].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ وهذه الأحوال لا يقدر عليها إلّا إله. فيحصل بالتفكّر فيها حجّة لمن تفكّر وتعقّل.

وهاهنا تحقيق وهو أنّه أنّ اللبن والدم يتولّدان في الكرش بمادّتهما ولذلك ما ترى في كرشها دماً ولا لبناً ولكنّ الحيوان إذا تناول الغذاء وصل ذلك الغذاء إلى معدته إن كان إنساناً وإلى كرشه أن كان من الأنعام فإذا طبخ وحصل الهضم الأوّل فما كان صافياً انجذب إلى الكبد، وما كان كثيفا نزل إلى الأمعاء، ثمّ ذلك المجذوب منه في الكبد ينضج وينطبخ في الكبد ويصير

١ـ سورة النحل: ٩٢.

٢ـ مجمع البيان، ج٦، ص١٧٥.

دماً، وذلك هو الهضم الثاني، ويكون ذلك الدم مخلوطاً بالصفراء والسوداء وزيادة المائيّة. فما كان من الصفراء فيذهب إلى المرارة، وما كان من السوداء فيذهب إلى الطحال، وما كان من الماء فيذهب إلى الرئة والكلية ومنها إلى المثانة وما صفى من الدم فإنّه يدخل في الأوردة وهي العروق النابتة من الكبد وهناك يحصل الهضم الثالث، وبين الكبد والضرع عروق كثيرة فيصبّ الدم من تلك العروق إلى الضرع، والضرع لحم غدديّ رخو أبيض فيقلّب اللّه الدم عند انصبابه إلى ذلك اللحم الأبيض الغدديّ الرخو من صورة الدم إلى صورة اللبن.

فإن قيل: هذه المعاني حاصلة في الحيوان الذكر، فلم لم يحصل منه اللبن؟ لأنّ مزاج الذكر من كلّ حيوان يجب أن يكون حاراً يابساً ومزاج الأنثى بارداً رطباً والحكمة فيه أنّ الأنثى لابدّ من مزيد الرطوبة ورطوبة كثيرة لتولّد الولد ولو لا الرطوبة الكثيرة غالبة لما كان بدن الأمّ قابلا لتمدّد الولد وما كان يحصل الاتّساع لأن يكبر الولد، ثمّ إنّ الرطوبات تصير مادّة لنموّ بدن الجنين فحينئذ عند انفصال الجنين تنصبّ إلى الثدي والضرع لتصير مادّة لغذاء الطفل فالسبب الّذي لأجله يتولّد اللبن من الدم في الأنثى غير حاصل في الذكر فظهر الفرق. فالمراد من قوله: ﴿مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ﴾ يعني: هذه الثلاثة تتولّد في موضع واحداً وبداهة العقل يحكم بأنّ هذه الكيفيّات المختلفة المتفاوتة المتضادّة، لا تحصل إلّا بتدبير الفاعل الحكيم والمدبّر الرحيم.

﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ﴾ أي: ألهمها، والوحي على وجوه: منها وحي النبوة، ومنها الإلهام كقوله: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾[1] ومنها الإشارة كقوله: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ﴾[2] وأصل الوحي عند العرب أن يلقي الإنسان إلى

١ـ سورة القصص: ٧.

٢ـ سورة مريم: ١١.

صاحبه شيئاً بالإخفاء والاستتار. والمعنى: ألهم الله النحل اتّخاذ المنازل والمساكن والأوكار والبيوت في الجبال والشجر بيوتاً ﴿وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ ويسقفون من الكروم وأمثالها لأجل الخلايا الّتي تعسل فيها. وإنّما أتى بلفظ الأمر وإن كانت النحل ممّا لا يعقل الأمر اتساعاً.

﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ فانظر أيّها الإنسان إلى هذه الدلائل كيف يهديك إلى معرفة الخالق؟! لأنّه سبحانه بيّن إخراج الألبان من النعم بذلك الترتيب المذكور، ثمّ إخراج السكر والرزق الحسن من الأثمار، ثمّ إخراج العسل من هذا الحيوان الضعيف بهذا الترتيب الّذي ينبّه بأنّها تبني البيوت من أضلاع متساوية لا يزيد بعضها على بعض، والعقلاء من البشر لا يمكنهم مثل تلك البيوت إلّا بآلات وأدوات كالمسطر والفرجار.

وقد ثبت في الهندسة أنّ تلك البيوت لو كانت مشكّلة بأشكال سوى المسدّسات فإنّه كان يبقى بالضرورة فيما بين تلك البيوت فرج خالية ضائعة، فإهداء هذا الضعيف الى هذه الحكمة الخفيّة ليس إلّا بالهام الخالق الحكيم.

ثمّ إنّ النحل يحصل فيما بينها واحداً يكون كالرئيس للبقيّة وهو عظيم الجثّة ونافذ الحكم على البقيّة وهم يخدمونه ويحملونه عند الطيران، وذلك من الأعاجيب، ثمّ إنّها قد تنفر من وكرها وتذهب مع الجمعيّة إلى موضع آخر فإذا أرادوا عودها إلى وكرها ضربوا الطنبور والآلات الموسيقى وبواسطة تلك الألحان يقدرون على عودها. وهذه حالة عجيبة فمعنى الوحي بالنسبة إلى الموحى إليه معنى خاصّ.

وإنّما سمّي هذا الحيوان نحلا لأنّ الله سبحانه نحل الناس العسل الّذي يخرج منها، والنحل يذكّر ويؤنّث، وبلغة أهل الحجاز مؤنّثة وكذلك كلّ جمع ليس بينه وبين واحده إلّا الهاء.

﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ اعلم أنّ اللّه تعالى دبّر هذا العالم على وجه لطيف كلّه، مثلاً يحدث في الهواء أحياناً طلّ لطيف في الليالي ويقع ذلك الطلّ على أوراق الأشجار وأزهارها وتكون تلك الأجزاء الطلّيّة صغيرة متفرّقة على الأزهار والأوراق بحيث لا يرى، وقد تكون كثيرة بحيث يجتمع منها أجزاء محسوسة كالترنجبين والمنّ، والقسم الأوّل من الطلّ فهو الّذي ألهم اللّه هذا النحل حتّى تلتقط تلك الذرات غير المرئيّة في الأزهار بأفواهها وتأكلها وتغتذي بها فإذا شبعت التقطت مرّة أخرى من تلك الأجزاء وذهبت بها إلى بيوتها ووضعتها هناك مدّخرة لنفسها غذاءها فإذا اجتمعت المدّخرة فذاك هو العسل.

ومن الناس من يقول: إنّ النحل يأكل من تلك الأجزاء الطلّيّة من الأزهار والأوراق العطيرة أشياء ثمّ إنّه تعالى يقلّب المأكول في داخل بدنها عسلاً ثمّ إنّها تقيء مرّة أخرى فذاك هو العسل، والقول الأوّل أقوى لأنّ طبيعة الترنجبين أقرب من العسل لأنّا نشاهد أنّ هذا النحل إنّما يتغذّى بالعسل، ولذلك أنّا إذا استخرجنا العسل من بيوت النحل نترك لها بقيّة من ذلك لأجل أن يتغذّى بها.

فقوله: ﴿كُلِي﴾ معناه ثمّ كلي من كلّ ثمرة تشتهينها من هذه الأجزاء الطلّيّة على الأزهار فإذا أكلتها فاسلكي في الطريق الّذي ألهمك اللّه وذلّل ذلك الطريق وسخّره لك.

وقيل: إنّ ﴿ذُلُلًا﴾ حال عن النحل لا عن الطريق أي: فاسلكي منقادة ومقهورة لأمر ربّك هذا، وإنّ اللّه سبحانه جعل لنظم العالم لكلّ فئة وجماعة يعسوباً هو آمرها يقدّمها ويحامي عنها ويسوسها، والجماعة تتبعه وتقتفي أثره ومتى فقدته انحلّ نظامها وتفرّقت شذر مذر، وإلى هذا المعنى أشار عليّ عليه السلام

وقال: «**أنا يعسوب المؤمنين**»[١].

ثمّ قال: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا﴾ وهذا الكلام رجوع من الخطاب إلى الغيبة للالتفات لأنّ الغرض من هذا البيان أن يحتجّ المكلّف به على قدرة اللّه وحسن تدبيره فكأنّه عدل عن خطاب النحل بما سبق ذكره وخاطب الإنسان أي: إنّا ألهمنا النحل بذلك الترتيب لأجل أن يخرج من بطونها ﴿شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ والمراد من بطونها أي: من أفواهها وكلّ تجويف في داخل البدن فإنّه يسمّى بطناً ألا ترى أنّهم يقولون: بطون الدماغ. هذا على معنى القسم الأوّل وعلى معنى القسم الثاني بكونها تقيء، فالمعنى على سبيل الحقيقة وكونه شراب معلوم لأنّه تارة يشرب وحده وتارة يتّخذ منه الأشربة، وكونه مختلف اللون منه أحمر وأصفر وأبيض.

والمقصود من هذا الكلام إبطال القول بالطبع لأنّ هذا الجسم مع كونه متساوي الطليعة لمّا حدث على الألوان المختلفة دلّ على أنّ حدوث تلك الألوان بتدبير الفاعل المختار لا لأجل الطبيعة لأنّ الطبيعة الواحدة لا تختلف.[٢]

﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ وفيه قولان: الأوّل ـ وهو الصحيح ـ أنّه صفة للعسل، فإن قيل: كيف يكون شفاء للناس وهو يضرّ بالصفراء ويهيّج المرار؟ قلنا: إنّه لم يقل لكلّ الناس ولمّا كان شفاء للبعض صلح بأن يوصف. والقول الثاني أنّ الضمير عائد إلى القرآن وعلى هذا المعنى فقصّة النحل تمّت عند قوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ ثمّ ابتدأ وقال: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ أي: في هذا القرآن ما هو شفاء للناس من الكفر والبدعة.

١ـ نهج البلاغة، ج٤، ص٧٥، حكمت ٣١٦؛ والخصال، للصدوق، ص٦٣٣؛ والاختصاص، للمفيد، ص١٥١؛ وبحار الأنوار، ج٨، ص٣٣٦.

٢ـ اختلاف الألوان ناش عن صغر النحل وكبرها. والدليل على اللّه أظهر من أن نحتاج إلى هذه التكلفات.

ويؤيّد قول من قال: إنّ الضمير عائد إلى العسل ما روي عن أبي سعيد الخدريّ أنّه جاء رجل إلى رسول اللّه ﷺ وقال: إنّ أخي يشتكي بطنه، فقال ﷺ: «**اسقه عسلاً**».

فذهب الرجل ورجع وقال: قد سقيته فلم يغن عنه شيئاً، فقال ﷺ: «**اذهب واسقه عسلاً**».

فذهب فسقاه فكأنّما نشط من عقال فقال ﷺ: «**صدق الله وكذب بطن أخيك**»[١]. وحملوا قوله ﷺ: على قوله تعالى: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوۡمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: إنّ في تلك الدقائق والمعارف دلالات على وجود الواحد الأحد المدبّر للأمور لمن تفكّر واعتبر.

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٍ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ أي: أوجدكم وأنعم عليكم بضروب النعم الدينيّة والدنيويّة، ثمّ يميتكم ويفنيكم ومنكم من يبقيه حتّى يصير إلى أدون العمر ويصل إلى حال الهرم والخرف فيظهر النقصان في جوارحه وحواسّه، ورووا عن عليّ عليه السلام: «**أنّ أرذل العمر خمس وسبعون سنة**»[٢]. وقيل: «**تسعون سنة**».[١]

﴿لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٍ﴾ أي: ليرجع إلى حال الطفوليّة بنسيان ما كان يعلم لأجل الكبر فيصير كأنّه لا يعلم شيئاً ممّا كان علمه، إنّ اللّه عليم بمصالح عباده قدير على تغيير أحوالهم.

وهاهنا تحقيق شريف: وهو أنّ الطباعيّين قالوا: إنّ بدن الإنسان مخلوق من المنيّ ومن دم الطمث، والمنيّ والدم جوهران رطبان حارّان والحرارة إذا

١ـ عوالي اللئالي، ج٢، ١٤٩؛ وبحار الأنوار، ج٦١، ص٢٣٣.

٢ـ مجمع البيان، ج٦، ص١٧٧؛ وبحار الأنوار، ج٦٦، ص١٨٦.

١ـ بحار الأنوار، ج٦٦، ص١٨٦.

عملت في الجسم الرطب قلّلت رطوبته وأفادته نوع يبس فلا يزال ما في هذين الجوهرين من قوّة الحرارة يقلّل ما فيه من الرطوبة حتّى تتصلّب الأعضاء فإذا تمّ تكوّن البدن وكمل بتفصّل الجنين. ثمّ إنّ ما في البدن من الحرارة يعمل في الرطوبة ويقلّلها وتحصل للبدن ثلاثة أحوال: الأولى: أن تكون رطوبة البدن زائدة على حرارته وحينئذ تكون الأعضاء قابلة للتمدّد والنماء والازدياد، وذلك هو سنّ النشوء والنماء وذلك نهايته إلى ثلاثين أو خمس وثلاثين سنة. الحالة الثانية: أن تصير رطوبات البدن أقلّ ما كانت فتكون وافية بحفظ الحرارة الغريزيّة إلّا أنّها لا يكون زائدة على قدر الرطوبة وهذا هو سنّ الوقوف وغايته خمس سنين، وعند تمامه يتمّ الأربعون. الحالة الثالثة: أن تقلّ الرطوبات وتصير بحيث لا تكون وافية بحفظ الحرارة الغريزيّة وعند ذلك يظهر النقصان، ثمّ هذا النقصان قد يكون خفيّاً وهو سنّ الكهولة، وتمامه إلى ستّين سنة، ثمّ يكون ظاهراً وهو سنّ الشيخوخية وتمامه إلى مائة وعشرين سنة. هذا تمام القول منهم. قال الرازيّ: وهذا القول ضعيف جداً لأنّا نقول: إنّ الحرارة الغريزيّة في بدن الإنسان الكامل إمّا أن يكون هي عين ما كان حاصلاً في جوهر النطفة أو صارت أزيد ممّا كانت والأوّل باطل، لأنّ الحارّ الغريزيّ الحاصل في جوهر النطفة كان بمقدار جرم النطفة ولا شكّ أن جرمها كان قليلاً صغيراً فهذا البدن بعد كبره لو لم يحصل فيه من الحرارة الغريزيّة إلّا ذلك القدر كان في غاية القلّة ولم يظهر فيه أثر في هذا البدن أصلاً، وأمّا الثاني بأنّ الحرارة الغريزيّة تتزايد بحسب تزايد الجثّة والبدن وإذا تزايدت الحرارة الغريزيّة ساعة فساعة وثبت أنّ تزايدها موجب تزايد القوّة والصحّة ساعة فساعة فوجب أن يبقى البدن الحيوانيّ أبداً في التزايد والتكامل، وحيث لم يكن الأمر كذلك علمنا أنّ ازدياد حال البدن الحيوانيّ وانتقاصه ليس بحسب الطبيعة بل بسبب الفاعل المختار.

﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا
مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ٧١ وَٱللَّهُ جَعَلَ
لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ وَرَزَقَكُم
مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ ٧٢ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ
ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ٧٣ فَلَا
تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٧٤﴾

وهذا بيان آخر من أحوال الإنسان حال حياته وذلك أنّا نرى أكيس الناس وأكثرهم فهماً وعقلا يفنى عمره في طلب القدر القليل من المال ولا يتيسّر له ذلك، ونرى أجهل الناس وأقلّهم عقلاً تنفتح عليه أبواب الدنيا، وكلّ شيء خطر بباله فإنّه يحصل له في الحال ولو كان السبب جهد الإنسان وعقله لوجب أن يكون الأعقل أغنى وأفضل، لكنّ الأمر ليس كذلك. قال المتنبّي:

بالجدّ لا بالمساعي يـدرك الشـرف ... تمشي الجدود أقوام وإن قعـدوا

وقال ابن الراوندي:

كم عاقل عاقل أعيت مذاهبـه ... وجاهل جاهل تلقاه مرزوقـاً[١]

فلمّا رأينا أنّ الأعقل أقلّ نصيباً والأخسّ والأجهل أوفر نصيباً علمنا أنّ ذلك بقسمة القسّام كما قال سبحانه: ﴿نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾.[١] قال الشافعي:

ومـــن الـــدليل علـــى القضـــاء وكونـــه

بـــؤس اللبيـــب وطيـــب عـــيش الأحمـــق

١ـ فيض القدير، ج ٤، ص٧٠٨.

١ـ سورة الزخرف: ٣٢.

وهذا التفاوت غير مختصّ بالمال بل في الذكاء والبلادة، والحسن والقبح، والعقل والحمق، والصحّة والسقم، وبالجملة وسّع سبحانه على بعض وقتر على بعض على حسب المصلحة. ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّى﴾ أي: بجاعلي ﴿رِزْقِهِمْ﴾ في المعنى قولان:

أحدهما: أنّ الخلق لا يشركون عبيدهم وأزواجهم في أموالهم حتّى يكونوا سواء، ويرون ذلك نقصا فلا يرضون لأنفسهم هذا الأمر فكيف يشركون عبدي ومخلوقي في ملكي وسلطاني، ويوجّهون العبادة إليهم؟ وكيف أنتم أيّها النصارى تشركون عيسى عبدي معي شريكاً في العبادة؟ قيل: نزلت في نصارى نجران.

والمعنى الثاني: أنّ الّذين فضّلهم اللّه في الرزق من الأحرار لا يرزقون مماليكهم، بل اللّه رازق المالك والمملوك لأنّ الّذي ينفقه المولى على المملوك إنّما ينفقه ممّا رزقه اللّه فاللّه رازقهم جميعاً.

﴿فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ أي: المالك والمملوك في ذلك الرزق. ولمّا كان المعطي لكلّ الخيرات والرزق هو اللّه فمن أثبت شريكاً للّه فقد أضاف إليه بعض تلك الخيرات فكان جاحدا لكونها من عند اللّه كما أنّ أهل الطبائع وأهل النجوم يضيفون أكثر هذه النعم إلى الطبائع وإلى النجوم وهذا معنى ﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ وهذا نوع آخر في تعداد نعم اللّه على عبيده، المراد أنّه سبحانه خلق حوّاء ابتداء ثمّ الحكم عامّ في جميع الذكور والإناث أي: إنّه خلق النساء من أنفسكم وأصلكم وسنخكم ليتزوّج بهنّ الذكور، ومن أنفسكم أي: بعضكم من بعض.

قال الطبيعيّون: إنّ المنيّ إذا انصبّ إلى الحصّة اليمنى من الذكر

وانصبَّ منها إلى الجانب الأيمن من الرحم كان النسل ذكراً تاماً في الذكورة، وإن انصبَّ إلى الحصّة اليسرى من الرجل وانصبَّ منها إلى الجانب الأيسر من الرحم، كان النسل أنثى تامّاً في الأنوثيّة، وإن انصبَّ إلى الحصّة اليمنى، ثمّ انصبَّ إلى جانب الأيسر من الرحم كان الولد ذكراً في طبيعة الإناث، وإن انصبَّ إلى الحصّة اليسرى، ثمّ انصبَّ منها إلى الجانب الأيمن من الرحم كان النسل أنثى في طبيعة الذكور، وكلّها بتقدير العزيز العليم.

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ والحفيد من يسرع في العمل بطاعتك والأعوان والخدام والمراد أنّه يحصل لكم من نسائكم لكم بنين وأعوان. وقيل: الحفيد قوم المرأة. ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ من المطعومات اللذيذة سواء كانت من النبات أو من الحيوان، ومع ذلك يصدّقون الباطل أنّ لي شريكاً وصاحبة وولدا، ويكفرون بنعمة الله أي: يحرّمون ما أحلّ الله ويحلّلون ما حرّم الله ﴿وَيَعْبُدُونَ﴾ غير ﴿ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ﴾ ولا يقدر على قليل ولا كثير ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ وذكر الجمع بالواو والنون، وهو مختصّ بأهل العلم لأنّه سبحانه عبّر على عقيدتهم كما أنّه سبحانه عبّر «بما» كما هو الحقيقة في نفس الأمر.

﴿فَلَا﴾ تجعلوا ﴿لِلَّهِ﴾ الأشباه والأمثال في العبادة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ﴾ ضرر عبادتكم للغير وإثبات الشريك ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾

أكّد إبطال مذهب عبدة الأصنام بهذا المثل. المراد أنّا لو فرضنا ﴿عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ وفرضنا حراً كريماً غنياً كثير الإنفاق سرّاً وجهرا

فصريح العقل يحكم بأنّه لا يجوز التسوية بينهما في الإجلال والتعظيم فلمّا لم يجز التسوية بينهما مع أنّهما مستويان في البشريّة فكيف يجوز للعاقل أن يسوّي بين اللّه القادر على الرزق والحياة وبين الأصنام الّتي لا تملك ولا تقدر؟ وقيل: إنّ هذا المثل للكافر والمؤمن لأنّ الكافر لا خير عنده والمؤمن يكسب الخير.

﴿وَمَن رَّزَقْنَـٰهُ﴾ يريد حراً ملّكناه مالاً ونعمة ﴿فَهُوَ يُنفِقُ﴾ من ذلك المال ﴿سِرًّا وَجَهْرًا﴾ لا يخاف من أحد، وإنّما قيّد العبد بالمملوك احترازاً عن المكاتب، أو المراد عباد اللّه لأنّهم أيضاً عبيد.

واحتجّ الفقهاء بهذه الآية على أنّ العبد لا يملك شيئاً، فإن قيل: ظاهر الآية تدلّ على أنّ عبداً من العبيد لا يقدر على شيء، فلم قلتم: كلّ عبد كذلك؟ لأنّه ثبت في أصول الفقه أنّ الحكم المذكور عقيب الوصف المناسب مشعر بالعلّيّة لذلك الحكم فكونه عبداً وصف مشعر بالمقهوريّة والذلّة.

﴿لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ حكم مذكور عقيبه فهذا يقتضي أنّ العلّة ـ لعدم القدرة على شيء ـ كونه موصوفاً بالعبديّة فثبت العموم.

وهاهنا دليل آخر وهو أنّه تعالى قال بعده: ﴿وَمَن رَّزَقْنَـٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا﴾ فميّز هذا القسم الثاني عن القسم الأوّل وهو العبد بهذه الصفة فوجب أن لا يحصل هذا الوصف للعبد حتّى يحصل الفرق بين القسم الثاني والقسم الأوّل، ولو ملك العبد لكان اللّه قد ملّكه رزقاً حسناً.

ثمّ قال: ﴿هَلْ يَسْتَوُۥنَ﴾ على سبيل الإنكار أي: لا يستوون.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ المعنى: حقيقة الحمد للّه، وليس الحمد للأصنام. أو قل يا محمّد: الحمد للّه. ولكن مع هذه البيانات ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾ لا يفهمون.

وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن

يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾

ثمّ ﴿ضَرَبَ﴾ سبحانه ﴿مَثَلًا﴾ آخر لإبطال عبدة الأصنام وهو أنّ الأبكم العاجز العيّ المعجم المقطوع اللسان، أو معنى «الأبكم» المطبق الّذي لا يسمع ولا يبصر مع أنّه غير قادر على أمر من الأمور حقيراً كان الأمر أو جليلا، الصفة الثانية ﴿وَهُوَ كَلٌّ﴾ وثقيل على مولاه.

الصفة الثالثة: ﴿أَيْنَمَا﴾ يرسل ﴿مَوْلَىٰهُ﴾ لأمر يرجع خائباً ﴿هَلْ يَسْتَوِي﴾ مثل هذا الرجل مع رجل فصيح ﴿يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ والحقّ ويدعو إلى الخير والرشد ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ﴾ ودين قويم لا يستوون البتّة.

وحاصل المعنى أنّ الأبكم العاجز أذا لا يكون مساوياً في الفضل مع الناطق الكامل مع استوائهم في البشريّة فلأن يحكم بأنّ الجماد لا يكون مساوياً لربّ العالمين في المعبوديّة كان أولى.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ولمّا مثّل المؤمن بالّذي يأمر بالعدل، والكافر بالأبكم وصف نفسه سبحانه أنّه المختصّ بعلم الغيب وهو ما غاب عن جميع الخلائق. ثمّ قال بعد ذكر العلم ذكر القدرة: وما أمرنا في الساعة إلّا كطرف العين أو كردّ البصر ولا يقتدر عليه شيء. قيل: معنى «أو» بل هو في الأمر أقرب من ذلك لأنّ الله على كلّ شيء قدير.

وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ

يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾

المعنى: ثمّ عدّد نعما بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ منعماً عليكم بذلك وأنتم ﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ من منافعكم ومضارّكم، وتفضّل عليكم بالحواسّ الصحيحة الّتي هي طرق المدركات، وأنعم عليكم بالقلوب الّتي تفقهون بها الأشياء لتعقلوا عظمة الله.

والأفئدة جمع فؤاد نحو أغربة وغراب ولم يجمع فؤاد على أكثر العدد وإنّما جمع على القلّة لأنّ السمع والبصر كثيران وإنّ الفؤاد قليل لأنّ الفؤاد خلق للمعارف الإلهيّة وأكثر الخلق ليسوا كذلك بل مشغولون بالأفعال البهيميّة والصفات السبعيّة فكأنّ فؤادهم ليس بفؤاد ولهذا أتى بجمع القلّة. قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: لكي تشكروه وتحمدوه.

﴿أَلَمْ يَرَوْا۟﴾ وقرئ بالتاء، ألم يتفكّروا وينظروا ﴿إِلَى ٱلطَّيْرِ﴾ مذلّلات للطيران من غير أن يعتمد على شيء ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ من السقوط على الأرض من الهواء فيمسك الهواء تحت الطير حتّى لا تقع كإمساك السابح في الماء حتّى لا ينزل فيه فخلق الطير خلقة معها يمكنه الطيران وأعطاه جناحا يبسطه مرّة ويكسره مرّة مثل ما يسبح السابح في الماء، وخلق الهواء خلقة لطيفة رقيقة يسهل بسببها خرقه والنفاذ فيه، وجسد الطير جسم ثقيل والجسم الثقيل يمتنع بقاؤه في الجوّ معلّقا من غير دعامة تحته ولا علاقة فوقه فحينئذ الممسك هو الله.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ لدلالات للمؤمنين لأنّهم المنتفعون به. ثمّ عدّد نعمة أخرى بقوله: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ أي: موضعا تسكنون فيه

ممّا تتّخذون من الحجر والمدر والخشب والآلات وهذا القسم من البيوت لا يمكن نقله بل الإنسان ينتقل إليه، والقسم الثاني القباب والخيام والفساطيط وإليها الإشارة بقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ﴾ حركتكم ﴿وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ ويمكن نقله وتحويله من مكان إلى مكان وكانت العرب تعمل البيوت من الأدم والشعر ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا﴾ والصوف الغليظ منها والوبر اللطيف منها للأكسية والشعر منها للجول وأثاث البيت أو الصوف من الضأن، والوبر من الإبل، والشعر من المعزى، والمتاع ما يفرش ويزيّن به في البيت إلى زمان.

وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾

ثمّ عدّد نعما أخر أضافها إلى ما عدّده فقال: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ﴾ من الأشجار والأبنية أشياء تستظلّون بها في الحرّ والبرد ﴿وَجَعَلَ لَكُم ... أَكْنَٰنًا﴾ أي: مواضع تسكنون بها من كهوف وثقوب وتأوون إليها. ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ﴾ أي: ما تلبسونه من قميص وكساء من القطن والكتّان وغيرهما ﴿تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ ولم يقل: وتقيكم البرد لأنّ ما يقي الحرّ من شأنه أن يقي البرد والّذين خوطبوا بذلك أهل حرّ في بلادهم فحاجتهم إلى وقاية الحرّ أكثر وذكر أحد الضدّين تنبيه على الآخر لأنّ العلم بأحد الضدّين يستلزم العلم بالضدّ الآخر لأنّ الإنسان متى خطر بباله الحرّ خطر بباله البرد ﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم﴾ شدّة الطعن والضرب ويدفع عنكم سلاح أعدائكم يوم

البأس والشدّة. ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ أي: مثل ما جعل لكم هذه الأشياء وأنعمها عليكم. ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ يا أهل مكّة تعلمون وتدبّرون أنّ أحدا لا يقدر على هذا غيره فتوحّدوه وتصدّقوا رسله. ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ وأعرضوا عن الإيمان والتصديق بك يا محمّد ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ﴾ التبليغ والبلاغ اسم والتبليغ المصدر مثل الكلام والتكليم.

ثمّ أخبر سبحانه عن الكفار أنّهم ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ أي: يعرفون نعم الله عليهم بما يجدونه من خلق نفوسهم وإكمال عقولهم وخلق المنافع الّتي ينتفعون بها، ومع ذلك ينكرون أنّها من جهة الله خاصّة بل يضيفونها إلى أوثان ويشكرون ويشركون الأوثان عليها ويقولون: رزقنا بشفاعة آلهتنا.

وقيل: المعنى أنّهم يعرفون محمّداً أنّه من نعم الله لهم ثمّ يكذّبونه ويجحدون نبوّته ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ لأنّ منهم من لم تقم الحجّة عليه إذ لم يبلغ حدّ التكليف لصغره، أو كان ناقص العقل أو لم تبلغه الدعوة فلا يقع عليه اسم الكفر أو لأنّه علم سبحانه أنّ فيهم من يؤمن ويصدّق نبوّته. وقيل: إنّه من الخاصّ في الصيغة والعامّ في المعنى وأراد جميعهم الكافرون.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٨٤) وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٨٥)﴾

لمّا بيّن حال منكري النعمة وكفرهم عقّبه بوعيدهم فقال: واذكر يا محمّد حين ﴿نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ وهم الأنبياء والعدول من كلّ عصر يشهدون على الناس بأعمالهم، قال الصادق عليه السلام: «**لكلّ زمان وأمّة إمام، تبعث كلّ**

أمّة بإمامهم»[1]. وفائدة الشهادة مع علم الله بذلك أنّ ذلك أهول للنفس وأعظم للعذاب والخزي والفضيحة بحضرة الملأ مع جلالة الشهود ولأنّ الناس إذا علموا أنّ العدول يشهدون عند الله بين يدي الخلائق فإنّ ذلك يكون زجرا لهم عن المعاصي. ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ﴾ للكفّار بالكلام والاعتذار ولا يسمع لهم العذر ولا يسمع لهم ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي: لا عتاب هناك لهم لأنّه إنّما يقع العتاب إذا كان الأمر على طريق أنّه إذا عاتبه رجع إلى الرضا. وهذا دليل على أنّه سبحانه راسخ في غضبه وسطوته.

﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أنفسهم بالكفر والعذاب، ووصلوا إليه فعند ذلك لا ﴿يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾ وهم لا يمهلون وتحقيقه ما يقوله المتكلّمون من أنّ العذاب يجب أن يكون خالصاً عن شوائب النفع.

وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا
ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾
وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟
يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ
وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ
وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ
وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ
لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾

١ـ تفسير القمي، ج١، ص٣٨٨؛ ومجمع البيان، ج٦، ص١٨٨؛ ونورالثقلين، ج٣، ص٧٣؛ وبحار الأنوار، ج٧، ص٣٠٨.

المعنى أنه تعالى يبعث الأصنام التي كان يعبدها المشركون، والمقصود من إعادتها أنّ المشركين يشاهدونها في غاية الذلّة والحقارة، وكلّ ذلك ممّا يوجب زيادة الغمّ والحسرة وتكميل العذاب لهم وإنّما وصفهم بالشركاء لأنّهم جعلوها شركاء في العبادة مع الله، وجعلوا لها نصيباً من أموالهم فحكى الله عن المشركين أنهم إذا رأوا تلك الشركاء. ﴿قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدۡعُواْ مِن دُونِكَ﴾ والمقصود من هذا القول من المشركين إحالة هذا الذنب على الأصنام وظنّوا أنّ هذا القول ينجيهم من عذاب الله او ينقص من عذابهم فعند ذلك تكذّبهم الأصنام.

﴿فَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلَ إِنَّكُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ يعني: أنّ الله يخلق الحياة والعقل والنطق في تلك الأصنام حتّى تقول هذا القول، ويقولون للمشركين: إنّا ما أمرناكم بعبادتنا ولكنّكم اخترتم الضلال لأنفسكم وأنّكم لكاذبون في قولكم: إنّا آلهة.

﴿وَأَلۡقَوۡاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوۡمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ﴾ يعني: استسلم المشركون وما عبدوهم من دون الله لأمر الله في ذلك اليوم، وانقادوا لحكمه قسرا لا اختيارا واعترفوا بما ينكرونه من توحيد الله، وبطل ما كانوا يأملونه ويتمنّونه من الأمانيّ الكاذبة من أنّ آلهتهم تشفع لهم.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وأعرضوا غيرهم عن اتّباع الحقّ أو المراد صدّوا المسلمين عن البيت الحرام ﴿زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابًا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ﴾ على صدّهم عن دين الله زيادة على كفرهم. قيل: زدناهم الأفاعي والعقارب في النار لها أنياب كالنخل الطوال، عن ابن مسعود. وقيل: هي أنهار من صفر مذاب كالنار يعذّبون بها أو زيدوا على عذاب الكفر حيّات كأمثال الفيلة والبخت وعقارب كالبغال الدلم تلسع إحداهنّ فيجد صاحبها سمّها أربعين خريفاً.

وقيل: يخرجون من النار إلى الزمهرير فيبادرون من شدّة عذاب البرد

إلى النار بصدّهم عن دين الله.

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ أي: من أمثالهم من البشر ويجوز أن يكون ذلك الشهيد نبيّهم الّذي أرسل إليهم ويمكن أن يكون المؤمنون يشهدون عليهم بما فعلوه من المعاصي ﴿وَجِئْنَا بِكَ ﴾ يا محمّد ﴿شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ﴾ أي: قومك وامّتك وتمّ الكلام.

ثمّ قال: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ يعني: القرآن بياناً لكلّ أمر مشكل وكلّ ما يحتاجون إليه فإنّه ما من شيء يحتاج الخلق إليه في أمر دينهم إلّا وهو بيّن في الكتاب إمّا بالتنصيص عليه أو من بيان النبيّ صلى الله عليه وآله الّذي يستنبطه منه ويستنبطه الحجج القائمون مقامه بنصّه ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾ أي: القرآن هدى ورحمة وبشارة لهم بالنعيم المقيم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ وهو الإنصاف بين الخلق الّذي ليس فيه ميل ولا اعوجاج وقوله: ﴿ٱلْإِحْسَٰنِ ﴾ أي: الإحسان إلى الناس والتفضّل والبذل في السعي الجميل لأمورهم.

وقيل: المراد من العدل التوحيد ومن الإحسان أداء الفرائض. وقيل: العدل في الأفعال والإحسان في الأقوال. ويأمركم بإعطاء الأقارب حقّهم وصلتهم، وقيل: المراد بذي القربى قرابة النبيّ صلى الله عليه وآله الّذين أرادهم الله بقوله: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾[١] وهو المرويّ عن أبي جعفر[١] قال عليه السلام: **«نحن هم»**.[٢]

وهذه الآية وهي ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ. إلخ﴾ أجمع آية في القرآن من الفرائض والسنن ومكارم الأخلاق.

١ـ سورة الأنفال: ٤٢.

١ـ مجمع البيان، ج٦، ص ١٩١.

٢ـ المصدر السابق نفسه.

روي عن ابن عبّاس: (أنّ عثمان بن مظعون الجمحيّ قال: ما أسلمت أوّلاً إلّا حياء من محمّدﷺ، ولم يتقرّر الإسلام في قلبي فحضرته ذات يوم، فبينما هو يحدّثني إذ رأيت بصره شخص إلى السماء، ثمّ خفضه عن يمينه، ثمّ عاد لمثل ذلك فسألته فقال: بينما أنا أحدّثك إذا بجبرئيل نزل عن يميني فقال: يا محمّد إنّ اللّه يأمر بالعدل والإحسان العدل شهادة أن لا إله إلّا اللّه والإحسان القيام بالفرائض وإيتاء ذي القربى أي: صلة ذي القربى ﴿وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ الزنى ﴿وَٱلۡمُنكَرِ﴾ ما لا يعرف في شريعة ولا سنّة ﴿وَٱلۡبَغۡيِ﴾ الاستطالة قال عثمان: فوقع في قلبي الإسلام).

وعن ابن مسعود: (هي أجمع آية في القرآن، وليس من خلق سيّئ إلّا نهى اللّه عنه في هذه الآية وليس من خلق حسن كان يعمل ويستحبّ إلّا أمر اللّه به في هذه الآية).

وقال القاضي في تفسيره، عن ابن ماجة عن عليّ‌عليه السلام أنّه قال: «**أمر اللّه نبيّه أن يعرض نفسه على قبائل العرب فخرجﷺ وأنا معه وأبو بكر فوقفنا على مجلس عليهم الوقار فقال أبو بكر: ممّن القوم؟ فقالوا: من شيبان بن ثعلبة، فدعا هم النبيّﷺ إلى الشهادتين وإلى أن ينصروه، فإنّ قريش كذّبوه، فقال يقرون بن عمر والشيبانيّ إلى م تدعونا أخا قريش؟ فتلا رسول اللّهﷺ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ، إلخ﴾ فقال يقرون بن عمرو: دعوت واللّه إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ولقد أفك قوم كذّبوك وظاهروا عليك**».[1]

وعن عكرمة أنّهﷺ تلا هذه الآية على الوليد بن مغيرة فاستعاده، ثمّ قال: «**وإنّ عليه لطلاوة وأنّ له لحلاوة**».[2]

١ـ كنز العمال، ج١٢، ص٥٢٠؛ الدرّ المنثور، ج٣، ص٥٤.

٢ـ مناقب آل أبي طالب، ج١، ص٩٤؛ وبحار الأنوار، ج٩، ص١٦٧؛ ونور الثقلين، ج٥، ص٤٥٦.

وعن النبي صلى الله عليه وآله: «**أنّه كتب الإحسان على كلّ شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة وليحدّ أحدكم شفرته وليرح ذبيحته**»(١).

وقيل: معنى قوله تعالى: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ﴾ كلّ الذنوب سواء كانت صغيرة أو كبيرة وسواء كانت في القول أو في الفعل. وقيل في المنكر: إنّه الكفر. وقيل في البغي: البغي مطلق الظلم. واعلم أنّ الله لمّا أمرك بالعدل فهو أحقّ بالعدل وأن لا يظلم أحدا بل يتفضّل.

وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾

المعنى: لمّا أمر الله سبحانه بالعدل والإحسان ونهى عن المنكر والعدوان أمر في هذه الآية الأمر بالوفاء بالعهد والنهي عن نقض الإيمان فقال: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ﴾ قال ابن عبّاس: (الوعد من العهد). وقال المفسّرون: العهد الّذي يجب الوفاء به والوعد هو الّذي يحسن فعله وإذا عاهد الله ليفعلنّه فانّه يصير واجباً عليه.

﴿وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ هذا نهي عن حنث الإيمان

١ـ المبسوط، ج ١١، ص ٢٢٦؛ وجواهر الكلام، ج ٣٦، ص ١٢٤؛ وبحار الأنوار، ج ٦٢، ص ٣١٦.

وحنث الإيمان هو أن ينقضها بمخالفة موجبها وارتكاب ما يخالف عقدها. والمراد بقوله: ﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ أي: بعد عقدها وإبرامها وتوثيقها باسم الله وتشديدها بالعزم والعقد على اليمين بخلاف لغو اليمين.

﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ أي: جعلتم الله حسيباً فيما عاهدتموه عليه وذلك أنّ من حلف بالله فكأنه أكفل الله بالوفاء بما حلف ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ من نقض العهد والوفاء به.

وهذه الآية نزلت في الّذين بايعوا النبيﷺ على الإسلام فقال سبحانه للمسلمين الّذين بايعوه: لا يحملنّكم قلّة المسلمين وكثرة المشركين على نقض البيعة أي: أثبتوا على ما عهدتم عليه الرسولﷺ. وقيل: نزلت في قوم حالفوا قوماً فجاءهم قوم آخر وقالوا: نحن أكثر عدداً وأقوى، فنقضوا ذلك العهد.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا﴾ أي: لا تكونوا كالمرأة الّتي غزلت ثمّ نقضت غزلها ﴿مِنْ بَعْدِ﴾ فتلها وإصرارا وإبراما. وهي امرأة حمقاء مشهورة بالحمق كانت تغزل مع جواريها إلى انتصاف النهار، ثمّ تأمرهنّ أن ينقضن ما غزلن ولا يزال دأبها، واسمها ريطة بنت عمر بن كعب، وكانت تسمّى خرقاء مكّة. و﴿أَنكَاثًا﴾ أي: جعلت غزلها أنكاثاً وأقطاعا وأجزاء أي: ردّت المغزولة بعد الغزل بحالة الصوفيّة و﴿أَنكَاثًا﴾ إمّا مفعول ثان لنقضت أو حال.

﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ أي: تجعلون يمينكم خيانة ومكرا لأنهم كانوا حين يعاهدون ويحلفون يضمرون الخيانة والناس يسكنون إلى عهدهم.

﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ أي: لا تنقضوا العهد بسبب أن تكونوا أعلى وأقوى وأكثر من قوم، أي: لا تجعلوا أيمانكم سبباً لخديعة ومكر في أموركم لمداراة مقاصدكم بل عليكم الوفاء بالعهد واليمين

و﴿إِنَّمَا﴾ يختبركم ﴿ٱللَّهُ﴾ بالأمر بالوفاء. والهاء في «به» على الأمر بالوفاء وهذا الاختبار ليقع الجزاء بحسب العمل. وليفصّلنّ ﴿لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ﴾ في صحّته ﴿تَخْتَلِفُونَ﴾.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ﴾ كلّكم مهتدين، ويعني: بالمشيئة القدرة على سبيل الإلجاء ﴿وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ بالخذلان وبالحكم على الضلال بسبب سوء اختيارهم واستحقاقهم ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ بالتوفيق والحكم عليه بالهداية بسبب الإطاعة والاستحقاق والدليل على أنّ المراد من المشيئة الإلجاء أنّه تعالى قال: بعده ﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ولو كانت أعمال العباد بخلق الله لكان سؤالهم عنها عبثاً.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًا﴾ نهى سبحانه عن إضمار الخلف والحنث في العهد واليمين فتضلّوا عن الرشد بعد أن كنتم على هدى من الإيمان ﴿وَتَذُوقُواْ﴾ العذاب بما منعتم الناس عن دين الله.

وروي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: «**نزلت هذه الآية في ولاية عليّ عليه السلام**[١]، **وما كان من قول رسول الله صلى الله عليه وآله حيث قال صلى الله عليه وآله: سلّموا على عليّ بإمرة المؤمنين**».[٢]
وروي عن سلمان أنّه قال: «**تهلك هذه الأمّة بنقض مواثيقها**».[١]

وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا

١ـ مجمع البيان، ج٦، ص١٩٥؛ وتفسير الصافي، ج٣، ص١٥٢.

٢ـ المصدر السابق نفسه.

١ـ مجمع البيان، ج٦، ص١٩٥.

كَانُوا۟ يَعۡمَلُونَ ﴿٩٧﴾ فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾
إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا
سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ﴿١٠٠﴾

ثمّ أكّد هذا التحذير بقوله تعالى: سبب النزول: قال ابن عبّاس: (إنّ رجلاً من حضرموت يقال له: «عبدان الأسوع» قال: يا رسول الله إنّ أمرأ القيس الكنديّ جاورني في أرضي فاقتطع من أرضي فذهب بها منّي والقوم يعلمون أنّي لصادق ولكنّه أكرم عليهم منّي، فسأل رسول الله ﷺ أمرأ القيس عنه فقال: لا أدري ما يقول. فأمره أن يحلف فقال فلمّا قرأهما رسول الله ﷺ قال أمرأ القيس: أمّا ما عندي فينفد وهو صادق فيما يقول، لقد اقتطعت أرضه ولم أدركم هي، فليأخذ من أرضي ما شاء ومثلها معها بما أكلت من ثمرها، فنزل فيه: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾)[1].

المعنى: ﴿وَلَا تَشۡتَرُوا۟﴾ أي: لا تخالفوا عهد الله بسبب شيء يسير تنالوه من حطام الدنيا فتكونوا قد بعتم عظيم ما عند الله بالشيء الحقير، إنّ الّذي عند الله من الثواب على الوفاء بالعهد ﴿خَيۡرٌ لَّكُمۡ﴾ وأشرف ممّا تأخذونه من عرض الدنيا فإنّ القليل الّذي يبقى خير من الكثير الّذي يفنى، فكيف بالكثير الّذي يبقى في مقابلة القليل الّذي يفنى؟ ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ وتميّزون بين الخير والشرّ ﴿مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ﴾ ويفنى ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍۗ وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟﴾ علي الطاعات ﴿أَجۡرَهُم﴾ وثوابهم.

وإنّما قيّد سبحانه بقوله: ﴿بِأَحۡسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعۡمَلُونَ﴾ لأنّ الجزاء يترتّب بالطاعات من الواجبة والمندوبة وأمّا المباحة لا تقع عليه الجزاء ولذا قال: ﴿بِأَحۡسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعۡمَلُونَ﴾. ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ﴾

ـــــــــــــــ
١ـ مجمع البيان، ج٦، ص١٩٧.

سواء كان العامل ذكراً أو أنثى.

فإن قيل: إنّ لفظة ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ تفيد العموم فما الفائدة في ذكر الذكر والأنثى؟

الجواب أنّ الآية في الوعد للخيرات والمبالغة في تقرير الوعد من أعظم دلائل الكرم والرحمة، وإثباتا للتأكيد ودفعا للإزالة وهم التخصيص.

﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ يفيد أنّ العمل الصالح يفيد الأثر بشرط الإيمان، وظاهر قوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾[1] يفيد العموم ويدلّ على أنّ العمل الصالح يفيد الأثر، سواء كان مع الإيمان أو مع عدم الإيمان.

فالجواب أنّ إفادة العمل الصالح للحياة الطيّبة الباقية الدائمة مشروطة بالإيمان، وأمّا الجزاء المنقطع أو تخفيف العذاب وأمثاله، فيقع أيضاً للكافر والمؤمن. ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ قيل: المراد الرزق الحلال. وقيل: القناعة والرضا بما قسم اللّه. وقيل: إنّها الجنّة لأنّه لا يطيب لأحد حياة إلّا في الجنّة وقيل: رزق يوم بيوم وقيل: حياة طيّبة في القبر.

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي: إذا أردت يا محمّد أن تقرأ القرآن ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ﴾ شرّ ﴿ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ المرجوم المطرود. والاستعاذة استدفاع الأدنى بالأعلى على وجه الخضوع والتذلّل وتأويله: استعذ باللّه من وسوسة الشيطان عند قراءتك لتسلم عند قراءتك من الزلل والخلل والوسواس.

﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ﴾ يعني: أنّ الشيطان ليس له قدرة قاهرة ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ باللّه والمتوكّل عليه، أي: لا يقدر على أن يكرههم على المعاصي ﴿ إِنَّمَا﴾ سلطته ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ﴾ يطيعونه ويقبلون دعاءه ويتّبعون إغواءه ﴿وَٱلَّذِينَ هُم ﴾ بسبب طاعة الشيطان مشركون بالله ويشاركون غير الله

١ـ سورة الزلزلة: ٧.

مع الله في العبادة. وإنما خصّ القرآن لأنّ القرآن هو العمدة في أمور الدين.

وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾

سبب النزول: قال ابن عبّاس: كان إذا نزلت آية فيها شدة ثمّ نزلت آية فيها لين قالت كفّار قريش: إنّ محمّداً يسخر بأصحابه يأمر هم اليوم بأمر وغدا يأمر بأمر وإنّه لكاذب ويقول من عند نفسه، فأجاب سبحانه عن شبهتهم بأنّ الله أعلم بمصالحهم وينزّل ما ينزّل على ما توجب المصلحة وهم ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ سبب ورود النسخ.

المعنى: ثمّ أخبر عن حال الكفّار ﴿وَإِذَا﴾ نسخنا ﴿ءَايَةً﴾ وآتينا آية أخرى مكانها.

﴿قُلْ﴾ يا محمّد ﴿نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾ أي: أنزل الناسخ جبرئيل ﴿مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ الصحيح الثابت ﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بما فيه من الحجج والبيّنات فيزدادوا يقيناً، ومعنى تثبيته سبحانه معونته وتوفيقه عزّ وجلّ إلى الثبات على الإيمان والطاعة ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ﴾ أي: وهو أي: النازل هدى وبشارة بالجنّة والثواب.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ ثمّ أجاب سبحانه عن شبهة أخرى من المشركين أي: إنّا نعلم أنّ الكفّار يناقشون ويقولون: إنّ القرآن ليس من عند الله وإنّما يعلّم النبيّ إنسان.

واختلفوا في ذلك الإنسان قيل: هو عبد لبني عامر بن لؤي اسمه «يعيش» وكان يقرأ الكتب. وقيل: «عداس». وقيل: كان بمكّة نصرانيّ أعجميّ اللسان اسمه بلقام يتكلّم بالروميّة.

وقيل: سلمان الفارسيّ. وقال عبد الله بن سلام: كان غلامان نصرانيّان من أهل عين التمر كانا يقرءان كتاباً لهما بلسانهم وكان رسول الله ﷺ ربّما مرّ بهما واستمع لقراءتهما فقالت قريش: إنّما يتعلّم منهما.

فألزمهم الله الحجّة وأكذبهم بهذه الآية بأن قال: ﴿لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ﴾ ويضيفون إليه التعليم ويميلون وينسبون إليه القول ﴿أَعْجَمِيٌّ﴾ ولم يقل سبحانه: عجميّ لأنّ العجميّ هو المنسوب إلى العجم وإن كان فصيحاً، والأعجميّ هو الّذي لا يفصح وإن كان عربيّاً. فردّ سبحانه قولهم بأنّ لسان هذا البشر الّذي يزعمون أنّه يعلمك أعجميّ لا يفصح ولا يتكلّم صحيحاً وفصيحا، فكيف يتعلّم منه من هو في أعلى طبقات الفصاحة والبيان؟

﴿وَهَٰذَا﴾ القرآن ﴿لِسَانٌ عَرَبِيٌّ﴾ ظاهر وقد عجز جميعهم عن الإتيان بسورة وآية مثله، وهو بلغتهم فكيف يأتي الأعجميّ الخارج عن الفصاحة بمثله؟ ثمّ إنّ أمر التعليم والتعلّم لا يتأتّى بجلسة ولا جلستين ولا يتمّ بالخفية بل التعليم والتعلّم يحتاج إلى أزمنة متطاولة، ولو كان كذلك لاشتهر فيما بين الخلق، ثمّ الاحتجاج بهذه الكلمات الركيكة دلالة على نبوّته ﷺ.

ثمّ أتبع بالوعيد لهم على ما قالوه بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ ومعجزات القرآن ﴿لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ﴾ إلى طريق الجنّة بسبب عدم الإيمان

والقابليّة، والمراد بالهداية الهدى الّذي يكون ثواباً على الإيمان.

ثمّ قال: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي﴾ ويخترع ﴿ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ﴾ لا يصدّقون ﴿بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ دون من آمن لأنّ الإيمان يحجز عن الكذب ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ﴾ لا أنت يا محمّد، فحصر سبحانه فيهم الكذب بمعنى أنّ الكذب لازم لهم ومن عادتهم وهذا كقولك للكاذب: كذبت وأنت كاذب. زيادة في الوصف بالكذب كما قال: إنّما يفتري الكذب. وفي الحديث مرفوعاً أنّه قيل: يا رسول الله المؤمن يزني؟ قال: «**قد يكون ذلك**»، قيل: يا رسول الله المؤمن يسرق؟ قالﷺ: «**قد يكون ذلك**»، قيل: يا رسول الله المؤمن يكذب؟ قال: «**لا**»، ثمّ تلا هذه الآية.[1]

مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَـٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾

في هذه الآية بيان من يكفر بلسانه وقلبه ومن يكفر بلسانه دون قلبه.

النزول: قيل: نزل قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾ في جماعة اكرهوا وهم عمّار وياسر أبوه وامّه سميّة وصهيب وبلال وخبّاب

١ـ الدعوات، الراوندي، ص١١٨؛ ومشكاة الأنوار، علي طبرسي، ص٣٠٣؛ وبحار الأنوار، ج٦٩، ص٢٦٣.

عذبوا وقتل ياسر وامرأته وأعطاهم عمّار بلسانه ما أرادوا منه، فأخبر سبحانه بذلك رسول اللّه، فقال قوم: كفر عمّار! فقال: كلّا إنّ عمّارا مليء إيمانا من قرنه إلى قدمه، واختلط الإيمان بلحمه ودمه.

وجاء عمّار إلى رسول اللّه وهو يبكي، فقال ﷺ: «**ما وراءك يا عمّار؟**» فقال شرّ يا رسول اللّه، ما تركت حتّى نلت منك وذكرت آلهتهم بخير. فجعل رسول اللّه يمسح عينيه ويقول: «**إن عادوا لك فعد لهم بما قلت**»، فنزلت الآية[1].

وقيل: نزلت في ناس من أهل مكّة آمنوا وخرجوا يريدون المدينة فأدركهم قريش وفتنوهم فتكلّموا بكلمة الكفر كارهين. وقيل: إنّ ياسراً وسميّة أبوي عمّار أوّل شهيدين في الإسلام. وجواب الشرط في قوله: ﴿مَن كَفَرَ﴾.

﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ بمعنى أنّه جواب من قوله: ﴿مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾ وهذا الجواب الثاني يغني عن جواب قوله: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ﴾ مثل قولهم: «من يأتينا فمن يحسن نكرمه» فجواب الأوّل محذوف.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ نزلت في عيّاش بن أبي ربيعة أخي أبي جهل من الرضاعة وأبي جندل بن سهيل بن عمرو والوليد بن مغيرة وغيرهم من أهل مكّة فتنتهم المشركون فأعطوهم بعض ما أرادوا، ثمّ إنّهم هاجروا بعد ذلك وجاهدوا، فنزلت الآية.

وبالجملة فتلخيص المعنى أنّ من كفر باللّه وارتدّ بعد الإسلام وشرح بالكفر صدراً، أي: فتحه ووسّعه لقبول الكفر.

فلو قيل: إنّ المكره ليس بكافر فكيف صحّ الاستثناء؟ لأنّ المكره لمّا ظهر منه الكفر كرهاً والكافر طوعاً فصحّ المشاكلة فصحّ الاستثناء.

وهؤلاء المكرهين قد عذّبوا وأخذوا والبسوا الدروع الحديد واجلسوا

١ـ مجمع البيان، ج٦، ص٢٠٣.

في الشمس، فبلغ منهم الجهد بحرّ الحديد والشمس، وأتاهم أبو جهل يشمتهم ويوبّخهم ويشتم سميّة، ثمّ طعن الحربة في عضوها. وقيل: ما نالوا غير بلال فإنّهم جعلوا يعذّبونه فيقول: أحد أحد حتّى ملّوا فكتفوه وجعلوا في عنقه حبلاً من ليف ودفعوه إلى صبيانهم يلعبون به حتّى ملّوه فتركوه، قال عمّار: كلّنا تكلّم بالّذي أرادوا غير بلال، فهانت عليه نفسه. قال خباب: لقد أوقدوا لي ناراً على ودك ظهري.

﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾ على وجه التقيّة خوف الإتلاف مكرهاً. ﴿وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾ ساكن ثابت بالإيمان، وهذا يدلّ على أنّ محلّ الإيمان هو القلب إمّا الاعتقاد وإمّا كلام النفس.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ والتلذّذ فيها والركون إليها طلباً لها دون الآخرة ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ۞ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ﴾ وختم ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ﴾ بسوء اختيارهم الكفر، وأنّهم بمنزلة الغافلين.

ثمّ قال: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ وهذا تأكيد لحكم الخسار عليهم لأنّهم المحرومون من الجنّة وعذّبوا بالنار. ثمّ قال سبحانه: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟﴾ وعذّبوا في الله فأعطوا بعض ما أرادوا الكفّار ليسلموا من شرّهم، ﴿ثُمَّ جَـٰهَدُوا۟﴾ مع النبي ﷺ ﴿وَصَبَرُوٓا۟﴾ على الدين والجهاد ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِ﴾ تلك الفتنة والفعلة الّتي فعلوها من التفوّه بكلمة الكفر ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَـٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ

لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡهُمۡ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٥﴾

الظرف إمّا متعلق بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ ... لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ أو الكلام على سبيل العظة والتذكير أي: اذكر ﴿يَوۡمَ تَأۡتِي﴾ والمراد باليوم يوم القيامة ﴿تُجَٰدِلُ﴾ وتخاصم الملائكة ﴿عَن نَّفۡسِهَا﴾ كلّ نفس ويقول: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾[1] ويحتجّ بما ليس فيه حجة و﴿تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ﴾ جزاء ﴿مَّا عَمِلَتۡ﴾ من خير وشرّ ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ في ذلك ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا﴾ والمراد أنّ مثلكم يا أهل مكّة كمثل تلك القرية، أي: مثل قرية ﴿كَانَتۡ ءَامِنَةٗ﴾ مأمون أهلها لا يقارّ عليهم قارّة ساكنة لا يحتاجون إلى الانتقال عنها بخوف أو ضيق يحمل إليه الرزق الواسع ﴿مِّن كُلِّ﴾ بلد ﴿فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ﴾ أي: كفر أهل تلك القرية، ولم يؤدّ شكرها فأخذهم الله بسوء صنيعهم بالخوف والجوع، وسمّي أثر الجوع والخوف لباساً لأنّ أثر المشقّة يظهر على الإنسان كما يظهر اللباس والزيّ على الإنسان، ويشملهم المشقّة كما يشمل اللباس البدن. وقيل: المراد بالقرية مكّة فعذّبهم الله بسوء صنيعهم بالجوع سبع سنين حتّى أكلوا القدّ والعلهز والجيف وهو الوبر يخلط بالدم وهم مع ذلك خائفون وجلون من أصحاب النبيّ، وذلك حين دعا عليهم النبي صلى الله عليه وآله فقال: «**اللهمّ اشدد وطأتك على مضر واجعل عليهم سنين كسني يوسف** عليه السلام».[1]

١ـ سورة الأنعام: ٢٣.

١ـ جوامع الجامع، ج ٢، ص ٣٥٤؛ وانظر: الخلاف، للطوسي، ج ١، ص ٣٧٤.

ونقل: أنّ ابن الراوندي الزنديق المعروف قال لابن الأعرابيّ الأديب: هل يذاق اللباس؟ فقال ابن الأعرابيّ: لا بأس أيّها النسناس هب أنّك تشكّ أنّ محمّداً ما كان نبيّاً أمّا كان عربيّاً؟ وكان مقصود ابن الراونديّ الطعن في الآية، وهذا الأحمق كأنّه ما قرع سمعه الاستعارة أما سمع قول الشاعر الأعرابيّ حيث قال:

ومن يذق الدنيا فإنّي طعمتها وسيق إلينا عذبها وعـذابها

والعذاب ليس من المذوقات وقد استعمل كثيراً، فالمراد بهذه الاستعارة أنّ الجوع أحاط بهم من الجهات وأشملهم فأشبه اللباس.

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ﴾ لمّا ذكر سبحانه المثل ذكر الممثّل فقال: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ﴾ يعني: أهل مكّة ﴿رَسُولٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: من سنخهم يعرفونه بأصله ونسبه ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ قيل: القتل يوم بدر. وقيل: المجاعة المعروفة الّتي أكلوا الجيف والعظام. وذلك بسبب ظلمهم وكفرهم فاتركوا الكفر والشرك حتّى تأكلوا فلهذا السبب قال: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ وخاطب المؤمنين والراجعين عن الكفر، والمراد من الأمر الإباحة أي: كلوا من الغنائم وما رزقكم الله وأحلّها لكم ﴿وَٱشْكُرُواْ﴾ عليه ﴿إِن كُنتُمْ ... تَعْبُدُونَ﴾ الله.

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ...﴾ أي: إنّكم لمّا آمنتم وتركتم الكفر فكلوا الحلال الطيّب واتركوا الخبائث وهي ﴿ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ﴾ وما لم يذكر اسم الله عليه حين الذبح، وذكر اسم الآلهة عليه ـ والتفصيل وذكر في سورة البقرة ـ إلّا حين الاضطرار، فإنّه يجوز حين الاضطرار من غير تعدّ في حدود الله وبغي فحينئذ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾

أكّد سبحانه بهذه الآية أن لا يخالفوا الأوامر والنواهي في التحليل والتحريم، أي: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا﴾ أحللتموه بلسانكم ﴿الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾ كالميتة تقولون: هذا حلال، وكالصائبة تقولون: هذا حرام، لتكذبوا ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ في إضافة التحليل والتحريم إليه، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ و«الكذب» وصف للألسنة بمعنى الكاذب أو بمعنى الكلم الكواذب، أو هو جمع الكذّاب أي: المفترين على الله لا ينجون من عذاب الله ولا ينالون خيراً ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ ينتفعون به أياماً قلائل ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة.

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾

لمّا بيّن ما يحلّ ويحرم لأهل الإسلام أتبعه ببيان ما خصّ به اليهود من المحرّمات فقال: ﴿وَعَلَى﴾ اليهود ﴿حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ﴾ في سورة الأنعام بقوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ﴾[1] إلى آخر الآية وهي نزلت قبل ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ ولكن ظلموا بالكفر والعصيان والجحود بأنبياء الله واستحقّوا بذلك تحريم هذه الأشياء عليهم.

ثمّ ذكر حال التائبين فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ﴾ الّذي خلقك ﴿لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ﴾ والمخالفة لأمر الله لا يمنعهم من التوبة وحصول المغفرة والرحمة ﴿بِجَهَالَةٍ﴾ السيّئات أو بجهالتهم العاقبة وعدم التدبّر بعقابه لغلبة الشهوة ﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ﴾ ما عملوا وعلموا ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ أعمالهم أو

١ـ سورة الأنعام: ١٤٦.

دخلوا في الصلاح وأصلحوا أحوالهم وأفعالهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ من بعد التوبة والجهالة أو المعصية ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وأعاد قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ للتأكيد، والضمير في ﴿بَعْدِهَا﴾ يعود إلى الفعلة والمقصود التأكيد والمبالغة بأنّ ربّك من بعد الرجوع عن السوء والتوبة لغفور لذلك السوء، رحيم يثيب على طاعته، والغرض إظهار العناية من حضرته الكريم، والتعريض لوصف الحال والربوبيّة، والإضافة إلى ضميرهﷺ مع ظهور الأثر في التائبين للإيماء إلى أنّ إفاضة آثار الربوبيّة من المغفرة والرحمة عليهم بتوسّطهﷺ، وكونهم من أتباعه وامّته.

وحاصل الكلام أنّ الإنسان وإن كان قد أقدم على المعاصي دهراً دهيراً وأمدا مديداً فإذا تاب عنه وآمن وأتى بالأعمال الصالحة فهو غفور له ورحيم به، ويخلصه من العذاب.

إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾
شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا
حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ
إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى
ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا
كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾

المعنى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ أي: قدوة ومعلّما للخير، قال ابن الأعرابيّ: يقال للرجل العالم: أمّة، أو المعنى إمام هدى. وقيل: سمّاه أمّة لأنّ قوام الأمّة كان به وقام بأمر الأمّة وانفرد في دهره بالتوحيد فكان مؤمناً والناس كلّهم كانوا كفّاراً. وإنّ إبراهيم حاز من الفضائل البشريّة ما لا تكاد توجد في

أحد بزمانه حسبما قيل. ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحداً فكيف لا وهو رئيس أهل التوحيد وقدوة أهل التحقيق، جادل أهل الشرك وألقمهم الحجر ببيّنات باهرة لا تبقي ولا تذر وأبطل مذاهبهم الزائفة بالبراهين القاطعة.

﴿قَانِتًا﴾ ومطيعا ودائما على عبادة الله ﴿حَنِيفًا﴾ مستقيماً غير مائل عن الحقّ وهو الإسلام ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۞ شَاكِرًا﴾ لأنعم الله معترفاً بها ﴿ٱجْتَبَـٰهُ﴾ الله واختاره ﴿وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهو الإسلام والتوحيد.

﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ﴾ وأعطيناه ﴿فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ ونعمة سابقة في نفسه وفي أولاده وهو قول الأمّة: كما صلّيت على إبراهيم وآل إبراهيم. أو النبوّة والرسالة. وقيل: المراد بالنعمة هي أنّه ليس من أهل دين إلّا وهو يرضاه ويتولّاه.

وقد اجتهد في تقرير دلائل التوحيد مع ملك زمانه بقوله: ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾[1] ثمّ أبطل عبادة الأصنام والكواكب بقوله: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ﴾[2] ثمّ كسر الأصنام حتّى آل الأمر إلى أن ألقوه في النار ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ ولم يقل في أعلى منازل الصالحين مع اقتضاء حاله ذلك ترغيبا في الصلاح ودرجة الصالحين، وناهيك بهذا الترغيب في الصلاح وبهذا المدح لإبراهيم. ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي: أمرناك باتّباع ﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ أي: مائلاً إلى الحقّ وخلع الأنداد، ومتى قيل: إنّ نبيّنا كان أفضل منه فكيف أمر الفاضل باتّباع المفضول؟ فالجواب أنّ إبراهيم سبق إلى اتّباع الحقّ لسبقة زمانه ولا يكون في سبق المفضول إلى متابعة الحقّ نقص الفاضل في اتّباعه، ولمّا وصف سبحانه بأنّ إبراهيم ﴿مَاكَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ فيقتضي أن يكون محمّد ﷺ مأموراً بهذا الأمر وليس المعنى أنّه ﷺ مأمور بجميع شريعة إبراهيم.

١ـ سورة البقرة: ٢٥٨.

٢ـ سورة الأنعام: ٧٦.

﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ وبيان الآية أنّ موسى عليه السلام أمر اليهود أن يجعلوا في الأسبوع يوماً واحداً للعبادة، وأن يكون ذلك اليوم الجمعة، فأبوا عليه وقالوا: نريد اليوم الّذي فرغ اللّه فيه من خلق السماوات والأرض وهو السبت، إلّا شرذمة منهم رضوا بالجمعة، فأذن اللّه لهم في السبب وابتلاهم بتحريم الصيد فيه، ثمّ جاءهم عيسى بالجمعة أيضاً فقالت النصارى: لا نريد أن يكون عيدهم بعد عيدنا، واتّخذوا الأحد.

فالمراد من قوله: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ على نبيّهم موسى حين أمرهم بالجمعة فاختاروا السبت، فاختلافهم في السبت كان اختلافاً على نبيّهم موسى في ذلك اليوم. وليس المعنى أنّ اليهود اختلفوا فيه، فمنهم من قال بالسبت، ومنهم من لم يقل به لأنّ اليهود اتّفقوا على ذلك.

وفي العقل وجه يدلّ على أنّ الجمعة أفضل من السبت، وذلك لأنّ أهل الملل اتّفقوا على أنّه تعالى خلق العالم في ستّة أيّام، وبدأ بالخلق والتكوين من يوم الأحد وتمّ في يوم الجمعة وهو يوم الكمال والتمام، وحصول الكمال يوجب الفرح الكامل والسرور العظيم، فحينئذ جعل يوم الجمعة يوم العيد أولى من غيره. وفي الآية قول آخر في معنى اختلافهم بأنهم أي: اليهود أحلّوا الصيد في السبت تارة وحرّموه تارة وكان الواجب عليهم أن يتّفقوا في تحريمه على كلمة واحدة.

ثمّ قال سبحانه: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي: سيحكم للمحقّين بالثواب وللمبطلين بالعقاب. والنظم أنّه لمّا أمر سبحانه باتّباع الحقّ حذراً من وقوع الاختلاف ذكر في هذه الآية مفاسد الاختلاف الّذي وقع لليهود في اختلاف السبت، وآل أمرهم بأن مسخوا قردة وخنازير.

﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾

المعنى: أمر الله نبيّه بالدعوة إلى الخلق فقال: ﴿ٱدۡعُ﴾ الخلق إلى دين الله لأنه الطريق إلى مرضاته ﴿بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾ أي: بالقرآن، وسمّي القرآن حكمة لأنّه يتضمّن الأمر بالحسن والنهي عن القبيح، وأصل الحكمة معناه المنع، وإنّما قيل لها: حكمة، لأنها بمنزلة المانع عن الفساد وما لا ينبغي أن يختار، وقوله: ﴿وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ﴾ أي: الوعظ الحسن وتليين القلوب بما يوجب القبول والخشوع ﴿وَجَٰدِلۡهُم﴾ وناظرهم بالقرآن وبأحسن ما عندك من الحجج، والكلمة الّتي ﴿هِيَ أَحۡسَنُ﴾ والتقدير: أن ادع الناس بأحد هذه الطرق الثلاث بالقرآن وبالموعظة الحسنة والمجادلة بالطريق الأحسن.

ولمّا كان سبحانه عالماً بأنّ جواهر النفوس البشريّة مختلفة فبعضها مشرقة صافية قليل التعلّق بالجسمانيّات كثيرة الانجذاب إلى عالم الروحانيّات وبعضها مظلمة كدرة قويّة التعلّق بالجسمانيّات عديمة الالتفات إلى الروحانيّات، ويمتنع زوالها فقال: اشتغل أنت بالدعوة ولا تطمع في حصول الهداية للكلّ فإنّه تعالى أعلم بضلال النفوس الضالّة الجاهلة، وبإشراق النفوس المشرقة الصافية المهتدية.

﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦ﴾ أي: وإن أردتم معاقبة غيركم على وجه المكافاة، فعاقبوا بقدر ما عوقبتم به ولا تزيدوا عليه.

قيل: إنّ المشركين لمّا قتلوا حمزة ومثّلوا بقتلى احد وبحمزة عليه السلام فشقّوا بطنه وأخذت هند بنت عتبة بن أبي سفيان كبده فجعلت تلوكه، وجدعوا أنفه واذنه، قال المسلمون: لئن أمكننا الله منهم لنمثّلن بالأحياء فضلاً عن الأموات، فنزلت الآية. وقيل: نزلت الآية قبل أن يؤمر النبيّ صلى الله عليه وآله بقتل المشركين على العموم وأمر بقتال من قاتله في هذه الآية.

﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ﴾ وتركتم المكافاة والقصاص وجرعتم مرارته ﴿لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾ وأنفع لهم، وليس يا محمّد إلّا بتوفيق الله وتيسيره ﴿وَلَا تَحْزَنْ﴾ يا محمّد على المشركين في إعراضهم عنك فإنّه يكون الظفر لك عليهم. ﴿وَلَا تَكُ﴾ صدرك ﴿فِي ضَيْقٍ﴾ من مكرهم بك وبأصحابك، فإنّ الله يردّ كيدهم في نحورهم ويحفظكم من شرورهم ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ الشرك والفواحش والكبائر بالنصرة والحفظ، ومع الّذين أحسنوا بالقيام فيما فرض عليهم.

سورة الإسراء

مكّيّة إلّا خمس آيات أو ثمان آيات، عدد آيها مائة آية وعشر آيات.

روى أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وآله «**من قرأ سورة بني إسرائيل ثمّ رقّ قلبه عند ذكر الوالدين أعطي من الجنّة قنطارين من الأجر، والقنطار ألف أوقية ومائتا أوقية، والأوقية منها خير من الدنيا وما فيها**»[1]. وروي الحسن بن أبي العلا عن الصادق عليه السلام أنّه قال: «**من قرأ سورة بني إسرائيل في كلّ ليلة جمعة لم يمت حتّى يدرك القائم ويكون من أصحابه**»[2].

بسم الله الرحمن الرحيم

سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾

«سبحان» منصوب على المصدر أي: أسبّح الله تسبيحاً وسبحانا، فالتسبيح هو المصدر و«سبحان» علم للتسبيح كعثمان للرجل، وحيث كان المسمّى معنى لا عيناً وجنسا لا شخصاً لم تكن إضافته مثل حاتم طيّ. وانتصابه بفعل محذوف من جنسه ومعنى التسبيح التباعد والتنزّه.

١ـ مجمع البيان، ج٦، ص٢١٣.

٢ـ ثواب الأعمال، للصدوق، ص١٠٧؛ وتفسير الصافي، ج٣، ص٢٢٩؛ نور الثقلين، ج٣، ص٩٧.

نزلت الآية في إسرائه، وكان ذلك بمكّة صلّى المغرب في المسجد الحرام، ثمّ اسري به في ليلته ثمّ رجع فصلّى الصبح في المسجد الحرام. فأمّا الموضع قيل: أسري به من المسجد بعينه، وهو الّذي يدلّ عليه القرآن. وروي عن النبي صلى الله عليه وآله أنّه قال: «**بينا أنا في المسجد الحرام في الحجر عند البيت بين النائم واليقظان إذا أتاني جبرئيل بالبراق**». وقيل: أسري به من دار أمّ هاني بنت أبي طالب. فعلى هذا القول المراد بالمسجد الحرام الحرم لإحاطته بالمسجد.

وعن ابن عبّاس: (الحرم كلّه مسجد لالتباسه به). ولمّا وصل صلى الله عليه وآله إلى الدرجات العالية في المعارج أوحي اللّه عزّ وجلّ «**يا محمّد بم أشرّفك؟**» فقال عليه السلام: «**بأن تنسبني إلى نفسك بالعبوديّة**». فأنزل اللّه سبحانه فيه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ وقوله: ﴿لَيْلًا﴾ مع أنّ الإسراء لا يكون إلّا بالليل أراد بالتنكير تقليل مدّة الإسراء أي: بعض الليل فإنّ قولك: سرت ليلا، كما يفيد بعضيّة زمان سيرك من الليالي يفيد بعضيّة من فرد واحداً منها بخلاف ما إذا قلت: سرت الليلة، فإنّه يفيد استيعاب السير له جميعاً.

والقول بمعراج الروح دون الجسد باطل جدّاً من وجوه: الأوّل تصدير الآية بالتنزيه وما يتضمّن من التعجّب فإنّ الروحانيّ ليس بمثابة الاستنكار والاستبعاد والمعجزة، ولو لم يكن مستبعدا ما كذّبت قريش.

واختلفوا في ذلك الليل، قيل: كان قبل الهجرة بسنة وقبل البعثة. والمسجد الأقصى البيت المقدّس، وإنّما قال: ﴿ٱلْأَقْصَا﴾ لبعد المسافة بين المسجد الحرام وبينه مسيرة أربعين ليلة. ﴿بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ بالثمار والأزهار والخصب والفواكه، أو بسبب أنّه مقرّ الأنبياء ومهبط الملائكة.

وقد وردت روايات كثيرة في عروج نبيّنا إلى السماء، رواها كثير من الصحابة، مثل ابن عبّاس، وابن مسعود، وأنس، وجابر بن عبد اللّه، وحذيفة،

وعائشة، وأمّ هانئ وغيرهم، عن النبيّ صلى الله عليه وآله[1]، وزاد بعضهم ونقص بعض وينقسم جملتها إلى أربعة أوجه:

أحدها: ما يقطع على صحّته لتواتر الأخبار به وإحاطة العلم بصحّته.

وثانيها: ما ورد في ذلك ممّا يجوّزه العقول ولا تأباه الأصول فنحن نجوّزه، ثمّ نقطع على أنّ ذلك كان في يقظته دون منامه.

وثالثها: ما يكون ظاهره مخالفاً لبعض الأصول إلّا أنّه يمكن تأويلها على وجه يوافق المعقول، فالأولى أنّ نأوّله على ما يطابق الحقّ.

ورابعها: ما لا يصحّ ظاهره ولا يمكن تأويله إلّا على التعسّف فالأولى أن لا نقبله، ولكنّ الكلّ متّفقون على الجملة أنّه صلى الله عليه وآله عرج بجسده إلى السماوات، إنّما الاختلاف في بعض الكيفيّات.

أمّا الوجه الأوّل من الوجوه الأربعة المقطوع به أنّه أسري به على الجملة.

وأمّا الثاني فمنه ما روي أنّه أطاف في السماوات ورأى الأنبياء والعرش والسدرة المنتهى والجنّة والنار، ونحو ذلك وذلك أيضاً مقبول. وأمّا الثالث فنحو ما روي أنّه رأي قوماً في الجنّة يتنعمون فيها وقوما يعذّبون فيها، فيحمل على أنّه صلى الله عليه وآله رأى صفتهم أو أسماءهم. وأمّا الرابع الغير المقبول فنحو ما روي أنّه صلى الله عليه وآله كلّم اللّه سبحانه جهرة ورآه وقعد معه على سريره[2]، ونحو ذلك ممّا يوجب ظاهره التشبيه والتجسّم واللّه تعالى تقدّس عن ذلك، وكذلك ما روي أنّه شقّ بطنه وغسل إلّا أنّه كان طاهرا مطهراً من كلّ سوء وعيب، وكيف يطهر القلب وما فيه من الاعتقاد بالماء؟[3] ولو أنّ هذه الفقرة أي: شقّ البطن ممكن التأويل.

١ـ مجمع البيان، ج٦، ص٢١٥؛ وتفسير الميزان، ج١٣، ص٣٣.

٢ـ مجمع البيان، ج٦، ص٢١٥؛ وتفسير الميزان، ج١٣، ص٣٤

٣ـ بحار الأنوار، ج١٨، ص٢٨٣.

وبالجملة فمن جملة ما روي في قصّة المعراج أنّ النبي ﷺ قال: «أتاني جبرئيل وأنا بمكّة فقال: قم يا محمّد فقمت معه، وخرجت إلى الباب فإذا جبرئيل ومعه ميكائيل وإسرافيل فأتى جبرئيل بالبراق وكان فوق الحمار دون البغل خدّه كخدّ الإنسان وذنبه كذنب البقر وعرفه كعرف الفرس، وقوائمه كقوائم الإبل، عليه رحل من الجنّة، وله جناحان من فخذيه، فقال لي جبرئيل: اركب، فركبت ومضيت حتّى انتهيت إلى بيت المقدس».

ثمّ ساق الحديث إلى أن قال ﷺ: «فلمّا انتهيت إلى بيت المقدس إذا بملائكة من السماء نزلت بالبشارة والكرامة من عند ربّ العزة وصلّيت في بيت المقدس». وفي بعض الروايات: «بشّرني إبراهيم في رهط من الأنبياء ثمّ وصف موسى وعيسى، ثمّ أخذ جبرئيل بيدي إلى الصخرة فأقعدني عليها فإذا معراج إلى السماء لم أر مثلها حسناً وجمالاً، فصعدت إلى السماء الدنيا ورأيت عجائبها وملائكتها يسلّمون عليّ، ثمّ صعد بي جبرئيل إلى الثانية فرأيت فيها عيسى بن مريم ويحيى بن زكريّا، ثمّ صعد بي إلى الثالثة فرأيت فيها يوسف، ثمّ إلى الرابعة فرأيت فيها إدريس، ثمّ إلى الخامسة فرأيت فيها هارون، ثمّ صعد بي إلى السادسة فإذا فيها خلق كثير يموج بعضهم في بعض وفيها الكرّوبيّين، ثمّ إلى السماء السابعة رأيت إبراهيم».

قال: «ثمّ جاوزناها متصاعدين إلى أعلى علّيّين». ووصف ﷺ ذلك إلى أن قال: «ثمّ كلّمني ربّي وكلّمته، ورأيت الجنّة والنار والعرش والسدرة، ثمّ رجعت إلى مكّة فلمّا أصبحت حدّثت به الناس فكذّبني أبو جهل والمشركون، وقال مطعم ابن عديّ: أتزعم أنّك سرت مسيرة شهرين في ساعة؟ أشهد أنّك كاذب، ثمّ قالت قريش: أخبرنا عمّا رأيت»، فقال ﷺ: «مررت بعير بني فلان وقد ضلّوا بعيرا لهم وهم في طلبه وفي رحلهم قعب مملوء من ماء فشربت الماء ثمّ غطّيته كما كان» فاسألوهم هل وجدوا الماء في القدح؟ قالوا: هذه آية، قال ﷺ: «مررت بعير بني فلان فنفر بكرة فلان

فانكسرت يدها فاسألوهم عن ذلك». فقالوا: هذه آية أخرى، ثمّ خرجوا يشتدّون نحو الثنيّة، وهم يقولون: لقد قضى محمّد بيننا وبينه قضاء بيّنا وجلسوا ينتظرون متى تطلع الشمس فيكذّبوه. فقال قائل: واللّه إنّ الشمس قد طلعت. وقال الآخر: واللّه هذه الإبل قد طلعت يقدمها أورق فبهتوا ولم يؤمنوا[١].

وفي «تفسير العيّاشيّ» عن أبي عبد اللّه قال: «**لما أسري برسول الله إلى السماء الدنيا لم يمرّ بأحد من الملائكة إلّا استبشر، قال: ثمّ مرّ بملك حزين كئيب، فلم يستبشر به فقال ﷺ: يا جبرئيل ما مررت بأحد من الملائكة إلّا استبشر بي إلّا هذا الملك فمن هذا؟ قال: هذا مالك خازن جهنّم وهكذا جعله الله، فقال له النبيّ: يا جبرئيل اسأله أن يرينا، قال: فقال جبرئيل: يا مالك هذا محمّد رسول الله ﷺ، وقد شكا إليّ فقال: ما مررت بأحد من الملائكة إلّا استبشر بي إلّا هذا فأخبرته أنّ هكذا جعله الله وقد سألني أن أسألك أن تريه جهنّم، قال: فكشف له عن طبق من أطباقها، قال: فما رئي بعد ذلك رسول الله ضاحكاً حتّى قبض**»[٢].

وعن أبي بصير قال: سمعت أبا عبد اللّه الصادق: «**أنّ جبرئيل احتمل رسول الله حتّى انتهى به إلى مكان من السماء، ثمّ تركه وقال له: ما وطئ نبيّ قطّ مكانك**»[٣].

وفي تفسير عليّ بن إبراهيم القميّ عن الباقر عليه السلام أنه عليه السلام ـ أي: الباقر ـ كان جالساً في المسجد الحرام فنظر إلى السماء مرّة وإلى الكعبة مرّة وقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ وكرّر ذلك ثلاث مرات ثمّ التفت إلى إسماعيل الجعفيّ فقال: أيّ شيء يقولون أهل العراق في هذه الآية يا عراقي؟ قال: يقولون: أسرى به من المسجد الحرام

١ـ بحار الأنوار، ج١٨، ص٣٧٥؛ ومجمع البيان، ج٦، ص٢١٦.

٢ـ تفسيرالعياشي، ج٢، ص٢٧٧؛ ومجمع البيان، ج٦، ص٢١٧؛ وعن العياشي.

٣ـ بحار الأنوار، ج١٨، ص٣٧٥.

إلى بيت المقدس، فقال عليه السلام: «ليس كما يقولون ولكنه أسري من هذه إلى هذه» ـ وأشار بيده إلى السماء ـ وقال: «ما بينهما حرم»[١].

والعيّاشيّ عن الصادق أنه سئل عن المساجد الّتي لها الفضل فقال: «المسجد الحرام ومسجد الرسول. قيل: والمسجد الأقصى؟ فقال: ذلك في السماء أسري إليه رسول الله. فقيل له: إنّ الناس يقولون: إنه بيت المقدس. فقال: مسجد الكوفة أفضل منه»[٢].

وفي «الكافي» عنه عليه السلام أنه سئل: كم عرج برسول اللّه؟ فقال: «مرّتين»[٣].

وفي «العيون» عن النبيّ صلى الله عليه وآله قال: «إنّ الله سخّرلي البراق وهي من دوابّ الجنّة فلو أنّ الله أذن لها لجالت الدنيا والآخرة في جرية واحدة»[٤].

والقميّ عن الصادق: «جاء جبرئيل وميكائيل وإسرافيل بالبراق إلى رسول الله فأخذ واحداً بالركاب وسوّى الآخر ثيابه عليه فتضعضعت البراق فلطمها جبرئيل ثمّ قال: اسكني يا براق فما ركبك نبيّ قبله ولا يركبك بعده، فرفعته ارتفاعاً ليس بالكثير ومعه جبرئيل يريه الآيات في السماوات والأرض قال صلى الله عليه وآله: فبينا أنا في سيري إذ نادى مناد عن يميني: يا محمّد، فلم اجبه ولم ألتفت اليه. ثمّ نادى مناد عن يساري: يا محمّد، فلم اجبه ولم ألتفت إليه، ثمّ استقبلتني امرأة كاشفة عن ذراعيها عليها من كلّ زينة الدنيا فقالت: يا محمّد انظرني حتّى اكلّمك. فلم ألتفت إليها ثمّ سرت فسمعت صوتا أفزعني فجاوزت فنزل بي جبرئيل فقال: صلّ، فصلّيت، فقال: تدري أين صلّيت؟ فقلت: لا، فقال: صلّيت بطيبة وإليها مهاجرك. ثمّ ركبت فمضينا ما شاء الله، ثمّ قال لي: انزل فصلّ، فنزلت وصلّيت، فقال: أتدري أين صلّيت؟ قلت: لا، قال: صلّيت

١ـ تفسير القمي، ج٢، ص٢٤٣.

٢ـ تفسيرالعياشي، ج٢، ص٢٧٩، وتفسير الصافي، ج٣، ص١٦٦؛ وعن العياشي.

٣ـ الكافي، ج١، ص٤٤٣.

٤ـ عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج١، ص٣٥.

بطور سينا حيث كلّم الله موسى تكليماً. ثمّ ركبت فمضينا ما شاء الله ثمّ قال لي: انزل فصلّ، فنزلت وصلّيت، فقال: أتدري أين صلّيت؟ قلت: لا، قال: صلّيت ببيت لحم بناحية بيت المقدس حيث ولد عيسى بن مريم.

ثمّ ركبت فمضينا حيث انتهينا إلى بيت المقدس فربطت البراق بالحلقة الّتي كانت الأنبياء تربط بها فدخلت المسجد وجبرئيل إلى جنبي فوجدنا إبراهيم وموسى وعيسى فمن شاء من أنبياء الله فقد جمعوا إليّ وأقيمت الصلاة فلمّا اصطفّوا واستووا أخذ جبرئيل بعضدي فقدّمني وأممتهم ولا فخر. ثمّ أتاني الخازن بثلاث أوان: إناء فيه لبن وإناء فيه ماء وإناء فيه خمر. وسمعت قائلاً يقول: إن أخذ الماء غرق وغرقت امّته وإن أخذ الخمر غوى وغوت امّته وإن أخذ اللبن هدي وهديت امّته. قال: فأخذت اللبن وشربت منه فقال جبرئيل: هديت وهديت أمّتك. ثمّ قال جبرئيل: ماذا رأيت في مسيرك؟ فقلت: ناداني مناد عن يميني، فقال: أو أجبته؟ قلت: لا. فقال: ذاك داعي اليهود ولو أجبته لتهوّدت أمّتك من بعدك. ثمّ قال: ماذا رأيت؟ قلت: ناداني مناد عن يساري، فقال: أو أجبته؟ قلت: لا. فقال: ذاك داعي النصارى ولو أجبته لتنصّرت أمّتك من بعدك. ثمّ قال: ماذا استقبلك؟ قلت: رأيت امرأة كاشفة عن ذراعيها عليها من كلّ زينة الدنيا، وقالت لي: انظرني اكلّمك يا محمّد. فقال لي: أوكلّمتها؟ قلت: لا. فقال: تلك الدنيا ولو كلّمتها لاختارت أمّتك الدنيا على الآخرة.

ثمّ سمعت صوتاً أفزعني فقال جبرئيل: هذه صخرة قذفتها في جهنّم منذ سبعين عاماً فهذا حين استقرّت ـ قالوا: فما ضحك رسول الله حتّى قبض ـ قال: فصعد جبرئيل وصعدت معه إلى سماء الدنيا وعليها ملك يقال له: إسماعيل وهو صاحب الخطفة الّذي قال الله: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾[1] وتحت حكمه سبعون ألف ملك فقال إسماعيل: يا جبرئيل من هذا معك؟ فقال: محمّد. قال: أو قد

١ـ سورة الصافات: ١٠.

بعث؟ قال: نعم، ثمّ فتح الباب فسلّمت عليه وسلّم عليّ واستغفرت له واستغفر لي وقال لي: مرحباً بالأخ الصالح والنبيّ الصالح.

وتلقّتني الملائكة حتّى دخلت السماء الدنيا فما لقيني ملك إلّا ضاحكاً مستبشرا حتّى لقيني ملك من الملائكة لم أر خلقاً أعظم منه كريه المنظر ظاهر الغضب، فقال لي مثل ما قالوا من التحيّة إلّا أنّه لم أر فيه الاستبشار فيمن رأيت من البشارة من الملائكة، فقلت: من هذا يا جبرئيل؟ فإنّي قد فزعت منه، فقال جبرئيل: ينبغي أن تفزع منه فكلّنا نفزع منه، إنّ هذا مالك خازن النار لم يضحك قطّ ولم يزل منذ ولّاه الله جهنّم يزداد غيظاً وغضبا على أعداء الله فينتقم الله به منهم، ولو ضحك إلى أحد كان قبلك أو كان ضاحكاً إلى أحد بعدك لضحك إليك، ولكنّه لا يضحك، فقلت لجبرئيل ـ وجبرئيل بالمكان الّذي وصفه الله ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾[1] ـ الا تأمره أن يريني النار؟ فقال جبرئيل: أر محمّداً النار، فكشف عنها غطاء وفتح منها باباً وخرج لهيب ساطع في السماء وفارت فارتفعت حتّى ظننت لتناولني ممّا رأيت، فقلت: يا جبرئيل: قل له فليردّ عليها غطاءها، فأمرها: ارجعي فرجعت إلى مكانها الّذي خرجت منه.

ثمّ مضيت فرأيت رجلاً آدم جسيماً فقلت: من هذا يا جبرئيل؟ فقال: هذا أبوك آدم، فإذا هو يعرض عليه ذرّيّته، فيقول: روح طيّب وريح طيّبة من جسد طيّب، ثمّ تلا رسول الله سورة المطفّفين على رأس سبع عشر آية: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾[2] إلى آخرها، قال: فسلّمت على أبي آدم وسلّم عليّ واستغفرت له واستغفر لي وقال: مرحباً بالابن الصالح والنبيّ الصالح والمبعوث في الزمن الصالح.

١ـ سورة التكوير: ٢١.

٢ـ سورة المطففين: ١٨ـ ٢١.

ثمّ مررت بملك من الملائكة جالس على مجلس، وإذا جميع الناس بين ركبتيه وبيده لوح من نور ينظر فيه، مكتوب فيه كتاب ينظر فيه لا يلتفت يميناً وشمالا مقبلاً عليه كهيئة الحزين، فقلت: يا جبرئيل من هذا؟ قال: هذا ملك الموت دائب في قبض الأرواح. فقلت: يا جبرئيل ادنني منه حتّى أكلّمه فأدناني منه فسلّمت عليه، فقال له جبرئيل: هذا محمّد نبيّ الرحمة الّذي أرسله الله إلى العباد فرحّب بي وحيّاني بالسلام، وقال: ابشر يا محمّد فإنّي أرى الخير كلّه في أمّتك، فقلت: الحمد لله المنّان ذي النعم على عباده، ذلك من فضل ربّي ورحمته عليّ. فقال جبرئيل: هو أشدّ الملائكة عملاً. فسألت منه أكلّ من مات أو يموت فيما بعد هذا يقبض روحه؟ قال: نعم، قلت: ويراهم حيث كانوا ويشهدهم بنفسه؟ فقال: نعم. فقال ملك الموت: ما الدنيا كلّها عندي فيما سخّرها الله لي ومكّنني عليها إلّا كالدرهم في كفّ الرجل يقلّبه كيف يشاء وما من دار إلّا وأنا أتصفّحه كلّ يوم خمس مرّات وأقول إذا بكى أهل الميّت على ميّتهم: لا تبكوا عليه فإنّ لي فيكم عودة وعودة حتّى لا يبقى منكم أحد. فقال رسول الله ﷺ: كفى بالموت طامّة يا جبرئيل، فقال جبرئيل: إنّ ما بعد الموت أطمّ وأطمّ من الموت.

قال: ثمّ مضيت فإذا بقوم بين أيديهم موائد من لحم طيّب ولحم خبيث يأكلون اللحم الخبيث ويدعون الطيّب، فقلت: من هؤلاء يا جبرئيل؟ قال: هؤلاء الّذين يأكلون الحرام ويدعون الحلال وهم من أمّتك.

فقال رسول الله: ثمّ رأيت ملكاً من الملائكة جعل الله أمراً عجيباً نصف جسده النار ونصف الآخر ثلجاً فلا النار يذيب الثلج، ولا الثلج يطفئ النار، وهو ينادي بصوت رفيع: سبحان الّذي كفّ حرّ هذه النار وكفّ برد هذا الثلج، اللّهمّ مؤلّف بين الثلج والنار ألّف بين قلوب عبادك المؤمنين. فقلت: من هذا يا جبرئيل؟ فقال: هذا ملك وكّله الله بأكناف السماء وأطراف الأرض وهو أنصح ملائكة الله لأهل الأرض من عباده المؤمنين يدعو لهم بما تسمع منذ خلق. وملكان يناديان في السماء أحدهما يقول:

اللهمّ أعط كلّ منفق خلفاً. والآخر يقول: اللّهمّ أعط كلّ ممسك تلفاً. ثمّ مضيت فإذا بأقوام لهم مشافر كمشافر الإبل يقرضون اللحوم من جنوبهم ويلقون في أفواههم، فقلت: من هؤلاء؟ فقال: هؤلاء الهمّازون اللمّازون. ثمّ مضيت فإذا أنا بأقوام يرضخ رءوسهم بالصخر، فقلت: من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الّذين ينامون عن صلاة العشاء ثمّ مضيت فإذا بأقوام تقذف النار في أفواههم وتخرج من أدبارهم، فقلت: من هؤلاء؟ قال: هؤلاء ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾[1]. ثمّ مضيت بأقوام يريد أحدهم أن يقوم فلا يقدر من عظم بطنه فقلت: من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الّذين يأكلون الربا لا يقومون إلّا كما يقوم الّذي يتخبّطه الشيطان من المسّ، وإذا هم بسبيل آل فرعون يعرضون على النار غدواً وعشيّا يقولون: ربّنا متى تقوم الساعة؟ قال: ثمّ مضيت فإذا بنسوان معلّقات بثديهنّ فقلت: من أولات؟ فقال: النساء اللواتي يورثن أموال أزواجهنّ أولاد غيرهم، ثمّ قال النبيّ: واشتدّ غضب الله على امرأة أدخلت على قوم في نسبهم من ليس منهم فاطّلع على عوراتهم وأكل خزائنهم. ثمّ مررنا بملائكة الله خلقهم الله كيف شاء ووضع وجوههم كيف شاء ليس من أطباق أجسادهم إلّا وهو يسبّح الله ويحمده من كلّ ناحية بأصوات مختلفة أصواتهم مرتفعة بالتحميد والبكاء من خشية الله. فسألت جبرئيل عنهم، فقال: كما ترى خلقوا إنّ الملك منهم إلى جنب صاحبه ما كلّمه قطّ ولا رفعوا رءوسهم إلى ما فوقها ولا خفضوها إلى ما تحتها خوفاً لله وخشوعا. فسلّمت عليهم فردّوا عليّ إيماء برءوسهم لا ينظرون إليّ من شدّة الخشوع فقال لهم جبرئيل: هذا محمّد نبيّ الرحمة أرسله الله على العباد رسولاً ونبيّا، وهو خاتم النبوّة أفلا تكلّموه؟ فلمّا سمعوا ذلك من جبرئيل أقبلوا عليّ بالسلام وأكرموني وبشّروني بالخير لي ولأمّتي.

ثمّ صعدنا إلى السماء الثانية فإذا فيها رجلان متشابهان فقلت: من هذان؟ قال:

١ـ سورة النساء: ١٠.

أبناء الخالة يحيى وعيسى فسلّمت عليهما وسلّما عليّ واستغفرت لهما واستغفرا لي وقالا: مرحباً بالأخ الصالح والنبيّ الصالح.

ثمّ صعدنا إلى السماء الثالثة فإذا فيها رجل فضل حسنه على سائر الخلق كفضل قمر ليلة البدر على سائر النجوم، فقلت: من هذا يا جبرئيل؟ فقال: هذا أخوك يوسف، فسلّمت عليه وسلّم عليّ واستغفرت له واستغفر لي وقال: مرحباً بالأخ الصالح والنبيّ الصالح والمبعوث في الزمن الصالح. وإذا فيها ملائكة عليهم من الخشوع مثل ما وصفت في السماء الأولى والثانية، وقال لهم جبرئيل في أمري مثل ما قال للآخرين وصنعوا لي مثل ما صنعوا.

ثمّ صعدنا إلى السماء الرابعة وإذا فيها رجل فقلت: من هذا؟ قال: هذا إدريس رفعه الله مكاناً عليّاً، فسلّمت عليه وسلّم عليّ واستغفرت له واستغفر لي، وإذا فيها من الملائكة مثل ما في السماوات فبشّروني بالخير لي ولأمّتي، ثمّ رأيت ملكاً جالساً على سرير تحت يديه سبعون ألف ملك تحت يد كلّ ملك سبعون ألف ملك فوقع في نفس رسول الله ﷺ أنه هو، فصاح به جبرئيل وقال: قم، فهو قائم إلى يوم القيامة.

ثمّ صعدنا إلى السماء الخامسة فإذا فيها رجل كهل عظيم العين لم أر كهلاً أعظم منه حوله ثلّة من امّته فأعجبني كثرتهم فقلت: من هذا؟ فقال: هذا هارون بن عمران، فسلّمت عليه وسلّم عليّ، وكذلك.

ثمّ صعدنا إلى السماء السادسة وإذا فيها رجل آدم طويل عليه سمرة ولولا أنّ عليه قميصين لنفذ شعره فيهما. وسمعت يقول: يزعم بنو إسرائيل أنّي أكبر ولد آدم على الله وهذا رجل أكبر على الله منّي، فقلت: من هذا؟ فقال: هذا أخوك موسى بن عمران، فسلّمت عليه وسلّم عليّ وكذلك من الملائكة مثل ما في السماوات.

ثمّ صعدنا إلى السماء السابعة فما مررت بملك من الملائكة إلّا قالوا: يا محمّد احتجم وأمر أمّتك أن يحتجموا. وإذا فيها رجل أشمط الرأس واللحية جالس على كرسيّ

فقلت: يا جبرئيل من هذا الّذي في السماء السابعة؟ فقال: هذا أبوك إبراهيم وهذا محلّك ومحلّ من اتّقى من أمّتك، ثمّ قرأ ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1] فسلّمت عليه وسلّم عليّ وقال: مرحباً بالنبيّ الصالح والابن الصالح والمبعوث في الزمن الصالح. وإذا فيها من الملائكة الخشّع مثل ما في السماوات فبشّروني بالخير لي ولأمّتي.

قال رسول الله: ورأيت في السماء السابعة بحار من نور يتلألأ يكاد تلألؤها يخطف بالأبصار، وفيها بحار مظلمة فكلّما فزعت ورأيت سألت جبرئيل فقال: ابشر يا محمّد واشكر كرامة ربّك واشكر الله ما صنع إليك، قال: فثبّتني الله بعونه وقوّته حتّى كثر قولي لجبرئيل ويعجبني فقال جبرئيل: يا محمّد تعظم ما ترى؟ إنّما هذا خلق من خلق ربّك فكيف بالخالق الّذي خلق ما ترى وما لا ترى أعظم من هذا من خلق ربّك إنّ بين الله وبين خلقه تسعين ألف حجاب وأقرب الخلق إلى الله أنا وإسرافيل بيننا وبينه أربعة حجب: حجاب من نور وحجاب من ظلمة وحجاب من الغمام وحجاب من ماء.

قال ﷺ: ورأيت من العجائب الّذي خلقه الله وسخّر به على ما أراد ديكا ورجلاه في تخوم الأرضين السابعة ورأسه عند العرش وله جناحان إذا نشرهما جاوزا المشرق والمغرب فإذا كان في السحر نشر جناحيه وخفق بهما وصرخ بالتسبيح يقول: سبحان الملك القدّوس سبحان الله الكبير المتعال لا إله إلّا هو الحيّ القيّوم، فإذا قال ذلك صاح ديك الأرض كلّها، ولذلك الديك زغب[2] أخضر وريش أبيض كأشدّ بياض». وبالجملة فالحديث طويل فأسقطت منه بعضاً إلى أن ينتهي الحديث: قال رسول الله: «فلمّا انتهيت إلى سدرة المنتهى فإذا الورقة منها تظلّ أمّة من الأمم

١ـ سورة آل عمران: ٦٨.

٢ـ الزغب: صغار الشعر.

فكنت منها كما قال الله: ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾[١] فناداني ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾[٢] ـ وقد مضى شرحه في سورة البقرة ـ ثمّ سمعت الأذان فإذا ملك يؤذن فقال: الله أكبر الله أكبر، فقال الله: صدق عبدي. فقال: أشهد أنّ لا إله إلّا الله، فقال الله: صدق عبدي أنا الله لا إله غيري، فقال: أشهد أنّ محمّداً رسول الله، فقال الله: صدق عبدي، إنّ محمّداً عبدي ورسولي أنا بعثته وانتجبته، فقال: حيّ على الصلاة، فقال: صدق عبدي دعا إلى فريضتي فمن مشى إليها راغباً فيها محتسبا كانت كفّارة لمّا مضى من ذنوبه، فقال: حيّ على الفلاح، فقال الله: هي الصلاح والنجاح والفلاح. ثمّ أممت الملائكة في السماء كما أممت الأنبياء في بيت المقدس.

ثمّ غشيني ضبابة[٣] فخررت ساجداً فناداني ربّي أنّي قد فرضت على كلّ نبيّ كان قبلك خمسين صلاة وفرضتها عليك وعلى أمّتك فقم بها أنت في أمّتك. فقال النبيّ: فانحدرت إلى إبراهيم فلم يسألني عن شيء حتّى انتهيت إلى موسى، فقال: ما صنعت يا محمّد؟ فقلت: قال ربّي: فرضت على كلّ نبيّ كان قبلك خمسين صلاة وفرضتها عليك وعلى أمّتك. فقال موسى: إنّ أمّتك آخر الأمم وأضعفها وإنّ ربّك لا يردّك شيئاً فارجع إلى ربّك فاسأله التخفيف لأمّتك فرجعت إلى ربّي حتّى انتهيت إلى السدرة فخررت ساجداً، ثمّ قلت: فرضت عليّ وعلى أمّتي خمسين صلاة فخفّف عني، فوضع عنّي عشراً فرجعت إلى موسى فأخبرته، قال: ارجع واسأل التخفيف، وهكذا في كلّ رجعة أفعل حتّى وصلت إلى خمس فرجعت إلى موسى وأخبرته فقال: لا تطيق أمّتك، فقلت: قد استحيت من ربّي ولكن أصبر عليها، فناداني مناد كما صبرت عليها فهذه الخمس بخمسين كلّ صلاة بعشر ومن همّ من أمّتك بحسنة يعملها فعملها كتبت له عشراً وإن

١ـ سورة النجم: ٩.

٢ـ سورة البقرة: ٢٨٥.

٣ـ الغمام الرقيق يغشى الأرض.

لم يعمل كتبت له واحدة، ومن همّ بسيئة من أمّتك فعملها كتبت عليه واحدة وإن لم يعملها لم أكتب عليه». فقال الصادق عليه السلام: «جزى الله موسى عن هذه الأمّة خيراً».[1]

فهذا مختصر تفسير قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا...﴾ فكلمة ﴿سُبْحَٰنَ﴾ معناه إبراء الله وتنزيهه عمّا لا يليق به من الصفات، وقد يراد به التعجيب يعني: سبحان الّذي سيّر عبده محمّداً! وهذا الأمر من عجيب قدرة الله، تعجيب ممّن لم يقدّر الله حق قدرته وأشرك في عبادته غيره، ولمّا كان هذا الأمر مشاهدة العجب حسن التسبيح.

قال أكثر المفسّرين: أسري برسول الله من دار أمّ هانئ أخت عليّ بن أبي طالب[2] وزوجها هبيرة بن أبي وهب المخزوميّ وكان صلى الله عليه وآله نائماً تلك الليلة في بيتها، وإنّ المراد بالمسجد الحرام هنا مكّة والحرم، ومكّة كلّها مسجد. وقيل: الإسراء من نفس المسجد الحرام.

﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ أي: بعيد المسافة وقد بورك حوله من الأثمار والأشجار والزرع والنبات والأمن، أو لأنّه مقرّ الأنبياء ومعبد لهم ومقدّس عن الشرك، واجتمع فيه بركة الدين والدنيا ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ﴾ عجائب حججنا لأنّ كلّما رآه صلى الله عليه وآله في تلك اللّيل آيات باهرات ﴿إِنَّهُۥ﴾ تعالى ﴿سَمِيعُ﴾ بأقوال من صدق بذلك أو كذب، البصير فيما فعل من الإسراء والمعراج.

وهاهنا تحقيق للرازيّ وهو إثبات الجواز العقليّ لأنّ الحركة الواقعة في السرعة إلى هذا الحدّ ممكنة في نفسها والله قادر على جميع الممكنات والدليل على أنّ الحركة الواقعة إلى هذا الحدّ من السرعة ممكنة أنّ الفلك

١ـ تفسير القمي، ج٢، ص١٢.

٢ـ الرسائل التسع، المحقق الحلي، ص٣٢٩، وانظر: مناقب آل أبي طالب، ج١، ص١٥٣؛ ومجمع البيان، ج٦، ص٢١٧.

الأعظم يتحرّك من أوّل الليل إلى آخره ما يقرب من نصف الدور فعلى هذا أن يقال: إنّ رسول اللهﷺ ارتفع من مكّة إلى ما فوق الفلك الأعظم فكان حصول الحركة بمقدار نصف القطر، فلمّا حصل في ذلك القدر من الزمان حركة نصف الدور، فكان حصول الحركة بمقدار نصف القطر أولى بالإمكان فهذا برهان قاطع على أنّ الارتقاء من مكّة إلى ما فوق العرش في مقدار ثلث من الليل أمر ممكن في نفسه، وإذا كان كذلك كان حصوله في كلّ الليل أولى بالإمكان.

ثمّ إنّه ثبت في الهندسة أنّ قرص الشمس يساوي كرة الأرض مائة وستّين وكذا مرّة وإنّا نشاهد أنّ طلوع الشمس والقمر يحصل في زمان سريع أقلّ من دقيقة، فذلك يدلّ على أنّ بلوغ الحركة في السرعة إلى الحدّ المذكور أمر ممكن في نفسه.

وهاهنا وجه آخر وبيان أوضح وهو أنّه كما يستبعد في العقل صعود الجسم الثقيل من مركزه إلى ما فوق العرش فكذلك يستبعد نزول الجسم اللطيف الروحانيّ الخفيف من فوق العرش إلى مركز الأرض، فإن كان القول بمعراج محمّدﷺ في الليلة الواحدة ممتنعاً في العقل كان القول بنزول جبرئيل من العرش إلى مكّة في اللحظة الواحدة ممتنعاً ولو حكمنا بهذا الامتناع كان ذلك طعنا في نبوّة جميع الأنبياء وطعنا في أصل النبوّة فثبت أنّ القائلين بامتناع حصول حركة سريعة إلى هذا الحدّ يلزمهم القول بامتناع نزول جبرئيل في اللحظة الواحدة من العرش إلى مكّة، ولمّا كان ذلك باطلاً كان ما ذكروه باطلاً.

فإن قالوا: نحن لا نقول: إنّ جبرئيل جسم ينتقل من مكان إلى مكان وإنّما نقول: المراد من نزول جبرئيل هو زوال الحجب الجسمانيّة عن روح محمّدﷺ حتّى يظهر في روحه من المكاشفات والمشاهدات بعض ما كان حاضراً متجلّياً في ذات جبرئيل.

قلنا: تفسير الوحي بهذا الوجه هو قول الحكماء وأمّا جمهور أهل الإسلام مطلقاً فهم مقرّون أنّ جبرئيل جسم وأنّ نزوله عبارة عن انتقاله من عالم الأفلاك إلى مكّة كما أنّ الّذي عنده علم من الكتاب أحضر عرش بلقيس مع حجمه من أقصى اليمن إلى أقصى الشام في مقدار لمح البصر، وإذا كان هذا ممكناً كان ذاك ممكناً على أنّ الأمور الإعجازيّة لابدّ وأن يكون خارجة عن الطبيعة العاديّة وإلّا لم يكن معجزة كما في عصا موسى، فلمّا صحّ حصول مثل هذه الحركة السريعة في بعض الأجسام صحّ إمكانها في سائر الأجسام والأجسام متماثلة في تمام الماهيّات، وإذا كانت الرياح تسير بسليمان إلى المواضع البعيدة في الأوقات القليلة كما قال سبحانه: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾[1] فكيف لا يتعقّل أنّ البراق مع أمر اللّه أقلّ قوّة من الهواء المتموّج.

وعلى قول من يقول: الحيوان إنّما يبصر المبصرات لأجل أنّ الشعاع يخرج من عينيه ويتّصل بالمبصر في لحظة واحدة وهذا الأمر من الحسّيّات فالّذي أودع في إنسان العين هذه القوّة السريعة أسرى بعين الإنسان أعني أحمد ﷺ هذا السرى، وفي هذا المقدار من البيان كفاية لمن أسلم وجهه لقدرة اللّه فثبت أنّ هذا الأمر ممكن الوجود في نفسه وقد نطق به الكتاب والسنّة وأقصى ما في الباب أنّه من العجائب فانقلاب عصى صغيرة ثعباناً يبلع سبعين ألف حبلاً وخروج الناقة العظيمة من الجبل الأصمّ أيضاً عظيم، فيلزم للمنكر بفساد القول بجميع المعجزات والنبوّات.

وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾

١ـ سورة سبأ: ١٢.

لمّا ذكر في الآية السابقة إكرامه محمّداً بالإسراء ذكر في هذه الآية إكرام موسى بالكتاب يعني: التوراة، وجعلنا بواسطة التوراة خروج بني إسرائيل من ظلمات الجهل إلى هداية الإيمان، وقلنا لهم: لا تتّخذوا غيري ربّا، وقرئ «يتّخذوا» بالياء. وفي هذه الآية صنعة الالتفات وصنعة الالتفات كقوله تعالى: ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا﴾[1] فكذلك الصرف من الغيبة إلى الخطاب والنهي بقوله: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا﴾ وحاصل الكلام من ذكر تشريف محمّد بالإسراء ومن تشريف موسى بالتوراة وحاصل هذه التشريفات والهدايات التمحّض في التوحيد والنهي عن الاتّكال بغير اللّه.

ثمّ قال سبحانه: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ وفي نصب ذرّيّة قولان: قيل: منصوب على النداء يعني: لا تتّخذوا يا ذرّيّة من حملنا مع نوح في السفينة لأنّ الناس كلّهم ذرّيّته لأنّه كان معه في السفينة سام وحام ويافث كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾[2]. وقيل: النصب على المفعوليّة والتقدير: لا تتّخذوا ذرّيّة نوح من دوني تكلون إليهم أموركم أي: لا تكلون أموركم إلى غير اللّه.

ثمّ وصف نوحاً بالشكر وقال: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا﴾ كثير الشكر، وروي أنّه عليه السلام كان إذا أراد الإفطار عرض طعامه على من آمن به، فإن وجده محتاجا آثره به، وروي أنّه عليه السلام كان إذا أكل قال: «**الحمد للّه الّذي أطعمني ولو شاء أجاعني**»، وإذا شرب قال: «**الحمد للّه الّذي أسقاني وإن شاء أظمأني**»، وإذا اكتسى قال: «**الحمد للّه الّذي كساني ولو شاء أعراني**»، وإذا احتذى قال: «**الحمد للّه الّذي حذاني ولو شاء أحفاني**».[3]

١ـ سورة ص: ٦.

٢ـ سورة الحج: ١.

٣ـ جامع البيان، ج١٥، ص٢٧، وتاريخ مدينة دمشق، ج٦٢، ص٢٧٤.

ووجه ملاءمة الآية لما قبله تفسير لما قال تعالى: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا﴾ ووحّدوني، وأنّ العبد لو يرى حصول نعمة وشكر ربّه ولا يرى تلك النعمة إلّا من فضل الله فوحّده فقال: اقتدوا به ووحّدوني ولا تشركوا بي شيئاً.

وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾

القضاء فصل الأمر على إحكام وبمعنى الخلق والإحداث قال: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾[1] وبمعنى الإيجاب كما قال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾[2] وبمعنى الإعلام والإخبار بما يكون من الأمر وهو المعني هاهنا.

أي أوحينا إليهم وأخبرناهم في التوراة أنّ أنتم يا بني إسرائيل ﴿لَتُفْسِدُنَّ﴾ وستفسدون في البلاد الّتي تسكنونها وهي بيت المقدس كرّتين، والمراد بالفساد الظلم وأخذ المال وسفك الدماء وقتل الأنبياء. وفسادهم الأوّل: قتل زكريّا، والثاني: قتل يحيى. وتستعلون على الناس استعلاء عظيماً.

﴿فَإِذَا جَاءَ﴾ وقت انتقام فساد الأوّل ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ﴾ قوماً ﴿أُولِي بَأْسٍ﴾ ونجدة أي: خلّينا بينكم وبينهم وغلبوكم وخذلوكم. واختلف أنّهم من هم؟ فقيل: شابور ذو الأكتاف من ملوك فارس في قتل زكريّا وسلّط عليهم في قتل يحيى بخت نصّر. وقيل: الفساد الأوّل قتل شعيباً والثاني قتل يحيى وأنّ زكريّا مات حتف أنفه. وقيل: كان الأوّل داود قتل جالوت، والثاني بخت نصّر.

﴿فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ﴾ أي: فطافوا وسط الديار يتردّدون وينظرون هل

١ـ سورة فصلّت: ٢٣.

٢ـ سورة الإسراء: ٢٣.

بقي منهم أحد لم يقتلوه؟ وكان موعود الله كائناً لا خلف فيه.

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ ﴾ يا بني إسرائيل وعاد ملككم على ما كان ﴿وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ﴾ وأكثرنا لكم أموالكم وأولادكم ورددنا لكم الكرّة والعدّة والقوّة ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ﴾ عدداً وأنصارا من عدوّكم، قالوا: إنّ في الفساد الأوّل سلّط الله عليهم بخت نصّر فقتل منهم أربعين أو سبعين ألفاً ممّن يقرأ التوراة وذهب بالبقيّة إلى بابل فبقوا هناك في الذلّ إلى أنّ قيّض الله ملكاً آخر فغزا أهل بابل واتّفق أن تزوّج بامرأة من بني إسرائيل فطلبت تلك المرأة من ذلك الملك أن يردّ بني إسرائيل إلى بيت المقدس ففعل وبعد مدّة قامت فيهم الأنبياء ورجعوا إلى أحسن ما كانوا فهو قوله: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ ﴾.

وقيل: إنّ الله ألقى الرعب من بني إسرائيل في قلوب المجوس، فلمّا كثرت معاصيهم أزال الرعب عن قلوب المجوس فقصدوهم وبالغوا في قتلهم وإهلاكهم.

وحاصل الكلام أنّ إضافة هذا الفعل من حيث الأمر جزاء على فعلهم والمراد من هذا البعث التخلية وعدم المنع وهذه التخلية بسبب إقدامهم على الفساد وسوء اختيارهم، فوقع الأمر جزاء أو عقوبة.

إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾

شرح الله في الآية بأن إذا أطعتم فقد أحسنتم إلى أنفسكم وإن أصررتم على المعصية والكفر فقد أسأتم على أنفسكم، أي: إذا أطعتم يفتح الله لكم أبواب الخيرات والبركات وإذا خالفتم يفتح الله لكم أبواب

العقوبات. ومعنى «فلها» أي: فإليها وعليها، وحروف الإضافه والنسبة يقوم بعضها مقام بعض كقوله: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾[١] أي: أوحى إليها. وإنّما قال: «فلَها» للتقابل وذكر الإحسان في الآية مرّتان والإساءة مرّة إشعارا بأنّ جانب الرحمة غالب على جانب العقوبة.

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأَخِرَةِ﴾ معناه وعد المرّة الأخيرة وهي إقدامهم على قتل يحيى ﴿لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ وإنّما عزّ الإساءة إلى الوجوه لأنّ آثار الأعراض النفسانيّه الحاصلة في القلب إنّما تظهر على الوجه، فحسنت النسبة إلى الوجوه، لأنّ المبعوثين هم الّذين يسوءونهم بالقتل والأسر فتبيّن أوّلاً هذا الأثر في الوجه. وقرئ «ليسوء» بفتح الهمزة، وقرئ بالنون «لنسوء» والقراءة المشهورة «ليسوءوا» بقرينة ﴿وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا﴾ أي: مسجد بيت المقدس ونواحيه.

أي وليستولوا على البلد لأنّه لا يمكنهم دخول المسجد إلّا بعد الاستيلاء على البلد ﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أولئك ﴿وَلِيُتَبِّرُوا۟﴾ ويدمّروا ما غلبوا ويهلكوا من بلادكم تدميرا، مدّة علوّهم وغلبتهم ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ﴾ يا بني إسرائيل ﴿أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ بعد انتقامه منكم إن تبتم ورجعتم إلى طاعته ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ﴾ إلى الفساد ﴿عُدْنَا﴾ بكم إلى العقاب لكم والتسليط عليكم كما فعلنا فيما مضى. قيل: إنّهم عادوا بعد الأولى والثانية فسلّط اللّه عليهم المؤمنين يقتلون ويأخذون منهم الجزية.

﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَـٰفِرِينَ﴾ سجناً، ومحبسا، وكان بين الفساد الأوّل والثاني الّذي قتل في الفساد الثاني يحيى مائة سنة، وقتل بخت نصّر من بني إسرائيل مائة ألف وثمانين ألفاً وخرّب بيت المقدس إلى أن بناه أصحاب رسول اللّه.

١ـ سورة الزلزلة: ٥.

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾

النظم: لمّا بيّن في الآية السابقة إنّا آتينا موسى الكتاب كذلك آتيناك يا محمّد القرآن ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى﴾ إلى الأحسن الأقوم من جميع الأديان والكتب، ويرشد إلى الكلمة الّتي هي أعدل الكمالات وهي كلمة التوحيد والإيمان به وبرسله والعمل بطاعته ﴿وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بأنّ لهم ثواباً عظيماً على طاعتهم ويبشّر أيضاً بأنّ ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ هيّأنا لهم عذاب النار الموجع وإنّما سمّي الثواب الأجر لأنّه يستحقّ في مقابلة العمل كالاجرة الّتي في مقابلة العمل.

﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ﴾ أي: إنّ الإنسان ربّما يدعو في حال الغضب والزجر على نفسه وأهله وولده بما لا ينبغي أن يستجاب له فيه كما يدعو لنفسه بالخير فلو أجاب إليه دعاءه لأهلكه لكنّه لا يجيب دعاءه بفضله ورحمته، وقيل: معناه أنّ الإنسان قد يطلب الشرّ لاستعجاله المنفعة المتصوّرة عند نفسه ويدعو في طلب المحظور كدعائه في طلب المباح ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ بالدعاء في الشرّ عجلته بالدعاء في الخير أي: إنّ الإنسان ضجر لا صبر له لا على ضرّاء ولا على سرّاء، وروي عنه أنّه أراد به آدم عليه السلام لمّا انتهت النفخة إلى سرّته أراد أن ينهض فلم يقدر فشبّه اللّه ابن آدم بأبيه في

الاستعجال وطلب الشيء قبل وقته[١]، والقياس في «يدع» بالواو إلّا أنّه حذف في المصحف عن الكتابة لكن لم يحذف في المعنى لأنّها في موضع الرفع ونظيره ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾[٢] ونظير ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٣] ونظير ﴿يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ﴾[٤] ولو كان بالواو لكان صواباً أيضاً، هذا كلام الفرّاء.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ ولمّا ذكر في الآية السابقة النعمة الدينيّة من القرآن والرسول أتبعه بذكر النعم الدنيويّة، أي: كما أنّ القرآن ممتزج من المحكم والمتشابه، فكذلك الدهر مركّب من الليل والنهار، فالمحكم كالنهار، والمتشابه كالليل، وأردف بذكر الدلائل التوحيديّة وهو عجائب العالم العلويّ والسفليّ أي: جعلهما دليلين للخلق على مصالح الدين والدنيا، أمّا الدين فمن تغييرهما يستنبط الإنسان على وجود الإله القادر المقدّر لأنّ كونهما متعاقبين على الدوام ومتغيّرين أقوى دليل على أنّهما غير موجودين لذاتهما، ولابدّ لهما من فاعل، وأمّا في الدنيا فلأنّ مصالح الدنيا لا تتمّ إلّا بالليل والنهار.

﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾ بالنهار وآية النهار بالليل يعني: طمسنا آية الليل وهي القمر ومحونا نورها ﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ﴾ أي: الشمس ﴿مُبْصِرَةً﴾ ونيّرة مضيئة للأبصار يبصر أهل النهار بها، والمراد من المحو ما لا يبصر كالشيء الممحوّ من الكتاب وآية الليل نفسه وظلمته وآية النهار ضوؤه.

ثمّ بيّن سبحانه الغرض في ذلك فقال: ﴿لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ ولتسكنوا وتستريحوا بالليل وتطلبوا المعاش في النهار بأنواع الأمور المباحة، وهذا الاختلاف فيه فائدة أخرى وهي أنّه تعلمون منه عدد أشهركم وسنينكم

١ـ مجمع البيان، ج٦، ص٢٢٦.

٢ـ سورة العلق: ١٨.

٣ـ سورة النساء: ١٤٦.

٤ـ سورة ق: ٤١.

وحسابكم بعضكم بعضاً لأوقات معاملاتكم وصومكم وصلاتكم وحجكم وسائر الأمور المتعلّقة بالأوقات.

وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾

المعنى: الإنسان يقع على المذكّر والمؤنّث وإذا أردت الفصل قلت: رجل وامرأة. وكذلك فرس يقع على المذكّر والمؤنّث، واشتقاقه من الإنس، وهو فعلان عند البصريّين، وعند الكوفيّين هو من النسيان حذفت الياء تخفيفاً، والطائر هاهنا عمل الإنسان شبّه بالطائر الّذي يسنح ويتبرّك به، والطائر الّذي يبرح فيتشاءم به، وعند العرب أنّه إذا كان الطير سانحاً أمكن الرأي وإذا كان بارحاً لا يمكنهم بزعمهم، قال الكميت:

ولا أنا ممّن يزجر الطير همّـه ... أصاح غراب أم تعرّض ثعلب[1]

وإنّما خصّ العنق بالذكر أي: لازم ولاصق العمل بالعنق كلزوم القلادة للعنق، والعرب يقيم هذا العضو مقام الذات يقال: أعتقت الرقبة، أي: كلّ العبد. يريد أنّ الطوق يزين المحسن والغلّ يشين المسيء فعمل الإنسان شبه الطائر الميمون والطائر المشئوم.

﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا﴾ كتبه الحفظة من أعمالهم يرى ذلك الكتاب مفتوحاً ﴿مَنشُورًا﴾ عليه ليقرأه ويعلمه، والهاء في «له» عائد إلى العامل أو العمل يقال له: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ﴾ أن جعل نفسك محاسبا لنفسك

١ـ الأمالي. للسيد المرتضى، ج ١، ص ٤٧.

وذلك اليوم يقرأ من لم يكن في الدنيا قارئاً.

﴿مَنِ اهْتَدَىٰ﴾ في الدنيا إلى دين الله وطاعته فمنفعته اهتدائه راجعة إليه ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ عن الدين في الدنيا فإنّما ضرره وضرر ضلاله راجع إلى نفسه، ولا تحمل نفس حاملة حمل أخرى وثقل ذنوب غيره أي: لا يعاقب أحد بذنوب غيره، وفي هذه الآية دلالة على بطلان قول من يقول: إنّ أطفال الكفّار يعذّبون مع آبائهم في النار.

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ﴾ أي: ما نعذّب قوماً بعذاب الاستئصال إلّا بعد الإعذار إليهم والإنذار لهم بأبلغ الوجوه وهو إرسال الرسل إليهم مظاهرة في العقل وإن كان يجوز مؤاخذتهم على العقليّات معجّلاً كالإيمان بالله. وبالجملة قال بعض: إنّ الآية عامّة في العقليّات والسمعيات، وقال الأكثرون من المفسّرين ـ وهو الأصحّ ـ: إنّ المراد من الآية أنّه لا يعذّب أحدا في الدنيا ولا في الآخرة إلّا بعد البعثة. فتكون الآية خاصّة فيما يتعلّق بالسمع في الشرعيّات، وأمّا ما كانت الحجّة فيه من جهة العقل وهو الإيمان بالله فإنّه يجوز العقاب بتركه وإن لم يبعث الرسول عند من قال: التكليف العقليّ ينفكّ من السمعيّ. على أنّ المحقّقين منهم يقولون: إنّه وإن جاز التعذيب عليه قبل بعثة الرسل لكنّه سبحانه لا يفعل ذلك ولا يعاقب أحدا حتّى ينفذ المنبّهين إلى الحقّ الهادين إلى الرشد تقوية للحجّة وزوالا للريبة، وقد أخبر سبحانه في هذه الآية عن هذا الأمر وهذا لا يدلّ على أنّه لو لم يبعث رسولاً لم يحسن منه أن يعاقب العبد إذا ارتكب القبائح العقليّة.

وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَـٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ

﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ
وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا
نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾
ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ
تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾

اللغة: قرئ «آمرنا» بالمدّ و«أمّرنا» بالتشديد، وعلى القراءة المشهورة يكون المعنى ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ﴾ أهل ﴿قَرْيَةً أَمَرْنَا﴾ رؤساءهم ومتنعميهم ومتموّليهم بالطاعة والإيمان واتّباع الرسل أمراً بعد أمر تكريراً عليهم، وبيّنة بعد بيّنة إعذارا لهم وتوكيدا للحجّة عليهم ﴿فَفَسَقُوا۟ فِيهَا﴾ بالخلاف والتمادي في العصيان ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا﴾ الوعيد ﴿فَدَمَّرْنَٰهَا﴾ وأهلكناها إهلاكاً.

وإنّما خصّ المترفين بالذكر لأنّ غيرهم تبع لهم فيكون الأمر لهم أمراً لأتباعهم فيكون حينئذ قوله: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ جواباً لإذا، وإليه يؤول ما روي عن ابن عبّاس وسعيد ابن جبير أنّ معناه: أمرناهم بالطاعة فعصوا وفسقوا، كقولك: أمرتك فعصيتني. ويشهد بصحّة هذا المعنى الآية المتقدّمة وهي قوله: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ـ إلى قوله ـ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ على أنّه لم يجز في العقول تقديم إرادة العذاب على المعصية لأنّه عقوبة عليها ويستحقّه لأجلها، فمتى لم توجد المعصية لم يحسن فعل العقاب، وإذا لم يحسن فعله لم يحسن إرادته. وقد ذكروا وجوهاً أخر وهو أنّ قوله: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ من صفة القرية وتقديره: وإذا أردنا أن نهلك قرية صفتها أنّا كنّا قد أمرنا مترفيها ففسقوا فيها. فلا يكون لإذا جواب ظاهر في اللفظ للاستغناء عنه بما في الكلام من الدلالة عليه، ونظيره ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا

وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا ـ إلى قوله ـ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾[1] فلم يأت لإذا جواب في طول الكلام للاستغناء عنه.

ووجه آخر أنّ الآية محمولة على التقديم والتأخير وتقديرها: إذا أمرنا في قرية بالطاعة فعصوا أردنا إهلاكهم. وممّا يمكن أن يكون شاهداً لهذا الوجه قوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾[2] والطهارة إنّما تجب قبل القيام إلى الصلاة، والأصحّ القول الأوّل.

قال الكعبيّ: إنّ سائر الآيات دلّت على أنّه لا يبتدئ بالتعذيب والإهلاك لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ...﴾[3] وقوله: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾[4] وقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَـٰلِمُونَ﴾[5] وقوله: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾[6] ومن المحال أن يقع بين آيات القرآن تناقض فيجب حمل هذه الآية على تلك الآيات، ولأنّه تعالى لا يعذّب أحدا بما يعلمه منه ما لم يعمل به. قوله: ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ﴾ أي: وجب حينئذ على أهلها الوعيد والهلاك.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾ والأمم الماضية المكذّبة ﴿مِنۢ بَعْدِ﴾ زمان ﴿نُوحٍ﴾ إلى زمانك هذا، لأنّ «كم» للتكثير كما أنّ «ربّ» للتقليل. والقرن مائة وعشرون سنة، وقيل: مائة سنة. وقيل: أربعون سنة. وقيل: ثمانون سنة. ﴿وَكَفَىٰ﴾ ربّك عالماً ﴿بِذُنُوبِ﴾ خلقه ﴿بَصِيرًۢا﴾ بها يجازيهم عليها.

١ـ سورة الزمر: ٧٤ـ٧٣.

٢ـ سورة المائدة: ٦.

٣ـ سورة الرعد. ١١.

٤ـ سورة النساء: ١٤٧.

٥ـ سورة القصص: ٥٩.

٦ـ سورة الإسراء: ١٥.

ثمّ بيّن سبحانه أنّه يدبّر عباده بحسب ما يراه من المصلحة فقال: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ﴾ أي: النعم العاجلة وهي الدنيا فعبّر عنها بصفتها ﴿عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ﴾ من البسط والتقتير، وعلّق ذلك بمشيئته لا بمشيئة العبد وقد يشاء العبد ما لا يشاؤه اللّه فلا يعطيه لكونه مفسدة لمن يريد إعطاءه بحسب المصلحة ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا﴾ ويحترق بنارها ﴿مَذۡمُومٗا مَّدۡحُورٗا﴾ مبعَداً من الرحمة.

﴿وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ بشرط أن ينبغي لها بالأعمال الصالحة والنيّات الصادقة لأنّ الأعمال بالنيّات وأنّ استفادة القلب بمعرفة اللّه لا تحصل إلّا بعد الخلوص، وبكون السعي والعمل بموجب ما اقتضته الشريعة النبويّة من غير تبديل وتحريف كعبدة الأوثان، فهؤلاء الموصوفون بهذه الصفات يصير ﴿سَعۡيُهُم﴾ مقبولاً ومبرورا ويكونون مشكورون على طاعتهم.

﴿كُلّٗا نُّمِدُّ﴾ التنوين عوض عن المضاف إليه أي: كلّ واحداً من الفريقين ممّن يريد الدنيا وممّن يريد الآخرة أي: البرّ والفاجر، والمؤمن والكافر نعطيهم في الدنيا من المال والنعمة، وأمّا الآخرة فللمتّقين خاصّة ﴿وَمَا كَانَ﴾ رزق ﴿رَبِّكَ﴾ ممنوعا عن الكافر لكفره وعن الفاجر لفسقه.

فإن قيل: هل يجوز أن يريد المكلّف بعمله العاجل والآجل؟ نعم إذا جعل العاجل تبعاً للآجل كالمجاهد في سبيل اللّه يقاتل لإعزاز دين اللّه ويجعل الغنيمة تبعاً ولكن بالعكس لا يجوز.

﴿ٱنظُرۡ﴾ يا محمّد ﷺ ﴿كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ بأن جعلنا بعضهم أغنياء وبعضهم فقراء وبعضهم موالي وبعضهم عبيداً وبعضهم أصحّاء وبعضهم مرضى حسب ما علمناه من المصلحة ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ﴾ أي: درجات الآخرة ومراتبها أعلى وأفضل وهي مستحقّة على قدر الأعمال

فينبغي أن يكون سعيهم لها أكثر. و﴿لَّا تَجْعَلْ﴾ أيها الإنسان ﴿مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ في عملك واعتقادك وفي رغبتك ورهبتك فإنّك إن فعلت ذلك بقيت ما عشت ﴿مَذْمُومًا﴾ على لسان العقلاء والأنبياء والملائكة و﴿مَّخْذُولًا﴾ في الآخرة ولا ينصرك الله ويكلك الله إلى ما أشركت به. ومعنى القعود الذلّ والخزي والخسران. والنظم في الآية مربوط بعضه ببني إسرائيل وما فعل بهم في الكرّة الأولى والثانية فبيّن سبحانه أنّه من عادته أنّ من يستحقّ العذاب ويريد إهلاكه فإنّما يهلك القرى بعد أن أمر مترفيها بالطاعة ففسقوا، فيكون إهلاكهم بالاستحقاق لا على الابتداء.

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾

لمّا ذكر في الآية السابقة ما هو الركن الأعظم في الإيمان أتبعه بذكر ما هومن شعائر الإيمان فقال سبحان: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ أي: أمر ربّك أمراً باتاً وألزم وأوجب ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ فإن قيل: إنّ الأمر لا يكون أمراً بأن لا يكون الشيء لأنّ الأمر يقتضي إرادة المأمور به والإرادة لا تتعلّق بأن لا يكون الشيء وإنّما تتعلّق الإرادة بحدوث الشيء. فالجواب أنّه أراد منكم عبادته على وجه الإخلاص وكره عبادة غيره وعبّر من ذلك بقوله: أمر أن لا تعبدوا إلّا إيّاه وقضى وأمر بالوالدين وأوصى لهما ﴿إِحْسَٰنًا﴾ لأنّ الوصيّة أمر، وأردف هذا الأمر بالأمر الأوّل لأنّ السبب الحقيقيّ في وجود الإنسان هو تخليق الله وإيجاده والسبب الصوريّ والظاهريّ هو الأبوان، والشكر للمنعم

الحقيقيّ واجب والمنعم الحقيقيّ في كلّ النعم هو اللّه، وقد يكون أحد من المخلوق منعماً عليك بالسببيّة وشكره حسن لقوله ﷺ: **«من لم يشكر الناس لم يشكر اللّه»**[1].

فإن قيل: الوالدان إنّما طلباً تحصيل اللذّة لنفسهما فلزم منه دخول الولد في الوجود وحصوله في عالم الآفات فأيّ إنعام للأبوين على الولد؟

حكي أنّ واحداً من المتّسمين بالحكمة كان يضرب أباه ويقول: هو الّذي أدخلني في عالم الكون والفساد وعرض للموت والفقر، وأظنّ أنّه أخ لأبي العلاء المعرّى في طريقة الزندقة لأنّ أبا العلاء لمّا مات أوصى أن يكتب على قبره: هذه جناة أبي عليّ وما جنيت على أحد: وليت شعري كيف نطق هذا الجاهل في الدين؟ حيث اعتقد هذا الإعتقاد الرجس، فهو عارض اللّه في ملكه وأمره لأنّ الروح من أمره. فالجواب من هذه المناقشة الملعونة أنّه هب أنّهما في أول الأمر طلباً اللذّة إلّا أنّ الاهتمام بإيصال الخيرات ودفع الآفات من أوّل دخول الولد في الوجود إلى وقت بلوغه أو أكثر أليس إنّه أعظم وأشدّ من جميع ذلك.

والحاصل أنّ المعنى أمر ربّك أن تحسنوا إلى الوالدين. وأتى بكلمة «إحسانا» منكراً ليدلّ على العموميّة في الإحسان.

﴿إِمَّا يَبۡلُغَنَّ﴾ و«إن» كلمة شرطيّة و«ما» أيضاً شرطيّة كقوله: ﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ﴾[2] فلمّا جمع هاتين الكلمتين أفاد التأكيد في معنى الاشتراط إلّا أنّ علامة الجز لم تظهر مع نون التأكيد لأنّ الفعل مبنيّ مع نون التأكيد أي: إن عاش ﴿عِندَكَ﴾ أيها الإنسان ﴿أَحَدُهُمَآ﴾ من الوالدين حتّى يكبر، يريد أن

١ـ مجمع البيان، ج١٠، ص٣٨٦، وانظر: بحار الأنوار، ج٦٨، ص٤٤.

٢ـ سورة البقرة: ١٠٦.

يبلغ ﴿أَوْ﴾ يبلغا ﴿كِلَاهُمَا﴾ في السنّ مبلّغاً يصيران في السنّ بمنزلة الطفل الّذي يحتاج إلى متعهّد وخصّ بحال ﴿ٱلْكِبَرَ﴾ وإن كان من الواجب إطاعة الوالدين على كلّ حال لأنّ الحاجة في تلك الحالة أكثر إلى التعهّد والخدمة. وقيل: إنّ الكبر في الآية راجع إلى المخاطب أي: أنت إذا بلغت الكبر وقد بقي معك أبواك أو أحدهما ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ قال الصادق عليه السلام: **«لو علم الله لفظة أو جز في عقوق الوالدين لأتى به»**. وفي خبر آخر: **«أدنى العقوق أفّ ولو علم الله شيئاً أيسر منه وأهون منه لنهى عنه، فليعمل العاقّ ما يشاء أن يعمل فلن يدخل الجنّة»**[1]. وقيل: معنى قوله: بلغا من الكبر ما يبولان ويحدثان فلا تتقذّر منهما وأمط عنهما كما كانا يميطان عنك في صغرك. وكلمة أفّ فيها سبع لغات: كسر الفاء وفتحها، وضمّها منوّناً وغير منوّن فهذه ستّة، والسابعة بالياء «أفّي» بالإضافة إلى نفسه، وهي كلمة تدلّ على الضجر وكلمة كراهة.

﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ أي: لا تزجرهما بصياح وغلظة ولا تمتنع من شيء أراداه كما قال: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾[2] وخاطبهما بقول رقيق حسن بعيد عن اللغو والقبيح. وقيل: معناه: قل لهما قول العبد المذنب للسيّد والمولى ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾ أي: بالغ لهما في التواضع والخضوع قولاً وفعلا وشفقة عليهما، من خفض الطائر جناحه إذا ضمّ فرخه إليه كأنّه قال تعالى: **«ضمّ أبويك إلى نفسك كما كانا يفعلان بك وأنت صغير»**. قال أبو عبد الله عليه السلام: **«معناه لا تملأ عينيك من النظر إليهما إلّا برأفة ورحمة ولا ترفع صوتك فوق أصواتهما ولا يديك فوق يديهما ولا تتقدّم قدّامهما وادع لهما بالمغفرة والرحمة في حياتهما وبعد**

١ـ انظر: الكافي، ج٢، ص٣٤٩، مشكاة الأنوار، ص٢٨١.

٢ـ سورة الضحى: ١٠.

مماتهما جزاء لتربيتهما إيّاك في صباك وهذا إذا كانا مؤمنين»[١].

و﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ﴾ تضمرون من البرّ والعقوق ﴿إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ﴾ وطائعين لله ممّن بدرت منه نادرة، وهو لا يضمر عقوقاً فإنّ الله للراجع عن دينه غفور.

وروى هشام بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**صلاة أربع ركعات يقرأ في كلّ ركعة خمسين مرّة سورة التوحيد هي صلاة الأوّابين**». وقيل: الّذين يصلّون بين المغرب والعشاء.

وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾

قيل في تفسير العامّة: وصّى سبحانه لغير الوالدين من القرابات والمساكين وأبناء السبيل بأن توفّى حقوقهم بعد أن وصّى للوالدين. وقيل: المراد بذي القربى قرابة النبيّ صلى الله عليه وآله. والقمي: عنى قرابة رسول الله خاصّة فاطمة ونزلت الآية فيها فجعل لها فدك، والمراد بالمسكين من ولد من فاطمة وابن السبيل من ذرّيّتها.(٢) وسنورد قصّة فدك مفصّلة في سورة الروم إن شاء الله.

وفي «الكافي» عن الكاظم عليه السلام في حديث له مع المهديّ العبّاسيّ: «**إنّ الله لمّا فتح على نبيّه فدك وما والاها لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب فأنزل الله هذه**

١ـ الكافي، ج ٢، ص ١٥٨، وتفسير العياشي، ج ٢، ص ٢٨٥.

٢ـ انظر: تفسير القمي، ج ٢، ص ١٨.

الآية على النبيّ ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ ولم يدر رسول الله من هم، فراجع في ذلك جبرئيل وراجع جبرئيل ربّه فأوحى الله إليه أن ادفع فدك إلى فاطمة فدعاها رسول الله وقال: يا فاطمة إنّ الله أمرني أن أدفع إليك فدك، فقالت: قد قبلت يا رسول الله من الله ومنك»، الحديث.[١]

وفي «العيون» عن الرضا في حديث له مع المأمون، والآية الخامسة قول الله: «﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ﴾ **خصوصيّة خصّهم الله العزيز الجبّار بها واصطفاهم على الأمّة فلمّا نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ قال: ادعوا لي فاطمة فدعيت له فقال ﷺ: يا فاطمة، قالت: لبيك، فقال: هذه فدك هي ممّا لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب وهي لي خاصّه دون المسلمين فقد جعلتها لك لمّا أمرني الله به، فخذيها لك ولولدك».**[٢] وبالجملة فالأخبار في هذا المعنى مستفيضة.

﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ قيل: إنّ المبذّر الّذي ينفق المال في غير حقّه والتبذير في اللغة إفساد المال وإنفاقه في السرف، قال عثمان بن الأسود: كنت أطوف في المسجد مع مجاهد فرفع رأسه إلى أبي قبيس وقال: لو أنّ رجلاً أنفق مثل هذا في طاعة اللّه لم يكن سرفاً ولو أنفق درهماً واحداً في معصية اللّه كان من المسرفين، وأنفق بعضهم نفقة في خير فأكثر فقيل له: لا خير في السرف، فقال: لا سرف في الخير.

ثمّ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ والمراد من هذه الاخوة التشبه بهم في هذا الفعل القبيح أي: قرناؤهم في الدنيا والآخرة، كما قال سبحانه: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾[١].

١ـ الكافي، ج ١، ص ٥٤٣.

٢ـ عيون أخبار الرضا ﷺ، ج ٢، ص ٢١١.

١ـ سورة الزخرف: ٣٦.

﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ أي: كان الشيطان من قديم مذهبه كثير الكفر يكفر مرّة بعد أخرى. قال بعض العلماء: خرجت هذه الآية على وفق عادة العرب وذلك لأنّهم كانوا يجمعون الأموال بالنهب والغارة، ثمّ كانوا ينفقونها في طلب الخيلاء والتفاخر وكان المشركون ينفقون أموالهم ليصدّوا الناس عن الإسلام وتوهين أهله، فنزلت هذه الآية تنبيها على قبح أعمالهم.

﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ أي: إنّك إن اعتراك الاضطرار بأن تعرض عنهم حياء فلا تعرض عنهم وقل لهم إلخ لأنه ﷺ إذا سئل ولم يكن له شيء يعرض حياء. إنّك إن أعرضت عن ذي القربى والمسكين وابن السبيل حياء من التصريح بالردّ بسبب الفقر والقلّة ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا﴾ سهلا ليّنا وقوله: ﴿ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ كناية عن الفقر لأنّ فاقد المال يطلب إحسان الله فلمّا كان فقد المال سبباً لهذا الطلب أطلق اسم السبب على المسبّب فسمّي الفقر بابتغاء رحمة الله، والحاصل أنّ عند حصول الفقر لا تترك تعهّدهم بالقول الجميل والكلام الحسن بل تعدهم بالوعد الجميل والردّ بالطريق الأحسن في القول.

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً﴾ لمّا أمر سبحانه رسوله بالإنفاق في الآية المتقدّمة علّمه أدب الإنفاق نظير ما وصف عباده المؤمنين في الإنفاق في سورة الفرقان فقال في السورة: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾[1] فهنا أمر رسوله بمثل ذلك الوصف فقال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ﴾ أي: لا تمسك عن الإنفاق بحيث تضيّق على نفسك وأهلك في وجوه صلة الرحم وسبيل الخيرات للفقراء كالمغلولة الممنوعة من الانبساط كالّذي يداه مشدودة ولا تتوسّع توسّعاً مفرطا بحيث لا يبقى في

١ـ سورة الفرقان: ٦٧.

كفك شيء وتعطي جميع ما عندك ﴿فَتَقْعُدَ﴾ من العمل وتلوم نفسك وتلام ﴿مَّحْسُورًا﴾ كالبعير المنقطع له وسط الطريق، وتبقى متحسرا مغموما.

روي أنّ امرأة بعثت ابنها إلى رسول الله ﷺ وقالت: قل له: إنّ امّي تستكسبك درعا فإن قال: حتّى يأتينا شيء، فقل له: إنّها تطلب قميصك، فأتاه وقال له ما قالت له، فنزع ﷺ قميصه ودفعه إليه ولم يجد ﷺ شيئاً يلبسه ولم يمكنه الخروج إلى الصلاة فلامه الكفّار، وقالوا: إنّ محمّداً اشتغل بالنوم واللهو عن الصلاة.[1]

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ﴾ ويوسّع تارة ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أخرى بحسب المصلحة مع سعة خزائنه إنّه عليم بأحوالهم بصير بمصالحهم.

وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾

النظم: لمّا ذكر سبحانه في الآية السابقة أنّه المتكفّل بالرزق حيث قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ وعلّم البرّ بالوالدين أتبعه في هذه الآية كيفيّة البرّ بالأولاد وعدم الخوف من الفقر بقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ﴾ خوف الفقر لأنّ العرب كانوا يئدون البنات خوف الفقر لعجز البنات عن الغزو والكسب وعدم قدرتهنّ على النهب والغارة ويخافون أنّ فقرها ينفّر

١ـ مجمع البيان، ج٦، ص٢٤٤، وزبدة البيان، ص٣٨٤.

كفاءها عن الرغبة فيها، فيحتاجون ويضطرّون إلى إنكاحها بغير كفوها فيلحقهم بذلك عار فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا أَوْلَٰدَكُمْ﴾ والولد وصف مشترك بين الذكور والإناث، ثمّ قال: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ وأخبر سبحانه بأنّه متكفّل برزقهم ورزق آبائهم ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ﴾ في الجاهليّة ﴿كَانَ﴾ إثماً عظيماً عند الله وهو اليوم كذلك.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا ٱلزِّنَىٰٓ﴾ وهو وطي المرأة حراماً بلا عقد ولا شبهة عقد ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ ومعصية كبيرة عظيمة وبئس الطريق الزنى. وفيه إشارة إلى أنّ العقل يقبّح الزنى من حيث إنّه لا يكون للولد نسب معلوم إذ ليس بعض الزناة أولى به من بعض فيؤدّي ذلك إلى قطع الأنساب وإبطال المواريث وصلة الرحم وحقوق الآباء على الأولاد وذلك مستنكر في العقول.

قال عثمان بن الخطّاب المعروف بأبي الدنيا: سمعت عليّاً أمير المؤمنين يقول: **«سمعت رسول الله ﷺ يقول: في الزنى ستّ خصال ثلاث في الدنيا، وثلاث في الآخرة فأمّا اللواتي في الدنيا فيذهب بنور الوجه، ويقطع الرزق، ويسرع الفناء، وأمّا اللواتي في الآخرة فغضب الربّ، وسوء الحساب، والدخول في النار، أو الخلود في النار»**.[1]

﴿وَلَا تَقْتُلُوا ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ وهو أن يجب عليه القتل إمّا لكفره أو لردّته أو لأنّه قتل نفساً بغير حقّ أو زنى وهو محصن ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا﴾ بغير حقّ ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ أي: آتينا لوليّه سلطان القود على القاتل أو الدية أو العفو، وأكبر الكبائر بعد الكفر بالله القتل قال ﷺ: **«الآدميّ بنيان الربّ، ملعون من هدم بنيان الربّ. والوليّ من يلي أمره بعد وفاته»**. سلطاناً أي: تسلّطا بالقصاص والمؤاخذة، وينبغي أن يكتفي باستيفاء القصاص دون الزيادة.

١ـ مستدرك الوسائل، ج ١٤، ص ٣٣٣.

وفي «الكافي» عن الكاظمعليه السلام أنه سئل عن هذه الآية قيل: ما هذا الإسراف الّذي نهى اللّه عنه؟ قالعليه السلام: **«نهى أن يقتل غير قاتله أو يمثّل بالقاتل»**، قيل: فما معنى ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ قال: **«وأيّ نصرة أعظم من أن يدفع القاتل إلى أولياء المقتول فيقتله ولا تبعة تلزمه من قتله في دين ولا دنيا»**.[١]

وفي «الكافي» و«العيّاشي» عنهعليه السلام: **«إذا اجتمع عدّة على قتل رجل واحد حكم الوليّ أن يقتل أيّهم شاء وليس له أن يقتل أكثر من واحد، إنّ الله يقول: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومًا﴾ إلى قوله: ﴿فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِ﴾ »**.[٢]

وفي «الكافي» عن الصادقعليه السلام **«نزلت في الحسينعليه السلام لو قتل أهل الأرض به ما كان مسرفا»**.[٣]

﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ﴾ هذا هو النوع الثالث من المنهيّات، الأوّل الزنى لأنّه كان يوجب انقطاع النسل وذلك يوجب المنع من دخول الناس في الوجود لأنّ اختلاط الأنساب موجب لمنع الاهتمام بتربية الأولاد وذلك يوجب انقطاع النسل فثبت أنّ الزنى والقتل يرجع حاصله إلى النهي عن إتلاف النفوس فلمّا ذكر اللّه هذين الأمرين أتبعه بالنهي عن إتلاف الأموال وأحقّ الناس بالنهي عن إتلاف أموالهم هو اليتيم لأنّه لصغره وكمال عجزه يعظم ضرره بإتلاف ماله لأنّه لا يقدر على دفع الضرر عن نفسه فلهذا خصّهم بالنهي عن إتلاف أموالهم. وفي تفسير قوله: ﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ وجهان: الأوّل إلّا بالتصرّف الّذي ينميه ويكثره. الثاني إذا احتاج احتياجا شديداً أكل بالمعروف فإذا أيسر قضاه كما قال سبحانه: ﴿وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن

١ـ الكافي، ج٧، ص ٣٧١.

٢ـ تفسير العياشي، ج ٢، ص ٢٩٠، الكافي، ج٧، ص ٢٨٥.

٣ـ الكافي، ج٨، ص ٢٥٥.

يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾[١] واعلم أنّ الوليّ تبقى ولايته على اليتيم إلى أن يبلغ أشدّه وهو بلوغ النكاح كما بيّنه في آية أخرى قال: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾[٢] والمراد بالأشدّ بلوغه إلى حيث يمكنه بسبب عقله ورشده القيام بمصالح ماله وعند ذلك تزول ولايته عن اليتيم.

﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾ واعلم أنّ كلّ عقد يقدم لأجل توثيق الأمر وتوكيده فهو عهد، وبالجملة مقتضى الآية أنّ كلّ عقد وعهد مشروع جرى بين إنسانين فإنّه يجب عليهما الوفاء بمقتضاه كعقود البيع والشركة واليمين والصلح والنكاح إلّا ما خرج بدليل منفصل فإنّه غير مشروع.

ويؤكّد هذا النص أيضاً آيات أخر دالّة على الوفاء بالعهود والعقود كقوله: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾[٣] وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾[٤] فالأصل في العقود الصحّة ووجوب الالتزام به نعم لو وجدنا نصّا أخصّ من هذه النصوص يدلّ على البطلان والفساد قضينا به تقديماً للخاصّ على العام وبهذا الطريق تصير أبواب المعاملات على طولها مضبوطة معلومة ويكون الإنسان مطمئنّ القلب في العمل، ثمّ قال سبحانه: ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ يراد صاحب العهد كان مسئولا عنه.

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾ والمقصود منه إتمام الكيل وذكر الوعيد الشديد في نقصانه في موضع آخر بقوله: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾[١] ﴿وَزِنُوا

١ـ سورة النساء: ٦.

٢ـ سورة النساء: ٦.

٣ـ سورة البقرة: ١٧٧.

٤ـ سورة المؤمنون: ٨؛ وسورة المعارج: ٣٢.

١ـ سورة المطففين: ١.

﴿بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ وهو الميزان صغر أم كبر والمستقيم الّذي لا بخس فيه ولا غبن وهو العدل أي: ما يكال وما يوزن فلابدّ وأن يكون بالتمام من دون نقص، وذلك ﴿خَيْرٌ ثَوَابًا﴾ وأقرب إلى الله ﴿وَأَحْسَنُ﴾ عاقبة ومرجعا، والقسطاس في معنى الميزان. وقيل: القبّان. وقيل: إنّه بالروميّة واستعملته العرب والأصحّ أنّه لغة العرب ومأخوذ من القسط والاستقامة والاعتدال الّذي لا يميل إلى أحد الجانبين.

وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾

﴿وَلَا تَقْفُ﴾ مأخوذ من القفا أي: لا تتبع ولا تقف ما لا علم لك به من قول أو فعل وحاصله يرجع إلى النهي عن الحكم بما لا يكون معلوماً وهذه قضيّة كلّيّة يندرج تحتها أنواع كثيرة. وفيه وجوه وكلّ واحداً من المفسّرين حمله على واحداً من تلك الأنواع: الأوّل: نهى المشركين عن المذاهب الّتي كانوا يقلّدون آباءهم في الإلهيّات فقال: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾[1]. والقول الثاني: نقل عن محمّد بن الحنفيّة أنّ المراد منه شهادة الزور. قال ابن عبّاس: (لا تشهد إلّا بما رأته عيناك وسمعته أذناك ووعاه قلبك). والقول الثالث: المراد منه النهي عن القذف ورمي المحصنين والمحصنات بالأكاذيب. والقول الرابع: المراد منه النهي عن الكذب أي: لا تقل: سمعت ولم تسمع وعلمت ولم تعلم. والقول الخامس: أنّ القذف هو البهت أي: لا تقل في قفا غيرك كلاماً يسوؤه، وهو معنى الغيبة. واحتجّ نفاة القياس بهذه الآية قالوا: القياس لا

١ـ سورة النجم: ٢٣.

يفيد إلّا الظنّ، والظنّ مغاير للعلم فالحكم في دين اللّه بالقياس حكم بغير المعلوم فوجب أن لا يجوز لقوله: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾. وأجاب مثبتو القياس بأنّ الحكم في الدين بمجرّد الظنّ جائز بإجماع الأمّة في صور كثيرة: أحدها أنّ العمل بالفتوى عمل بالظنّ وهو جائز، والعمل بالشهادة عمل بالظنّ وإنّه جائز، والاجتهاد في طلب القبلة لا يفيد إلّا الظنّ وأنّه جائز، وقيم المتلفات واروش الجنايات لا سبيل إليها إلّا بالظنّ وهو جائز، وكون هذه الذبيحة ذبيحة المسلم مظنون لا معلوم وبناء الحكم عليه جائز. وقوله ﷺ: «**نحن نحكم بالظاهر**»[1] تصريح بأنّ الظنّ معتبر في مثل هذه الأنواع.

﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ﴾ يسأل عمّا سمع والبصر عمّا رأى والقلب عمّا عزم عليه إنّ أصحابها مسؤولون وكلّ أولئك الجوارح وأصحابها مسؤولون.

وروى عليّ بن إبراهيم في تفسيره عن أبي حمزة الثماليّ عن أبي جعفر عليه السلام قال: «**قال رسول الله ﷺ: لا يزول قدم عبد يوم القيامة بين يدي الله حتى يسأل عن أربع خصال: عمرك فيما أفنيته وجسدك فيما أبليته؟ ومالك من أين كسبته؟ وأين وضعته؟ وعن حبّنا أهل البيت**».[2]

وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾

«المرح» شدّة الفرح أي: ﴿لَا تَمْشِ﴾ على وجه البطر والخيلاء والتكبّر ﴿إِنَّكَ﴾ أيها الإنسان ﴿لَن﴾ تشقّ ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ من تحت قدمك بكبرك

١ـ إيضاح الفوائد، ج٣، ص٤٨٦؛ وجواهر الكلام، ج٤، ص٤٩٨.
٢ـ تفسير القمي، ج٢، ص٢٠؛ وتفسير أبي حمزة الثمالي، ص٢٣٠.

﴿وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ﴾ بتطاولك. فما وجه هذه المنابزة؟ لأنّ من الناس من يمشي في الأرض بطرا يدقّ قدميه عليها ليرى بذلك قدرته وقوّته ويرفع رأسه وعنقه، فبيّن سبحانه أنّه ضعيف لا يقدر أن يخرق الأرض بدقّ قدميه على الأرض حتّى ينتهي إلى آخرها وأنّ طوله كلّما يتطاول لا يبلغ طول الجبال، فعلّم اللّه عباده التواضع والوقار.

﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى جميع ما تقدّم من المنهيّات كان معصيته عند اللّه ﴿مَكْرُوهًا﴾ لا يريدها ولا يرضاها، وفي هذه الآية دلالة واضحة على بطلان قول المجبّرة بأنّه تعالى يكره السيّئات وإذا كرهها فكيف يريدها ويخلقها؟ وهذا أمر ممتنع. قوله: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ﴾ إشارة إلى جميع ما تقدّم في هذه الآيات من الأوامر والنواهي وهي تقرب من واحداً وعشرين حكماً:

فأوّلها: قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ وقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ فهذا اثنان: والثالث: قوله: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ والرابع: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ والخامس: ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ والسادس: ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ ﴾ والسابع: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا﴾ والثامن: والتاسع: والعاشر: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ والحادي عشر: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ والثاني عشر: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ والثالث عشر: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ والرابع عشر: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ﴾ والخامس عشر :﴿ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ والسادس عشر: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ والسابع عشر: ﴿فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ﴾ والثامن عشر: ﴿وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ﴾ والتاسع عشر: ﴿ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾ والعشرون: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ

عِلْمٌ﴾ والواحد والعشرون: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾. وبالجملة هذه الأمور ممّا أوحى الله من الحكمة المؤدّية إلى المعرفة بالحسن والقبيح.

﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ في إقرارك واعتقادك وفعلك، والخطاب للنبيّ والمراد به الأمّة فإنّك إذا فعلت ذلك طرحت ﴿فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ مبعّداً عن رحمة الله.

﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا﴾ هذا خطاب لمن جعل الملائكة بنات الله. ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ﴾ أي: أخلصكم الله بالبنين وخصّكم بهم واتّخذ لنفسه البنات، وأضفتم إلى الله ما لم ترضوا لأنفسكم؟ نظير قوله: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾[1] ونظير قوله: ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ﴾[2] وفي جعل الشريك جعلوا الأرفع لأنفسهم والأدون له أي: اختصّ الاتّخاذ بالبنين لكم واتّخذ لنفسه البنات والإناث، وجعلها مشتركة بينه وبينكم أي: اختصّ لنفسه الأدون ولكم الأرفع ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ كثير الإثم وهو جعل الشريك والجزء لله سبحانه.

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ
ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ
عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا
يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾

التصريف عبارة عن صرف الشيء من جهة إلى جهة نحو تصريف الرياح وتصريف الأمور ثمّ تستعمل لفظ التصريف كناية عن التبيين لأنّ من حاول بيان شيء فإنّه يصرف كلامه من نوع إلى نوع، ومن مثال إلى مثال

١ـ سورة النجم: ٢١.

٢ـ سورة الطور: ٣٩.

ليقوى ويوضح البيان.

﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا﴾ أي: بيّنا ﴿فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ ضروبا من كلّ بيان ومثل.

ومفعول «صرّفنا» محذوف ﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾ ويتفكّروا فيها فيعلمون الحقّ وليؤمنوا ولكنّهم يعكسون الأمر ﴿وَمَا يَزِيدُهُمۡ﴾ تصريف البيان ﴿إِلَّا﴾ تباعداً عن الحقّ. وشبّههم الله بالدوابّ النافرة.

﴿قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ﴾ أي: لو فرضنا وجود آلهة مع الله لغلب بعضهم بعضاً وحاصله، يرجع إلى دليل التمانع ولطلبوا الآلهة سبيلاً إلى مغازة مالك العرش ومغالبة ومنازعته والكفويّة معه ليصفو له الملك.

ثمّ نزّه سبحانه نفسه من أن يكون له شريك في الإلهيّة فقال: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ﴾ عن قولهم ﴿عُلُوّٗا كَبِيرٗا﴾ وليس المراد من هذا التعالي العلوّ المكافي بل التعالي عن النظير والشريك وجعل مصدراً مكان مصدر كقوله: ﴿أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا﴾[1] وكقوله: ﴿وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا﴾[2].

﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ معنى التسبيح هاهنا الدلالة على توحيد الله وعدله وجرى ذلك مجرى التسبيح باللفظ وربّما يكون التسبيح من طريق الدلالة أقوى لأنّه يؤدّي إلى العلم وليس في شيء من الموجودات إلّا ويسبّح بحمد الله من جهة خلقته إذ كلّ موجود سوى القديم حادث، وحدوثه يدعو إلى صانع غير مصنوع وقيل: إنّ كلّ شيء على العموم من الحيوان والنبات والجماد يسبّح الله حتّى صرير النبات وخرير الماء ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ﴾ حيث لم تنظروا فتعلموا كيف دلالتها على توحيده ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا﴾ يمهلكم على كفركم ﴿غَفُورٗا﴾ لكم إذا تبتم.

١ـ سورة نوح: ١٧.

٢ـ سورة المزمّل: ٨.

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا (٤٥) وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْءَانِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا (٤٦) نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا (٤٧) انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (٤٨)﴾

نزلت في قوم كانوا يؤذون رسول اللهﷺ إذا قرأ القرآن على الناس. روي أنّهﷺ كان كلّما قرأ القرآن قام عن يمينه رجلان وعن يساره آخران من ولد قصيّ يصفقون ويصفرون ويخلطون عليه بالأشعار.

وعن أسماء أنّهﷺ كان جالساً ومعه رجل من أصحابه إذا أقبلت أمّ جميل امرأة أبي لهب وبيدها فهر تريد رسول اللهﷺ وهي تقول: «**مذمّماً أتينا، ودينه قلينا، وأمره عصينا**»، فقال أبو بكر: يا رسول الله معها حجر أخشاها عليك، فتلاﷺ هذه الآية فجاءت وما رأت رسول الله.[1]

وروي ابن عبّاس: (أنّ أبا سفيان والنضر بن الحرث وأبا جهل وغيرهم كانوا يجالسون النبيﷺ ويستمعون إلى حديثه فقال النضر يوماً: ما أدري أنّ محمّداً ما يقول، غير أنّي أرى شفتيه يتحرّك بشيء. وقال أبو جهل: هو مجنون. وقال أبو لهب: هو كاهن. وقال حويطب بن عبد العزّى: هو شاعر، فنزلت هذه الآية).

وكان النبيﷺ إذا أراد تلاوة القرآن قرأ قبلها ثلاث آيات وهي قوله في سورة الكهف: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾[1]

١ــ انظر: تفسير ابن كثير، ج٣، ص٤٧.

١ــ سورة الكهف: ٥٧.

وفي النحل ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾[١] وفي حم الجاثية ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾[٢] إلى آخر الآية، فكان الله يحجبه ببركات هذه الآيات عن عيون المشركين وهو المراد من قوله: ﴿جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا﴾.

فلو قيل: يقتضي أن يقال: حجاباً ساتراً، الجواب: حجاب يخلقه الله في عيونهم بحيث يمنعهم ذلك الحجاب عن رؤية النبيّ وذلك الحجاب شيء لا يراه أحد فكان مستوراً من هذا الوجه، أو كما يجوز أن يقال: لابن وتامر يعني: ذو لبن وذو تمر فكذلك يقال: مستور معناه ذو ستر، والدليل عليه قولهم: مرطوب أي: ذو رطوبة، ولا يقال: رطيبة. ويقال: جارية مغنوجة أي: ذات غنج. وقال الأخفش: هاهنا المستور بمعنى الساتر، فإنّ الفاعل قد يجيء بلفظ المفعول كما يقال: مشؤوم وميمون وإنّما هو شائم ويامن.

﴿وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗا﴾ وسترا بسبب عدم قبولهم قول الحقّ وشدّة امتناعهم عن قبول نبوّته، وإنّما نسب الله ذلك الكنّ والحجاب إلى نفسه لأنّه لمّا خلّاهم مع أنفسهم وما منعهم بطريق الإلجاء صارت تلك التخلية كأنّها هي السبب لوقوعهم في تلك الحالة، كما أنّ السيّد إذا لم يراقب حال عبده بسوء فعله فإذا ساءت سيرته فيقول السيّد: أنا الّذي ألقاك في هذه الحالة بسبب أنّه ما رقبت حالك. لكنّ السبب الواقعيّ هو سوء فعل العبد واختياره، فلذلك صحّت الإضافة.

﴿وَإِذَا ذَكَرۡتَ رَبَّكَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِ وَحۡدَهُۥ﴾ أي: وإذا ذكرت الله بالتوحيد وأبطلت الشرك تركوا ذلك المجلس و﴿وَلَّوۡاْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِمۡ نُفُورٗا﴾ نافرين فيكون

١ـ سورة النحل: ١٠٨.

٢ـ سورة الجاثية: ٢٣.

المصدر بمعنى الفاعل أو «نفور» جمع نافر مثل شهود جمع شاهد وقعود جمع قاعد.

ثمّ قال سبحانه: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ﴾ أي: ليس يخفى علينا حال هؤلاء المشركين وغرضهم من الاستماع إليك بل معلوم عندنا ونعلم حال ما يصغون إلى سماع قراءتك وحال ما يقومون من عندك ويتناجون فيما بينهم ويستهزءون، ويقولون: هو شاعر وكاهن ومجنون.

﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾ أي: ذوي نجوى ويقولون: ما ﴿تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا﴾ قد سحر واختلط عليه أمره وإنّما كانوا يقولون ذلك للتنفير عنه. وقيل: المسحور هاهنا بمعنى الساحر. وقيل: المسحور الفاسد المخدوع المعلّل. ثمّ قال سبحانه: على وجه التعجّب من قبيح فعالهم: ﴿انظُرْ﴾ يا محمّد ﴿كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ﴾ أي: شبّهوا لك الأشباه بقولهم: شاعر وساحر. وضلّوا بهذه الأقوال عن قبول الحقّ ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ أي: لا يجدون حيلة وطريقا إلى بيان تكذيبك إلّا البهت الصريح وضلّوا عن الطريق المستقيم وهو دين الإسلام.

وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ قُل كُونُوا۟ حِجَارَةً
أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ
ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ
عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ
إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾

قال المنكرون للبعث من المشركين: إنّا إذا متنا وانتشر لحومنا وصرنا عظاماً وترابا وغبارا أنبعث بعد ذلك ﴿خَلْقًا جَدِيدًا﴾؟ وإنّما قالوا ذلك على وجه الإنكار بصورة الاستفهام ﴿قُل﴾ لهم يا محمّد ﴿كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ أي: اجهدوا في أن تكونوا حجارة أو حديداً في الشدّة والقوّة ﴿أَوْ خَلْقًا﴾ هو

أعظم من ذلك عندكم وأصعب فإنّكم لا تفوتون اللّه وسيحييكم بعد الموت.

وقال ابن عبّاس: (المراد بقوله: ﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ هو الموت والمقصود المبالغة)، أي: لو صارت أبدانكم نفس الموت فاللّه يعيدها فضلاً عن التراب والرفات مثل أن يقال: لو كنت عين الموت فاللّه يحييك.

وحاصل المعنى أنّ القوم استبعدوا أن يردّهم إلى حال الحياة بعد أن صاروا عظاماً ورفاتا، لأنّها صفات منافية لقبول الحياة بحسب الظاهر فبيّن اللّه سبحانه بأنّه قدّروا أنّ انتهاء أجسامكم بعد الموت إلى صفة أخرى أشدّ منافاة لقبول الحياة من التراب والعظام مثل أن تصير حجارة أو حديداً فإنّ المنافاة بين الحجريّة والحديديّة وبين قبول الحياة أشدّ من المنافاة بين العظميّة والترابيّة وبين قبول الحياة فبتقدير أن تصير أبدان الناس موصوفة بالحديديّة بعد الموت أو أكبر فاللّه تعالى يعيد الحياة إليها ويجعلها حياً عاقلاً كما كان.

﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا﴾ أي: إنّك يا محمّد إذا قلت لهم: البعث، سيقولون لك من يحيينا؟ ﴿قُلِ الَّذِي﴾ خلقكم ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فإنّ من قدر على ابتداء الشيء كان على إعادته أقدر، وإنّما قال ذلك لهم لأنّهم كانوا يقرّون بأنّ النشأة الأولى خلقها اللّه ﴿فَسَيُنْغِضُونَ﴾ أي: يتحرّكون ﴿إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ تحريك المستهزئ المستخفّ المستبطئ ويقولون: ﴿مَتَىٰ﴾ يكون البعث؟ ﴿قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ لأنّ ما هو آت قريب، قال الحسن: وكأنّك بالدنيا لم تكن وكأنّك بالآخرة لم تزل.

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ معناه عسى أن يكون بعثكم قريباً أيّها المشركون يوم يدعوكم من قبوركم إلى الموقف على ألسنة الملائكة فيقولون: أيّها العظام النخرة والجلود البالية عودي كما كنت ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ﴾ مضطرّين معترفين بأنّ الحمد للّه هناك لأنّ المعارف يومئذ ضروريّة، قال سعيد بن جبير:

يخرجون من قبورهم يقولون: سبحانك وبحمدك، لكن لا ينفعهم الحمد في ذلك اليوم، لأنّ إبليس ذلك اليوم موحّد.

﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: تظنّون أنّكم لبثتم قليلاً في الدنيا لسرعة انقلاب الدنيا إلى الآخرة وإنّما استقصروا لبثهم في الدنيا لعلمهم بطول مكثهم في الآخرة. وقيل: إنّ معنى الآية من قوله: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ، إلخ﴾ خطاب للمؤمنين لأنّهم يستجيبون الله ويحمدونه على إحسانه ويستقلّون مدّة لبثهم في البرزخ لكونهم في قبورهم منعّمين غير معذّبين، وأيّام السرور والرخاء قصار.

وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾

المراد من العباد في الآية المؤمنون لأنّ لفظ العباد في أكثر الآيات مختصّ بالمؤمنين كقوله: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ * ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ﴾[١] وقال: ﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى﴾[٢] وقال: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾[٣].

ولمّا ذكر سبحانه الحجّة اليقينيّة في إبطال الشرك بقوله: ﴿لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾[١] بدليل التمانع وذكر الحجّة اليقينيّة في صحّة المعاد بقوله: ﴿قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ قال في هذه الآية

١ـ سورة الزمر: ١٧، ١٨.

٢ـ سورة الفجر: ٢٩.

٣ـ سورة الإنسان: ٦.

١ـ سورة الإسراء: ٤٢.

بقوله: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى﴾ إذا أردتم إيراد الحجة على المخالفين فاذكروا الدليل بالطريق الأحسن وهو أن لا يكون ذكر الحجة بالشتم والسبّ، وذلك لأنّ ذكر الحجة لو اختلط به شيء من السبّ والشتم لقابلوكم بمثله كما قال: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[١] ويزداد الغضب وتتكامل النفرة، ويمتنع حصول المقصود ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: متى صارت الحجة ممزوجة بالبذائة صارت سبباً لثوران الفتنة، ثمّ قال سبحانه: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ﴾ عداوته مع الإنسان قديمة.

وسبب النزول أنّ المشركين كانوا يؤذون النبيّ وأصحابه وكان الأصحاب يقولون للنبيّ: ائذن لنا في قتالهم. فأنزل الله هذه الآية، ثمّ قال سبحانه: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ﴾ بإخراجكم من مكة وتخليصكم من إيذائهم ﴿أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ بتسليطهم عليكم وهو أعلم بالمصلحة. وقيل: معناه إن يشأ يرحمكم بفضله وإن يشأ يعذّبكم بعدله، فيكون الخوف منه والرجاء إليه.

ثمّ خاطب النبيّ صلى الله عليه وآله فقال: ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ لأعمالهم بل إنّا أرسلناك داعياً لهم إلى الإيمان شاءوا أم أبوا فإن أجابوك، وإلّا فلا شيء عليك فإنّ عقاب ذلك يحلّ بهم. وقيل: إنّ المراد من قوله: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى﴾ هاهنا الكفّار ولا يبعد في هذا الخطاب ليكون سبباً لجذب قلوبهم وميل طباعهم إلى الدين. ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لمّا ذكر ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ ذكر أنّ علمه غير مقصور عليكم بل علمه متعلّق بجميع الموجودات السماويّة والأرضيّة ولهذا السبب فضّل بعض الناس على بعض وبعض النبيّين على بعض.

١ـ سورة الأنعام: ١٠٨.

وإنّما خصّ داود بالذكر لوجوه: الأوّل: أنّ داود كان ملكاً عظيماً، ثمّ إنّه لم يذكر ما آتاه من الملك تنبيها على أنّ التفضيل الّذي ذكره التفضيل بالعلم لا بالمال.

والوجه الثاني: في التخصيص أنه كتب في الزبور أنّ محمّداً خاتم النبيّين وأنّ امّته خير الأمم كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾[1] وهم محمّد وامّته، والزبور عبارة عن المزبور.

والوجه الثالث: أنّ كفّار قريش ما كانوا أهل نظر بل كانوا يرجعون إلى اليهود في استخراج الشبهات، واليهود كانوا يقولون: إنّه لا نبيّ بعد موسى ولا كتاب بعد التوراة، فنقض اللّه كلامهم بانزال الزبور على داود.

قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾

سبب النزول: كان بعض المشركين يقولون: نحن نعبد بعض المقرّبين من عباد اللّه فقوم عبدوا الملائكة، وقوم عبدوا عزيرا، وقوم عبدوا المسيح، وقوم عبدوا نفراً من الجنّ فنزلت الآية: إنّ ﴿الَّذِينَ﴾ تزعمونهم آلهة لا ﴿يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ﴾ وجلب النفع لكم ﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴾ للحالة الّتي تكرهونها إلى حالة تحبّونها ومن كان بهذه الصفة فإنّه لا يصلح للإلهيّة ولا يستحقّ العبادة.

ثمّ رجع سبحانه إلى ذكر الأنبياء والموحّدين في الآية الأولى فقال: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ إلى اللّه ويطلبون القربة و﴿الْوَسِيلَةَ﴾ بالعبادة إليه

١ــ سورة الأنبياء: ١٠٥.

﴿أَيُّهُمْ﴾ أفضل و﴿أَقْرَبُ﴾ وذكر ذلك حثّا على الاقتداء بهم وترك هذه الطريقة الخبيثة. فليكن الإنسان يرجوا رحمة الله ويخاف عذابه ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ﴾ يجب أن يحذر منه.

وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾

ثمّ أرشد سبحانه الخلق فقال: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا﴾ بإماتة أهلها ﴿أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ وهو عذاب الاستئصال فيكون هلاك الصالحين بالموت وهلاك الطالحين بالعذاب في الدنيا فإنّه يفنى الناس ويخرب البلاد قبل يوم القيامة ثمّ يقوم القيامة. وقيل: المراد بذلك قرى الكفر والضلال دون قرى الإيمان والمراد بالهلاك التدمير.

﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ وذلك كائن البتّة وهذا الحكم في الكتاب الكبير مكتوب وواقع لا محالة.

﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ﴾ الّتي يقترحونها المشركون منك كقولهم: «اجعل لنا الصفا ذهبا» وأمثاله، إلّا تكذيب الأمم المتقدّمة لأنّهم اقترحوا من أنبيائهم وآتيناهم الآيات الّتي اقترحوها ولم يؤمنوا مع ذلك فاستحقّوا معاجلة العذاب فعذّبناهم بعذاب الاستئصال فحال قومك كذلك لو نأتيهم ما يقترحون لوجب أن نعذّبهم بعد الإتيان وعدم إيمانهم والحكمة اقتضت إمهالهم فلذلك

السبب منعنا بإتيان الآيات المقترحة كما أنّه ﴿ءَاتَيْنَا﴾ قوم ﴿ثَمُودَ﴾ آية المقترحة وهي ﴿ٱلنَّاقَةَ﴾ وما آمنوا فعذّبناهم لأنّهم ظلموا بالآية وأنكروها، لكنّ الحكمة اقتضت أن تكون شريعتك مؤبّدة إلى يوم القيامة وهذا ينافي عذاب الاستئصال.

﴿مُبْصِرَةً﴾ أي: آية يستدلّ بها على صدق الرسول ﴿فَظَلَمُوا﴾ وجحدوا بأنّها من عند الله وظلموا أنفسهم بوقوع العذاب عليهم ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّا﴾ زجرا و﴿تَخْوِيفًا﴾ لهم من عذاب الله.

ثمّ خاطب نبيّه فقال: واذكر الوقت الّذي ﴿قُلْنَا لَكَ﴾ يا محمّد ﴿إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ﴾ علماً بأحوالهم وبما يفعلون من الطاعة والمعصية أي: إنّ حكمته وقدرته محيطة بالناس فهم في قبضته والمقصود أنّهم لا يقدرون على أمر من الأمور في إيذائك ونحن ننصرك حتّى تبلغ رسالتك وتظهر ديني كما قال في موضع: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾[1] وقيل: معنى قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ﴾ المراد بالناس في هذه الآية أهل مكّة وإحاطة الله بهم هو أنّه يفتحها للمؤمنين ويظهر دولتك عليهم. ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا﴾ فيه أقوال:

أحدها: أن المراد بالرؤيا رؤية العين وهي ما ذكره في أوّل السورة من إسراء النبيّ ﷺ من مكّة إلى بيت المقدس وإلى السماوات في ليلة إلّا أنّه لمّا رأى ذلك ليلا وأخبر بها حين أصبح سمّاها رؤيا وسمّاها فتنة لأنّه أراد بالفتنة الامتحان ليعرض للمصدّق بذلك جزيل ثوابه والمكذّب به أليم عقابه.

وثانيها: أنّها رؤيا نوم رآها ﷺ أنّه سيدخل مكّة وهو بالمدينة فقصدها فصدّها المشركون في الحديبيّة عن دخولها حتّى شكّ قوم منهم عمر، ودخلت عليهم الشبهة فقالوا: يا رسول الله أليس قد أخبرتنا أنّا ندخل

١ـ سورة المائدة: ٦٧.

المسجد الحرام آمنين؟ فقال: «**أو قلت لكم أنكم تدخلونها العام؟**» قالوا: لا فقال: «**لندخلنّها إن شاء الله**»، ورجع ثمّ دخل مكّة في العام القابل فنزل: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾(١)(٢) وإنّما كان ذلك فتنة وامتحانا.

وثالثها: أنّ ذلك رؤيا رآها النبيّ في منامه أنّ قرودا تصعد منبره وتنزل، فساءه ذلك واغتمّ به، ولم ير بعد ذلك ضاحكاً حتّى مات وهو المرويّ عن أبي جعفر وأبي عبد الله(٣) قالوا: «**إنّ الشجرة الملعونة في القرآن هي بنو أمية**»(٤). وروي عن منهال ابن عمرو قال: دخلت على عليّ بن الحسين فقلت له: كيف أصبحت يا ابن رسول الله؟ فقال: «**أصبحنا بمنزلة بني إسرائيل من آل فرعون يذبّحون أبناءهم ويستحيون نساءهم وأصبح خير البريّة بعد رسول الله يلعن على المنابر وأصبح من يحبّنا منقوصاً ومغصوبا حقّه بحبه إيّانا**»، ثمّ بكى وقال: «**وا ذلّاه لامّة قتل ابن دعيّها ابن بنت نبيّها**».(٥)

وممّا يؤكّد هذا المعنى قول عائشة لمروان: لعن الله أباك وأنت في صلبه فأنت بعض من لعنه الله. فلو قيل: إنّ رسول الله ما كان له منبر بمكّة. فالجواب أنّه رأى أنّ له بالمدينة منبراً يتداوله بنو أميّة. وقيل: إنّ الشجرة الملعونة في القرآن أي: الزقّوم وإنّما سمّي فتنة لأنّ المشركين كانوا يقولون: إنّ محمّداً يوعدكم بنار تحرق الحجارة، ثمّ يزعم أنّه تنبت فيها الشجرة.

﴿فِي الْقُرْآنِ﴾ معناه: الّتي ذكرت في القرآن، ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾ أي: نرهبهم

١ـ سورة الفتح: ٢٧.

٢ـ مجمع البيان، ج٦، ص٢٦٦؛ وتنبيه الغافلين، شرف الإسلام ابن الكرامة، ص١٠٢؛ وبحار الأنوار، ج٥٨، ص١٥٥.

٣ـ مناقب آل أبي طالب، ج٣، ص١٩٧؛ والتبيان، ج٦، ص٤٩٤؛ وبحار الأنوار، ج٩، ص١١٩.

٤ـ تفسير العياشي، ج٢، ص٢٩٧؛ ومجمع البيان، ج٦، ص٢٦٦.

٥ـ نور الثقلين، ج٤، ص١٠٩؛ ومجمع البيان، ج٦، ص٢٦٦، وانظر: تفسير القمي، ج٢، ص١٣٤.

بما نقصّ عليهم في هلاك الأمم الماضية وبما نرسل من الآيات ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ ذلك ﴿إِلَّا طُغْيَانًا﴾ وعتوًا في الكفر عظيماً لأنهم لا يرجعون عن كفرهم.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾

النظم: لمّا وصفهم بقوله: ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ وإنّ القوم نازعوا رسول الله وأنكروا رسالته لأجل الكبر والحسد شرح في هذه الآية أنّ الّذي حملهم على هذا الأمر وهو الكبر حمل إبليس على ما حمل.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ﴾ قد مرّ تفسيره في سورة البقرة ﴿قَالَ﴾ إبليس ﴿أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ وهو استفهام بمعنى الإنكار، استكبر عن السجود نظر بأصله حيث إنّه من نار وأصل آدم من طين، ولم يعرف أنّ الأصل ليس بالبنية بل بالإطاعة، وإنّما جاز أن يأمرهم بالسجود لأنّ السجود يترتّب من التعظيم وليس كذلك العبادة، والعبادة خاصّة لله. ثمّ قال اللعين: أخبرني عن هذا الّذي فضّلته عليّ لم فضّلته عليّ وأنا خير منه؟

واختصر الكلام لكونه مفهوما من سياق الكلام. والكاف لتأكيد الخطاب لا محلّ لها من الإعراب، أي: أخبرني أنت عن هذا الّذي كرّمته عليّ وأمرتني بالسجود له، لم كرّمته عليّ ومقصوده الاستصغار والاستحقار أي: أهذا من

الّذين كرّمته عليّ؟ وحذف حرف الاستفهام من هذا استغناء عنه بسبب الاستفهام الأوّل في ﴿أَرَءَيْتَ﴾ . ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ﴾ حياً ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ واللام توطئة للقسم، وجوابه ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ﴾ أي: لأستأصلهم ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ مأخوذ من احتنك الجراد الأرض إذا جرّد ما عليها، أو المعنى لأقودنّهم، من حنكت الدابّة واحتنكتها إذا جعلت في حنكها الأسفل حبلاً تقودها به، وإنّما ادّعى اللعين هذا الأمر لأنّه قد جرت بوسوسة آدم فلم يجد له عزما فعلم أنّ أولاده أضعف منه.

﴿قَالَ﴾ تعالى ﴿اذْهَبْ﴾ يا إبليس ﴿فَمَن تَبِعَكَ﴾ من ذرّيّته واقتفى أثرك وقبل منك ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا﴾ كاملاً ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ﴾ أي: استزلّ من اقتدرت ﴿مِنْهُم﴾ بوسوستك وأضلّهم بدعوتك وهذا تهديد بصورة الأمر ﴿بِصَوْتِكَ﴾ أي: بالغناء والمزامير والملاهي أو كلّ صوت يدعا به إلى الفساد فهو من صوت الشياطين.

﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ أي: اجمع عليهم من مكائدك وأتباعك وأعوانك، وكلّ راكب أو ماش في معصية اللّه من الإنس والجنّ فهو من جند إبليس من خيله ورجله. و«الباء» زائدة وقوله: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ أي: استعن على إغوائهم بخيلك ورجلك، وقرئ بكسر الجيم وبضمّها وعلى هذا المعنى يكون الباء غير زائدة ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ أمّا المشاركة في الأموال عبارة عن كلّ تصرّف قبيح في المال سواء كان ذلك التصرّف بسبب أخذه من غير حقّه أو وضعه في غير حقّه فيدخل فيه المعاملات الفاسدة كالربى والغصب والسرقة وغيرها والبحيرة والسائبة وتبتّك آذان الأنعام وجعل المال لغير اللّه، وأمّا المشاركة في الأولاد الدعاء إلى الزنى وتسمية أولادهم بعبد اللات والعزّى وترغيب أولادهم في

الأديان الباطلة وقتل الأولاد ووأدهم وكلّ تصرّف في الأولاد على وجه يؤدّي ذلك إلى ارتكاب منكر أو قبيح.

﴿وَعِدْهُمْ﴾ بالأمانيّ الكاذبة وطول الأمل ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ أي: يزيّن لهم الخطاء أنّه صواب ژى ى ﭫ ﭬ يعني: الّذين يطيعونني لا نفاذ لك «عليهم وكفى بربّك» حافظاً لعباده من الشرك إن أطاعوه.

رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾

لمّا تقدّم ذكر الشيطان وعبدته من المشركين احتجّ في هذه الآية بدلائل التوحيد فقال: ﴿رَّبُّكُمُ﴾ أي: خالقكم الّذي يجري لكم السفن في البحر بما خلق على وجه يمكن جري السفن على الماء لتطلبوا من فضل اللّه بركوب السفن لصلاح دنياكم من التجارة والأمن من الغرق ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ حيث أنعم عليكم بهذه النعمة. ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ والخوف الشديد من الغرق فسد ﴿مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ أي: في تلك الحالة لا يتضرّع إلى الصنم والشمس والقمر وإنّما يتضرّع إلى اللّه ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ﴾ من المهلكة والغرق وأخرجكم ﴿إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ من اللّه والإخلاص ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ لنعم اللّه بسبب أنّه عند الشدّة يتمسّك برحمته وعند الراحة يعرض عنه ويتمسّك بغيره.

﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾ والمراد أنّه كما هو قادر على أن يغيبهم ويغرقهم من جانب البحر تحت الماء كذلك قادر على أن يغيبكم في الأرض تحت التراب أي: هبوا أنّكم نجوتم من هول الغرق فكيف أمنتم من هول البرّ؟ فمن جانب البحر إذا حصل الهلاك فبالغرق، ومن جانب البرّ يحصل بالخسف فكيف تأمنون أن يأتيكم من جانب الفوق بإمطار الحجارة عليكم؟ و«الحاصب» التراب الّذي فيه حصباء والحاصب كاللابن والتامر أي: ذو الحصباء ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا﴾ ناصراً ينصركم ويصونكم من عذاب اللّه أو يرسل عليكم ريحاً كاسراً قويّاً تكسركم وتكسر أشجاركم بسبب كفركم، ثمّ لا تجدوا لكم من يتبعنا بإنكار ما نزل بكم بأن يصرفه عنكم ويؤاخذنا ويطالبنا بدمائكم ويقول: لم فعلت هذا بهم؟ وليس لكم ثائر وناصر.

وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلٗا ﴿٧٠﴾ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَٰمِهِمْۖ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلٗا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْأٓخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴿٧٢﴾

لمّا تقدّم قول إبليس: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ ذكر في هذه الآية تكرمة بني آدم بأنواع الإكرام وفنون الأنعام فقال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا﴾ بأمور بالقوّة المدركة والنطق وأمور عديدة منها تسليطهم على غيرهم وتسخير الحيوانات لهم وجعل محمّد ﷺ من البشر وأنّهم يعرفون اللّه ويأتمرون بأمره اختيارا وأشياء كثيرة لا تعدّ، بها فضّل اللّه بني آدم على غيره، والأناس يذكر بعضها.

اعلم أنّ الإنسان جوهر متركّب من النفس والبدن فالنفس الإنسانيّ أشرف النفوس السفليّة وبدنه أشرف الأجسام السفليّة وللإنسان والحيوان قوى متشاركة

كالاغتذاء والنموّ والتوليد والحسّاسيّة والحركة فهذه القوى الخمسة متشاركان.

ثمّ إنّ الإنسان اختصّ بقوّة أخرى وهي القوّة العاقلة المدركة للكلّيّات وحقائق الأشياء كما هي وهذه القوّة من تلقيح الجواهر القدسيّة الإلهيّة فهذه القوّة لا نسبة لها في الشرف إلى تلك القوى الخمسة النباتيّة والحيوانيّة فظهر أنّ الإنسان أشرف النفوس الموجودة في عالم السفليّ.

وأمّا شرافة الّتي تتعلّق بالبدن الإنسانيّ بالنسبة إلى أبدان غيره من الشرف أحدها: روى ميمون بن مهران عن ابن عبّاس في تفسير قوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا﴾ قال: (كلّ شيء يأكل إنّما يأكل بقيه غير ابن آدم فإنّه يأكل بيده). قيل: إنّ الرشيد أحضرت عنده أطعمة فدعا بالملاعق وعنده أبو يوسف فقال له: قد جاء في التفسير عن جدك في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ جعلنا لهم أصابع يأكلون بها فردّ الرشيد الملاعق وأكل بعد ذلك بيده وأصابعه.

ثمّ إنّ الإنسان فضّل بالكلام وقادر على بيان مقصوده كاملاً من بيان حاجة أو ألم أو لذّة فيستريح نفسه بالبيان وإن كان أخرسا فبالإشارة يريح نفسه ويظهر مقصوده بخلاف سائر الموجودات. ثمّ فضّل الإنسان بحسن الصورة والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾،[1] ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ﴾[2].

والخامس من الفضائل المختصّة للإنسان أن آتاه الله الخطّ لأن يتمكّن أن يودع معلوماته في الكتاب ولا يضيع علمه المستنبط. وإلى هذه الفضيلة الكاملة أشار سبحانه: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۞ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[1].

١ـ سورة التغابن: ٣.

٢ـ سورة المؤمنون: ١٤.

١ـ سورة علق: ٣ـ ٥.

والسادس: أنّ أجسام هذا العالم من البسائط والمركّبات مسخّرة وخادمة للإنسان، أمّا البسائط كالأرض والماء والهواء والنار مسخّرة لفوائد الإنسان وهو دائماً ينتفع بها فالأرض كالامّ المربّية والمهد وتربية المنافع للإنسان، وأمّا الماء فمعلوم نفعه للزرع والضرع، وأمّا الهوى فهو مادّة حياتنا ولو لا هبوب الرياح لاستولى النتن على هذه المعمورة، وأمّا النار ففيها طبخ الأغذية وقائمة مقام الشمس والقمر في ليالي مظلمة، والدافعة لضرر البرد، وأمّا المركّبات فهي أيضاً مسخّرة لهذا العالم الّذي ينتفع منه الإنسان من المعادن والآثار العلويّة والنبات والحيوان وأمثالها فهذا العالم بأسره جار مجرى قرية معمورة وجميع منافعها مصروفة ومعدّة للإنسان، فهو كالرئيس المخدوم والملك المطاع والباقي كالخدم وكلّ ذلك يدلّ على كونه مخصوصاً من عند اللّه بمزيد التكريم والتفضيل. بقي القول في أفضليّته من الملك أم لا فهو على القول بالاختلاف.

والسابع: أنّ الموجودات إمّا أن يكون أزليّا وأبديّا معا وهو اللّه سبحانه، وإمّا أن يكون لا أزليّا ولا أبديّا وهو عالم الدنيا مع كلّ ما فيه من النبات والحيوان والجماد وهذا أحسن الأقسام، وإمّا أن يكون أزليّا لا أبديّا وهو ممتنع الوجود لأنّ ما ثبت قدمه امتنع عدمه، وإمّا أن لا يكون أزليّا ولكنّه أبديّ وهو الإنسان والملك ولا شكّ أنّ هذا القسم أفضل من القسم الثاني والثالث فثبت أنّ الإنسان أشرف أكثر المخلوق.

والثامن: أنّ العالم العلويّ أشرف من العالم السفليّ وروح الإنسان من جنس الأرواح العلويّة والجواهر القدسيّة وليس في موجودات العالم السفليّ شيء حصل فيه شيء من العالم العلويّ إلّا الإنسان فوجب كون الإنسان أشرف موجودات العالم السفليّ.

والتاسع: أنّ أشرف الكلّ من الموجودات هو اللّه وكلّ موجود كان قربه من معرفة اللّه أتمّ وجب أن يكون أشرف فلا شكّ أنّ الإنسان إذا كان قلبه مستنيرا بمعرفة اللّه ولسانه مشرّفا بذكر آلاء اللّه وجوارحه مكرّمة بطاعة اللّه أشرف من غيره من الموجودات السفليّة. ولمّا ثبت أنّ الإنسان موجود ممكن لذاته والممكن لذاته لا يوجد إلّا بإيجاد الواجب لذاته فكلّما حصل للإنسان من المراتب العالية فهي حصلت بإحسان اللّه إليه وإنعامه تعالى فلهذا المعنى قال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾.

﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ﴾ على الخيل والبغال والحمير والإبل [و] في ﴿ٱلْبَحْرِ﴾ على السفن وهذا من مؤكّدات التكريم لأنّه تعالى سخّر هذه الدوابّ له حتّى يركبها ويغزو ويحمل عليها وكذلك تسخير السفن والمياه له ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ لأنّ الأغذية إمّا حيوانيّة وإمّا نباتيّة وكلا القسمين إنّما يتغذّى الإنسان منها بألطفها وأطيبها بعد التنقية الكاملة والنضج التامّ البالغ بخلاف غيره ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ بأمور خلقيّة ذاتيّة كالعقل واكتساب المعارف الإلهيّه.

والّذين توقّفوا على أفضليّة البشر من الملك كابن عبّاس والزجّاج استدلّوا بهذه الآية لأنّ قوله تعالى: ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ يدلّ على أنّه قد حصل في مخلوقات اللّه شيء لا يكون الإنسان مفضّلا عليه وكلّ من أثبت هذا القسم قال: إنّه هو الملائكة فيقتضي أنّ الملك أفضل من البشر. وأجابوا عن هذا القول وقالوا: إنّ المراد بالتفضيل ما فضّلهم اللّه من فنون النعم الّتي عددنا بعضها، وقالوا: إنّ المراد بالكثير في الآية الجميع بوضع الكثير موضع الجميع، ثمّ إنّه إذا سلّم أنّ المراد بالتفضيل زيادة الثواب وأنّ لفظة «من» في قوله: ﴿مِّمَّنْ خَلَقْنَا﴾ يفيد التبعيض فلا يمتنع

أن يكون جنس الملائكة أفضل من جنس بني آدم والفضل من بني آدم يختصّ بالأنبياء بقليل من كثير فعلى هذا غير منكر أن يكون الأنبياء أفضل من الملائكة وإن كان جنس الملائكة أفضل من جنس بني آدم.

واحتجّوا في تفضيل بني آدم بما روي عن زيد بن أسلم أنّه قال: قالت الملائكة ربّنا إنّك أعطيت بني آدم الدنيا يأكلون فيها ويتنعّمون ولم تعطنا ذلك فأعطنا ذاك في الآخرة فقال الله: وعزّتي وجلالي لا أجعل ذرّيّة من خلقت بيدي كمن قلت له: كن فكان.

﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ وقرئ بالياء والنون أي: أن ينادي يوم القيامة هاتوا متّبعي إبراهيم هاتوا متّبعي موسى هاتوا متّبعي محمّد صلى الله عليه وآله فيقوم أهل الحقّ الّذين اتبعوا أنبياءهم فيأخذون كتبهم بأيمانهم، ثمّ ينادي هاتوا متّبعي الشيطان وهاتوا متّبعي رؤساء الضلال. وروي عن عليّ عليه السلام: «**إنّ الأئمة إمام هدى وإمام ضلالة**»[1].

وقيل: معناه المراد من الإمام كتابهم الّذي انزل عليهم من أوامر الله ونواهيه فيقال يا أهل القرآن ويا أهل الإنجيل وهكذا. وقيل: معناه: بمن يأتمّون به عن علمائهم وأئمّتهم.

ويجمع هذه الأقوال ما روي عن الرضا عليّ بن موسى عليهما السلام بالأسانيد الصحيحة أنّه روى عن آبائه عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال: «**يدعى كلّ أناس بإمام زمانهم وكتاب ربّهم وسنّة نبيّهم**»[1]. وروي عن الصادق أنّه قال: «**ألا تحمدون الله إذا كان يوم القيامة يدعى كلّ قوم إلى من يتولّونه ودعينا إلى رسول الله ودعيتم إلينا قال: فإلى أين**

١ـ مجمع البيان، ج٦، ص٢٧٥؛ وتنبيه الغافلين، ص١٠١؛ وبحار الأنوار، ج٨، ص٨.

١ـ عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج١، ص٣٧؛ ومسند زيد بن علي، ص٤٩٥.

ترون يذهب بكم؟ إلى الجنّة وربّ الكعبة قالها ثلاثا»[1]. وقيل: يعني: بكتابهم الّذي فيه أعمالهم. وقيل: بامّهاتهم صوناً عن افتضاح أولاد الزنى ورعاية لشرف عيسى والجنين، فحينئذ إمام جمع أمّ.

﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ واعطي كتاب عمله الّذي فيه طاعاته بيمينه ﴿فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ فرحين مسرورين لا يستنكفون عن قراءته لما يرون فيه الجزاء من الثواب ولا ينقصون ثواب أعمالهم مقدار فتيل وهو المفتول الّذي في شقّ النواة، والفتيل الّذي في بطن النواة والنقير في ظهرها والقطمير قشر النواة، وإعطاء الكتاب باليمين علامة الرضا والخلاص، وباليسار ومن وراء الظهر علامة الهلاك. ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ﴾ هذه إشارة إلى ما تقدّم من النعم أي: ومن كان من هذه النعم والعبر أعمى ﴿فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ وقيل: إشارة إلى الدنيا أي: من كان في الدنيا عن آيات اللّه أعمى ضالًا عن الحقّ ذاهباً عن الدين فهو في الآخرة أشدّ تحيّرا عن طريق الجنّة فإنّ من ضلّ عن معرفة اللّه في الدنيا يكون يوم القيامة منقطع الحجّة فالأوّل: اسم وأعمى الثاني: أفعل التفضيل من العمى. وقيل: المعنى من كان في الدنيا أعمى القلب فإنّه في الآخرة يحشر أعمى العين عقوبة له على ضلالته في الدنيا. وقيل: من كان في الدنيا ضالًا فهو في الآخرة أضلّ لأنّه لا يقبل توبته، والتأويل أنّه إذا عمي في الدنيا وقد عرّفه اللّه الهدى وجعل له التوبة وصلة فعمي عن رشده فلم يتب فهو في الآخرة أشدّ عمى وأضلّ سبيلاً.

وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ۖ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ

١ـ مناقب آل أبي طالب، ج٢، ص٢٦٤؛ ومجمع البيان، ج٦، ص٢٧٥.

﴿شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾

سبب النزول فيه أقوال:

أوّلها: أنّ قريشا قالت للنبيّ: لا ندعك تستلم الحجر حتّى يستلم بآلهتنا فحدّث نفسه وقال: «**ما عليّ في أن ألمّ بها والله يعلم أنّي لكاره لها ويدعو إلى استلام الحجر**»، فنزلت وهذا قول سعيد بن جبير.

وثانيها: أنّهم قالوا: كفّ عن آلهتنا وشتمها واطرد هؤلاء السقاط الّذين رائحتهم رائحة الصنان حتّى نجالسك ونسمع ما تقول، فطمع ﷺ في إسلامهم فنزلت.

وثالثها: أنّ رسول الله ﷺ أخرج الأصنام من المسجد فطلبت قريش منه أن يترك صنماً كان على المروة فهمّ بتركه ثمّ أمر بعده بكسره فنزلت. رواه العيّاشيّ بأسناده.[١]

ورابعها: أنّها نزلت في وفد ثقيف قالوا: نبايعك على أن تعطينا ثلاث خصال: لا ننحني أي: لا نصلّي، ونكسر أصنامنا بأيدينا وتمتّعنا باللات سنة فقال ﷺ: «**لا خير في دين ليس فيها ركوع ولا سجود. فأمّا كسر أصنامكم بأيديكم فذاك لكم وأمّا الطاعة للّات فإنّي غير ممتّعكم بها**». وقام رسول الله ﷺ وتوضّأ فقال عمر بن الخطّاب: ما بالكم آذيتم رسول الله إنّه لا يدع الأصنام في أرض العرب؟ فما زالوا به حتّى أنزل الله هذه الآية، عن ابن عبّاس.[١]

وخامسها: أنّ وفد ثقيف قالوا: أجّلنا سنة حتّى نقبض ما يهدى لآلهتنا

١ـ تفسير العياشي، ج٢، ص٣٠٦؛ ومجمع البيان، ج٦، ص٢٧٧، عن العياشي؛ وبحار الأنوار، ج١٧، ص٥٣.

١ـ مجمع البيان، ج٦، ص٢٧٧، عن العياشي؛ وبحار الأنوار، ج١٧، ص٥٣.

فإذا قبضنا ذلك كسرناها وأسلمنا. فهمّ ﷺ بتأجيلهم، فنزلت، عن الكلبيّ عن عطيّة عن ابن عبّاس.

المعنى: «إن» مخفّفة واللام هي الفارقة بينها وبين النافية أي: إنّ الشأن قاربوا أن يفتنوك ويخدعوك فاتنين فيوقعوك في الفتنة ويصرفونك عمّا ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي: القرآن وحكمه لأنّ إعطاءهم ما سألوا مخالف لحكم القرآن ﴿لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا﴾ غير ما أوحي إليك ﴿وَإِذًا﴾ لو فعلت ما يريدون ﴿لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾.

﴿وَلَوْلَآ﴾ ولو لا عصمتنا لك وتثبيتنا إيّاك على الحقّ ﴿لَقَدْ كِدتَّ﴾ تميل ﴿إِلَيْهِمْ﴾ ركونا ﴿قَلِيلًا﴾ أي: لقد قاربت بسبب سكوتك عن جوابهم طمعاً في إيمانهم أن تعطيهم بعض سؤالاتهم ولم تفعله، ولو فعلته لعذّبناك العذاب المتضاعف ألمه، لأنّ الذنب منك أعظم، أو المراد عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، ولا شكّ أنّ مراده سبحانه تخويف امّته لئلّا يركن أحد من المؤمنين إلى أحد من المشركين في شيء من أمور الدين وأحكام اللّه، وإنّ رسول اللّه معصوم، ولو أنّه لو حدثت نفسه لهذا الأمر أيضاً ليس معصية لأنّه رفعت عن امّته ما حدثت به نفسهم ما لم تعمل به، أو تتكلّم به.

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا﴾ ناصراً ينصرك، فلمّا نزلت هذه الآية قال النبي ﷺ: «**اللّهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين أبداً**».[1]

وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾

١ـ مجمع الزوائد، الهيثمي، ج ١٠، ص ١٨١.

سبب النزول: نزلت في أهل مكّة لمّا همّوا بإخراج النبيّ من مكّة، وقيل: نزلت في اليهود بالمدينة لمّا قدم رسول الله المدينة قالوا: إنّ هذه الأرض ليست بأرض الأنبياء وإنّما أرض الأنبياء الشام فامض إلى الشام.

المعنى: أرادوا وقربوا أن يزعجوك من أرض مكّة بالإخراج. وقيل: ﴿لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾ معناه ليقتلوك، وإنّهم لو أخرجوك لكانوا لا يلبثون بعد خروجك ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ من الزمان ومدّة يسيرة. وقيل: المراد إلّا ناساً قليلاً منهم، يريد من انفلت منهم يوم بدر وأسلموا. والّذين سعوا في إخراجه من مكّة قتلوا يوم بدر وما لبثوا. كما أنّه ﴿سُنَّةَ﴾ من قبلك من الأمم الّذين فعلوا بأنبيائهم كذلك وأخرجوا أنبياءهم عذّبناهم واستأصلناهم وهذه عادتنا من قبل في الأمم ﴿وَلَا تَجِدُ﴾ لعادتنا تغييراً.

أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾

النظم: لمّا قال سبحانه: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾ أخرج الكلام في مخرج هذا المعنى أنّك يا محمّد لا تبال بسعيهم في إخراجهم إيّاك من بلدك ولا تلتفت إليهم واشتغل بعبادة الله وداوم على الصلاة فإنّه يدفع عنك شرّهم ويجعل دينك غالباً على أديانهم نظير قوله: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾[1].

١ـ سورة طه: ١٣٠.

واختلفوا في معنى الدلوك قيل: معناه دلوكها أي: غروبها، وسمّي الغروب دلوكا لأنّ الناظر يدلّك عينيه ليتبيّنها. وقيل: الدلوك زوالها وميلها إلى غروبها لأنّ الناظر إليها أيضاً يدلّك عينيه لشدّة شعاعها وعليه الأكثرون فعلى هذا يتعلّق الحكم بميلها عن كبد السماء إلى وقت الظلمة. وغسق الليل هو أوّل بدء الظلمة وسواده. وقيل: غسق الليل انتصاف الليل، عن أبي جعفر وأبي عبد اللّه عليهما السلام.[1] فحينئذ المراد من الآية بيان الصلوات الخمس لا بيان صلاة واحدة بأنّ اللّه جعل من دلوك الشمس الّذي هو الزوال إلى غسق الليل وقتاً للصلوات الأربع إلّا أنّ الظهر والعصر اشتركا في الوقت من الزوال إلى الغروب والمغرب والعشاء الآخرة اشتركا في الوقت من الغروب إلى الغسق أي: شدّة سواد الليل وانتصافه.

ثمّ أفرد سبحانه صلاة الصبح بالذكر وعطف على قوله: [وَ] أقم ﴿قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ فهذا بيان وجوب الصلوات الخمس وبيان أوقاتها، ويؤيّد ذلك ما رواه العيّاشيّ بالإسناد عن عبيد بن زرارة عن أبي عبد اللّه قال في هذه الآية: «**إنّ اللّه افترض أربع صلوات أوّل وقتها من زوال الشمس إلى انتصاف الليل إلّا أنّ هذه قبل هذه**»[2]. وإلى هذا ذهب المرتضى في أوقات الصلاة، وقال في قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ يدلّ على أنّ الصلاة لا يكون إلّا بقراءة لأنّ قوله: (أقم الصلاة) و(أقم قرآن الفجر) قد امر فيه أن يقيم الصلاة بالقراءة حتّى سمّيت الصلاة قرآناً فلا يكون الصلاة إلّا بقراءة.

﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ أي: إنّ صلاة الصبح تشهدها ملائكة الليل وملائكة النهار.

١ـ مجمع البيان، ج٦، ص٢٨٢؛ وبحار الأنوار، ج٧٩، ص٣٢٠.

٢ـ تفسير العياشي، ج٢، ص٣١٠.

واعلم أنّ منشأ الاختلاف في الآية أنّ قوله: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ﴾ هل بيان أوقات الصلوات الأربع أو الثلاث راجع إلى اختلاف معنى الدلوك والغسق كما عرفت فإن حملت معنى الغسق على أوّل دخول الظلام لم يدخل فيه إلّا الظهر والعصر والمغرب، وإن حملت معنى الغسق على اشتداد الظلمة وانتصاف الليل دخلت فيه الصلوات الأربع كما هو الصحيح، فعلى هذا بأن يكون الزوال وقتاً والغسق وقتاً والفجر وقتاً وهذا يقتضي أن يكون الزوال وقتاً للظهر والعصر فيكون هذا الوقت مشتركا بين هاتين الصلاتين وأن يكون أوّل المغرب وقتاً للمغرب والعشاء، فيكون هذا الوقت مشتركا أيضاً بين هاتين الصلاتين فهذا يقتضي جواز الجمع على الترتيب أي: بين الظهر والعصر وبين المغرب والعشاء مطلقاً.

وسئل عن الصادق عليه السلام عن أفضل المواقيت في صلاة الفجر فقال: «**مع طلوع الفجر إنّ الله يقول:** ﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا﴾ **يعني: صلاة الفجر تشهدها ملائكة الليل والنهار**»[1]. ومعنى الفجر انكشاف ظلمة الليل عن نور الصباح، وهذا يدلّ على أنّ التغليس أفضل من التنوير والفقهاء بيّنوا أنّ السنّة أن يكون القراءة في هذه الصلاة أطول من القراءة في غيرها ولعلّ معنى قوله: «**حتّى يعرف الصديق من العدوّ**» لا ينافي كون التغليس أفضل من التنوير لطول القراءة فينتهي إلى التنوير لأنّ الإنسان إذا شرع في الصلاة في الظلمة وامتدّت الصلاة بسبب ترتيل القراءة وتكثيرها زالت الظلمة وظهر الضوء وحضرت الملائكة وعرجت ونزلت وشهدت لهم عند الله بصلاتهم فيقول الله للملائكة: «**اشهدوا أنّي قد غفرت لهم**». وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا﴾.

١ـ الكافي، ج٣، ص٢٨٣؛ وثواب الأعمال، ص٣٦.

﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ ﴾ الهجود في اللغة النوم، وقال ابن الأعرابيّ: هجد الرجل إذا نام، وهجد الرجل إذا صلّى من الليل. فعند هذا يكون من الأضداد. وقيل: الهجود لغة النوم وشرعا لمن قام من النوم إلى الصلاة يقال له: المتهجّد فحينئذ يحمل على إلقاء الهجود عن نفسه للصلاة يقال: رجل متحرّج متأثّم ومتحوّب أي: ملقي الحرج والإثم والحوب عن نفسه.

وقال الحجّاج بن عمر المازنيّ: أيحسب أحدكم إذا قام من الليل فصلّى حتّى يصبح أنّه قد تهجّد إنّما تهجّد الصلاة بعد الرقاد ثمّ صلاة أخرى بعد رقده هكذا كانت صلاة رسول اللّه. إذا عرفت هذا فلا يبعد أنّه سمّي تهجّداً لهذا السبب. وقوله: ﴿ وَمِنَ ﴾ في قوله: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ ﴾ لابدّ له من متعلّق، والفاء في قوله: ﴿فَتَهَجَّدۡ ﴾ لابدّ له من معطوف عليه، والتقدير قم: من الليل أي: في بعض الليل فتهجّد بالصلاة المشتملة على القرآن. ومعنى النافلة زيادة على الأصل. واختلفوا بأنّ صلاة الليل هل كانت واجبة على النبيّ أم لا؟

في «التهذيب» عن الصادقعليه السلام فقال: **«فريضة على رسول الله»**.[1]

وفي «الخصال» فيما أوصى به النبيّصلى الله عليه وآله عليّاً: **«يا عليّ ثلاث فرحات للمؤمن في الدنيا: لقاء الإخوان والإفطار من الصيام والتهجّد في آخر الليل»**[2]. وفي «العلل» عن الصادقعليه السلام: **«عليكم بصلاة الليل فإنّها سنّة نبيّكم ودأب الصالحين قبلكم، ومطردة الداء من أجسادكم»**.[3]

وعن السجّادعليه السلام أنّه سئل ما بال المتهجّدين بالليل من أحسن الناس وجهاً؟ قال: **«لأنّهم خلوا بالله فكساهم الله من نوره»**.[1]

١ـ من لا يحضره الفقيه، ج ١، ص ٤٨٤.

٢ـ خصال، للصدوق، ص ١٢٥.

٣ـ انظر: كنز العمال، ج ٧، ص ٧٨٦.

١ـ وسائل الشيعة (الإسلامية)، ج ٥، ص ٢٧٦؛ الأمالي للطوسي، ص ٦٨٢.

وبالجملة في أخبارنا أنّ اللّه أوجب على نبيّه صلاة الليل له نافلة ولأمّته غير واجبة، ولهم كفّارة وفضيلة لأنّ النبيّ ﷺ لم يكن له ذنب حتّى تكون له كفّارة بل زيادة الدرجات ولأمّته كفّارة الذنوب. ووجوب صلاة الليل عليه ﷺ من خصائصه من الخلق وتبيّن من قوله: «نَافِلَةً لَكَ» أنّ وجوب التهجّد مخصوص به، ووجوب الصلوات الخمس به وبامّته لتقييد الأمر بالتهجّد بهذا القيد وإلّا لم يكن لهذا القيد فائدة في الكلام.

ثمّ قال: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ قال أهل المعاني «عسى» كلمة من اللّه واجب لأنّها يفيد الإطماع ومن أطمع إنساناً ثمّ حرّمه كان عاراً. وفي معنى المقام قيل: إنّه الشفاعة. قال المفسّرون: على أنّه مقام الشفاعة كما قال ﷺ في هذه الآية: **«هو المقام الّذي أشفع لأمّتي فيه»**[١]، وقالوا: إنّ الحمد إنّما يكون على الأنعام وهذه الشفاعة أنعم اللّه رسوله فحمدوه على الأنعام. وممّا يؤكّد هذا المعنى الدعاء: وابعثه المقام المحمود الّذي يغطبه به الأوّلون والآخرون، واتّفقوا على أنّ المراد منه الشفاعة، وقيل ـ والقائل حذيفة ـ: يجمع الناس في صعيد فلا تتكلّم نفس فأوّل مدعوّ محمّد ﷺ فيقول ﷺ: **«لبّيك وسعديك والشرّ ليس إليك، والمهديّ من هديت وعبدك بين يديك وبك وإليك لا ملجأ ولا منجا منك إلّا إليك تباركت وتعاليت سبحانك ربّ البيت»**[٢] فهذا هو المراد من المقام.

وفي «التوحيد» عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث يذكر فيه أهل المحشر: **«ثمّ يجتمعون في موطن آخر يكون فيه مقام محمّد ﷺ وهو المقام المحمود فيثني على اللّه بما لم يثن عليه أحد قبله، ثمّ يثني على كلّ مؤمن ومؤمنة يبدأ ﷺ**

١ـ مسند أحمد، ج ٢، ص ٤٤١، وتفسير ابن كثير، ج ٣، ص ٦٢.

٢ـ انظر: منتهى المطلب، ج ١، ص ٢٦٨.

بالصدّيقين والشهداء ثمّ بالصالحين فيحمد أهل السماوات وأهل الأرض فذلك قوله عزّ وجل: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ، إلخ﴾ فطوبى لمن كان له في ذلك اليوم حظّ ونصيب، وويل لمن لم يكن له حظّ ونصيب»[1]. وفي روضة الواعظين عن النبيّ‌صلى الله عليه وآله هو المقام الّذي أشفع لأمّتي، قال: وقال‌صلى الله عليه وآله: «**إذا قمت المقام المحمود تشفّعت في أصحاب الكبائر من أمّتي فيشفّعني الله فيهم والله لا تشفّعت فيمن آذى ذرّيّتي**»[2].

وعنه‌عليه السلام أنّه سئل عن شفاعة النبيّ يوم القيامة فقال: «**يلجم الناس يوم القيامة العرق فيقولون انطلق بنا إلى آدم يشفع لنا، فيأتون آدم فيقولون له: اشفع لنا عند ربّنا، فيقول: إنّ لي ذنباً وخطيئة فعليكم بنوح فيأتون نوحاً فيردّهم إلى من يليه حتّى ينتهوا إلى عيسى‌عليه السلام فيقول: عليكم بمحمّد‌صلى الله عليه وآله فيعرضون أنفسهم عليه فيقول: انطلقوا. فينطلق بهم إلى باب الجنّة ويستقبل باب الرحمن ويخرّ ساجداً، فيمكث ما شاء الله فيقول: ارفع رأسك واشفع تشفّع، وسل تعط**»، وذلك قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾[3] وهو المقام الّذي يعطى فيه لواء الحمد فيوضع في كفّه ويجتمع تحته الأنبياء والملائكة فيكون أوّل شافع وأوّل مشفّع.

﴿وَقُل﴾ يا محمّد ﴿رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ﴾ أي: أدخلني في جميع ما أرسلتني به إدخال صدق ﴿وَأَخۡرِجۡنِي﴾ منه إخراج ﴿صِدۡقٖ﴾ أي: أعني على الوحي والرسالة.

وقيل: معناه أدخلني المدينة وأخرجني منها إلى مكّة للفتح. وقيل: إنّه امر بهذا الدعاء إذا دخل في أمر أو خرج من أمر. وقيل: أدخلني القبر عند الموت مدخل صدق وأخرجني منه عند البعث مخرج صدق ما يحمد عاقبته.

١ـ التوحيد للصدوق، ص٢٦١.

٢ـ روضة الواعظين، ص٢٧٣.

٣ـ تفسير القمي، ج٢، ص٢٥؛ وبحار الأنوار، ج٨، ص٣٥.

وقيل: أدخلني في الصلاة مع الصدق والإخلاص وأخرجني مع الإخلاص والقبول.

﴿وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا﴾ أي: اجعل لي عزّاً أمتنع به ممّن يحاول صدّي عن إقامة أمرك أو حجّة على أن أتقوّى بها على من عاداني فيك أقهر بها العصاة فنصرﷺ بالرعب حتّى خافه العدوّ على مسيرة شهر.

﴿وَقُلْ﴾ يا محمّد ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ وهو الإسلام ﴿وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ وهو الكفر والشرك.

وقيل: الحقّ القرآن والباطل الشيطان. روي عن عبد الله بن مسعود أنّه قال: (دخل النبيّ مكّة وحول البيت ثلاثمائة وستّون صنماً فجعل يطعنها ويقول: «**جاء الحقّ وزهق الباطل**»، فجعل الصنم ينكبّ لوجهه حين يقرأﷺ هذه الآية، ويقولون أهل مكّة: ما رأينا رجلاً أسحر من محمّدﷺ).[1]

وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾

المعنى: اعلم أنّ ﴿مِنَ﴾ في الآية للجنس لا للتبعيض أي: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ﴾ هذا الجنس من الكلام الّذي هو القرآن ﴿مَا هُوَ شِفَآءٌ﴾ من الأمراض الروحانيّة والعقائد الفاسدة والأخلاق المذمومة لأنّ أشدّ المفاسد فساد العقائد الفاسدة في الإلهيّات والنبوّة والبعث، والقرآن مشتمل على رفع هذه المفاسد بالدلائل الواضحة ويدفع العيوب الباطنة فكان شفاء من هذا النوع من المرض.

وأمّا كونه شفاء من الأمراض الجسمانيّة فلأنّ التبرّك بقراءته يدفع كثيراً من الأمراض واعترف الجمهور من الفلاسفة وأصحاب الطلسمات بأنّ

١ـ مناقب آل أبي طالب، ج ١، ص ١٠٤؛ وبحار الأنوار، ج ١٧، ص ٣٨٢.

لقراءة الرقيّ المجهولة والعزائم الّتي لا يفهم منها شيء آثار عظيمة في تحصيل المنافع ودفع المضارّ فلأن تكون القراءة من القرآن سبباً لحصول المنافع ودفع المضارّ كان أولى، على أن وردت أخبار في بعض الآيات لأمور، ويؤيّد هذا المعنى ما روي أنّ النبيّ ﷺ قال: «**من لم يستشف بالقرآن فلا شفاه الله**».[1]

وأمّا كونه رحمة للمؤمنين ونعمة لهم لأنّهم المنتفعون من القرآن، ولكنّ الظالمين لا يزدادون عنده إلّا الخسار والعقاب لكفرهم به ولعلّ المعنى أنّ القرآن يظهر ما هم فيه من الكيد والمكر فيفتضحون بذلك.

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ وكثرت نعمته ﴿أَعْرَضَ﴾ عن ذكرنا وولى وبعد بنفسه وجانبه عن القيام بحقوق إنعامنا وشكرنا وتباعد عنّا عن الشكر والدعاء وتكبّر ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ وأسباب المحنة وأصابه الفقر لم يصبر ويكون قنوطا ومأيوسا من رجاء الفرج بخلاف المؤمن فإنّه يرجوا الفرج والروح على هذا، فيكون المراد بالآية خاصاً وإن كان اللفظ عاماً.

﴿قُلْ﴾ يا محمّد لهم: ﴿كُلٌّ يَعْمَلُ﴾ على طبيعته وطريقته الّتي تخلّق بها من المؤمن والكافر حسب عادته ولهذا قال: ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ أي: يعلم أي: الفريقين على الهدى وأيّهما على الضلالة. وقال بعض أرباب اللسان: هذه الآية أرجى آية في كتاب الله لأنّ الأليق بكرمه العفو عن عبادة فهو يعمل به.

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ

١ـ مكارم الأخلاق، الشيخ الطبرسي، ص٣٦٣؛ وبحار الأنوار، ج٨٩، ص١٧٦.

عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾

اختلف في الروح المسئول عنه قيل: إنّهم سألوا عن الروح الّذي في بدن الإنسان وهو سبب الحياة ما هو؟ والسائلين هم اليهود. وقيل: إنّهم سألوا عن قدمها وحدوثها أهي مخلوقة محدثة أم قديمة؟ وقيل: سألوا عن جبرئيل أو عن ملك من الملائكة له سبعون ألف وجه لكلّ وجه سبعون ألف لسان يسبّح الله بجميع ذلك على ما روي عن عليّ عليه السلام[1]، أو عيسى فإنّه سمّي بالروح. وقيل: سألوا عن الروح الّذي هو القرآن كيف يتلقّى منه بالملك؟ وكيف صار نظمه وترتيبه مخالفاً لأنواع كلامنا من الخطب والأشعار، وقد سمّى الله تعالى القرآن روحاً في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾[2] فقال سبحانه: ﴿قُلِ﴾ يا محمّد: إنّ ﴿ٱلرُّوحُ﴾ الّذي هو القرآن ﴿مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ أنزله عليّ دلالة على نبوّتي وليس من فعل المخلوقين ولا ممّا يدخل في إمكانهم الإتيان بمثله كالخطب والأشعار الّتي يأتون بها فعلى هذا القول فقد وقع الجواب موقعه.

وأمّا على معنى سؤالهم من حدوث الروح أم قدمه أيضاً فقد وقع الجواب أيضاً موقعه فقال: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ أي: من فعله وخلقه أي: حادث وليس بقديم، ومعنى الأمر الفعل ولفظ الأمر قد جاء بمعنى الفعل

١ـ التبيان، ج٦، ص٥١٥؛ ومجمع البيان، ج٦، ص٢٨٨.

٢ـ سورة الشورى: ٥٢.

قال: ﴿وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ﴾[1] وأمّا على كون سؤالهم عن ماهيّة الروح الّذي تتعلّق الحياة بها وهي سارية في البدن فقد عدل عن جوابهم لعلمه بعدمِ فهمهم هذا الأمر، وأدعى إلى الصلاح لأنّهم لا يستفيدون من الجواب شيئاً فكلّمهم في معرفة الروح إلى ما في عقولهم فقال: من أمر «كن» وتعلّق القدرة بإيجادها.

وبالجملة اختلف العلماء في ماهيّة الروح فقيل: إنّه جسم رقيق هوائيّ متردّد في مخارق الحيوان وهو مذهب أكثر المتكلّمين، واختاره الأجلّ المرتضى قدّس سرّه. وقيل: جسم هوائيّ على بنية حيوانيّة في كلّ جزء منه حياة عن عليّ بن عيسى، قال: فلكلّ حيوان روح وبدن إلّا أنّ فيهم من الأغلب عليه الروح ومنهم من الأغلب عليه البدن.

وقيل: إنّ الروح عرض، ثمّ اختلف فيه فقيل: هو الحياة الّتي يتهيّأ به المحلّ لوجود القدرة والعلم والاختيار، وهو مذهب الشيخ المفيد أبو عبد اللّه محمّد بن محمّد بن النعمان والبلخيّ والمعتزلة البغداديّة.

وقال بعض العلماء: إنّ اللّه خلق الروح من ستّة أشياء من جوهر النور والطيب والبقاء والحياة والعلم والعلوّ ألا ترى أنّه مادام في الجسد كان نورانيّاً يبصر بالعينين ويسمع بالأذنين ويكون طيباً فإذا خرج عن الجسد نتن الجسد، ويكون باقياً فإذا فارقه الروح بلى وفنى، ويكون حيّاً وبخروجه يصير ميتاً، ويكون عالماً فإذا خرج منه الروح لم يعلم شيئاً، ويكون علويّاً لطيفاً توجد به الحياة بدلالة قوله في صفة الشهداء: ﴿بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ﴾[2].

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ قيل: هو خطاب للنبيّ وغيره أي: ما أوتيتم العلم، المنصوص عليه شيء يسير بالنسبة إلى غير المنصوص عليه

١ـ سورة هود: ٩٧.

٢ـ سورة آل عمران: ١٦٩.

فإنّ معلومات اللّه لا نهاية لها. وقيل: الخطاب لليهود الّذين سألوا عن الروح فقالت اليهود عند ذلك: قد أعطانا اللّه التوراة فقال صلی الله علیه و آله: **«التوراة في علم الله قليل»**.(١)

واعلم أنّ للناس في حقيقة الإنسان مذاهب فجمهور المتكلّمين يقولون: إنّ الإنسان عبارة عن هذه البنية المحسوسة وعن هذا الجسم المحسوس، ويقولون: إنّ الإنسان يحتاج تعريفه إلى ذكر حدّ أو رسم. وبعض أنكروا هذا القول، ويقولون: إنّ العلم الضروريّ يحكم بأنّ هاهنا شيئاً غير الإنسان بقوله: أنا، وعلمت، وسمعت، وفرحت، وغضبت فالمشار إليه بقوله: أنا إمّا جسم أو عرض أو مجموع الجسم والعرض أو شيء مغاير للجسم والعرض. والّذي يدلّ على أنّه لا يمكن أن يكون الإنسان هو هذا الجسم المحسوس وجوه:

الوجه الأوّل: أنّ العلم البديهيّ حاصل بأنّ أجزاء هذه الجثّة متبدّلة بالزيادة والنقصان تارة بحسب النموّ والذبول وتارة بحسب السمن والهزال، والمتبدّل المتغيّر غير الثابت الباقي.

الوجه الثاني: أنّ الإنسان حال ما يكون مشتغل الفكر نحو أمر معيّن مخصوص فإنّه في تلك الحالة يكون غافلاً عن جميع أجزاء بدنه وأعضائه وأبعاضه مجموعها ومفصّلها وهو مع ذلك غير غافل عن نفسه المعيّنة بدليل أنّه في تلك الحالة قد يقول: غضبت واشتهيت وأبصرت، وتاء الضمير كناية عن نفسه فهو في تلك الحالة عالم بنفسه وغافل عن جملة بدنه وعن كلّ من أعضائه والمعلوم غير ما هو غير معلوم فالإنسان يجب أن يكون مغايراً لجملة هذا البدن.

الوجه الثالث: أنّ الإنسان قد يكون حياً حال ما يكون البدن ميتاً فوجب

١ـ مجمع البيان، ج٦، ص٢٨٩؛ بحار الأنوار، ج٥٨، ص٣.

كون الإنسان مغايراً لهذا البدن قال الله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[١] فهذا النصّ صريح في أنّ أولئك المقتولين أحياء والحسّ يدلّ على أنّ هذا الجسد ميّت وكذلك قوله صلى الله عليه وآله: **«أنبياء الله لا يموتون ولكن ينقلون من دار إلى دار»**[٢]. وكذلك قوله صلى الله عليه وآله: **«من مات فقد قامت قيامته»**[٣]. وكلّ هذه النصوص تدلّ على أنّ الإنسان يبقى بعد موت الجسد، وإذا ثبت أنّ الإنسان حيّ وكان الجسد ميتاً لزم أنّ الإنسان شيء غير هذا الجسد، وقوله صلى الله عليه وآله في خطبة طويلة له: **«حتّى إذا حمل الميّت على نعشه رفرف روحه فوق النعش، ويقول: يا أهلي ويا ولدي جمعت المال من حلّه وغير حلّه»**[٤] ومعلوم أنّ الّذي كان الأهل أهلاً له ليس إلّا ذلك الإنسان وهذا الأمر في وقت كان الجسد ميتاً محمولاً وذلك الإنسان حياً باقياً.

الوجه الرابع: أنّ الإنسان إذا ضاع عضو من أعضائه مثل أن تقطع يداه أو رجلاه أو تقلع عيناه أو تقطع أذناه إلى غيرها من الأعضاء فإنّ ذلك الإنسان يجد من قلبه وعقله أنّه هو عين ذلك الإنسان ولم يقع في ذلك الإنسان تفاوت حتّى أنّه يقول: أنا ذلك الإنسان الّذي كنت موجوداً قبل ذلك إلّا أنّهم قطعوا يدي ورجلي، وذلك برهان يقينيّ على أنّ ذلك الإنسان شيء مغاير لهذه الأعضاء وذلك يبطل قول من يقول: الإنسان عبارة عن هذه البنية المخصوصة، وأنت إذا تكلّمت مع زيد وقلت له: افعل كذا ولا تفعل كذا، فالمخاطب والمأمور والمنهيّ ليس هو جبهة زيد ولا أنفه ولا عينه والمأمور شيء مغاير لهذا البدن.

١ـ سورة آل عمران: ١٦٩.

٢ـ بحار الأنوار، ج٦، ص٢٠٧.

٣ـ الحدائق الناظرة، ج٧، ص٤٤٣؛ وبحار الأنوار، ج٥٨، ص٧.

٤ـ بحار الأنوار، ج٥٨، ص٧، شرح مئة كلمة، ابن ميثم البحراني، ص١٣.

فإن قيل: لم لا يجوز أن يقال: المأمور جملة هذا البدن لا شيء من أعضائه؟

قلنا: توجّه التكليف على الجملة إنّما يصحّ لو كانت الجملة فاهمة عالمة فلو كانت الجملة فإمّا أن يقوم بمجموع البدن علم واحداً ويقوم بكلّ واحداً من الأجزاء علم على حدة، والأوّل: يقتضي قيام العرض بالمحالّ الكثيرة وهو محال. والثاني: يقتضي أن يكون كلّ واحداً من أجزاء البدن عالماً مدركا على سبيل الاستقلال والعلم الضروريّ يحكم بأنّ الجزء المعيّن من البدن ليس فاهماً عالماً على سبيل الاستقلال فيسقط السؤال.

﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ لمّا بيّن سبحانه في الآية الأولى أنّه ما آتاهم من العلم إلّا قليلاً بيّن في هذه الآية أنّه لو شاء أن يأخذ منهم ذلك القليل لقدر عليه أي: إنّي أقدر أن آخذ ما أعطيتك كما منعته غيرك لكن دبّرت لك بالرحمة فأعطيتك ما تحتاج إليه من العلم ومنعت ما لا تحتاج إليه، وأثبت القرآن في قلبك وقلوب المؤمنين ولو شئنا لمحونا هذا القرآن من صدرك وصدر أمّتك حتّى لا يوجد له أثر إثمّ لا تجد له] حفيظاً يحفظه عليك ويحفظ ذكره على قلبك. وفي هذه الآية دلالة على أنّ السؤال عن الروح وقع عن القرآن.

واحتجّ القائلون بحدوث القرآن وأنّه مخلوق وليس بقديم قالوا: والّذي يقدر على إزالته والذهاب به يستحيل أن يكون قديماً.

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ على الاستثناء المنقطع يعني: لكن رحمة ربّك تركته لك وما ذهب به وهذه منّة من اللّه عليه ﴿إِنَّ فَضْلَهُۥ﴾ وامتنانه بسبب إبقاء القرآن والعلم ﴿عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ بسبب إنزال القرآن عليك وجعلك سيّد ولد آدم وختم بك النبيّين وأعطاك المقام المحمود.

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ﴾ قل يا محمّد لهؤلاء الكفّار: لئن

اجتمعت الإنس والجنّ متعاونين متعاضدين ﴿عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ وجامعيّته وجودة المعاني والخلوّ من التناقض، وكونه من الطبقة العليا ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ﴾ معيناً مثل ما يتعاون الشعراء على بيت شعر فيقيمونه، وللناس فيه قولان:

منهم من قال: القرآن في نفسه معجز. ومنهم من قال: إنّه ليس في نفسه معجزاً إلّا أنّه تعالى لمّا صرف دواعيهم عن الإتيان بمعارضته مع أنّ تلك الدواعي كانت قويّة فكانت هذه الصرفة والمنع معجزة.

والبيان في هذه المسألة: أنّ القرآن إمّا في نفسه يكون معجزاً أو لا يكون فإن كان معجزاً فقد حصل المطلوب وإن لم يكن معجزاً بل كانوا قادرين على الإتيان بمعارضته وكانت الدواعي متوفّرة على الإتيان بهذه المعارضة وما كان لهم عنها صارف ومانع، وعلى هذا التقدير فإنّ الإتيان بمعارضته عندهم واجب فعدم الإتيان بهذه المعارضة مع التقديرات المذكورة يكون نقضاً للعادة فيكون مع التحدّي معجزاً فثبت الإعجاز.

وفي هذه الآية أيضاً دلالة على أنّ السؤال بالروح وقع عن القرآن لأنّه من تمام الآية ومن تمام ما أمر الله نبيّه أن يجيبهم.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ﴾ أي: ولقد أخبرناهم وبيّنّا لهم في هذا القرآن من كلّ ما يحتاجون إليه في دينهم ودنياهم ليتفكّروا فيها ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ﴾ من القبول وزادوا جحودا للحقّ كأنّه قيل: فلم يرضوا ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾ لأنّ لفظ «أبى» معناه النفي.

وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ

قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾

سبب النزول: (قال ابن عبّاس: إنّ جماعة من قريش وهم عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو سفيان بن الحرب والنضر بن الحارث والأسود بن المطّلب وزمعة بن الأسود والوليد بن مغيرة وأبو جهل بن هشام وعبد الله بن هشام وعبد الله بن أميّة وأميّة بن خلف والعاص بن الوائل وبنيه ومنبّه ابنا الحجّاج وأبو البختريّ بن هشام اجتمعوا عند الكعبة وقال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمّد ﷺ فكلّموه وخاصموه فبعثوا إليه أنّ أشراف قريش قومك قد اجتمعوا لك، فبادر إليهم ظنّا منه ﷺ أنّهم بدأ لهم في أمره وكان حريصاً على رشدهم فجلس إليهم فقالوا: يا محمّد ﷺ إنّا دعوناك لنعذر إليك فلا نعلم قوماً أدخل على قومه ما أدخلت على قومك: شتمت الآلهة وعبت الدين وسفّهت الأحلام وفرّقت الجماعة فإن كنت جئت بهذا لتطلب مالاً أعطيناك وإن كنت تطلب الشرف سوّدناك علينا وإن كانت علّة غلبت عليك طلبنا لك الأطبّاء. فقال ﷺ: **«ليس شيء من ذلك بل بعثني الله إليكم رسولاً وأنزل كتاباً فإن قبلتم ما جئت به فهو حظّكم في الدنيا والآخرة وإن تردّوه أصبر حتّى يحكم بيننا»**. قالوا: فإذن بلدتنا مكّة ضيّقة فاسأل ربّك أن يسيّر هذه الجبال ويجري لنا أنهاراً كأنهار الشام والعراق وأن يحيي ويبعث من مضى وليكن فيهم قصيّ فإنّه شيخ صدوق لنسألهم عمّا تقول أحقّ أم باطل؟ فقال ﷺ: **«ما بهذا بعثت»**.

قالوا: فإن لم تفعل ذلك فاسأل ربّك أن يبعث ملكاً يصدّقك ويجعل لنا جنّات وكنوزا وقصورا من ذهب. فقال: **«ما بهذا بعثت وقد جئت بما بعثني الله به فإن قبلتم وإلّا فهو يحكم بيني وبينكم»**. قالوا: فأسقط علينا السماء كما زعمت إنّ ربّك إن شاء فعل ذلك. قال: **«ذاك إلى الله إن شاء فعل»**. وقال قائل منهم: لا نؤمن لك حتّى تأتي بالله والملائكة قبيلاً.

فقام النبيّ وقام معه عبد الله بن أميّة المخزوميّ ابن عمّته عاتكة بنت عبد المطّلب فقال: يا محمّد عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله ثمّ سألوك لأنفسهم أموراً فلم تفعل، ثمّ سألوك أن تجعل ما تخوّفهم به فلم تفعل فو الله لا أؤمن بك أبداً حتّى تتّخذ سلّماً في السماء وترقى فيه وأنا أنظر ويأتي معك نفر من الملائكة يشهدون لك وكتابا يشهد لك. وقال أبو جهل بن هشام المخزوميّ: إنّه أبى إلّا سبّ الآلهة وشتم الآباء وأنا أعاهد الله لأحملن حجراً فإذا سجد ضربت رأسه فانصرف رسول الله حزيناً لما رأى من قومه، فنزلت الآية).[1]

المعنى: لمّا بيّن إعجاز القرآن عقب البيان بأنّهم أبوا إلّا الكفر والطغيان واقترحوا من الآيات ما ليس لهم ذلك وقالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾ ونصدّقك ﴿حَتَّىٰ﴾ تشقّق ﴿لَنَا﴾ من أرض مكّة علينا ينبع منه الماء في وسط مكّة ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ﴾ تجنّها وتسترها الأشجار ﴿مِّن نَّخِيلٍ﴾ وأعناب ﴿فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ﴾ من الماء وسطها تشقيقا حتّى يجري الماء تحت الأشجار ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ﴾ علينا قطعا قد تركّب بعضها على بعض.

﴿كَمَا زَعَمْتَ﴾ أي: كما كنت تخوّفنا من انشقاق السماء وانفطارها بزعمك ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ﴾ قبيلة قبيلة أو متقابلين حتّى نشاهدهم

١ـ مجمع البيان، ج٦، ص٢٩٢، بحار الأنوار، ج٩، ص١٢٠.

ويشهدون بأنك نبيّ ودعوتك حقّ وهذا يدلّ على أنّ القوم كانوا مشبّهة مع شركهم ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ﴾ من ذهب ونقوش أو تصعد ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ وإذا صعدت لم نصدّقك ﴿حَتَّى تُنَزِّلَ﴾ على كلّ واحداً منّا ﴿كِتَابًا﴾ من الله شاهداً بصحّة نبوّتك ﴿نَقْرَؤُهُ﴾ وهو مثل قوله: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً﴾[1].

﴿قُلْ﴾ يا محمّدﷺ تنزيهاً لله من كلّ قبيح وبراءة من كلّ سوء، لأنّهم لمّا قالوا: تأتي بالله أو ترقى في السماء إلى عند الله لاعتقادهم أنّ الله جسم قال: قل: ﴿سُبْحَانَ رَبِّي﴾ عن كونه بصفة الأجسام وتعظيما له وطيّبا عن أن يحكم عليه عبيده حتّى يفعل المعجزات باقتراحاتكم ويجوز عليه المقابلة والنزول ﴿هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ أي: هذه الأشياء ليس في طاقة البشر أن يأتي بها فلا أقدر بنفسي أن آتي بها كما لم يقدر من كان قبلي من الرسل فلا تطالبوني بما لا يطالب به البشر.

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ﴾ بيان الآية أنّ القوم استبعدوا أن يكون الرسول من جنس البشر بل كانوا يقولون: إنّ الله لو أرسل رسولاً فينبغي أن يكون من الملائكة، فأجاب عن قولهم: وما يمنعهم أن يؤمنوا بمن أرسلنا من البشر إذ معه الهدى والمعجزة، والمعجزة سواء أظهرت على يد البشر أو على يد الملك لابدّ وأن يصدّقوا ووجب الإقرار برسالته؟ فهذا القول منهم تحكّم فاسد.

والجواب الثاني عن استبعادهم وهو أنّ أهل الأرض لو كانوا ملائكة لكان من الواجب أن يكون رسولهم من الملائكة لأنّ الجنس إلى الجنس أميل وكذلك لو كانوا بشراً لكان رسولهم بشراً.

ثمّ بعد نقض شبهاتهم هدّدهم سبحانه بقوله: ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ

١ـ سورة المدثر: ٥٢.

شَهِيدًا ﴾ في صدقي وادّعائي وحاكم بيني وبينكم ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ أخبر وأبصر بظواهرهم وبواطنهم ويعلم أنّهم إنّما يوردون هذه الشبهات لمحض الحسد والعناد وحبّ الدنيا والاستنكاف عن الانقياد للحقّ. وقيل: معنى الآية أنّ العرب قالوا: كنّا ساكنين مطمئنين فجاء محمّد فأزعجنا وشوّش علينا أمرنا. فبيّن سبحانه قل لهم: لو كانوا ملائكة مطمئنّين لأوجبت الحكمة إرسال الرسل إليهم فكذلك أهل الأرض لابدّ وأن يرسل إليهم رسولاً منهم للهداية وإنّهم أحوج إلى الرسول من الملائكة.

وهاهنا سؤال: إذا جاز أن يكون الرسول إلى النبيّ ملكاً ليس من جنسه فجاز أن يكون الرسول إلى الناس أيضاً ملكاً ليس من جنسهم.

فالجواب أنّ النبيّ وصاحب الرسالة والمعجزة قد اختير من بينهم للنبوة فصارت حاله مقاربة حال الملك وليس كذلك غيره من الناس ويجوز له أن يرى الملائكة كما يرى بعضهم بعضاً بخلاف الأمّة وله مزيّة على الأمّة واختصاصات دون غيره. وأيضا فإنّ النبيّ بنفسه يحتاج إلى معجزة يعرف بها رسالة نفسه كما احتاجت الأمّة إلى معجزة فجعل الله موجب يقينه ومعجزة نفسه رؤيته للملك.

وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ
وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ
كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا
وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ
ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ
أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّـٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ

رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾

لمّا أجاب سبحانه عن شبهاتهم واقتراحاتهم وأردفها بالوعيد الإجماليّ وهو قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ ذكر في هذه الآية الوعيد الشديد على سبيل التفصيل بقوله: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ﴾ والأشاعرة فسّروا الآية بسبق حكم الله عليهم بالهداية والضلال تعالى الله عن هذه النسبة وإنّما المعنى والمراد: من يحكم الله له بسبب قبوله الإيمان وإطاعته أمره على الحقيقة ﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ ومن يحكم الله عليه بسبب جحوده وإنكاره ليس له وليّ ولا ناصر. والمعتزلة فسّروا الإضلال والضلال في مطلق أمثال هذه الآيات الإضلال عن طريق الجنّة وعلى منع الألطاف لعدم الاستحقاق وعلى التخلية وعدم التعرّض بالمنع عن الكفر كما هو الحقّ في مذهب أهل الحقّ والعدليّة.

﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ أي: يسحبون على وجوههم في النار، أو المعنى يمشون حقيقة من وجوههم.

روى أبو هريرة أنّه قيل: يا رسول الله كيف يمشون على وجوههم؟ قال: «**إنّ الّذي يمشيهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم**».[١] ﴿عُمْيًا﴾ عمّا يسرّهم ﴿وَبُكْمًا﴾ لا ينطقون بحجّة تنفعهم ﴿وَصُمًّا﴾ عمّا يمتّعهم كأنّهم عدموا هذه الجوارح لأنّهم لا يسمعون ولا يرون ولا يتكلّمون لأنّ الله يقول: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ﴾[٢] وقال: ﴿سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾[٣] وقال: ﴿دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾[١] وقيل: على الحقيقة يحشرون على هذه الصفة عميا كما عموا عن الحقّ في الدنيا، بكما كما سكتوا عن كلمة الإخلاص

١ـ التبيان، ج٧، ص٤٨٩؛ وكنز العمال، ج١٤، ص ٣٦٠.

٢ـ سورة الكهف: ٥٣.

٣ـ سورة الفرقان: ١٢.

١ـ سورة الفرقان: ١٣.

والحقّ، صمّا لتركهم سماعهم القرآن وإصغائهم الباطل. ولا ينافي الأمرين لأنّ مواقف القيامة كثيرة. ﴿مَّأْوَىٰهُمْ﴾ ومستقرّهم ﴿جَهَنَّمُ كُلَّمَا﴾ سكن التهاباً ﴿زِدْنَٰهُمْ﴾ اشتعالا فيكون كذلك دائماً سرمداً.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الّذي تقدّم ذكره من العذاب ﴿جَزَآؤُهُم﴾ استحقّوه ﴿بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ﴾ وجحدوا وكذّبوا بآيات الله، ومن تكذيبهم أنّهم قالوا: إذا صرنا مترضرضين مثل هذا التراب نبعث ونحيى ثانياً؟ ليس الأمر كذلك من مات فات.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾ ويعلموا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى﴾ يقدر على ﴿خَلَقَ﴾ ما هو أعظم وهو ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن﴾ يخلقهم ثانياً بعد الفناء. وعبّر بالمثل أي: الإعادة مثل الابتداء والإعادة أسهل وأهون من الإنشاء، وإذا كان قادراً على أمثالهم كان قادراً على إعادتهم بأعيانهم إذ البنية والمادّة ليس شرطاً في القدرة. وأراد بمثلهم إيّاهم عيناً لأنّ مثل الشيء مساوله في جهاته ويعبّر بالمثل عن الشيء نفسه يقال: مثلك لا يفعل كذا أي: أنت لا تفعل كذا.

ثمّ قال: ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: جعل لإعادتهم وقتاً لا شكّ في وقوعه كائن لا محالة، أو جعل لهم آجلاً يعيشون في الأجل ثمّ يخترمون عنده ﴿فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لأنفسهم بفعل المعاصي ﴿إِلَّا﴾ جحودا بآيات الله ونعمه.

ثمّ قال: ﴿قُل﴾ لهم يا محمّدﷺ: ﴿لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ﴾ أرزاق الله وملكتم مقدورات نعمة ﴿رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ﴾ عن البذل والإسخاء خشية الفقر والفاقة ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾ شحيحاً بخيلاً، ولمّا كان الأكثر في طباعهم البخل جاز الإطلاق ولو أن يكون بعضهم أجوادا كرماء.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ
فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا
رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ

أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾

المقصود من هذا الكلام الجواب عن اقتراحاتهم عن قولهم: «لن نؤمن لك حتّى تأتينا بهذه المعجزات الّتي اقترحناها» فجاوبهم سبحانه بأنا ﴿ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ﴾ معجزات مساوية لما طلبتموها بل أعظم منها فلو حصل في علمنا أنّها مصلحة لفعلناها كما فعلنا في حقّ موسى. وقد ذكر في القرآن أشياء كثيرة من معجزات موسىعليه‌السلام منها: إزالة العقدة من لسانه وذهبت العجمة وصار فصيحاً، وانقلاب العصا ثعباناً، وتلقّف الحيّة حبالهم وعصيّهم مع كثرتها، واليد البيضاء، والطوفان والجراد والقمّل والضفادع والدم، وشقّ البحر والحجر وإظلال الجبل وإنزال المنّ والسلوى عليه وعلى قومه، وأخذهم بالسنين ونقص من الثمرات، والطمس على أموالهم من الأطعمة والدقيق والدراهم والدنانير.

روي أنّ عمر بن عبد العزيز سأل محمّد بن كعب عن الآيات لموسى فقال: منها حلّ عقدة اللسان والطمس ثمّ قال: يا غلام أخرج ذلك الجراب فأخرجه فنفضه فإذا فيه بيض مكسور وجوز مكسور وفول وحمّص وعدس كلّها حجارة. وتخصيص التسعة بالذكر لا يقدح ثبوت الزائد عليه.

وقد قيل في الآيات التسع: الأحكام التسع، كما روى صفوان بن غسّال أنّه قال: إنّ يهودياً قال لصاحبه: اذهب بنا إلى هذا النبيّ نسأله عن تسع آيات، فذهبا إلى النبيّ وسألاه عنها فقالصلى‌الله‌عليه‌وآله: **«هنّ أن لا تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا ولا تسحروا ولا تأكلوا الربي ولا تقذفوا المحصنة ولا تولّوا الفرار يوم الزحف، وعليكم خاصّة اليهود أن لا تعتدوا في السبت. فقام اليهوديّان فقبّلا**

يديه ورجليه وقالوا: نشهد أنّك نبيّ ولو لا نخاف القتل لاتّبعناك».[1]

﴿فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ والمراد من الأمر عن هذا السؤال ليس للاستفادة من العلم بالآيات وإنّما المقصود أن يظهر لعامّة اليهود صدق ما ذكره الرسول فالسؤال سؤال استشهاد وقرئ «فسأل» بصيغة الماضي. روي عن ابن عبّاس أنّه قرأ فسأل بني إسرائيل أي: فسأل موسى فرعون بني إسرائيل أن يرسلهم معه.

فقال له فرعون لمّا جاءه موسى: ﴿إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ أي: ساحراً ووضع المفعول موضع الفاعل كما يقال: مشئوم وميمون في معنى شائم ويامن. وقيل: معناه أنّه سحر بك وأنت مخدوع فقال له موسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ يا فرعون أنّه ﴿مَآ أَنزَلَ﴾ هذه الآيات ﴿إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الّذي خلقهنّ أنزلها ﴿بَصَآئِرَ﴾ وحججا وبراهين للناس يبصرون بها أمور دينهم، وأدلّة على نبوّتي لأنّك تعلم أنّها ليست من السحر. وروي أنّ عليّاًعليه السلام قال: «**إنّ الضمير في «علمت» للمتكلّم، قال: والله ما علم عدوّ الله ولكن موسى هو الّذي علم**».

﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ﴾ هالك لكفرك وينادى لك بالويل والثبور، والمراد بالظنّ هاهنا الظنّ لا العلم.

﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم﴾ أي: أراد فرعون أن يزعج موسى ومن معه من أرض مصر وفلسطين واردنّ بالنفي عنها، وقيل: أراد بأن يقتلهم ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُ﴾ وجنوده ﴿جَمِيعًا﴾ بحيث لم ينج منهم أحد ولم يهلك من بني إسرائيل أتباع موسى أحد ﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ هلاك فرعون وقومه ﴿لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟﴾ أرض مصر والشام ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ﴾ الكرّة ﴿ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أو نزول عيسى ﴿جِئْنَا بِكُمْ﴾ من القبور إلى موقف الحساب مختلطين التفّ بعضكم ببعض لا تتعارفون وقيل: معناه جميعاً أوّلكم وآخركم.

١ـ مجمع البيان، ج٦، ص٣٠٠؛ والتبيان، ج٦، ص٥٢٧

والنظم في الآية أن قوم موسى لمّا اقترحوا الآيات وآتيناهم ولم يؤمنوا فعذّبناهم بعذاب الاستئصال فلو نأتي لقومك ما اقترحوا ولم يؤمنوا يجب أن نعذّبهم أيضاً والحكمة لا تقتضي ذلك.

وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾

أي القرآن عليك ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ بالصواب ويكون أن يعمل به. ويؤمن به وقيل: الضمير في أنزلناه إلى موسى كقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا﴾ بالجنّة لمن أطاعك ومنذرا بالنار لمن عصاك.

وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾

المعنى ثمّ عطف على ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي: وأنزلنا عليك: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ﴾ بالتشديد والتخفيف أي: فصّلناه سورا وآيات. أو المعنى فرقنا به الحقّ عن الباطل، أو بعضه خبراً وبعضه أمراً ونهيا وبعضه وعداً ووعيدا فأنزلناه متفرّقا لم ننزله جميعاً إذ كان بين أوّله وآخره نيّف وعشرون سنة ﴿لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ﴾ تؤدة وتثبّت ليكون أمكن في قلوبهم ويكونوا أقدر على التأمّل فيه والعمل به ولا تعجل في تلاوته فلا يفهم عنك وتقرأه عليهم شيئاً فشيئاً ﴿وَنَزَّلْنَٰهُ﴾ على حسب الحوائج ووقوع الحوادث. قال ابن عبّاس:

(لئن أقرأ سورة البقرة وارتّلها أحبّ إليّ من أقرأ القرآن). وعن عبد الله بن مسعود قال: (لا تقرءوا القرآن في أقلّ من ثلاث واقرءوا في سبع).

﴿قُلْ﴾ يا محمّد لهؤلاء المشركين: ﴿ءَامِنُوا بِهِۦٓ﴾ أي: بالقرآن ﴿أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟﴾ فإنّ إيمانكم ينفعكم ولا ينفع غيركم وترككم الإيمان يضرّكم ولا يضرّ غيركم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ﴾ أي: الّذين أعطوا علم التوراة من قبل نزول القرآن كعبد الله ابن سلام وأمثاله وعلموا وعرفوا صفة النبيﷺ قبل مبعثه ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ القرآن يسقطون على الوجوه ساجدين. وإنّما خصّ الذقن لأنّ من سجد كان أقرب شيء من جبهته إلى الأرض الذقن. والذقن مجمع اللحيتين، ثمّ إنّ الإنسان إذا استولى عليه الخوف من الله أو الشوق فربّما سقط على الأرض في معرض السجود كالمغشيّ عليه ومتى كان كذلك كان خروره على الذقن فقوله: ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ كناية عن غاية ولهه وخوفه وخشيته، والعرب يقول إذا خرّ الرجل ووقع على وجهه: فلان خرّ للذقن، ولا يقال: خرّ على الذقن. قوله: ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ أي: يقولون في سجودهم: سبحان ربّنا، أي: ينزّهونه ويعظّمونه إنّه كان وعد ربّنا حقّاً يقيناً أي: وعد الّذي وعدنا بإرسال محمّدﷺ وإنزال القرآن حقّ وثبت. وهذا يدلّ على أنّ هؤلاء كانوا من أهل الكتاب لأنّ الوعد ببعثة محمّدﷺ سبق في كتابهم فهم كانوا ينتظرون إنجاز ذلك الوعد.

ثمّ قال: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾ والفائدة في هذا التكرار اختلاف الحالتين وهما خرورهم للجسود وخرورهم حال كونهم باكين عند استماع القرآن ويدلّ عليه قوله: ﴿وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ والمقصود من بيان الآية تحقير الكفّار وعدم الاعتناء بشأنهم والاكتراث بإيمانهم وامتناعهم بأنّهم إن لم يؤمنوا به فقد آمن به من هو خير منهم وهم الموصوفون.

﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ﴾ المراد الاسم لا المسمّى، والواو للتخيّر بمعنى ادعوا اللّه أو ادعوا الرحمن سمّوا بهذا الاسم أو بهذا الاسم. والتنوين في «أيّ» عوض عن المضاف إليه أي: هذا الاسمين سمّيتم فللمسمّى ﴿ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ وهو ذاته عزّ وجلّ.

و«ما» موصولة كرّرت مع «أيّ» لاختلاف اللفظين تأكيداً كما قالوا: ما رأيت كاللّيلة ليلة، وتقديره: أي: شيء واسم من أسمائه تدعونه به جائز.

و«أو» معناه الإباحة فإنّ أسماءه تنبئ عن صفات حسنة أو أفعال حسنة فأمّا أسماؤه المنبئة عن صفات ذاته فهو القادر العالم الحيّ السميع البصير القديم. وأسماؤه المنبئة عن صفات أفعاله الحسنة فنحو الخالق والرازق والعدل والمحسن والمجمل والمنعم والرحمن والرحيم.

وأمّا ما أنبأ عن المعاني الحسنة فنحو الصمد فإنّه يرجع إلى أفعال عباده وهو أنّهم يصمدونه في الحوائج ونحو المعبود والمشكور. بيّن اللّه في هذه الآية أنّه واحداً وإن اختلف أسماؤه وصفاته.

وفي الآية دلالة على أنّه سبحانه لا يفعل القبائح مثل الظلم وغيره لأنّ أسماءه حينئذ لا تكون حسنة فإنّ الأسماء قد تكون مشتقّة من الأفعال فلو فعل الظلم لاشتقّ منه اسم كالظالم كما اشتقّ من العدل العادل.

واحتجّ الجبّائيّ بهذه الآية فقال: لو كان هو الخالق للظلم يصحّ أن يقال: يا ظالم، وصدق عليه هذا الاسم وحينئذ يبطل ما ثبت من هذه الآية من كون أسمائه بأسرها حسنة.

وذكروا في سبب نزول هذه الآية قيل: إنّ النبيّ ﷺ كان ساجداً ذات ليلة بمكّة يدعو: «**يا رحمن يا رحيم**». فقال المشركون: هذا يزعم أنّ له إلهاً واحداً وهو يدعو مثنى مثنى، عن ابن عبّاس. وثانيها أنّ المشركين قالوا: أمّا

الرحيم فنعرفه وأمّا الرحمن فلا نعرف إلّا رحمن اليمامة. وقيل: إنّ اليهود قالوا: إنّ ذكر الرحمن في القرآن قليل وهو في التوراة كثير. وقد شرحنا هذا البيان في سورة الأعراف.

﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ اختلف في معناه: روي أنّ النبي صلى الله عليه وآله كان إذا صلّى جهر في صلاته والمشركون يسمعونه فشتموه وآذوه فأمره سبحانه بترك الجهر وكان ذلك بمكّة في أوّل الأمر، روي ذلك عن أبي جعفر وأبي عبد الله.[1] وقيل: إنّ معناه: لا تجهر بإشاعة صلاتك عند من يؤذيك ولا تخافت بها عند من يلتمسها منك. وقيل: المراد بالصلاة الدعاء والمسألة، لا ترفع صوتك فتذكر ذنوبك فيسمع ذلك فتعيّر بها فالجهر بالدعاء منهيّ عنه والمبالغة في الإسرار غير جائزة والمستحبّ التوسّط وهو أن يسمع نفسه قال ابن مسعود: لم يخافت من أسمع أذنيه. وقيل: معنى ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ بأن تجهر بصلاة الليل وتخافت بصلاة النهار. وقيل: معناه لا تجهر جهراً يشتغل به من يصلّي بقربك ولا تخافت بها حتّى لا تسمع نفسك. وقريب من هذا المعنى ما رواه أصحابنا عن أبي عبد الله أنه قال: **«الجهر بها رفع الصوت شديداً والمخافة ما لم تسمع أذنيك»**.

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ فيكون الولد هو الشيء المتولّد من جزء من أجزاء شيء آخر فكلّ من له ولد فهو مركّب من الأجزاء والمركّب محدث ـ والله سبحانه قديم ـ فلا يستحقّ الربوبيّة فهذا المنفيّ من صفة السلوب ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ﴾ بدليل التمانع وهذا أيضاً من السلوب ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ﴾ وناصر لأنه حينئذ محتاج إلى الغير ولا يستحقّ خصوص الحمد له ﴿وَكَبِّرْهُ﴾ عن النقائص والقبائح فكبّره ونزّهه عنها تنزيهاً.

١ـ بحار الأنوار، ج ٨٢، ص ٧٠.

وهذه الآية ردّ على اليهود والنصارى حين قالوا: اتّخذ اللّه ولداً. وعلى مشركي العرب حيث قالوا: لبّيك لا شريك لك إلّا شريك هو لك. وعلى الصابئين والمجوس حين قالوا: لو لا أولياء اللّه لذلّ اللّه.

وفي كيفيّة تكبير اللّه وتعظيمه اختلاف شديد بين الأشاعرة أي: الجبريّة والمعتزلة أي: العدليّة فقال: أهل الجبر والسنّة: إنّا نحمد اللّه ونكبّره عن أن يجري في سلطانه شيء لا على وفق حكمه وإرادته فالكلّ واقع بقضاء اللّه. وقالت المعتزلة: إنّا نكبّر اللّه عن أن يكون فاعلاً لهذه الأمور القبيحة بل نعتقد أنّ حكمته يقتضي التنزيه عنها وعن إرادتها.

قيل: إنّ الأستاذ أبا إسحاق الإسفراينيّ كان جالساً عند الصاحب بن عباد الوزير فدخل القاضي عبد الجبّار بن أحمد الهمدانيّ فلمّا رآه قال: سبحان من تنزّه عن الفحشاء. فقال الأستاذ أبو إسحاق: سبحان من لا يجري في ملكه إلّا ما يشاء. أقول: بداهة العقل يحكم بأنّ قائل هذا الكلام لا ينبغي أن يقال له: الأستاذ لأنّ قوله ما أقربه إلى الشعوذة! لأنّه سبحانه إذا أراد وخلق الكفر وشاء له القبيح فبماذا يعاقبه؟

فلو صدر مثل هذا الأمر من عبد أسود لقبّحه جميع أهل الدنيا على أنّ التنزيه والتكبير لابدّ وأن يكون بصفات مقدّسة عالية من جلاله ولطفه وعدله وأين هذا الأمر من العدل؟ هيهات! قال الشاعر:

ألقاك في اليمّ مكتوفا وقال لـك — إيّـاك إيّـاك أن تبتـلّ بالمـاء

وكثرة الذكر والتعظيم للّه من خصائص المؤمنين ولهذا شرّفوا بالتشريفات المخصوصة.

تمّت السورة.

سُورَةُ الكَهْفِ

مكيّة إلّا آية ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم﴾[1] فإنّها نزلت في المدينة. عدد آيها مائة وإحدى عشر.

فضلها: أبي بن كعب قال: «**من قرأها فهو معصوم ثمانية أيام من الفتن فإن خرج الدجّال حتّى في تلك الثمانية عصمه الله من فتنته ومن قرأ الآية الّتي في آخرها وهي** ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ﴾[2] **حين يضجع في منامه كان له نور يتلألأ إلى الكعبة حشو ذلك النور ملائكة يصلّون عليه حتّى يقوم من مضجعه فإن كان في مكّة فتلاها كان له نور يتلألأ إلى البيت المعمور حشو ذلك النور ملائكة يصلّون عليه حتّى يستيقظ.**[3]

عن سمرة بن جندب قال: «**من قرأ عشر آيات من سورة الكهف حفظاً لم يضرّه فتنة الدجّال، ومن قرأ السورة كلّها دخل الجنّة**»[4].

وعن النبيّ ﷺ قال: «**ألا أدلكم على سورة شيّعها سبعون ألف ملك حين نزلت عظّمتها ما بين السماوات والأرض؟**» قالوا: بلى. قال ﷺ: «**سورة أصحاب الكهف، من قرأها يوم الجمعة غفر الله له إلى الجمعة الأخرى وزيادة ثلاثة أيام وأعطي**

١ـ سورة الكهف: ٢٨.

٢ـ سورة الكهف: ١١٠.

٣ـ مجمع البيان، ج٦، ص٣٠٧ وص٣٠٨.

٤ـ المصدر السابق نفسه.

٣ـ مجمع البيان، ج٦، ص٣٠٧ وص٣٠٨.

٤ـ المصدر السابق نفسه.

نوراً يبلغ السماء ووقي فتنة الدجّال»[١].

وروى الواقديّ بإسناده عن أبي الدرداء عن النبيّ صلى الله عليه وآله قال: **«من حفظ عشر آيات من أوّل سورة الكهف ثمّ أدرك الدجّال لم يضرّه ومن حفظ سورة البقرة كانت له نوراً يوم القيامة»**.[٢]

وروى أيضاً بالإسناد عن سعيد بن محمّد المجرميّ عن أبيه عن جدّه عن النبيّ صلى الله عليه وآله قال: **«من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة فهو معصوم إلى ستّة أيّام من كلّ فتنة يكون فإن خرج الدجّال عصم منه»**[٣].

وروى العيّاشيّ بإسناده عن الحسن بن عليّ بن أبي حمزة عن أبيه عن أبي عبد الله عليه السلام قال: **«من قرأ سورة الكهف في كلّ ليلة الجمعة لم يمت إلّا شهيداً أو بعثه الله مع الشهداء ووقف يوم القيامة مع الشهداء»**[٤].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾

١ـ المصدر السابق نفسه.

٢ـ مجمع البيان، ج٦، ص٣٠٧ وص٣٠٨.

٣ـ المصدر السابق نفسه.

٤ـ تفسير العياشي، ج٢، ص٣٢١.

ختم الله سورة بني إسرائيل بالتحميد وبدأ الله هذه السورة بالتحميد لاتّصال الجنس بالجنس.

المعنى: يقول الله لخلقه: قولوا واعتقدوا أنّ كلّ ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ وحقيقته ﴿لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ محمّدﷺ القرآن حال كون القرآن قيّماً معتدلاً مستقيماً لا تناقض فيه. وجعله قيّماً لأمور الدين يلزم الرجوع إليه كقيّم الدار الّذي يرجع إليه في أمرها.

وقيل: قيّماً أي: قائماً دائماً. يدوم ويثبت إلى يوم القيامة لا ينسخ.

﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ وملتبسا لا يفهم ومعوجا لا يستقيم ولم يجعل فيه اختلافاً كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[1] ومعنى العوج في الكلام أن يخرج من الصحّة إلى الفساد ومن الحقّ إلى الباطل.

﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ معناه ليخوّف العبد الّذي أنزل عليه الكتاب الناس عذاباً شديداً وأنكالا وسطوة من عند الله إن لم يؤمنوا ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ والمصدّقين بآيات الله العاملين بالطاعات والمنتهين عن المعاصي ﴿أَنَّ لَهُمْ﴾ ثواباً ﴿حَسَنًا﴾ في الآخرة على إيمانهم وذلك الأجر هو الجنّة ﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ﴾ ولابثين في ذلك الثواب مؤبّدين لا ينتقلون عنه.

﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ أي: ليحذر الّذين قالوا: الملائكة بنات الله وهم قريش أو اليهود والنصارى. والإنذار في الآية الأولى يعمّ جميع الكفّار وفي هذه الآية القائلين باتّخاذ الولد وليس لهؤلاء القائلين بهذا القول الشنيع علم ومأخذ إلّا التقليد لآبائهم الجهلة من غير حجّة.

١ـ سورة النساء: ٨٢.

﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ قرئ بالرفع على الفاعليّة وبالنصب على التميز، والنصب أبلغ لأنّ فيه معنى التعجّب كأنّه قيل: ما أكبرها كلمة! ومعنى التميز أنّك إذا قلت: كبرت الكلمة أو المقالة، يتوهّم أنّها كبرت كذباً أو جهلاً فلمّا قلت: كلمة، ميّزتها من محتملاتها فانتصب على التميز. ووصف الكلمة بالخروج من الأفواه توسّع ومجاز وإن كانت الكلمة عرضاً لا يجوز عليه الدخول ولا الخروج والحركة والسكون ولكن لمّا كانت الكلمة قد تحفظ وتثبت وتقرأ فجاز وصفها بالخروج، وذكر الأفواه تأكيداً وتصريحا في القبح ﴿إِن يَقُولُونَ﴾ أي: ما يقولون ﴿إِلَّا كَذِبًا﴾ وافتراء على اللّه.

﴿فَلَعَلَّكَ﴾ مهلك ﴿نَفْسَكَ﴾ يا محمّد [على آثار] قومك إن لم يصدّقوا ﴿بِهَٰذَا الْحَدِيثِ﴾ أي: القرآن الّذي أنزل عليك تلهفاً وحزنا. وقيل: معنى ﴿عَلَىٰ آثَارِهِمْ﴾ أي: بعد موتهم لشدّة شفقتك عليهم، وهذه معاتبة من اللّه لرسوله على شدّة وجده وكثرة حرصه على إيمان قومه حتّى بلغ ذلك به مبلّغاً يقرّبه إلى الهلاك. وإطلاق القرآن على الحديث يدلّ على حدوثه ويدلّ على فساد القول بالقدم.

إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾

ثمّ بيّن سبحانه ابتداء خلقه بالنعم ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ﴾ من الأنهار والأشجار وأنواع المخلوقات من الحيوان والنبات والجماد حلية وزينة للأرض ولأهلها لنختبرهم أنّ أيهم ﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ بطاعة اللّه والأطوع له ليظهر المطيع والعاصي، وإنّا لمخربون الأرض بعد عمارتها وجاعلون ما على الأرض مستويا يابساً لا نبات عليها بلقع.

فتبيّن بهذا التقرير أنّ اللّه سبحانه أراد من الخلق العمل الصالح وعلى

أنّ أفعالهم هي الصادرة من جهتهم ولو لا ذلك لما صحّ الابتلاء، وفي ذلك بطلان قول أهل الجبر.

أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِي ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا ﴿١٢﴾

«الكهف» المغارة في الجبل إلّا أنّه واسع فإذا صغر فهو غار. والرقيم الكتابة والعلامة والنقش للتعرفة.

سبب النزول: عن ابن عبّاس وجماعة: (أنّ النضر بن الحارث بن كلدة وعقبة بن معيط أنفذهما قريش إلى أحبار اليهود بالمدينة وقالوا لهما: سلاهم عن محمّدﷺ وصفا لهم وصفه وأخبراهم بقوله فإنّهم أهل الكتاب الأوّل وعندهم من علم الأنبياء ما ليس عندنا. فخرجا حتّى آتيا المدينة فسألا أحبار اليهود عن النبيﷺ وقالا ما قالت قريش فقال لهما أحبار اليهود: سلوه عن ثلاث فإن أخبركم بهنّ فهو نبيّ مرسل وإن لم يخبر فهو رجل متقوّل: سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأوّل ما كان أمرهم فإنّه قد كان لهم حديث عجيب، وسلوه عن رجل طوّاف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبأه؟ وسلوه عن الروح ما هو؟) وفي رواية أخرى فإن أخبركم عن الثنتين ولم يخبركم بالروح فهو نبيّ. فانصرفا إلى مكّة فقالا: يا معاشر قريش قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمّد وقصّا عليهم القصّة، فجاءوا إلى النبيّ فسألوه فقال: «**أخبركم بما سألتم عنه غداً**». ولم يستثن فانصرفوا عنه فمكث خمس عشرة ليلة لا يحدث إليه في ذلك وحيا ولا يأتيه جبرئيل، حتّى أرجف أهل مكّة وتكلّموا في ذلك فشقّ ذلك على رسول اللهﷺ ما يتكلّم أهل مكّة عليه ثمّ جاءه

جبرئيل عن اللّه بسورة الكهف وفيها ما سألوه من أمر الفتية والرجل الطوّاف وأنزل عليه ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ﴾ الآية.

وبالجملة قوله: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ ﴾ أحسبت ﴿أَنَّ﴾ قصّة ﴿أَصْحَـٰبَ ٱلْكَهْفِ﴾ كان أمراً عجيباً ﴿مِنْ ءَايَـٰتِنَا﴾ فلا تحسبنّ ذلك فإنّ من كان قادراً على تخليق السماوات والأرض كيف يستبعدون من قدرته حفظ طائفة مدّة ثلاثمائة سنة أو أكثر في النوم؟ والمراد بالكهف كهف الجبل الّذي آوى إليه القوم الّذين قصّ اللّه أخبارهم. واختلف في معنى الرقيم، فقيل: إنّه اسم الوادي الّذي كان فيه الكهف. وقيل: الكهف هو الغار في الجبل، والرقيم نفس الجبل. وقيل: الرقيم القرية الّتي خرج منها أصحاب الكهف. وقيل: هو لوح من حجارة كتبوا فيه قصّة أصحاب الكهف ثمّ وضعوه على باب الكهف.

وقيل: جعل ذلك اللوح في خزائن الملوك لأنّه من عجائب الأمور. وقيل: إنّ أصحاب الرقيم هو النفر الثلاثة الّذين دخلوا في الغار فانسدّ عليهم. وقيل: إنّ الناس رقموا حديثهم نقرا في جانب الجبل. وقيل: الرقيم اسم الكلب. «والعجب» مصدر بمعنى المعجوب منهم.

﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ أي: اذكر لقومك إذا التجؤوا أولئك الشّباب إلى المغارة الوسيعة وجعلوها مأواهم هرباً بدينهم إلى اللّه ﴿فَقَالُوا۟﴾ حين آووا إليه ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ أي: نعمة ننجو بها عن قومنا وفرّج عنّا ما نزل بنا ﴿وَهَيِّئْ﴾ وأصلح ﴿لَنَا مِنْ أَمْرِنَا﴾ ما نصيب به الرشد ومخرجا من الغار بسلامة من ديننا ويسّر لنا من أمرنا ما نصل به رضاك. وكان هؤلاء الفتية آمنوا باللّه تعالى وكانوا يخفون الإسلام خوفاً من ملكهم، وكان اسم الملك دقيانوس واسم مدينتهم أقسوس وكان ملكهم يعبد الأصنام ويقتل من خالفه. وقيل: إنّه كان مجوسياً يدعوا إلى دين المجوس والفتية كانوا على

دين المسيح. وقيل: كان الفتية من خواصّ الملك وكان يستر كلّ واحداً منهم إيمانه عن صاحبه ثمّ اتّفق أنّهم اجتمعوا وأظهروا أمرهم وهربوا بدينهم إلى الكهف خوفاً من الملك. وقيل: إنّهم كانوا قبل بعث عيسى.

﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ أي: أجبنا دعاءهم وسددنا آذانهم بالنوم الغالب عن نفوذ الأصوات إليها سنين كثيرة لأنّ النائم إنّما ينتبه بسماع الصوت. وبيّن سبحانه بهذه العبارة على أنّهم لم يموتوا وكانوا نياماً في أمن وراحة، وهذا من فصيح لغات القرآن الّتي لا يمكن أن يترجم بمعنى أحسن من هذا المعنى، وكناية عن الإنامة الثقيلة الشبيهة بالموت من دون الموت. والمفعول في قوله: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ محذوف أي: فضربنا حجاباً على آذانهم سنين ذات عدد كثيرة. ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ وأيقظناهم من نومهم ﴿لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا﴾ معناه: ليظهر معلومنا بموجب علمنا ولننظر أي: الحزبين من المؤمنين والكافرين من قوم أصحاب الكهف عدّ أمد لبثهم في الكهف بعد خروجهم من بيتهم. وقيل: المراد بالحزبين لمّا استيقظوا اختلفوا في مقدار لبثهم. وقرئ ليعلم على البناء للمجهول وعلى هذا التقدير لا يلزم محذور تجدّد العلم.

والنظم في الآية للحثّ على الاقتداء بهم ولبيان أنّه لا يضرّك كفر قومك والله ناصرك وحافظك من أعدائك كما حفظ أصحاب الكهف. وقيل: اتّصل بقوله: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: وينصر المؤمنين كما نصر أصحاب الكهف.

نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ
هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا
ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ

أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾

شرح سبحانه قصّة أصحاب الكهف أي: نتلو عليك يا محمّد ﷺ خبرهم بالصدق والصحّة.

﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ﴾ شباب أحداث ﴿ءَامَنُواْ﴾ بالله ﴿وَزِدْنَٰهُمْ﴾ نصرة في الدين ورغبة في الثواب والثبات بالألطاف المقوّية لدواعيهم بحسن اختيارهم. وعبّر عنهم بالفتية لأنّ أصل الفتوّة الإيمان بالله والمراد بالفتوّة بذل الندى وترك الأذى والشكوى واجتناب المحارم واستعمال المكارم.

﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: قوّينا قلوبهم بالتوفيق والألطاف حتّى وطّنوا أنفسهم على إظهار الحقّ والصبر على المشاقّ ومفارقة الوطن ﴿إِذْ قَامُواْ﴾ بين يدي ملكهم الجبّار العاتي دقيانوس الّذي كان يفتن أهل الإيمان عن دينهم ﴿فَقَالُواْ﴾ بين يديه ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الّذي نعبده ﴿لَن نَّدْعُوَاْ﴾ غيره وإن دعونا غيره وعبدنا إلها آخر فقد ﴿قُلْنَآ﴾ حينئذ قولاً مجاوزا للحدّ غاية في البطلان ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا﴾ وأهل بلدنا اتخذوا من دون الله آلهة يعبدونها ﴿لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍ﴾ أي: هلّا يأتون هؤلاء الّذين يعبدون غير الله بحجّة ظاهرة ودليل على إلهيّة آلهتهم ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ وزعم أنّ له شريكاً في العبادة والإلهيّة. ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ وهذا القول من قول تلميخا وهو رئيس أصحاب الكهف قال لهم أي: لأصحابه: وإذا تنحّيتم واعتزلتم وبرأتم عن عبدة الأصنام وعن أصنامهم فإنّكم لن تتركوا عبادة الله فأووا وصيروا ﴿إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ واجعلوا مأواكم هناك ﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم﴾ من نعمته ويبسط لكم رحمته ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ أي: يسهّل عليكم ما تخافون من الملك

وظلمه ويأتيكم باليسر والرفق. وكلّما ارتفقت به فهو مرفق، وفي هذا دلالة على عظم منزلة الهجرة في الدين وعلى قبح المقام في دار الكفر إذا لا يمكن المقام فيها إلّا بالمتابعة لأهل الكفر.

وإيّاك ومجالسة الجليس السوء الأحمق الفاجر فإنّك تكتسب منه الشرّ والقساوة وعدم المبالات بالمعاصي وقلّة الخوف الّذي هو سوط اللّه وإذا قلّ الخوف كثر المعاصي.

وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا (١٧) وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا (١٨)

المعنى: ثمّ بيّن سبحانه حالهم في الكهف أي: لو رأيتها لترى ﴿ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت﴾ تميل وقت طلوعها عن كهفهم إلى جهة اليمين ﴿وَإِذَا غَرَبَت﴾ الشمس أي: وقت غروبها تعدل وتجاوز عنهم جهة ﴿ٱلشِّمَالِ﴾ من الكهف أي: لا تدخل كهفهم وتجاوزهم منحرفة عنهم ﴿وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ من الكهف أي: في فضاء منه بحيث لا يراهم من كان ببابه وينالهم نسيم الريح.

﴿ذَاتَ ٱلْيَمِينِ﴾ وأصله أنّ ذات صفة أقيمت مقام الموصوف لأنّها تأنيث «ذو» في قوله: «رجل ذو مال وامرأة ذات مال» والتقدير كأنّه قيل: «تتزاورُ عَنْ كَهْفِهِمْ» جهة موصوفة باليمين. والمقصود من هذا البيان أنّ الشمس إذا طلعت منع اللّه ضوء الشمس من الوقوع على أبدانهم حتّى تفسد أبدانهم وإذا غربت كانت على شماله فضوء الشمس ما كان يصل إلى داخل الكهف.

و﴿ذَٰلِكَ﴾ الحفظ في هذه المدّة الطويلة ﴿مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الدالّة على

عجائب قدرته وبدائع حكمته، وكان رغبتهم في الإيمان بإعانة الله ولطفه مع وجود قدرة دقيانوس الكافر وأصحابه وكذلك قال: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ بحسن إيمانه واختياره مثل أصحاب الكهف [ومن يضلله] عن طريق الجنّة والخير بسبب عدم قبوله الإيمان مثل دقيانوس وأصحابه فلا يوجد له ناصر ومرشد.

﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ يعني: لو رأيتهم حسبتهم منتبهين وهم في الحقيقة نائمون لأنّهم مفتّحة العيون يتنفّسون كأنّهم يتكلّمون ولا يتكلّمون وينقلبون أحياناً كما ينقلب اليقظان.

﴿وَنُقَلِّبُهُمْ﴾ تارة عن اليمين إلى الشمال وتارة عن الشمال إلى اليمين كما ينقلب النائم لأنّهم لو لم ينقلبوا لأكلتهم الأرض ولبليت ثيابهم لطول مكثهم على جانب واحداً. وقيل: كانوا يقلّبون كلّ عام مرّتين. وقيل: مرّة.

﴿وَكَلْبُهُم﴾ قال ابن عبّاس وأكثر المفسّرين: (إنّهم هربوا من ملكهم ليلا فمرّوا براع معه كلب فتبعهم الراعي على دينهم ومعه كلبه). وقيل: إنّهم مرّوا بكلب فتبعهم فطردوه فعاد ففعلوا ذلك مرارا فقال لهم الكلب: ما تريدون منّي لا تخشوا خيانتي فأنا احبّ أولياء الله فناموا حتّى أحرسكم. وقيل: كان ذلك الكلب كلب صيدهم أصفر اللون. وقيل: أنمر واسمه قطمير ومكث معهم ثلاث مائة وتسع سنين بغير طعام ولا شراب ولا نوم ولا قيام.

﴿بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ﴾ كافتراش السبع بالفناء من الكهف أو من الفجوة لأنّ الكفّار خرجوا إلى باب الكهف في طلبهم ثمّ انصرفوا ولو رأوا الكلب على باب الغار لدخلوه. ولمّا انصرف الكفّار آيسين عنهم ولم يجدوا أحدا سدّوا باب الغار بالحجارة فجاء رجل بماشية إلى باب الغار وأخرج الحجارة ودفعها واتّخذ لماشيته كنّا عند باب الغار وهم كانوا في فجوة من الغار.

﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ﴾ يعني: لو أشرفت عليهم أيّها الناظر عليهم ورأيتهم في كهفهم لفررت عنهم هرباً لاستيحاشك الموضع ولملئ قلبك روعا لأنّ اللّه منعهم بالرعب لئلّا يصل إليهم أحد حتّى يبلغ الكتاب أجله، كما نصر نبيّنا محمّدﷺ بالرعب مسيرة شهر أو شهرين. ولا يمتنع أنّ الكفّار لمّا أتوا باب الكهف فزعوا من وحشة المكان حيث جعل اللّه هذه الوحشة في قلوبهم فسدّوا باب الكهف ليهلكوا فيه وجعل سبحانه هذا الأمر لطفاً لهم لئلّا ينالهم مكروه من سبع وغيره وليكونوا محروسين من كلّ سوء.

وقيل: إنّه قد طالت أظفارهم وشعورهم ولذلك يأخذ الرعب منهم. وهذا لا يصحّ لقوله سبحانه: حكاية عنهم ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾.

وروى سعيد بن جبير عن ابن عبّاس قال: (غزوت مع معاوية نحو الروم فمرّوا بالكهف الّذي فيه كان أصحاب الكهف فقال معاوية: لو كشف لنا عن هؤلاء فنظرنا إليهم. فقلت له: ليس هذا لك فقد منع ذلك من هو كان خير منك قال اللّه: ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ فقال معاوية: لا أنتهي حتّى أعلم علمهم فبعث رجالا فلمّا دخلوا الكهف أرسل اللّه عليهم ريحاً فأحرقتهم).

﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾

المعنى: كما فعلنا بهم الأمور العجيبة وحفظناهم تلك المدّة المديدة بعثناهم من تلك الرقدة وأيقظناهم من تلك النومة الّتي أشبهت الموت ليكون

بينهم مساءلات وحكايات في اختلاف مدّة لبثهم فينبّهوا بذلك على معرفة صانعهم ويزدادوا يقيناً إلى يقينهم. ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ في نومكم؟ ﴿قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ قال المفسّرون: إنّهم هربوا في الليل ودخلوا الكهف غدوة وبعثهم الله آخر النهار فلذلك قالوا: يوماً، فلمّا رأوا الشمس قالوا: أو بعض يوم، وكان قد بقيت من النهار بقيّة ﴿قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ وهذا القائل تمليخا وهو رئيسهم ردّ علم ذلك إلى الله.

﴿فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ﴾ والورق الدراهم من الفضّة، وكان معهم دراهم عليها صورة الملك الّذي كان في زمانهم ﴿إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾ أي: المدينة الّتي خرجوا منها ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ أي: أطهر وأحلّ ذبحه. قال ابن عبّاس: لأنّ عامّتهم كانت مجوساً وفيهم شرذمة مؤمنون يحفظون إيمانهم وقيل أطيب طعاماً أو أكثر ﴿فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾ يعني: فليأتكم بما ترزقون أكله ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ وليدقّق النظر ويتحيّل حتّى لا يطّلع عليه أحد أو يتلطّف في الشراء فلا يماكس البائع ولا ينازعه ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ﴾ ولا يخبر بكم ولا بمكانكم ﴿أَحَدًا﴾ من أهل المدينة.

﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ﴾ ويطّلعوا ﴿عَلَيْكُمْ﴾ وبمكانكم يقتلوكم بالرجم وهو من أخبث القتل. أو المعنى: يرجموكم باللسان ويشتموكم أو يردّوكم إلى ﴿مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾ إذا رددتم عن دينكم.

فإن قيل: من أكره على الكفر فأظهره فإنّه يفلح فكيف يصحّ الآية؟ فالجواب: أنّ ﴿يُعِيدُوكُمْ﴾ دون الإكراه ويمكن أن يكون ذلك الوقت ما كان يجوز التقيّة في إظهار الكفر.

وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ

بِهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ
ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ
وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ
فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ
لِشَا۟ىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ
وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾

أعثر على غيره أي: أعلمه وعثر اطّلع. ودخل الواو في قوله: ﴿وَثَامِنُهُمْ﴾ ولم يدخل في الأولين لأنّ هاهنا عطف جملة على جملة وبيانه: أنّ الجملتين الملتبسة إحداهما بالأخرى وهي أن تكون إحداهما غير أجنبيّة مع الأخرى فهو على ضربين: إحداهما أن تعطف بحرف العطف والآخر أن توصل بها بغير حرف العطف مثل أن تكون إحدى الجملتين صفة والاخرى حالاً أو الثانية تفسير الأولى فما كان من قبيل هذه الجمل المذكورة يؤتى بغير حرف العطف مثل الجملتين الأوليين في الآية فإنّ ﴿رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ وصف لثلاثة وكذلك ﴿سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ صفة لخمسة ولا وجه لإدخال حرف العطف لأنّ الصفة تبيّن الموصوف وتخصّصه فلو عطفت لخرجت بالعطف من أن يكون صفة والصفة هو الموصوف في المعنى ولذلك لا يدخل العطف بين الحال وذي الحال الّتي تكون تفسيراً لما قبلها ونحو قوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[1]. ثمّ قال: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ فالمغفرة تفسير الوعد الّذي وعدوا. وبحرف العطف نحو قوله: ﴿وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ أي: هم سبعة وثامنهم كلبهم. وقيل: إنّ الأصل في المبالغة في العدد السبعة لأنّ

١ـ سورة المائدة: ٩.

جلائل الأمور سبعة سبعة فإذا وصلوا إلى الثمانية ذكروا لفظاً يدلّ على الاستيناف فقالوا: وثمانية. وهذه الواو تسمّى واو الثمانية كقوله: ﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾[1] لأنّ هذا هو العدد الثامن من الأعداد المتقدّمة. وردّ القفّال هذا القول والدليل عليه قوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾[2] ولم يذكر الواو في النعت الثامن ولكن على موجب التقرير الّذي قرّرناه من أنّ مثل هذه الجمل يجوز إتيان حرف العطف وتركه ففي الآية من المواضع الّذي اتي بحرف العطف.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ المعنى: أي: كما أعنّاهم وربطنا على قلوبهم وقلّبناهم وبعثناهم عن نومهم لما فيها من الحكم والاعتبار فكذلك أعثرنا واطّلعنا غيرهم على أحوالهم فكان الإعثار سبباً لحصول العلم للغير.

والسبب في ذلك أنّ الرجل منهم لمّا ذهب إلى السوق ليشتري الطعام وأخرج الدراهم لثمن الطعام قال صاحب الطعام: هذه النقود غير موجودة في هذا اليوم وإنّها كانت موجودة قبل هذا الوقت بمدّة طويلة ودهرا داهراً فلعلّك وجدت كنزاً، واختلف الناس فيه وحملوا ذلك الرجل إلى الملك فقال الملك: من أين وجدت هذه الدراهم؟ فقال: بعت بها أمس شيئاً من التمر وخرجنا فراراً من الملك دقيانوس فعرف الملك أنّه ما وجد كنزاً وأنّ اللّه بعثه بعد موته.

ولنعيد شطراً من أحوالهم وهو أنّه لمّا هرب أصحاب الكهف على اختلاف عددهم من الملك دقيانوس المجوسيّ وكانوا وزراء الملك قيل: ثلاثة عن يمينه وأربعة عن يساره.

١ـ سورة التوبة: ١١٢.

٢ـ سورة الحشر: ٢٣.

فهربوا بدينهم إلى الكهف. قيل: إنّه استحضر دقيانوس بأمرهم في الكهف بعد مدّة فأمر أن يسدّ عليهم باب الكهف ويدعوهم كما هم في الكهف يموتوا عطشاً وجوعا ليكن كهفهم الّذي اختاروه قبرا لهم، وهو يظنّ أنّهم أيقاظ. ثمّ إنّ الرجلين المؤمنين كتبا شأن الفتية وأنسابهم وأسماءهم وخبرهم في لوح من رصاص وجعلاه في تابوت من نحاس وجعلا التابوت في البنيان الّذي بنيا على باب الكهف حين بنيا وقالا: لعلّ يظهر على هؤلاء الفتية قوماً مؤمنين قبل يوم القيامة ليعلموا خبرهم حين يقرءون هذا اللوح. ثمّ انقرض أهل ذلك الزمان وخلقت بعدهم قرون وملوك كثيرة وملك تلك البلاد ملك صالح يقال له «نذليس» وقيل «بندوسيس» فتحزّب الناس في زمانه أحزاباً منهم من يعلم أنّ الساعة حقّ ويؤمن، ومنهم من يكذّب فكبر ذلك على الملك الصالح وبكى إلى اللّه وتضرّع وقال: أي: ربّ قد ترى اختلاف هؤلاء فابعث لهم آية تبيّن بها أنّ البعث حقّ وأنّ الساعة آتية لا ريب فيها فألقى اللّه في نفس رجل من أهل ذلك البلد الّذي فيه الكهف أن يهدم البنيان الّذي على فم الكهف فيبنى به حظيرة لغنمه وكان راعياً ففعل ذلك وبعث اللّه الفتية من نومهم فأرسلوا أحدهم ليطلب طعاماً لهم ففعل فاطّلع الناس على أمرهم من الدراهم القديمة واتي به الملك الصالح فلمّا بلغه الخبر استحمد اللّه وركب الملك هو وأهل مدينته حتّى أتوا الكهف فذلك قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ لِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾ بالبعث والثواب والعقاب ﴿حَقّٞ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ﴾ كذلك ﴿ءَاتِيَةٞ لَا رَيۡبَ فِيهَآ﴾ لأنّ من قدر على أن يقيم جماعة تلك المدّة المديدة أحياء ثمّ يوقظهم قدر على أن يميتهم ثمّ يحييهم بعد ذلك.

قوله تعالى: ﴿إِذۡ يَتَنَٰزَعُونَ بَيۡنَهُمۡ أَمۡرَهُمۡ﴾ أي: أعثرنا عن هؤلاء حين يتنازعون بينهم أمرهم.

واختلف في المراد بهذا التنازع فقيل: يتنازعون في صحّة البعث فالقائلون به استدلّوا بهذه الواقعة على صحّة البعث والحشر.

وقيل: إنّ الملك وقومه لمّا رأوا أصحاب الكهف ووقفوا على أحوالهم عادوا إلى كهفهم فأماتهم الله فعند هذا اختلف الناس فقال قوم: إنّهم نيام كالكرة الأولى. وقال آخرون: الآن ماتوا، فهذا أمر التنازع على هذا القول الثاني.

والقول الثالث: في التنازع أنّ بعضهم وهم الكفّار قال: الأولى أن يسدّ باب الكهف لئلاّ يدخل عليهم أحد ولا يقف على أحوالهم إنسان وقال آخرون وهم المسلمون: بل الأولى أن يبنى على باب الكهف مسجد. وهذا القول يدلّ على أنّ القائلين بهذا القول كانوا عارفين بتوحيد الله ومعترفين بالعبادة.

والقول الرابع: أنّهم تنازعوا في قدر مكثهم وعددهم وأسمائهم وذلك أنّه لمّا دخل الملك عليهم مع الناس سقطوا ميّتين دفعة، فقال الملك: إنّ هذا الأمر عجيب فما ترون؟

فاختلفوا فيما يرون فقال بعضهم: ابنوا عليهم بنياناً واستروهم في البنيان كالقبر. وقال غيرهم غيره. فقال سبحانه: ﴿رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ ويمكن هذا الكلام من كلام المتنازعين لمّا لم يهتدوا إلى حقيقة الأمر قالوا: ربّهم أعلم بهم. ويمكن أن يكون من كلامه سبحانه ردّاً للخائضين في حديثهم.

ثمّ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ﴾ أي: الملك المسلم أو رؤساء البلد ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ نعبد الله ونستبقي آثارهم بسبب ذلك المسجد فيعبد الناس فيه ببركاتهم.

وروي أنّ أصحاب الكهف لمّا دخل صاحبهم إليهم وأخبرهم بما كانوا عنه غافلين في مدّة مقامهم سألوا الله أن يعيدهم إلى حالتهم الأولى فأعادهم إليها وحال بين من قصدهم وبين الوصول إليهم بأن أضلّهم عن الطريق إلى

الكهف فلم يهتدوا إليه.[١]

ثمّ بيّن تنازعهم في عددهم فقال: ﴿سَيَقُولُونَ﴾ أي: سيقول من المختلفين في عددهم ﴿ثَلَٰثَةٌ﴾ أي: هم ثلاثة ﴿رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ وروي أنّ السيّد والعاقب وأصحابهما من أهل نجران كانوا عند النبيّ ﷺ فجرى ذكر أصحاب الكهف فقال السيّد ـ وكان يعقوبياً ـ: كانوا ثلاثة رابعهم كلبهم أي: جاعلهم أربعة كلبهم. وقال العاقب ـ وكان نسطوريًا ـ: كانوا ﴿خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾.

وقال المسلمون: كانوا ﴿سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ قال أكثر المفسّرين: هذا الأخير هو الحقّ ويدلّ عليه وجوه:

الوجه الأوّل: أنّ الواو في قوله: ﴿وَثَامِنُهُمْ﴾ هي الواو الّتي تدخل على الجملة الواقعة صفة للنكرة كما تدخل على الجملة الواقعة حالاً عن المعرفة في نحو قولك: جاءني رجل ومعه آخر. وفائدتها توكيد ثبوت الصفة للموصوف فكانت هذه الواو دالّة على صدق الّذين قالوا: إنّهم كانوا سبعة وثامنهم كلبهم. ويدلّ بالتأكيد على أنّ قول الآخر قول ثابت متقرّر عن ثبات وعلم.

الوجه الثاني: أنّه خصّ هذا القول بهذا الحرف الزائد وهو الواو فوجب أن يحصل به فائدة زائدة وهذه الفائدة تخصيص هذا القول بالإثبات والتصحيح.

الوجه الثالث: أنّه تعالى أتبع القولين الأوّلين بقوله: ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ وتخصيص الشيء بالوصف يدلّ على أنّ الحال في الباقي بخلافه فوجب أن يكون المخصوص بالظنّ والرجم هذان القولان الأوّلان وأن يكون القول الثالث مخالفاً لهما في كونهما رجماً بالغيب.

الوجه الرابع: أنّه تعالى قال: ﴿قُل﴾ يا محمّد ﴿رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا

١ـ التبيان، ج٧، ص٢٥؛ ومجمع البيان، ج٦، ص٣٢٨.

﴿يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ والقائل بالقول الأخير كان المسلمون وهم كانوا قليلين فوجب أن يكون المراد من ذلك القليل هؤلاء المسلمون قال عليّ بن أبي طالب عليه السلام: **«كانوا سبعة وأسماؤهم تمليخا، مكسلمنا، مسلثينا، وهؤلاء الثلاثة كانوا أصحاب يمين الملك وكان عن يساره مرنوس، ودبرنوس وسبادنوس، وكان الملك يستيشر هؤلاء الستّة في مهمّاته، والسابع هو الراعي الّذي وافقهم لمّا هربوا من ملكهم واسم كلبهم قطمير»**[1]. وكان ابن عبّاس يقول: أنا من أولئك العدد القليل وكان يقول: إنّهم سبعة وثامنهم كلبهم.

﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ﴾ أي: لا تجادل الخائضين في عددهم وشأنهم ﴿إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ أي: جدالاً بحجّة مختصرة من دون خصومة وجدل بيّن، وهو أن تقول لهم: أثبتهم عدداً وخالفكم غيركم والعلم عند الله ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ﴾ في عدد أهل الكهف من أهل الكتاب ومن جهتهم ﴿أَحَدًا﴾ والخطاب للنبي صلى الله عليه وآله والمراد غيره.

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا * إِلَّآ أَن يَشَآءَ﴾ أي: إلّا أن تقول: إن شاء الله، وهذا معنى الاستثناء ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ الاستثناء أي: إذا حلفت مثلاً وقلت: والله لأفعلنّ كذا. ولم تستثن فمتى ما ذكرت فاستثن وإن كان قد تذكّرت بعد أربعين صباحاً. وفي «الفقيه» عن الصادق عليه السلام: **«للعبد أن يستثن ما بينه وبين أربعين يوماً متى ما ذكر»**[2].

وأصل القصّة أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أتاه ناس من اليهود فسألوه عن ثلاث مسائل فقال لهم: **«تعالوا غداً أجيبكم»**. ولم يستثن فاحتبس عنه جبرئيل أربعين يوماً ثمّ أتاه فقال: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ ...﴾.

١ـ انظر: مجمع البيان، ج٦، ص٣٢٩، ومعجم البلدان، ج٣، ص٦١.

٢ـ انظر: تتمة الحدائق الناظرة، ج٢، ص١٦٧.

وفي «الكافي» عن الباقر في قول الله: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾[١]: «**إنّ الله لمّا قال لآدم وزوجته: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾[٢] ولا تأكلا منها، فقالا: نعم لم نقربها ولم نأكل منها، ولم يستثنيا في قولهم: نعم، فوكلهما الله في ذلك إلى أنفسهما**».[٣]

في «المجمع» إذا استثنى الإنسان بعد النسيان فإنّه يحصل له ثواب المستثنى إن يؤثّر الانفصال في الاستثناء وإبطال الحنث وسقوط الكفّارة.[٤]

وفي «الكافي» عن الصادق أنّه أمر بكتاب في حاجة فكتب ثمّ عرض عليه ولم يكن فيه استثناء فقال عليه السلام: «**كيف رجوتم أن يتمّ هذا وليس فيه استثناء؟ انظروا في كلّ موضع لا يكون فيه استثناء فاستثنوا فيه**»[٥]. وفي «التهذيب» ما يقرب منه وزاد: ثمّ دعا بالدواة وقال: «**الحق فيه إن شاء الله**».[٦]

﴿وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى﴾ أي: أرجو أن يأتيني بالآيات والحجج والعلوم المستورة أقرب رشداً وكمالا من قصّة أصحاب الكهف، وقيل: معنى الآية أنّه إذا وعد بشيء وقال معه: إن شاء الله، فيقول: عسى أن يهدين ربّي بشيء أحسن وأكمل ممّا وعدتكم به كما فعل الله به حيث آتاه من العلوم والبيّنات وقصص الأنبياء والأخبار المغيبة ما هو أعظم من قصّة الكهف.

وَلَبِثُواْ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن

١ـ سورة طه: ١١٥.

٢ـ سورة البقرة: ٣٥. وسورة الأعراف: ١٨.

٣ـ الكافي، ج٧، ص٤٤٨، ووسائل الشيعة (الإسلامية) ج١٦، ص١٥٥.

٤ـ مجمع البيان، ج٦، ص٣٣٠.

٥ـ الكافي، ج٢، ص٦٧٣؛ وتفسير الصافي، ج٣، ص٢٣٩، عن الكافي.

٦ـ تهذيب الأحكام، ج٨، ص٢٨٢.

دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾

المعنى: قيل: إنّ هذا من كلام القوم وتتمّة كلامهم حيث قال: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ وكذا إلى أن قال: ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ﴾ أي: إنّ أولئك الأقوام قالوا: ذلك، ويؤكّده أنّه تعالى قال بعده: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟﴾ وقيل: وهو من كلام الله لأنّ قوله: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ هو كلام قد تقدّم وتخلّل بينه وبين هذا الكلام ما يوجب انقطاع أحدهما عن الآخر وهو قوله: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ وكذلك قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يفيد أنكم ارجعوا إلى خبر الله دون ما يقوله أهل الكتاب.

وهاهنا بحث وهو أنّ حمزة والكسائيّ قرءا بثلاثة سنين بغير تنوين بطريق الإضافة وجعلوا سنين عطف بيان أو التميز لقوله: ثلاثمائة لأنّ ثلاثمائة لم يعرف أنّها أيّام أم شهور أم سنون؟

فلمّا قال: سنين، صار هذا بياناً لقوله: ﴿ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ﴾. فلو قيل: إنّ الواجب في الإضافة أن يقال: ثلاثمائة سنة على الإفراد. فالجواب أنّه يجوز وضع الجمع موضع الواحد في التمييز كقوله: ﴿بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا﴾[1] أي: عملاً على أنّ هذا الضرب من العدد الّذي يضاف إلى الأجساد غالباً نحو ثلاثمائة رجل وأربعمائة ثوب، فقد جاء كثيراً مضافاً إلى الجمع قال أبو العلاء: «يد بخمس مئين عسجد اوديت» وفي نصب سنين على البدليّة أو عطف البيان أو التمييز ويجوز بالجرّ فيكون نعتا للمائة.

﴿وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا﴾ فإن قيل: لم لم يقل سبحانه: ثلاثمائة وتسع سنين، وما

١ـ سورة الكهف: ١٠٣.

الفائدة في قوله: ﴿وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعًا﴾ ؟ قيل: إنّه حكاية كلام أهل الكتاب واختلافهم في المدّة فقال بعضهم: ثلاثمائة وازدادوا بعضهم تسعا وقيل: هو من كلام اللّه روي عن عليّ عليه السلام أنّه قال عند أهل الكتاب أنّهم لبثوا ثلاثمائة سنة شمسيّة واللّه تعالى ذكر السنة القمريّة، والتفاوت بينهما في كلّ مائة سنة ثلاث سنين فيكون العدد ثلاثمائة وتسع سنين وإذا كان المراد هذا المعنى فوجب أن يكون سوق الكلام كما سبق.

ثمّ اختلف الناس في زمان أصحاب الكهف قيل: إنّهم كانوا قبل موسى عليه السلام وإنّ موسى ذكرهم في التوراة وبهذا السبب سألوا أهل التوراة عن النبيّ هذا السؤال. وقيل: إنّهم دخلوا الكهف بعد المسيح.

وبالجملة و﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْ﴾ وأخبر بغيبه وهو الحقّ والصدق. ﴿لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡ﴾ هذا لفظ التعجّب كقولك: ما أحسنه أي: كثر تعجّب بصيرة اللّه وعلمه ولا يخفى عليه شيء فيعلم ما غاب في السماوات والأرض فليس لأهل السماوات والأرض من دون اللّه من ناصر يتولّى نصرتهم ﴿وَلَا يُشۡرِكُ﴾ سبحانه ﴿فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا﴾ ولا يجوز أن يحكم حاكم بغير ما حكم اللّه، أو المعنى أنّه سبحانه لا يشرك في حكمه بما يخبر به من الغيب أحدا، وعلى قراءة الخطاب معناه: ولا تشرك أنت أيّها الإنسان في حكمه أحدا. ﴿وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ﴾ أي: اقرأ واتّبع ما أوحي إليك من هذا القرآن والزم العمل به لأنّ التلاوة يتناول القراءة والمتابعة.

ثمّ قال سبحانه: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي: يمتنع تطرّق التبديل إليه فلو قيل: على هذا فيجب أن لا يتطرّق النسخ إليه، قلنا: النسخ ليس تبديلاً لأنّ المنسوخ ثابت في وقته إلى وقت الناسخ فالناسخ الغاية فكيف يكون تبديلاً؟ ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا﴾ أي: إن لم تتبع القرآن فلن تجد من دون اللّه

ملجأ وحرزا وجانبا تميل إليه، مأخوذ من اللحد وهو الميل.

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾

سبب النزول: نزلت في سلمان وأبي ذرّ وعمّار وصهيب وخباب وغيرهم من فقراء الأصحاب وبيان ذلك أنّ بعض الأشراف من قريش والمؤلّفة قلوبهم جاءوا إلى رسول الله مثل عيينة الحصن والأقرع بن حابس وذويهم وقالوا: يا رسول الله إن جلست في صدر المجلس ونحّيت عنّا هؤلاء وأرواح صنانهم ـ وكانت عليهم جبّات الصوف ـ جلسنا نحن إليك وأخذنا عنك فلا يمنعنا من الدخول عليك إلّا هؤلاء، وكان النبيّ ﷺ حريصاً على إيمان عظماء المشركين طمعاً في إيمان أتباعهم ولم يمل إلى الدنيا وزينتها قطّ ولا إلى أهلها وإنّما كان يليّن في بعض الأحايين للرؤساء لهذه الجهة فخوطب بهذه الآية.

﴿وَٱصْبِرْ﴾ أي: احبس ﴿نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ﴾ يداومون على الدعاء والصلاة عند الصباح والمساء لا شغل لهم غيره ويستفتحون يومهم بالدعاء ويختمونه بالدعاء ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ ورضاه ورضوانه وتعظيمه والقربة إليه من دون السمعة والرياء.

﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ﴾ أي: لا تتجاوز عيناك عنهم بالنظر إلى غيرهم من أبناء الدنيا ﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: مريداً مجالسة أهل الشرف. والغرض بيان أنّ الإقبال يكون على فقراء المؤمنين وأن لا يرفع نظره عنهم،

والخطاب له لئلاً يكترث للأغنياء من الكفّار ويكون عذراً له لكنّ المراد الأمّة.

﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ﴾ أي: ولا تطع من جعلنا قلبه غافلاً عن ذكرنا بسبب تعرّضه للغفلة وسوء اختياره المعصية على الطاعة ولهذا قال سبحانه: ﴿وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ ومثله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[1] أو يكون معنى «أغفلنا» نسبنا قلبه إلى الغفلة كما يقال: أكفره أي: نسبه إلى الكفر.

قال الكميت:

وطائفة قد أكفروني بحبّكم وطائفة قالوا مسيء ومذنب[2]

أو معنى «أغفلنا قلبه» أي: جعلنا غفلاً ولم نسمه بسمة قلوب المؤمنين لتعرفه الملائكة بتلك السمة تقول العرب: فلان أغفل ماشيته، إذا لم يسمها بسمة تعرف أو المعنى: لا تطع من تركنا قلبه وخلّينا بينه وبين الشيطان بتركه أمرنا وبسبب ترك الأمر أعرضنا عنه قوله: ﴿وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ في شهواته ﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ﴾ سرفاً وإفراطا وتجاوزا عن الحدّ.

﴿وَقُلِ﴾ يا محمّد لهؤلاء الّذين أمروك بتنحية الفقراء: ﴿ٱلْحَقُّ﴾ هذا القرآن والحكم ﴿مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن﴾ ويقبل ﴿وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ ويأبى له الاختيار، وهذا تهديد ووعيد بصورة الأمر ولذلك عقّبه بقوله سبحانه: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا﴾ وهيّأنا للكافرين ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ أنفسهم بعبادة غير الله ومخالفة أو امره ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ﴾ سرادق وحائط من نار يحيط بهم، والسرادق هو الحجرة الّتي تكون حول الفسطاط تحيط من جميع الجهات. والمراد أنّه لا مخلص من النار، وقيل: المراد من هذا السرادق الدخان الّذي

١ـ سورة الصف: ٥.

٢ـ التبيان، ج٣، ص٢٨٣.

وصفه الله في قوله: ﴿انطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾[1] وقالوا: هذه الإحاطة بهم إنّما يكون قبل دخولهم النار فيغشاهم ويحيط بهم كالسرادق.

وصفة أخرى لهذه النار وهي قوله: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ﴾ واختلف في معنى المهل قيل: إنّه دردىّ الزيت، عن ابن مسعود. وقيل: كلّ شيء أذبته من ذهب أو نحاس أو فضّة فهو المهل. وقيل: إنّه الصديد والقيح. وقيل: إنّه ضرب من القطران. وهذه الاستغاثة لأجل العطش فيعطون هذا المهل.

ثمّ قال سبحانه: ﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾ هذا الماء الّذي هو المهل ﴿يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ يذهب بفروة الرأس ﴿وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ أي: ساءت النار منزلاً ومجتمعا للرفقاء لأنّ أهل النار يجتمعون رفقاء كأهل الجنّة والرفقاء فهم الكفّار والشياطين. وقيل: المراد من قوله: ﴿مُرْتَفَقًا﴾ أي: متكئاً لأنّ الاتّكاء يكون بالمرفق والمرتفق موضع الاستراحة.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾

لمّا ذكر الوعيد للكفّار أردفه بوعد المؤمنين فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ من الطاعات ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ أي: لا نترك أعمالهم تذهب ضياعاً بل نجازيهم ونوفّيهم من غير بخس.

والآية تدلّ على أنّ العمل شرط لحصول هذه المثوبات لأنّ العطف يدلّ على المغايرة، وكذلك تدلّ على أنّ المؤمن يستوجب بحسن عمله.

١ـ سورة المرسلات: ٣٠.

ولكن عند أهل السنّة أنّ الاستيجاب يحصل بحكم الوعد، وعند المعتزلة لذات الفعل. وتكرير كلمة «إنّ» لبيان تأكيد تحقّق الوعد والعمل كقول الشاعر:

إنّ الخليفة إنّ اللّـه سـربله سربال ملك به ترجى الخـواتيم

ولمّا أثبت الأجر لهم أردفه بالتفصيل: الأوّل صفة مكانهم وهو قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ و«العدن» عبارة عن الثبوت والإقامة أي: دار الإقامة لأنّهم يبقون فيها ببقاء اللّه دائماً. وقيل: المراد بالعدن بطنان الجنّة ووسطها وهي جنّة من الجنان، وإنّما جمع لسعتها وكلّ ناحية منها تصلح أن تكون جنّة تجري من تحتها الأنهار لأنّهم على غرف فيها والأنهار تجري في أخاديد من الأرض فلذلك قال: ﴿مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ﴾ أي: يجعل لهم فيها حليّ من أساور: سوار من فضّة وسوار من ذهب وسوار من لؤلؤ وياقوت يحلّيهم اللّه أو تحلّيهم الملائكة فالسوار من الذهب في هذه الآية ومن فضّة لقوله تعالى: ﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٖ﴾[1] وسوار من لؤلؤ لقوله: ﴿وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ﴾[2] وهذه الثلاثة لباس الزينة وأمّا لباس التستّر فقوله: ﴿وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ﴾ وهو الديباج الرقيق اللطيف. والثاني الإستبرق فارسيّ معرّب «استبره» بالفارسيّة أي: غليظ. والحاصل أنّ ملبوسهم على قسمين رقيق غاية، وغليظ منسوج بالذهب. قال الشاعر:

تراهنّ يلبسـن المشـاعر مـرّة وإستبرق الـديباج طـورا لباسـها

﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ﴾ الأريكة السرير والفرش في الحجال، وإنّما خصّ الاتكاء في الذكر لأنّه يفيد معنى الأمن والراحة والسلامة قوله: ﴿نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ﴾ أي: طاب ثوابهم وعظم ﴿وَحَسُنَتۡ﴾ الأرائك موضع ارتفاق ومجتمعا ومنزلا.

١ـ سورة الإنسان: ٢١.

٢ـ سورة الحج: ٢٣ وسورة الفاطر: ٣١.

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ
وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا ۚ وَفَجَّرْنَا
خِلَالَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ
مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن
تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي
لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي
خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا
أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ
إِلَّا بِاللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ
خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا
زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ
فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ
أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ
مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾

سبب النزول: إنّ الكفّار افتخروا على المسلمين بثروتهم وأموالهم فبيّن الله في هذه الآية أنّه ذلك ممّا لا يوجب الافتخار لاحتمال أن يصير الغنيّ فقيراً والفقير غنياً، وأمّا الّذي يوجب الافتخار بطاعة الله وتقواه، وضرب مثلاً لهذا المعنى في الآية فقال: ﴿وَاضْرِبْ﴾ يا محمّد ﴿لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ أي: مثل حال الكافرين والمؤمنين بحال رجلين كانا أخوين في بني إسرائيل: أحدهما كافر اسمه براطوس والآخر مؤمن اسمه يهوذا ورثا من أبيهما ثمانية ألف دينار فأخذ كلّ واحداً منهما النصف واشترى الكافر أرضاً بألف دينار فقال

المؤمن: اللهمّ إنّي أشتري منك أرضاً في الجنّة بألف دينار فتصدّق به ثمّ بنى أخوه داراً بألف دينار فقال المؤمن: اللهمّ إنّي أشتري منك داراً في الجنّة بألف فتصدّق به ثمّ تزوّج أخوه امرأة بألف دينار فقال المؤمن: اللهمّ إنّي جعلت ألفاً لصداق حور العين، ثمّ اشترى أخوه خماً وضياعا بألف فقال المؤمن: اللهمّ إنّي اشتريت منك الولدان بألف، فتصدّق به ثمّ أصابه حاجة فجلس لأخيه على طريقه فمرّ به أخوه في حشمة فتعرّض له فطرده ووبّخه على التصدّق بما له.[1]

﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾ وصف سبحانه تلك الجنّة بصفات كونها جنّة أي: مستترة بظلّ الأشجار، وأصل الكلمة من الستر والتغطية والصفة الثانية ﴿وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ﴾ أي: جعلنا النخل محيطاً بالجنّتين نظير قوله: ﴿حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾[2] أي: محيطين به والمحافّة جانب الشيء ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ المقصود أنّ تلك الأراضي جامعة لأقسام المنافع من الأقوات والفواكه.

﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ أي: كلّ واحدة من البستانين آتت ثمرتها وغلّتها، وسمّاه أكلا لأنه مأكول ﴿وَلَمْ تَظْلِمْ﴾ أي: ولم تنقص منه شيئاً بل تثمر على التمام والكمال ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا﴾ ووسطهما شققنا ﴿نَهَرًا﴾ يسقيهما من غير كدّ وتعب بدوام الماء فيهما.

﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾ قرئ بفتح الثاء أي: كان للرجل ثمر ملكه، أو الضمير راجع إلى النخل أي: كان للنخل ثمر. وقرئ بضمّ الثاء والميم والمعنى كان للرجل الذهب والفضّة مع هذين البستانين ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ أي: قال الكافر لصاحبه المؤمن وهو يخاطبه ويراجعه في الكلام من الحور وهو

١ـ الدرّ المنثور، ج٥، ص٢٧٥.

٢ـ سورة الزمر: ٧٥.

الرجوع: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ والمسلم كان يحاوره بالوعظ والدعوة بالإيمان والبعث وقال الكافر: أنا أكثر منك مالاً وعشيرة وأصحابا وترفّع عليه بجاهه وماله.

ثمّ أخبر الله عن حاله فقال: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ لجحوده الإيمان والبعث وأفرد الجنّة بعد التثنية وأضافها إليه لأنّ المراد ملكه ولم يقصد الجنّة ولا الجنّتين. ثمّ حكى سبحانه عن الكافر أنّه قال: و﴿مَآ أَظُنُّ أَن﴾ تفني هذه الجنّة لإعجابه بها وغروره ببهجتها والمراد أنّها لا تبيد مدّة حياته لكثرة ثمارها وحسن بهجتها ثمّ قال الكافر: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى﴾ كما تزعم أنت وبعثت بعقيدتك لا بعقيدتي لأنّي ما أظنّ أنّ الساعة تقوم فعلى زعمك لئن قامت ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ أي: كما أعطاني هنا يعطيني هناك لكرامتي كما أكرمني في الدنيا، وظنّ جهلاً أنّه اوتي ما أوتي لكرامته على الله.

﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ﴾ المؤمن وهو يخاطبه ويرشده ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ وإنّما كفره لأنّه أنكر القيامة حيث قال: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ وهذا يدلّ على أنّ منكر البعث كافر بالله. وقوله: ﴿خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ﴾ إشارة إلى بدو خلق الإنسان وقوله: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰكَ﴾ أي: هيّأك هيئة تعقل وتصلح للتكليف.

ثمّ قال المؤمن: ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى﴾ قال أهل اللغة: لكنّا، أصله لكن أنا فحذفت الهمزة وألقيت حركتها على نون لكن فأجمعت النونان فأدغمت نون لكن في نون البعد وتحذف الألف في الوصل وتثبت في الوقف وإثبات الألف في لكنّا عوض عن الهمزة من أنا، ويمكن أنّ هذه الألف تلحق للوقف مثل الهاء في قوله: ﴿مَا هِيَهْ﴾ ... ﴿حِسَابِيَهْ﴾.[1] ﴿هُوَ ٱللَّهُ﴾ الضمير ضمير

١ـ سورة القارعة: ١٠. سورة الحاقة: ٢٦.

الشأن تقديره: لكن أنا أقول: هو اللّه ربّي وخالقي ﴿وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾ في عبادتي، وإنّما استحال الشرك في العبادة لأنّها لا تستحقّ إلّا بأصول النعم وذلك لا يقدر عليه أحد إلّا اللّه فلا يجوز أن يعبد غير المنعم.

﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ وقال له: هلّا حين دخلت بستانك فرأيت تلك الثمار والنعمة والزرع شكرت اللّه وقلت: الّذي شاء اللّه كان وحصل وإنّي وإن تعبت جمعه وليس ذلك إلّا بقدرة اللّه وتيسيره، ولو شاء فحال بيني وبين ذلك ولنزع عنّي هذه النعمة.

ثمّ رجع إلى نفسه وقال: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا * فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ﴾ أي: إن كنت تراني اليوم فقيراً وأقلّ منك فلعلّ اللّه أن يؤتيني بستاناً في الآخرة أو في الدنيا والآخرة ﴿وَيُرۡسِلَ﴾ على جنّتك عذاباً أو ناراً من السماء فيحرقها، وذلك الحسبان حساب ما كسبت يداك. وحسبان مثل غفران وبطلان أي: مقدار ما قدّره اللّه.

وقيل: معنى الحسبان مرامي من عذابه إمّا برد وإمّا حجارة أو غيرهما من أنواع العذاب ﴿فَتُصۡبِحَ﴾ جنّتك أرضاً مستوية لا نبات عليها تزلق عنها القدم فتصير أضرّ أرض بعد أن كانت أنفع أرض ﴿أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا﴾ غائراً ذاهباً في باطن الأرض ﴿فَلَن تَسۡتَطِيعَ﴾ لطلب الماء إذا غار في الأرض أثراً تطلبه ولن تستطيع ردّه. وبالجملة إلى هنا انتهى مناظرة الصاحبين.

ثمّ قال سبحانه: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ أي: أهلك الأشجار ونخيله فهلكت عن آخرها في الخسر، إنّ اللّه أرسل عليها ناراً فأهلكها وغار ماؤها ﴿فَأَصۡبَحَ﴾ هذا الكافر ﴿يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ﴾ تحسّراً وتأسّفا ﴿عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ﴾ في الجنّة من المال، وتقلّب الكفّين عبارة عن شدّة الندم والتحسّر ﴿وَهِيَ﴾ أي: الجنّة ساقطة على سقوفها وما عرش لكرومها وما بني من البناء فيها وندم على

الكفر لفناء ما له لا لوجوب الإيمان فلم ينفعه، ولو ندم على الكفر فآمن بالله تحقيقا لانتفع به.

﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ﴾ أي: لهذا الكافر جماعة يدفعون عذاب الله عنه أو جند ينفعونه ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴾ وممتنع؛ وروى هشام بن سالم وأبان بن عثمان عن الصادق عليه السلام: **«عجبت لمن خاف أمراً كيف لا يفزع إلى قوله تعالى: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾[1]؟ فإنّي سمعت الله عزّ وجلّ يقول بعقبها: ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾[2] وعجبت لمن اغتمّ كيف لا يفزع إلى قوله: ﴿ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾؟[3] فإنّي سمعت الله يقول بعقبها: ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[4] وعجبت لمن مكر به كيف لا يفزع إلى قوله: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾؟[5] فإنّي سمعت الله يقول بعقبها: ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ﴾[6] وعجبت لمن أراد الدنيا وزينتها كيف لا يفزع إلى قوله: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾؟ فإنّي سمعت الله يقول: بعقبها ﴿ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ ﴾ و﴿عَسَىٰ ﴾ موجبة من الله».**[7]

﴿ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾ هنالك أي: يوم القيامة وذلك الموضع الولاية والنصرة لله ينصر بها أوليائه على أعداءه هذا كقوله: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ

١ـ سورة آل عمران: ١٧٣.

٢ـ سورة آل عمران: ١٧٥.

٣ـ سورة الأنبياء: ٨٧.

٤ـ سورة الأنبياء: ٨٨.

٥ـ سورة غافر: ٤٤.

٦ـ سورة غافر: ٤٥.

٧ـ انظر: من لا يحضره الفقيه، ج ٤، ص ٣٩٢، مشكاة الأنوار، ص ٢١٤.

ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾[1] وبعض القرّاء قرءوا الولاية بالفتح قالوا: لأنّ الكسر في فعالة يجيء فيما كان صنعة كالكتابة والإمارة والخلافة وأشباهها وليس هنا تولّي أمر بل إنّما هو الولاية من الدين وكذلك الّتي في الأنفال.

﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ ففي هذين الموضعين يفتح الواو، وأيضا الحقّ قرئ بكسر القاف صفة لله، وقرئ بالرفع صفة للولاية، وكذلك ﴿عُقْبًا﴾ قرئ بسكون القاف كفعلى، وبضمّ القاف وكليهما بمعنى العاقبة.

وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾

المقصود ضرب مثل آخر لحقارة الدنيا وزينتها فقال سبحانه: ﴿وَٱضْرِبْ﴾ يا محمّد لهؤلاء المفتخرين بأموالهم على فقراء المؤمنين أنّ مثل الحياة الدنيا ﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ فنبت بسبب ذلك الماء نبات الأرض والتفّ بعضه ببعض بروق حسناء وغضاضة، وبعد مدّة قليلة يصبح هذا النبات كسيراً مفتّتة ﴿تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ وتنقله من موضع إلى موضع والذرو والتذرية يطير الريح الأشياء الخفيفة في كلّ جهة أي: انقلاب الدنيا بأهلها كانقلاب هذا النبات ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ قادراً لا يجوز عليه المنع. ثمّ قال:

ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً

١ـ سورة غافر: ١٦.

وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ﴿٤٩﴾

﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ﴾ أي: إنّ الإنسان يتفاخر بهما ويتزيّن بهما في الدنيا ولا ينتفع منهما في الآخرة، وإنّما سمّا هما زينة لأنّ في المال جمالاً وفي البنين قوّة ودفعا فصارا زينة لكن لا يبقيان ﴿وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ والعبادات الدينيّة والطاعات والحسنات ﴿خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا﴾ وأصدق ﴿أَمَلٗا﴾ لأنّها غير فانية وسائر زهرات الدنيا والآمال الكاذبة المنقطعة فانية، ومن المعلوم أنّ الباقي خير من الفاني.

روى أنس بن مالك عن النبيّ ﷺ أنّه قال لجلسائه: «**خذوا جنّتكم**»، قالوا: أحضر عدوّ يا رسول الله؟ قال ﷺ: «**جنّتكم من النار، قولوا سبحان الله والحمد لله ولا إله إلّا الله والله أكبر، فإنّهن المقدّمات وهنّ المجيبات وهنّ المعقّبات وهنّ الباقيات الصالحات**».

ورواه أصحابنا عن أبي عبد الله عن آبائه عن النبيّ ﷺ ثمّ قال: ولذكر الله أكبر، قال: «**ذكر الله عند ما أحلّ أو حرّم**».[1]

وروي عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «**إن عجزتم عن اللّيل أن تكابدوه وعن العدوان تجاهدوه فلا تعجزوا عن قول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلّا الله والله أكبر فإنّهن من الباقيات الصالحات**»[2]. وقيل: هي الصلوات الخمس، عن ابن مسعود وجماعة، وروي ذلك عن أبي عبد الله عليه السلام.[3]

وروي عنه أيضاً: (أنّ من الباقيات لقيام الليل). وقيل: إنّ الباقيات الصالحات هنّ النيّات الصالحة. والأولى حملها على العموم فيدخل فيها

١ـ انظر: الأمالي، للطوسي، ص٦٧٧.

٢ـ مجمع البيان، ج٦، ص٣٥٢، ونور الثقلين، ج٣، ص٢٦٣.

٣ـ راجع المصادر السابقة.

جميع الخيرات والطاعات. وفي كتاب ابن عقدة أنّ أبا عبد الله عليه السلام قال للحصين بن عبد الرحمن: «**يا حصين لا تستصغر مروّتنا فإنّها من الباقيات الصالحات**»، قال: يا ابن رسول الله ما أستصغرها ولكن أحمد الله عليها[1].

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾ قيل: ابتداء كلام: واذكر يوم نسيّر الجبال، يعني: يوم القيامة، وتسيير الجبال قلعها عن أماكنها فإنّ الله يجعلها هباء منثورا. وقيل: يسيّرها على وجه الأرض كما يسيّر السحاب في السماء ثمّ يجعلها كثيباً مهيلاً ثمّ يصيّرها هباء منثورا في الهواء. وقيل: متعلّق قوله: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾ ما قبله وتقديره: الصالحات خير ثواباً في هذا اليوم.

﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ أي: ظاهرة ليس عليها شيء من جبل أو بناء أو شجر يسترها عن عيون الناظرين. وقيل: معناه وترى باطن الأرض ظاهراً قد برز من كان في بطنها فصاروا على ظهرها فهو مثل قول النبي صلى الله عليه وآله: «**ترمي الأرض بأفلاذ كبدها**»[2] ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾ وبعثناهم من قبورهم وجمعناهم في الموقف ﴿فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ أي: لم نترك منهم أحدا إلّا حشرناه.

﴿وَعُرِضُواْ﴾ أي: المحشورين يعرضون على الله يوم القيامة أي: مصفوفين صفّاً بعد صفّ كالصفوف في الصلاة. وقيل: صفّاً واحداً جميع أهل الدنيا لا يحجب بعضهم بعضاً ويقال لهم: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ فرادى ﴿كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ عراة حفاة بغير أموال ولا أعوان قالت عائشة بعد الحديث: أما يستحيي بعضهم من بعض؟ فقال صلى الله عليه وآله: «﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾[3]»[1]. ثمّ قال: « ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ » أي: كنتم مع التعزّز

١ـ الاختصاص، للمفيد، ص٨٦؛ ومناقب آل أبي طالب، ج٣، ص٣٤٢؛ وبحار الأنوار، ج٢٣، ص٢٥٠.

٢ـ التبيان، ج٧، ص٥٣؛ ومجمع البيان، ج٦، ص٣٥٢.

٣ـ سورة عبس: ٣٧.

١ـ نور الثقلين، ج٣، ص٢٦٦.

على المؤمنين بالأموال والأنصار تنكرون البعث والقيامة.

﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ أي: وضع الكتب فإنّ الكتاب اسم جنس يعني: وضعت الصحائف من بني آدم في أيديهم، وقيل: وضع الحساب فعبّر عن الحساب بالكتاب ﴿فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ خائفين ﴿مِمَّا فِيهِ﴾ من الأعمال السيّئة ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا﴾ احضري هذه لفظة يقولها الإنسان إذا وقع في شدّة فيدعو على نفسه بالويل والثبور، يحصل لهم خوف العقاب من الحقّ وخوف الفضيحة عند الخلق ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ﴾ وصحيفة العمل ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَا﴾ لا يترك الصغيرة ولا الكبيرة، وأنث الصغيرة والكبيرة مع أنّه وصف الذنب لمعنى الفعلة والخصلة.

﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗا﴾ أي: مكتوباً مثبتاً ويجدون جزاء ما عملوا حاضراً فجعل وجود الجزاء كوجود الأعمال توسّعاً ﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾ أي: لا ينقص ثواب ما عملوا من الحسنات ولا يزيد في عقاب مسيء. وفي هذه الآية دلالة على أنّه سبحانه لا يعاقب الأطفال لأنّه إذا كان لا يزيد في عقوبة المذنب فكيف يعاقب من ليس بمذنب؟

وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا ﴿٥٠﴾ ۞مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا ﴿٥١﴾ وَيَوۡمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُم مَّوۡبِقٗا ﴿٥٢﴾

المقصود من ذكر الآيات المتقدّمة أنّ المشركين كانوا يتكبّرون ويفتخرون على فقراء المؤمنين بأموالهم وشرفهم فذكر أنّ الكبر طريقة إبليس وأنتم لا تقتدوا به ولا تتولّوه، وبيان ما أورث الكبر للشيطان من سوء العاقبة

حتّى تحترزوا من هذه الطريقة السيّئة. والتكرّر في القرآن في هذه المسألة وأشباهها لأجل أهمّيّة الأمر فإن الاستكبار إشراك ومعارضة مع الربوبيّة.

اذكر يا محمّد ﴿إِذْ قُلْنَا﴾ وأمرنا ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ قد مرّ تفسيره فيما تقدّم. ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ ومجمله أنّ للناس في هذه المسألة أقوال:

القول الأوّل: أنّه من الملائكة وكونه من الملائكة لا ينافي كونه من الجنّ ولهم فيه وجوه: الأوّل أنّ قبيلة من الملائكة يسمّون بذلك لقوله: ﴿وَجَعَلُواْ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾[1] ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ﴾[2] لقولهم: الملائكة بنات اللّه. الثاني: الجنّ سمّوا جنًّا للاستتار والملائكة كذلك فهم لهذا المعنى داخلون في الجنّ. الثالث: أنّه كان ملكاً خازن الجنّة ونسب إلى الجنّة كنسبة البصريّ والكوفيّ والشاميّ. وعن سعيد بن جبير أنّه كان من الجنانين الّذين يعلمون في الجنان حيّ من الملائكة يصوغون حلية أهل الجنّة مذ خلقوا رواه القاضي في تفسيره عن هشام عن سعيد بن جبير.

والقول الثاني من الأقوال الثلاثة: أنّه من الجنّ الّذين هم الشياطين الّذين خلقوا من نار وهو أبوهم.

والقول الثالث من الأقوال الثلاثة: كان من الملائكة فمسخ.

ودليل من قال: إنّه ليس من الملائكة، أنّه تعالى أثبت له ذرّيّة ونسلا في هذه الآية وهو قوله: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى﴾ والملائكة ليس لهم ذرّيّة ولا نسل فوجب أن لا يكون إبليس من الملائكة. بقي أن يقال: إنّ اللّه أمر الملائكة بالسجود فلو لم يكن من الملائكة فكيف تناوله

١ـ سورة الصافات: ١٥٨.

٢ـ سورة الأنعام: ١٠٠.

ذلك الأمر؟ وأيضا لو لم يكن من الملائكة كيف يصحّ استثناؤه منهم؟ وقد شرّح هذه المسألة في سورة البقرة. وفي كيفيّة ذرّيّة إبليس قيل: يتولّدون كما يتوالد بنو آدم. وقيل: يدخل ذنبه في دبره فيبيض وتنفلق البيضة عن جماعة من الشياطين.

﴿فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ﴾ أي: خرج بترك السجود عن طاعة ربّه.

ثمّ خاطب الله الكافرين فقال: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ﴾ وذرّيّته أعداء لكم والعاقل حقيق بأن يتّهم عدوّه على نفسه ولا يتولّاه. بئس البدل طاعة الشيطان عن طاعة الرحمن، وولاية الشيطان عن ولاية الرحمن، وتقدير الآية: بئس البدل من الله إبليس. والمخصوص بالذمّ مضمر فسّر بقوله: ﴿بَدَلٗا﴾ على البدليّة.

﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ معناه ما أحضرت إبليس وذرّيّته حين خلقت السماوات والأرض مستعينا بهم أو ما أحضرت المشركين وقت خلق السماوات ولا استعنت ببعضهم على خلق بعضهم ولم يكونوا موجودين وقت خلق السماوات فمن أين جعلوا لي شريكاً، ونسبوا أنّ الملائكة بنات الله، ومن أين ادّعوا ذلك؟ ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ﴾ أي: الشياطين الّذين يضلّون الناس أو ما اتّخذت المضلّين من الشيطان والإنسان عوناً لي على خلقتهم وما كانوا فمن أين لهم قابليّة الولاية والإطاعة منكم إليهم؟ والولاية لله. ﴿وَيَوۡمَ يَقُولُ﴾ يريد يوم القيامة يقول الله للمشركين وعبدة الأصنام: ﴿نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ﴾ في الدنيا أنّهم شركائي ليدفعوا عنكم العذاب ﴿فَدَعَوۡهُمۡ﴾ المشركون أي: يدعونهم أي: يدعون الأصنام فلا يستجيبون لهم ولا ينفعونهم.

﴿وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُم﴾ أي: المؤمنين والكافرين ﴿مَّوۡبِقٗا﴾ وهو اسم واد عميق فرّق الله به بين المؤمنين والكافرين وأهل الهدى وأهل الضلالة، وقيل: معناه

جعلنا حاجزا بين المعبودين وعبدتهم وأدخلنا من كان من المعبودين مثل الملائكة والمسيح الجنّة وأدخلنا العابدين النار. وقيل ﴿مَّوۡبِقٗا﴾ أي: عداوة مهلكة.

وعن أنس بن مالك أنّه قال: الموبق واد في جهنّم من قيح ودم، والمقصود من هذه الآية إلزام المشركين بالحجج الظاهرة وبيان أنّه المتفرّد بالحقّ والابتداع لا شريك له فيه، ويوم خلق السماوات والأرض ما كنتم ولا كان إبليس فلا ينبغي أن تشركوا معه في العبادة غيره إلها.

﴿وَرَءَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمۡ يَجِدُواْ عَنۡهَا مَصۡرِفٗا ۝٥٣ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا ۝٥٤ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّهُمۡ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ قُبُلٗا ۝٥٥ وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوٗا ۝٥٦﴾

ثمّ بيّن سبحانه حال المجرمين يعني: المشركين أو هو عامّ في أصحاب الكبائر، لمّا رأوا النار وهي تتلظّى عليهم حيفاً وإحاطة ﴿فَظَنُّوٓاْ﴾ أي: علموا ﴿أَنَّهُم﴾ داخلون فيها وواقعون في عذابها ﴿وَلَمۡ يَجِدُواْ﴾ بدءاً ومعدلا ينصرفون إليه ليتخلّصوا منها. وقيل: معنى ﴿مُّوَاقِعُوهَا﴾ أي: مخالطوها.

﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا﴾ وبيّنا ﴿فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٖ﴾ وتصريفها ترديدها من نوع واحداً وأنواع مختلفة ليفكّروا فيها ومع ذلك يكون ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا﴾ قيل: المراد بالإنسان في الآية الكافر ويدلّ عليه قوله: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾. وقيل: المراد بالإنسان النضر بن الحارث لأنّه كان كثير الجدل في آيات النبيّ. وقيل: يريد أبي بن خلف، وهو

كان كذلك قوله: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾ أي: ما منعهم من الإيمان بعد مجيء الدلالة [و] من أن ﴿يَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ﴾ على ما سبق من معاصيهم إلّا أن تطلب أن ﴿تَأْتِيَهُمْ﴾ عذاب الاستئصال، وتأتيهم من حيث لا يشعرون كالأمم المتقدّمة ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ عياناً مقابلة يرونها حتى يؤمنوا إلجاء، أو هذا كقول القائل لغيره: ما منعك أن تقبل قولي إلّا أن تضرب. و«قبلا» قرئ بضمّ القاف والباء وبفتح القاف وسكون الباء، والمعنى على قراءة الضمّتين معنى المقابلة، وبالفتح والسكون معنى القبل والسابق.

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي: لم نرسل الرسل إلى الخلق ﴿إِلَّا مُبَشِّرِينَ﴾ إذا أطاعوا ومخوّفين لهم بالنار إذا عصوا ﴿وَيُجَٰدِلُ﴾ الكفّار دفعاً عن مذاهبهم ويخاصم ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وأتوا بالباطل وغرضهم أن يزيلوا الحقّ عن مقرّه قال ابن عبّاس: (يريد المستهزئين والمقتسمين، وجدالهم ﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾ اقتراحاتهم الآيات على أفواههم ليبطلوا ما جاء به محمّد). يقال: أدحضت حجّته إذا أبطلتها، فإذا ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي﴾ أي: القرآن ﴿وَمَآ أُنذِرُواْ﴾ وتخوّفوا به من البعث والنار ﴿هُزُوًا﴾ به.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾

لمّا حكى عن الكفّار جدالهم بالباطل شرح في بيان مخازيهم وظلمهم فقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن﴾ ترد عليه الحجج والآيات الواضحة ووعظ بالقرآن وأدلّة التوحيد ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ جانباً ﴿وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ من الأعمال المنكرة الّتي

صدرت منه والمراد من النسيان التشاغل والتغافل عن كفره وعصيانه استخفافا به.

ثمّ قال: ﴿إِنَّا﴾ بسبب إعراضهم عن الآيات استحقّوا أن نجعل ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ وأغطية أن تفقه ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أن تسمع ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ﴾ أنت يا محمّد ﴿إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ﴾ ما داموا معرضين عن الحق ﴿أَبَدًا﴾ وقد خرج مخبره موافقاً لخبره لأنهم ماتوا على كفرهم.

﴿وَرَبُّكَ﴾ الساتر على عباده الغافر لذنوب المؤمنين والإفضال على خلقه، وقيل: معناه ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ للتائب و﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ للمصرّ بأن يمهل ولا يعجل. وقيل: الغفور لا يؤاخذهم عاجلا، ذو الرحمة يؤخّرهم ليتوبوا. ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ في الدنيا ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ﴾ وهو يوم القيامة والبعث ﴿لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾ أي: ملجأ ومحرزا. وقيل: منجأ ينجيهم يقال: لا وألت نفسه أي: لا نجت.

﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ إشارة إلى قرى عاد وثمود وغيرهما ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ﴾ بتكذيب أنبياء الله وجحود آياته ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم﴾ أي: لوقت إهلاكهم ﴿مَّوْعِدًا﴾ معلوماً يهلكون فيه لمصلحة اقتضت تأخيره إليه، وإنّما قال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ ولم يقل: أهلكناها لأنّ القرية لا يستحقّ الهلاك وإنّما يستحقّ الهلاك أهلها.

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ
أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي
ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا
هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ
أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ

﴿مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾﴾

سبب النزول: القمي: لمّا سأل اليهود النبيّ عن قصّة أصحاب الكهف وأجابهم سألوا وقالوا: أخبرنا من العالم الّذي أمر اللّه موسى أن يتبعه وما قصّته فأنزل اللّه الآية[١]. وكان سبب ذلك أنه لمّا كلم اللّه موسى تكليماً وأنزل عليها الألواح كما قال اللّه: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾[٢] ورجع موسى إلى بني إسرائيل صعد المنبر فأخبرهم أنّ اللّه قد أنزل التوراة وكلّمه، قال في نفسه: ما خلق اللّه خلقاً أعلم منّي! فأوحى اللّه إلى جبرئيل: أدرك موسى فقد هلك وأخبره أنّ عند ملتقى البحرين عند الصخرة رجل أعلم منك فسر إليه وتعلّم من علمه، فنزل جبرئيل على موسى وأخبره فذلّ موسى في نفسه وعلم أنّه أخطأ ودخله الرعب فقال لوصيّه يوشع ابن نون: إنّ اللّه قد أمرني أن أتبع رجلاً عند ملتقى البحرين وأتعلّم منه فتزوّد يوشع حوتاً مملوحاً وخرجا.

والعيّاشيّ عن الصادق قال: «**بينا موسى قاعد في ملأ من أصحابه بني إسرائيل إذ قال له رجل: ما أرى أحدا أعلم بالله منك! قال موسى: ما أرى فأوحى الله إليه: بل عبدي الخضر فتوجّه إليه، فكان له آية الحوت أن افتقده، وكان من شأنه ما قصّ الله في هذه الآية**»[٣]

المعنى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾ أكثر المفسّرين على أنه موسى بن عمران وفتاه يوشع بن نون وسمّاه فتاه لأنّه صحبه وخدمه ولازمه سفرا وحضرا وتلمّذه كما خاطبه ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ ويوشع ابن نون بن إفرائيم بن

١ـ تفسير القمي، ج٢، ص٣٧.

٢ـ سورة الأعراف: ١٤٥.

٣ـ تفسير العياشي، ج٢، ص٣٣٤.

يوسف بن يعقوب، لكنّ اليهود يقولون: إنّ موسى الّذي طلب الخضر هو موسى بن ميثا بن يوسف وكان قبل موسى بن عمران إلّا أنّ الجمهور على أنّه موسى بن عمران، لأنّ إطلاقه يوجب صرفه إلى موسى بن عمران.

قال عليّ بن إبراهيم: حدثّني محمّد بن عليّ بن بلال، قال: اختلف يونس وهشام بن إبراهيم في العالم الّذي أتاه موسى أيّهما كان، وهل يجوز أن يكون على موسى حجّة في وقته وهو حجّة اللّه على خلقه؟ فكتبوا إلى أبي الحسن الرضاعليه السلام يسألونه عن ذلك فكتب عليه السلام في الجواب: «**أتى موسى إلى العالم فأصابه في جزيرة من جزائر البحر، فسلّم عليه موسى فتعجّب من السلام إذ كان بأرض ليس بها هذه التحيّة، قال: من أنت؟ قال: أنا موسى بن عمران إلى خضر، قال له خضر: أنت موسى بن عمران الّذي كلّم الله موسى تكليماً؟ قال: نعم، قال: فما حاجتك؟ قال: جئت لتعلّمني ممّا علّمت رشداً، قال: إنّي وكلت بأمر لا تطيقه ووكلت أنت بأمر لا أطيقه**»، الخبر بطوله.[1]

﴿لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾ معناه لا أزال ثابتاً أمضي وأمشي ولا أسلك طريقاً آخر حتّى أبلغ ملتقى البحرين: بحر الروم وبحر فارس، وممّا يلي المغرب بحر الروم وممّا يلي المشرق بحر فارس. وقيل: هو طنجة وإفريقيّة وكان وعد أن يلقى الخضر بذلك المكان.

﴿أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبًا﴾ أي: دهراً طويلاً. وقيل: «الحقب» سبعون سنة. وقيل: ثمانون سنة ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجۡمَعَ بَيۡنِهِمَا﴾ أي: الموضع الّذي يجتمع فيه رأس البحرين ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ أي: تركاه. وقيل: إنّه ضلّ الحوت عنهما حين [اتّخذ الحوت سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً] أي: مسلكاً يذهب فيه، وذلك أنّ موسى وفتاه تزوّدا حوتاً مملوحاً أو طريّاً ـ على قول ـ ثمّ انطلقا يمشيان على شاطئ

١ـ تفسير القمي، ج ٢، ص٣٨.

البحر حتّى انتهيا إلى صخرة على ساحل البحر فأويا إليها.

وقيل: عنده ماء تسمّى عين الحياة فجلس يوشع بن نون وتوضّأ من ذلك العين فانتضح على الحوت شيء من ذلك الماء فعاش ووثب في الماء وجعل يضرب بذنبه الماء فكان لا يسلك طريقاً في البحر إلّا صار ماء جامداً فذلك معنى قوله: ﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾.

وقيل: إنّ موسى عليه السلام سأل ربّه أي: عبادك أحبّ إليك؟ قال: الّذي يذكرني ولا ينساني، قال: فأيّ عبادك أقضى؟ قال: الّذي يقضي بالحقّ ولا يتّبع الهوى. قال: فأيّ عبادك أعلم؟ قال: الّذي يبتغي علم الناس إلى علمه عسى أن يصيب كلمة تدلّه على هدى أو تردّه عن ردى، فقال موسى: إن كان في عبادك من هو أعلم منّي فادللني عليه.

فقال: أعلم منك الخضر. قال: فأين أطلبه؟ قال: على الساحل عند الصخرة، قال: يا ربّ كيف لي به؟ قال: تأخذ حوتاً في مكتل فحيث فقدته فهو هناك. فقال لفتاه: إذا فقدت الحوت فأخبرني، فذهبا يمشيان ورقد موسى واضطرب الحوت وطفر إلى البحر فلمّا جاء وقت الغداء طلب موسى الحوت فأخبره فتاه بوقوع الحوت في البحر فرجع موسى من ذلك الموضع إلى الموضع الّذي طفر الحوت في البحر فإذا رجل مسجّى بثوبه فسلّم عليه موسى فقال: وأنّى بأرضك السلام؟ فعرّفه نفسه، فقال: يا موسى أنا على علم علّمني اللّه لا تعلمه أنت، وأنت على علم علّمك اللّه لا أعلمه أنا. فلمّا ركبا السفينة جاء عصفور فوقع على حرفها فنقر في الماء فقال الخضر: ما ينقب هذا العصفور من هذا البحر، مقدار علمي وعلمك بالنسبة إلى علم اللّه أقلّ وأقلّ من هذه القطرة.

لمّا بلغ موسى وفتاه مجمع بينهما وموضع الموعود به طفرت السمكة

إلى البحر وسارت. وفي كيفيّة طفرها أقوال: قيل: إنّ الفتى كان يغسل السمكة لأنّها كانت مملحة فحين الغسل طفرت وسارت. وقيل: إنّ يوشع توضأ في ذلك المكان فنضح الماء على الحوت المالح فعاش ووثب في الماء ﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾ أي: سلكا كالسرب وهو النفق.

قيل: أمسك الله جرية الماء على الحوت فصار كالطاق عليه معجزة لموسى أو لخضر. ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ مجمع البحرين الّذي كان الموعد هناك وأدلجا وسارا الليل كلّه والغد إلى الظهر وجاع موسى عليه السلام فعند ذلك قال لتلميذه يوشع: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ أي: ما نتغدّى به وهو الحوت ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا﴾ تعبا وإعياء. قيل: إنّه عليه السلام لم ينصب ولم يجع قبل ذلك.

﴿قَالَ﴾ فتاه: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ﴾ واسترحنا عندها ﴿فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾. ﴿أَرَءَيْتَ﴾ الهمزة للاستفهام و«رأيت» على معناه الأصليّ ومراده تعجيب الأمر وغرابته، وهذا أسلوب معتاد بين الناس يقول أحدهم لصاحبه ـ إذا نابه أمر غريب ـ : أرأيت وشاهدت ما وقع لي من الأمر؟ وهذا التعجّب لأجل أنّ هذه كانت علامة لوصولهم إلى العالم وأنّ موسى كان يعلم هذه العلامة لكن يوشع ما كان يعلم هذه العلامة لكن استغرابه من نسيانه هذا الأمر العظيم وعدمِ ذكره لموسى. ولعلَّ نسبة النسيان إليهما في أمر الحوت بالنسبة إلى موسى عدم بيان هذه العلامة ليوشع.

إنّ موسى لمّا طلب الغداء من يوشع تذكّر يوشع قصّة الحوت، وذكر لموسى أنّه لمّا نزلنا إلى الصخرة تركت الحوت وفقدته. وقيل: معناه نسيته أن أذكر لك قصّة الحوت عند الصخرة. ثمّ اعتذر فقال: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ لأنّه لو ذكرها لموسى لما جازها موسى ولما نالهما النصب الّذي أشكاه.

﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ۞ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا

قَصَصًا﴾ أي: سبيلاً عجباً، واتّخاذا عجيباً و﴿عَجَبًا﴾ صفة لمصدر محذوف وهو اتخاذاً عجباً وهو انقلابه من المكتل وإلقاء نفسه في البحر على الغفلة وهو مملوح، بل مأكول منه على قول.

وقيل: إنّ ﴿عَجَبًا﴾ من كلام موسى تعجّبا منه ومن نسيانه من هذا الأمر. ويمكن أن يكون هذا النسيان يكون الإنساء من اللّه فإنّه لمّا استعظم علم نفسه بالوحي والتكلّم والعلم بالتوراة وأحكامها أزال اللّه عن قلبه هذا العلم الضروريّ تنبيها لموسى على أنّ العلم لا يحصل إلّا بتعليمه وحفظه على القلب والخاطر.

﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ أي: قال موسى: ذلك الأمر ما كنّا نطلب من العلامة ﴿فَارْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا﴾ أي: آثار نفسهما وعادا عودهما على بدئها في الطريق الّذي جاءا منه يقتصّان آثار المسير ﴿قَصَصًا﴾ ويتبعانها ـ ويوشع أمام موسى ـ حتّى انتهيا إلى مدخل الحوت.

قال ابن عبّاس: (دخل موسى الكوّة على أثر الحوت وفي الطاق الّذي وقع في الماء بقدرة من ورود السمكة فيه فلقي الخضر هناك). ﴿نَبْغِ﴾ أصله نبغي حذفت الياء تخفيفاً لدلالة الكسرة وكان القياس عدم الحذف لأنّ الحذف مع الساكن بعده لا المتحرّك كقوله: «ما نبغى اليوم» فلمّا حذفت مع الساكن حذفت مع غير الساكن.

فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا
عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾
قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ
خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ
فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾

المعنى ﴿فَوَجَدَا﴾ موسى وفتاه وهو يوشع وصادفا ﴿عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ﴾ قائماً على الصخرة يصلّي وهو الخضر واسمه بنيا بن ملكان، وإنّما سمّي خضرا لأنّه إذا قعد أو نزل في مكان اخضرّ ما حوله. وروي مرفوعاً أنّه قعد على فروة بيضاء فصارت تحته خضراء.

وقيل: إنّه رآه على طنفسة خضراء فسلّم عليه فقال: وعليك السلام يا نبيّ الله نبيّ بني إسرائيل، فقال له موسى: وما أدراك من أنا؟ ومن أخبرك أنّي نبيّ؟ قال: من دلّك عليّ.[١]

واختلف في هذا العبد فقيل: إنّه كان ملكاً أمر الله موسى أن يأخذ عنه ما حمله إيّاه من بواطن الأشياء وعلومها. وقال الأكثرون: إنّه من البشر، ثمّ اختلفوا فقال جماعة: إنّه كان نبيّاً لأنّه لا يجوز أن يتّبع النبيّ غير النبيّ. ومتى قيل: كيف يكون نبيّ أعلم من موسى في وقته؟ قلنا: يجوز أن يكون الخضر خصّ بعلم ما لا يتعلّق بالأداء فاستعلم موسى من جهته ذلك العلم فقط وإن كان موسى أعلم منه في العلم الّذي يؤدّيه من قبل الله.

وقال الأكثرون: إنّه كان نبيّاً واستدلّوا بوجوه:

الوجه الأوّل: قوله تعالى: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ والرحمة هي النبوّة بدليل قوله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾[٢] وقوله: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾[٣] والمراد من هذه الرحمة النبوّة. ولقائل أن يقول: سلّمنا أنّ النبوّة رحمة أمّا لا يلزم أن يكون كلّ رحمة نبوّة.

الوجه الثاني: قوله: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ وهذا يقتضي أنّه تعالى

١ـ مجمع البيان، ج٦، ص٣٦٧؛ وانظر: تفسير الثعلبي، ج٣، ص٥٣٣.

٢ـ سورة الزخرف: ٣٢.

٣ـ سورة القصص: ٨٦.

علّمه لا بواسطة تعليم البشر بل علّمه بالوحي من اللّه وهذا معنى النبوّة.

الوجه الثالث: أنّ ذلك العبد أظهر الترفّع على موسى حيث قال له: ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴾ وأمّا موسى فإنّه أظهر التواضع له حيث قال: ﴿وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴾ وهذا يدلّ على أنّ ذلك العالم كان فوق موسى ومن لا يكون نبيّاً لا يكون يتفوّق على النبيّ.

الوجه الرابع: في أثناء القصّة يقول: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ﴾ معناه فعلته بوحي اللّه وهو يدلّ على النبوّة.

﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ هي الوحي ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ قيل: علّمناه ممّا يختصّ بنا من العلم وهو بعض علم الغيب قال الصادق عليه السلام: «**كان عنده علم لم يكتب لموسى في الألواح. وكان موسى يظنّ أنّ جميع الأشياء في تابوته وأنّ جميع العلم كتب له في الألواح**».[1]

﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ فعظّم موسى عليه السلام خضرا بهذا القول غاية التعظيم حيث أضاف العلم إليه ورضي باتّباعه لجلالة العلم ولو كان أحد مكتفياً من العلم لاكتفى نجيّ اللّه موسى، ويدلّ على أن لا ينبغي لأحد أن يترك العلم وطلبه وإن كان قد بلغ نهايته، وأنّه يجب أن يتواضع لمن هو أعلم منه.

﴿ قَالَ إِنَّكَ ﴾ أي: قال خضر لموسى: يثقل عليك الصبر ولا يخفّ عليك تحمّله، ولم يرد أنّه لا يقدر على الصبر لأنّ الخضر كان يعلم أنّ موسى يأخذ الأمور على ظواهرها وهو مأمور بذلك والخضر كان يحكم بما أعلمه اللّه من بواطنها، فلا يسهل على موسى مشاهدة ذلك.

﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴾ أي: كيف تصبر على ما ظاهره

١ـ تفسير العياشي، ج ٢، ص ٣٣١؛ ومجمع البيان، ج ٦، ص ٣٦٨.

عندك منكر وأنت لم تعرف باطنه؟ والمراد بالخبر هاهنا العلم.

فقال موسى عليه السلام: وهو خاضع له يستلطفه على نفسه كي يقبله ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا﴾ ولا أخالفك في أمر بشرط المشيئة.

القمي: عن أحدهما عليهما السلام في حديث: «**ولم يرغبوا إلينا في علمنا كما رغب موسى إلى العالم وسأله الصحبة ليتعلّم منه العلم ويرشده**»[١]. قال الصادق عليه السلام: «**كان موسى أعلم من الخضر**»[٢].

وفي «الكافي» عنه عليه السلام: «**لو كنت بين موسى والخضر لأخبرتهما أنّي أعلم منهما وأنبأتهما بما ليس في أيديهما لأنّ موسى والخضر أعطيا علم ما كان ولم يعطيا علم ما يكون وما هو كائن حتّى تقوم الساعة وقد ورثناه عن رسول الله صلى الله عليه وآله**»[٣].

﴿قَالَ﴾ خضر لموسى: ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي﴾ واقتفيت أثري ﴿فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ﴾ ولا يخفى أنّ هذا الخضوع من موسى لخضر عليهما السلام لا يستلزم أن يكون خضر أعلى شأنا من موسى لأنّ الخضر إمّا أن يقال: كان من بني إسرائيل أو ما كان فإن قلنا: كان من بني إسرائيل كان من أمّة موسى وتابعا له، والامّة لا تكون أعلى حالاً من النبيّ. وإن قلنا: إنّ الخضر ما كان من بني إسرائيل، لم يجز أن يكون أفضل من موسى لقوله لبني إسرائيل: ﴿وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[٤] وبالجملة فلا تسألني عن شيء أفعله ممّا تنكره حتّى افسّره لك.

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرٗا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا

١ـ الاختصاص، للمفيد، ص٢٥٩؛ وبحار الأنوار، ج٢، ص٢٠٨.

٢ـ تفسير العياشي، ج٢، ص٣٣٠؛ وبحار الأنوار، ج١٣، ص٣٠٣.

٣ـ الكافي، ج١، ص٢٦١.

٤ـ سورة البقرة: ٤٧، ١٢٢.

﴿تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾﴾

﴿فَانْطَلَقَا﴾ يمشيان في الساحل يعني: موسى والخضر ولم يذكر يوشع ولعلّ أنّ موسى عليه السلام بعثه لأمر ولذلك تأخّر عنهما.

فانطلقا على الساحل وأرادا أن يعبرا في البحر إلى أرض أخرى فأتيا معبراً، فعرف صاحب السفينة الخضر فحملهما فلمّا ركبا في السفينة خرق الخضر السفينة حتّى دخلها الماء. وقيل: إنّ الخضر قلع لوحين ممّا يلي الماء فحشاهما موسى بثوبه وقال منكراً عليه: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ وما قال: لنغرق لأنّه أشفق على القوم أكثر من إشفاقه على نفسه جرياً على عادة الأنبياء.

ثمّ قال: بعد إكباره هذا الأمر ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ أي: منكراً عظيماً يقال: أمر الأمر أمراً إذا كبر وعظم.

فقال له الخضر عليه السلام: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ أي: ألم أقل لك حين رغبت في اتّباعي: إنّ نفسك لا تطاوعك على الصبر معي؟ فتذكّر موسى ما بذل له الشرط.

ثمّ قال معتذرا مستقيلاً: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ أي: غفلت عن التسليم لك وترك الإنكار عليك. قيل: المراد من النسيان معناه الحقيقيّ وهو ضدّ الذكر. وقيل: المراد ترك العهد لا بمعنى الغفلة والسهو. وقال موسى: ﴿وَلَا تُرْهِقْنِي﴾ وتكلّفني ﴿عُسْرًا﴾ ومشقّة ولا تضيّق عليّ الأمر في صحبتي إيّاك.

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ﴾ فخرجا من البحر وانطلقا يمشيان في البرّ فلقيا غلاماً يلعب مع الصبيان، وكان من أحسن الغلمان وأصبحهم وأجملهم، وقيل: كان شاباً بالغاً حتّى يستحقّ القتل، والرجل يسمّى غلاماً

قالت ليلى الأخيليّة:

شفاها من الداء العضال الّذي بها غـلام إذا هـزّ القنـاة شـفاها

فذبحه بالسكّين. وقيل: صرعه ونزع رأسه من جسده.

﴿قَالَ﴾ موسى للخضر ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾ بريئة من الذنوب ﴿بِغَيْرِ﴾ قتل ﴿نَفْسٍ﴾ تريد القود ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا﴾ منكراً فظيعا غاية وإنّما قال ذلك لأنّ قلبه صار كالمغلوب عليه حين رأى قتله ﴿قَالَ﴾ العالم: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾.

قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانطَلَقَا
حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا
يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ
بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ
لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ
غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا
وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا
الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا
صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا
فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾

المعنى: قال له موسى جواباً له: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ﴾ بعد هذه المرّة فلا تتركني أصحبك أو أصاحبك فقد وجدت من عند نفسي عذراً والمانع حينئذ من قبلي لا من قبلك لأنّه خالفتك ثلاث مرّات. روي عن النبي ﷺ قال: «**رحم الله أخي موسى استحى قال ذلك ولو لم يقل ذلك ولبث مع صاحبه لأبصر**

أعجب الأعاجيب». [١]

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ﴾ وهي أنطاكية. وقيل: ايلة. وقيل: ناصرة. وهو المرويّ عن الصادق عليه السلام. سألاهم الطعام ﴿فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ ولم يضيّفهما أحد من أهل القرية، وعن النبيّ كانوا أهل قرية لئام. وقال أبو عبد الله عليه السلام: «**ولا يضيّفون بعدهما أحدا إلى أن تقوم الساعة**». [٢] يقال: ضافه إذا كان له ضيفاً وحقيقته مال إليه من ضاف السهم عن الغرض.

قيل: إنّ أهل تلك القرية لمّا سمعوا نزول هذه الآية استحيوا من هذا العار وجاءوا إلى رسول الله بحمل من الذهب وقالوا: يا رسول الله نشتري بهذا الذهب أن تجعل الباء في الآية تاءاً حتّى تصير القراءة هكذا «فأتوا أن يضيّفوهما» أي: أتوا أن يضيّفوهما وكان إتيان أهل القرية إليهما لأجل الضيافة وقالوا: غرضنا منه أن يندفع عنّا هذا اللؤم. فامتنع رسول الله وقال: تغيّر النقطة الواحدة يوجب دخول الكذب في كلام الله وذلك يوجب القدح في العبوديّة بالنسبة إلى الربوبيّة.

والحاصل ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا﴾ في القرية مائلاً، ونسبة الإرادة إلى الجدار استعارة، كقول الشاعر:

يريد الرمح صدر أبي بـراء	ويرغب عن دماء بني عقيـل

مع أنّ الإرادة والرغبة من صفة الأحياء. ﴿يَنقَضَّ﴾ إذا أسرع سقوطه من انقضاض الطائر. أو المعنى: انشقّ طولاً ﴿فَأَقَامَهُۥ﴾ خضر قيل: رفع الجدار بيده وسوّاه ﴿قَالَ﴾ موسى إنّهم لمّا بخلوا بالطعام ﴿لَوۡ شِئۡتَ﴾ لعملت هذا بأجر تأخذه منهم حتّى كنّا نسدّ به جوعنا ﴿قَالَ﴾ الخضر: ﴿هَٰذَا﴾ وقت

١ـ تفسير الصافي، ج٣، ص٢٥٤؛ وبحار الأنوار، ج١٣، ص٢٨٤.

٢ـ مجمع البيان، ج٦، ص٣٧٤.

﴿فِرَاقُ﴾ اتّصالنا أو هذا الّذي قلته سبب الفراق ﴿بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾.

ثمّ قال: سأخبرك بتفسير الأشياء الّتي لم تستطع على الإمساك عن السؤال عنها ﴿صَبْرًا * أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ﴾ أي: السبب في خرق السفينة فهو أنّها كانت لفقراء لا شيء لهم ما يكفيهم قدر معاشهم ﴿يَعْمَلُونَ﴾ بهذه السفينة ﴿فِي ٱلْبَحْرِ﴾ ويتعيّشون بها ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ﴾ أحدث عيبا فيها وكان قدّامهم وقصدهم ﴿مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ﴾ صحيحة ﴿غَصْبًا﴾ والوراء كما يطلق على الخلف يطلق على بين أيديهم ويمكن أن يكون المعنى الخلف أي: يتعاقبهم ملك يأخذ السفائن الصحيحة، ولم يعلم أصحاب السفينة وعلم به الخضر ففعل ذلك للمصلحة.

﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ وأمّا الغلام فكان كافراً وإنّما قتلته لكفره ولعلمي بأنّه لو بقي برهق أبويه طغيانا فكرهت أن يرهق الغلام الكافر أبويه إثما وظلما وهذا من كلام الخضر ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً﴾ أي: ولداً خيراً منه دينا وطهارة وصلاحا ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ أي: أقرب عطفاً على والديه ورحمة في الكافي والفقيه والمجمع عن الصادق عليه السلام والعيّاشيّ عن أحدهما عليهما السلام: «**أنهما ابد لا عن الغلام المقتول ابنة فولد منها سبعون نبيّاً**»[1]. وقيل: لو عاش كان فيه مهلكتهما ومعلوم أنّ رضى المرء بما قسّم اللّه له خير له ممّا رضي لنفسه في الحديث: «**ما قضي لك يا ابن آدم فيما تكره خير لك ممّا قضي وأنت تحبّ فاستخر اللّه وارض بقضائه**».[2]

وفي قتل الغلام دلالة على وجوب اللطف على ما نذهب إليه لأنّ المفهوم من الآية أنّه بتدبير اللّه لم يكن يجوز خلافه، وأنّه إذا علم من حال

١ـ مجمع البيان، ج٦، ص٣٧٦، وتفسير الصافي، ج١٣، ص٢٥٦.

٢ـ انظر: الدرّ المنثور، ج٤، ص٢٣٨، قريبٌ بهذه المعنى.

الإنسان أنّه يفسد عند شيء يجب عليه في الحكمة أن يذهب بذلك الشيء حتّى لا يقع هذا الفساد. ومتى قيل: إنّه لو حصل لنا العلم بذلك كما حصل لذلك العالم هل كان يحسن منّا القتل؟ قلنا: إنّ هذا العلم لا يحصل إلّا للأنبياء وعند حصول العلم به يحسن ذلك.

ومتى قيل: إنّ اللّه كان قادراً على إزالة الحياة من الغلام بالموت من غير ألم فيزول التبقية الّتي هي المفسدة من غير إدخال إيلام عليه بالقتل فلم أمر بالقتل؟

فجوابه أنّ اللّه قد علم أنّ أبويه لا يثبتان على الإيمان إلّا بقتل هذا الغلام فتعيّن وجه وجوب القتل وأنّ تبقية الغلام إذا كانت مفسدة فاللّه مخيّر في إزالتها بالموت من غير ألم وبالقتل لأنّ القتل وإن كان فيه ألم يلحق المقتول كان بإزائه أعواضا كثيرة يوازي ذلك الألم فيصير القتل في مقابلة المنافع العظيمة كأنّه ليس بألم ويدخل في قبيل الإحسان.

﴿وَأَمَّا﴾ سبب بناء ﴿ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ﴾ تحت الجدار ﴿كَنزٌ﴾ لليتيمين ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾ واختلف في هذا الكنز: فقيل: المراد بالكنز المال. وقيل: العلم.

في «المعاني» عن أمير المؤمنين، والقميّ عن الصادق عليه السلام: **«كان ذلك الكنز لوحاً من ذهب فيه مكتوب: بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلّا الله محمّد رسول الله**[1] **عجبت لمن يعلم أنّ الموت حقّ كيف يفرح؟ عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن؟ عجبت لمن يذكر النار كيف يضحك؟ عجبت لمن يرى الدنيا وتصرّف أهلها حالاً بعد حال كيف يطمئنّ إليها؟»**[1] وفي «الكنز» روايات أخر بزيادة ونقيصة.

١ـ محمد رسول الله والأئمة حجج الله ...[القمي]

١ـ تفسير القمي، ج٢، ص٤٠، ومعاني الأخبار، ص٢٠٠.

والعيّاشيّ عن الصادق عليه السلام: **«إنّ الله ليحفظ ولد المؤمن إلى ألف سنة وإنّ الغلامين كان بينهما وبين أبويهما سبعمائة سنة»**.(١)

وعنه عليه السلام: **«إنّ الله ليصلح بصلاح الرجل المؤمن ولده وولد ولده ويحفظ في دويرته ودويرات حوله فلا يزالون في حفظ الله لكرامة المؤمن على الله ثمّ ذكر الغلامين»**. وقال عليه السلام: **«ألم تر أنّ الله شكر صلاح أبويهما لهما؟»**(٢)

وفي «العوالي» عنه عليه السلام: **«لمّا أقام العالم الجدار أوحى الله إلى موسى إنّي مجازي الأبناء بسعي الآباء إن خيراً فخير وإن شراً فشرّ. لا تزنوا فتزني نساؤكم، من وطئ فراش مسلم وطئ فراشه كما تدين تدان**(٣) **فبيّن سبحانه حفظ الكنز للغلامين بصلاح أبيهما ولم يذكر منهما صلاحاً»**. وروي عن الصادق عليه السلام: **«أنّه كان بين ذلك الأب الصالح وبينهما سبعة آباء»**.(٤)

﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن﴾ ينتهيا إلى الوقت الّذي يعرفان فيه نفع أنفسهما ويكبرا ويعقلا ﴿وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾ ﴿وَمَا﴾ فعلت ذلك من قبل نفسي وإنّما فعلته من قبل الله يريد أنّه انكشف لي علم من الله ﴿ذَٰلِكَ﴾ بيان ما ثقل عليك يا موسى مشاهدته ووقوعه واستنكرته، ونسب هذه الأمور إلى أمر الله وهناك نسب الإرادة في قوله: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ إلى نفسه.

في «العلل» عن الصادق عليه السلام: **«وإنّما نسبها إلى نفسه لعلّة ذكر التعييب»**(١).

تأمّل في حسن المحاورة وحفظ الأدب في الكلام.

وقال أبو عليّ الجبّائيّ: لا يجوز أن يكون الخضر حياً إلى وقتنا هذا

١ـ تفسير العياشي، ج٢، ص٣٣٦.

٢ـ تفسير العياشي، ج٢، ص٣٣٧؛ ومجمع البيان، ج٦، ص٣٧٧.

٣ـ عوالي اللئالي، ج٣، ص٥٤٧.

٤ـ مجمع البيان، ج٦، ص٣٧٧، وانظر: علل الشرايع، ج١، ص٦٢؛ وبحار الأنوار، ج١٣، ص٢٨٩.

١ـ علل الشرايع، ج١، ص٦١.

لأنّه لو كان لعرفه الناس ولم يخف مكانه ولأنّه لا نبيّ بعد نبيّنا.

قال صاحب «المجمع»: وهذا القول غير صحيح لأنّ تبقيته في مقدرة الله ويمكن أن يكون والناس يشاهدونه ولا يعرفونه ويكون هذه خرق العادة ومثل هذه الأمور الغريبة بالنسبة إلى الأنبياء والأولياء غير مستبعد، وقوله: «لا نبيّ بعد نبيّنا» مسلّم ولكن نبوّة الخضر كانت قبل نبوّة نبيّنا وأمّا شرعه ـ لو كان له شرع خاصّ ـ فإنّه منسوخ بشريعة نبيّنا ولو كان داعياً إلى شريعة من تقدّمه من الأنبياء فإنّ شريعة نبيّنا ناسخة لها فلا يؤدّي إلى ما قاله الجبّائي.[1]

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾

المعنى: قد بيّنا أنّ اليهود أمروا المشركين أن يسألوا عن النبيّ صلى الله عليه وآله عن قصّة أصحاب الكهف وعن الروح وعن قصّة ذي القرنين.

فالمراد من قوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾ هو ذلك السؤال ويسألونك بصيغة الاستقبال للدلالة على إصرارهم على السؤال إلى ورود الخوف.

وفي ذي القرنين أقوال:

الأوّل: هو الإسكندر بن فيلقوس اليونانيّ والدليل عليه أنّ القرآن دلّ على أنّ الرجل المسمّى بذي القرنين بلغ ملكه إلى أقصى المغرب بدليل قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ وأيضا بلغ ملكه

١ـ مجمع البيان، ج٦، ص٣٧٧.

إلى أقصى المشرق بدليل قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ﴾ وأيضا بلغ ملكه أقصى الشمال بدليل أنّ يأجوج ومأجوج قوم من الترك يسكنون في أقصى الشمال، وبدليل أنّ السدّ المذكور في القرآن يقال في كتب التواريخ: إنّه مبنيّ في أقصى الشمال فهذا الإنسان المسمّى بذي القرنين في القرآن قد دلّ القرآن على أنّ ملكه بلغ أقصى المغرب والمشرق والشمال، وهذا هو تمام القدر المعمور في الأرض.

والملك الّذي اشتهر بهذا العنوان من بسط الملك والقدرة ليس مذكور في التاريخ والدنيا إلّا الإسكندر. وذلك ـ على ما قيل ـ لمّا مات أبوه جمع ملوك الروم بعد أن كانوا طوائف ثمّ جمع ملوك المغرب وقهرهم وأيعن حتّى انتهى إلى البحر الأخضر، ثمّ عاد إلى مصر فبنى الإسكندريّة وسمّاها باسم نفسه، ثمّ دخل الشام وقصد بني إسرائيل وورد بيت المقدس وذبح في مذبحه، ثمّ انعطف إلى أرمينيّة وباب الأبواب ودانت له العراقين والقبط والبربر ثمّ توجّه نحو داراً بن داراً وهزمه مرّات إلى أن قتله صاحب حرسه فاستولى الإسكندر على ممالك الفرس.

ثمّ قصد الهند والصين وغزا الأمم البعيدة ورجع إلى خراسان وبنى المدن الكثيرة ورجع إلى العراق ومرض بشهر زور ومات بها.

فلمّا ثبت بالقرآن أنّ ذا القرنين كان رجلاً ملك الأرض بالكلّيّة أو ما قرب منها وثبت بعلم التواريخ أنّ الّذي هذا شأنه ما كان إلّا الإسكندر وجب القطع بأنّ المراد بذي القرنين هو الإسكندر بن فيلقوس اليونانيّ.

وذكروا في سبب تسميته بهذا الاسم وجوهاً: الأوّل لأجل بلوغه قرني الشمس مطلعها ومغربها كما لقّب أردشير بن بهمن بطول اليدين لنفوذ أمره حيث أراد وإلّا ما كان طول في يديه. وقيل: اسمه مرزبان بن مرزويه بن

يافث بن نوح. وقيل: من أحفاد كهلان سبأ بن يعرب بن قحطان. وقيل: هو تبّع الأكبر أوّل التبابعة. وقيل: إنّه أفريدون بن النعمان الّذي قتل الضحّاك.

وذكر أبو الريحان المنجّم البيرونيّ في كتابه المسمّى بـ«الآثار الباقية من القرون الخالية» أنّ ذا القرنين هو أبو كرب الحميريّ وأنّ ملكه بلغ مشارق الأرض ومغاربها وهو الّذي افتخر به التبّع اليمانيّ حيث قال:

قد كان ذا القرنين جدّي تبعـاً ... ملكاً علا في الأرض غير مفنّـد

بلغ المشارق والمغارب يبتغي ... أسباب أمر من حكيم مرشـد

ويمكن أن يكون هذا القول قريباً من الصحّة لأنّ الأذواء كانوا من اليمن مثل ذي المنار وذي نواس وذي النون وذي رعين وذي يزن وذي جدن.

ولكنّ القول الصحيح الأوّل الّذي بيان سعة ملكه في القرآن حسبما يستفاد من التاريخ إنّما هو الإسكندر الروميّ، وروي: أهل النجوم قالوا له: إنّك لا تموت إلّا على أرض من حديد وتحت سماء من خشب. وكان يدفن كنز كلّ بلدة فيها ويكتب ذلك بصفته وموضعه فبلغ بابل وسقط عن دابّته فرعف فبسطت له دروع فنام عليها فآذته الشمس فأظلّوه بترس فقال: هذه أرض من حديد وسماء من خشب، فأيقن بالموت فمات وهو ابن ألف وثمانية سنة. وقيل: ثلاثة آلاف سنة. واختلف في نبوّته بعد الاتّفاق على إسلامه وولايته فقيل: كان نبيّاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ وظاهر أنّه متناول للتمكين في الدين وكماله بالنبوّة ولقوله: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبٗا﴾ ومن جملة الأشياء النبوّة.

والصحيح أنّه ما كان نبيّاً ولا ملكاً بل كان ملكاً عادلاً صالحاً كما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه سئل عن ذي القرنين أنبيّا كان أم ملكاً؟ فقال عليه السلام: **«لا نبيّاً ولا ملكاً بل هو عبد أحبّ الله فأحبّه الله ونصح لله فنصح له فبعثه إلى قومه فضربوه على قرنه الأيمن فغاب عنهم ما شاء الله أن يغيب ثمّ بعثه الله ثانية فضربوه**

قرنه الأيسر فغاب عنهم ثمّ بعثه الثالثة فمكّن الله له في الأرض، ولعلّ البعثة الولاية لا النبوّة»، ثمّ قال أمير المؤمنين: «**وفيكم مثله، يعني: نفسه الشريفة**».[1]

ومعنى قوله: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: جعلنا له مكنة وقدرة على التصرّف في الأرض من حيث التدبير والرأي والأسباب حيث سخّر له السحاب ومدّ له في الأسباب وبسط له النور وكان الليل والنهار عنده سواء وسهل عليه المسير في الأرض وذلّل له طريقها حتّى تمكّن منها أنّى شاء.

﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبٗا﴾ أي: أعطيناه من كلّ شيء علماً يتسبّب به إلى إرادته وبلوغ حاجته ويستعين به الملوك على فتح البلاد والغلبة عليهم ﴿فَأَتۡبَعَ سَبَبًا﴾ أي: كلّما أراد حصوله أتبع سبباً من الأسباب الّتي اوتي في المسير من بلد إلى بلد ومن قوم إلى قوم حتّى يفوز بمرامه ومقصده.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ﴾ أي: انتهى إلى آخر العمارة من جانب المغرب من الشمس وبلغ قوماً لم يكن وراءهم أحد إلى موضع غروب الشمس ولم يرد بذلك أنّه بلغ إلى موضع الغروب لأنّه لا يصل إليه أحد أي: تراءى له كأنّ الشمس تغرب في عين كما أنّ من كان في البحر رأى الشمس كأنّها تغرب في الماء ومن كان في البرّ يراها كأنّها تغرب في الأرض الملساء لأنّ الشمس لا تزايل الفلك ولا تدخل عين الماء ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوۡمٗا﴾ أي: إذا بلغ منتهى الأرض من جهة المغرب بحيث لا يتمكّن أحد من بلوغه فضلاً عن مجاوزته ووقف على حافّة البحر المحيط الغربيّ المسمّى باقيانوس الّذي فيه الجزائر الخالدات وجد الشمس تغرب في عين ذات طين أسود ذات حمئة وماء حارّ، وقرئ «حامية» أي: حارّة ولا تنافي. ووجد عند العين أو الشمس أناساً.

﴿قُلۡنَا يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ﴾ واستدلّ الذاهبون بنبوّته بهذا الخطاب لأنّ الوحي والخطاب لا يجوز إلّا على الأنبياء. وكانوا قوماً لباسهم جلود الوحوش

١ـ تفسير الصافي، ج٣، ص٢٥٩، وتفسير القمي، ج٢، ص٤٠.

وطعامهم من البحر وما لفظه البحر وكانوا كفّارا فخيّر اللّه ذا القرنين بين أن يعذّبهم بالقتل إن أقاموا على كفرهم وبين المنّ عليهم والعفو عنهم. وهذا التخيير على معنى الاجتهاد في أصلح الأمرين كما خيّر محمّداً بين المنّ على المشركين وبين قتلهم.

وقال الأكثرون: التعذيب هو القتل وأمّا اتّخاذ الحسنى فيهم فهو تركهم أحياء والدعوة إلى الإسلام بالإرشاد إلى الشرائع، هذا على قول من قال بنبوّته ومن لم يقل بنبوّته قال: ذلك الخطاب بواسطة نبيّ ذلك العصر أو كان ذلك إلهاماً لا وحياً بعد أن كان ذلك التخيير موافقاً لشريعة ذلك النبيّ.

وقيل: إنّ ذا القرنين خيّر بين القتل والأسر. وقيل: «إمّا» و«أمّا» للتوزيع دون التخيير أي: ليكن شأنك إمّا التعذيب وإمّا الإحسان فالتعذيب لمن بقي على الكفر وأمّا الإحسان لمن تاب فقضى ذو القرنين فيهم بقضاء اللّه.

و﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ﴾ وبقي على كفره ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾ بالقتل وفعل، وعن قتادة: أنّه كان يطبخ من كفر ولم يؤمن بالقدر، ومن آمن فأعطاه وكساه، فقال ذو القرنين: من لم يؤمن اعذبه وبعد عذابي ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ في الآخرة ﴿فَيُعَذِّبُهُۥ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابًا نُّكْرًا﴾ فظيعا وهو عذاب النار، وفيه دلالة ظاهرة على أنّ الخطاب لم يكن بطريق الوحي وأنّ مقاولته كانت مع نبيّ عصره أو مع من كان بحضرته.

وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾

المعنى: فقضى ذو القرنين بأن ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾ منهم ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ﴾ المثوبة ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ جزاء ﴿وَسَنَقُولُ﴾ ونأمر له بأمر سهل ميسور من الخراج والزكاة وغيرهما أي: أمراً ذا يسر.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ أي: قصد طريقاً آخر ليؤدّيه ذلك السبب إلى ﴿مَطْلِعَ الشَّمْسِ﴾ كما أنّ السبب الأولى أدّاه إلى مغرب الشمس فأراد أن يصل أقصى شرق الأرض فبلغ موضع ابتداء العمارة من الجانب الّذي تطلع من ذلك الجانب الشمس فـ﴿وَجَدَهَا﴾ أي: الشمس ﴿تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ أي: لم يكن في تلك الأرض جبل ولا شجر ولا بناء يسترهم ولم يعلموا صنعة البناء ولا صنعة اللبوس.

العيّاشيّ عن أمير المؤمنين عليه السلام: **«هم قوم قد أحرقتهم الشمس وغيّرت أجسادهم وألوانهم حتّى صيّرتهم كالظلمة»**[١]. قال في «المجمع»:[٢] كانوا إذا طلعت الشمس يغورون في المياه والأتراب وإذا غربت تصرّفوا في أمورهم فيكون عند طلوع الشمس يتعذّر عليهم التصرّف في المعاش وعند غروبها يشغلون بتحصيل مهمّات المعاش حالهم بالضدّ من حال الناس.

وقيل: معنى قوله: ﴿لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ أنّه لا ثياب على جلودهم وأبدانهم كسائر الحيوانات عراة أبداً كما قيل: إنّ حال أكثر من يسكن البلاد القريبة من خطّ الاستواء كذلك. وقد ذكر في بعض كتب التواريخ أنّ ذا القرنين مع أنّ الله هيّأ له الأسباب وذلّل له السحاب للسير قطع هذه المسافة في اثني عشرة سنة حتّى بلغ مطلع الشمس.

وذكر في التفسير: أنّ بعضهم قال: سافرت سنين حتّى جاوزت الصين غاية فسألت عن هؤلاء القوم فقيل لي: بينك وبينهم مسيرة يوم وليلة فبلغتهم فإذا أحدهم يفرش أذنه الواحدة ويلبس الأخرى، ولمّا قرب طلوع الشمس سمعت كهيئة الصلصلة فغشي عليّ ثمّ أفقت وهم يمرخوني ويمسحوني بالدهن فلمّا طلعت الشمس إذا هي فوق الماء كهيئة الزيت فأدخلوني سربا لهم فلمّا ارتفع النهار جعلوا يصطادون السمك ويطرحونه في الشمس فينضج

١ـ تفسير العياشي، ج ٢، ص ٣٤٢؛ وتفسير الصافي، ج ٣، ص ٢٦٢، عن العياشي.

٢ـ مجمع البيان، ج٦، ص ٣٨٢.

وإنّما لم يكن لهم بناء قيل: لأنّه لا يثبت لهم بناء.

﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ أي: حكم هؤلاء الّذين في المطلع حكم أولئك الّذين في المغرب. وقيل: معنى ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: أتبع سبباً لبلوغ المشرق مثل ما أتبع سبباً لبلوغ المغرب. وتمّ الكلام عند قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ ثمّ ابتدأ سبحانه فقال: وقد علمنا ما كان عند ذي القرنين من العدّة والعدد والآلات والسياسة.

أو المعنى: قد علمنا بصلاحه واستقلاله بما ملّكناه قبل أن يفعله كما علمناه بعد فعله ولم يخف علينا حاله. و«كذا» إشارة إلى حسن صنيع ذي القرنين وعلى المعنى الثاني ﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ جملة واحدة. ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ أي: ثمّ أتبع مسلكاً ثالثاً ممّا يبلغه قطراً من أقطار الأرض وأخذ في طريق آخر.

حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾

اعلم لمّا بلغ المشرق والمغرب أتبع مسلكاً ثالثاً ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ﴾ موضع ﴿ٱلسَّدَّيْنِ﴾ قرئ بالضمّ والفتح وقيل: بالضمّ ما فعله اللّه وبالفتح ما أحدثه الناس.

واختلف في موضع السدّين قيل: في ناحية الشمال. وقيل: جبلان بين أرمينيّة وآذربايجان. وقيل: هذا الموضع في مقطع أرض الترك. وحكى محمّد بن جرير الطبريّ في تاريخه: أنّ صاحب آذربايجان أيّام فتحها وجّه إنساناً

أتى إليه من ناحية الخزر فشاهده ووصف أنّه بنيان رفيع وراء خندق عميق وثيق منيع.

وذكر ابن خرداد في كتاب «المسالك والممالك»: أنّ الواثق بالله رأى في المنام كأنّه فتح هذا الردم فبعث الخدم إليه ليعاينوه فخرجوا من باب الأبواب حتّى وصلوا إليه وشاهدوه ووصفوا أنّه بناء من لبن من حديد مشيود بالنحاس المذاب وعليه باب مقفّل. ثمّ إنّ ذلك الإنسان لمّا حاول الرجوع أخرجهم الدليل على البقاع المحاذية لسمرقند. قال أبو الريحان البيرونيّ المنجّم: مقتضى هذا البيان أنّ موضعه في الربع الشماليّ الغربيّ من المعمورة.

وبالجملة لمّا بلغ ذو القرنين موضع السدّين ﴿وَجَدَ﴾ بقربهما أو ورائهما ومجاوزا عنهما أمّة من الناس ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ﴾ وقرئ يفقهون من باب المتعدّي، أي: قوماً لا يعرفون غير لغة أنفسهم وما كانوا يفقهون لسان ذي القرنين، وعلى معنى تعدية الفعل أي: لا يقدرون إفهام غيرهم قولاً.

فإن قيل: إذا كانوا لا يعرفون لغة غير لغتهم أو لا يقدرون إفهام غيرهم كيف قالوا: ﴿يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وكيف فهم منهم ذو القرنين هذا المعنى؟

الجواب أنّ قوله ﴿لَّا يَكَادُونَ﴾ أنّه لا يدلّ على أنّهم لا يفهمون شيئاً أبداً بل كلمة «كاد» يدلّ على أنّهم يفهمون ويفهمون لكن على صعوبة ومشقّة أي: لا يكادون يفهمونه ويفتهمون إلّا بعد مشقّة وصعوبة شديدة كالإشارة والقرينة ونحوها.

وفي اشتقاق يأجوج ومأجوج وأنّهما من أي: الطائفة اختلاف قيل: إنّهما اسمان أعجميّان موضوعان بدليل منع الصرف. وقيل: مشتقّان: فيأجوج مشتقّ من تأجّج النار وتلهّبها فلسرعتهم في الحركة سمّوا بذلك ومأجوج من موج البحر. وقيل: من تأجّج الملح لمناسبة الشدّة. وقيل: من أجّ الظليم إذا هرول وسمعت حفيفه في عدوه. وأمّا أنّهم من أي: الأقوام فقيل: إنّهما

قبيلتان من ولد يافث بن نوح. وقيل: يأجوج من الترك ومأجوج من جيل. وقال الضحّاك: هم جيل من الترك. وقال السدّيّ: الترك سريّة من يأجوج ومأجوج، خرجت لأمر فضرب ذو القرنين السدّ فبقيت خارجة عن السدّ فجميع الترك منهم.

وعن قتادة: أنّ يأجوج ومأجوج اثنتان وعشرون قبيلة سدّ ذو القرنين على إحدى وعشرين قبيلة منهم وبقيت واحدة فسمّوا الترك لأنّهم تركوا خارجين. قال أهل التاريخ: أولاد نوح ثلاثة: سام وحام ويافث فسام أبو العرب والعجم والروم، وحام أبو الحبشة والزنج والنوبة، ويافث أبو الترك والخزر والصقالبة ويأجوج ومأجوج.

والحاصل ﴿قَالُوا﴾ بواسطة مترجمهم على قول، أو بالذات على قول، فكان فهم ذو القرنين كلامهم من الأسباب الّتي آتاه اللّه ﴿يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ خلف هذين الجبلين يفسدون أرضنا لأنّهم إذا كان أبان زرعنا وثمارنا خرجوا علينا من هذين الجبلين ويأكلون زروعنا حتّى لا يبقون منها شيئاً. وقيل في كيفيّة إفسادهم لهؤلاء الساكنين في موضع السدّين: إنّ يأجوج ومأجوج يقتلونهم ويأكلون لحومهم فضلاً عن زروعهم، وهم أقسام.

ثمّ من الناس من وصفوهم بقصر القامة وصغر الجثّة لكن لكثرتهم لا يتمكّنون هؤلاء منهم. ومن الناس وصفهم بطول القامة وكبر الجثّة وأثبتوا لهم مخاطب في الأظفار وأضراساً كأضراس السباع.

فحكى اللّه مقول قولهم لذي القولين أنّهم قالوا له: ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ والمراد بالخرج الخرج الّذي يأخذه السلطان. وقيل: معناه الجعل. والخرج والخراج معناه واحداً. وقيل: الخرج الجزية والخراج في الأرض كالزكاة.

فقال ذو القرنين: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ أي: ما أعطاني من المال والسعة والأسباب خير ممّا تبذلون لي من الخراج فلا حاجة بي إليه

﴿فَأَعِينُونِي﴾ وامددوني برجال وآلة أبني بها سداً بينكم وبينهم، والردم هو السدّ ردمت الباب أي: سددته وردمت الثوب بالرقعة أي: سددت خرقه ﴿ءَاتُونِي﴾ بقطع كبار من الحديد فأتوه بالزبر والقطع الكبيرة فوضعوا بعضها على بعض حتّى صارت بحيث تسدّ ما بين الجبلين إلى أعلاهما ثمّ وضع المنافخ عليها حتّى صارت الزبر كالنار ثمّ صبّ النحاس المذاب على الحديد المحمى فالتصق بعضه ببعض وصار جبلاً صلداً.

وهذا الأمر خارق على العادة بل كرامة قاهرة باهرة لأنّ هذه الزبر الكثيرة الّتي تسدّ بين الجبلين من الأسفل إلى أعلاهما إذا نفخ عليها بحيث تصير مثل النار كيف يقدر الإنسان على القرب منها والنفخ عليها فكأنّه تعالى صرف تأثير تلك الحرارة العظيمة من أبدان النافخين عليها والملتزمين بأفعالها.

قال صاحب «الكشّاف» الزمخشريّ: قيل: بعد ما بين السدّين مائة فرسخ، والصدفان بفتحتين جانباً الجبل لأنّهما يتصادفان ويتقابلان. والقطر النحاس المذاب وتقدير الآية: آتوني قطراً افرغ عليه قطراً، وسمّي قطراً لأنّه يقطر من شدّة ميعانه. ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ﴾ فحذف التاء لقرب المخرج من الطاء أي: فما قدروا بعد على الصعود لملاسته وارتفاعه وما قدروا على تخريبه ونقبه لأجل صلابته وثخانته.

ثمّ حمد الله ذو القرنين و﴿قَالَ هَٰذَا﴾ إشارة إلى السدّ أي: هذه النعمة من الله عليّ بإتمامه وعلى عباده براحتهم من شرّ المفسدين ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ أي: القيامة ودنت جعل السدّ ﴿دَكَّآءَ﴾ بالمدّ أي: مدكوكاً ومسوّى بالأرض وكلّ ما انبسط بعد الارتفاع فقد اندكّ وقرئ بغير المدّ ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ هذا آخر قول ذي القرنين وحكايته.

القميّ: إذا كان قبل يوم القيامة في آخر الزمان انهدم ذلك السدّ وخرج يأجوج ومأجوج إلى الناس وأكلوا الناس وهو قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ

يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾[١].

وعن الصادقعليه السلام: «ليس منهم رجل يموت حتّى يولد له من صلبه ألف ولد ذكر»، ثمّ قال: «هم أكثر خلق خلقوا بعد الملائكة»[٢].

في «الخصال» عن الصادقعليه السلام: «الدنيا سبعة أقاليم يأجوج ومأجوج والروم والصين والزنج وقوم موسى وإقليم بابل»[٣].

وعن النبيصلى الله عليه وآله: «أنه عدّ من الآيات الّتي يكون قبل الساعة خروج يأجوج ومأجوج»[٤].

وعن النبيّ: سئل عن يأجوج ومأجوج فقال: «يأجوج ومأجوج أمّتان وكلّ أمّة أربعمائة أمّة لا يموت الرجل منهم حتّى ينظر إلى ألف ذكر من صلبه كلّ قد حمل السلاح»، قيل: يا رسول الله صفهم لنا، قال: «هم ثلاثة أصناف: صنف منهم مثل الأرز - والأرز شجر بالشام طويل - وصنف منهم طولهم وعرضهم سواء، وصنف منهم يفترش أحدهم إحدى أذنيه ويلتحف بالأخرى ولا يمرّون بفيل ولا جمل ولا وحش ولا خنزير إلّا أكلوه ومن مات منهم أكلوه ومقدّمتهم بالشام وساقتهم بخراسان يشربون أنهار المشرق وبحيره طبريّة»[٥].

وقيل: إنّ آدمعليه السلام احتلم ذات يوم وامتزجت نطفته بالتراب فخلق الله من ذلك الماء يأجوج ومأجوج، فهم متّصلون بنا من جهة الأب.

وجاء في الحديث عنهصلى الله عليه وآله في «الأمالي»: «أنّهم لينقرون بمعاولهم دائبين فإذا كان الليل قالوا: غداً نفرغ، فيصبحون وهو أقوى منه بالأمس حتّى يسلم رجل منهم حين يريد الله أن يبلغ أمره فيقول ذلك الّذي أسلم: غداً نفتحه إن شاء الله، فيصبحون

١ـ سورة الأنبياء: ٩٦.

٢ـ تفسير القمي، ج ٢، ص ٤١؛ وتفسير الصافي، ج ٣، ص ٢٦٤؛ وبحار الأنوار، ج ١٢، ص ١٧٨.

٣ـ الخصال، للصدوق، ص ٣٥٧.

٤ـ تفسير الصافي، ج ٣، ص ٢٦٤.

٥ـ تفسير القرطبي، ج ١١، ص ٥٧؛ الدرّ المنثور، ج ٤، ص ٢٥٠.

ثمّ يغدون عليه فيفتحه الله، فو الّذي نفسي بيده فيخرجون على الناس»[١]، إلخ.

وفي حديث آخر: «**فيخرجون على الناس فيشربون المياه ويتحصّن الناس في حصونهم منهم فيرمون سهامهم إلى السماء فترجع السهام وفيها كهيئة الدماء فيقولون: قد قهرنا أهل الأرض وعلونا أهل السماء! فيبعث الله بقفا** ـ وفي نسخة نقفا بالنون، وبالباء جمع البقّ، وبالنون جمع النق وهو العقرب أو الضفادع ـ **في أقفائهم فيدخل البقق في آذانهم فيهلكون بها»**[٢].

قال النبي ﷺ: «**إنّ دوابّ الأرض لتسمن وتسكر من لحومهم سكراً**»، قيل له: يا رسول الله متى كان كذلك؟ قال ﷺ: «**حين لا يبقى من الدنيا إلّا مثل صبابة الإناء**»[٣].

والعيّاشي: عن الصادق عليه السلام في تأويل قوله تعالى: ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ قال في تأويل الآية: الردم التقيّة ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ قال: «**إذا عملت بالتقيّة لم يقدروا لك على حيلة، والعمل به هو الحصن الحصين صار بينك وبين أعداء الله سدّ لا يستطيعون له نقبا. ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ مدكوكا قال: رفع التقيّة عند الكشف فينتقم من أعداء الله**»[٤].

﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ

١ـ الأمالي، الطوسي، ص٣٤٦.

٢ـ بحار الأنوار، ج٦، ص٢٩٨؛ ونور الثقلين، ج٣، ص٣٠٩.

٣ـ انظر: الأمالي، للطوسي، ص٣٤٦؛ وبحار الأنوار، ج٦، ص٣١١.

٤ـ تفسير العياشي، ج٢، ص٣٥١، وتفسير الصافي، ج٣، ص٢٦٥.

كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾

المعنى: الضمير في ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ﴾ قيل: راجع إلى الخلق من الجنّ والإنس. وقيل: راجع إلى يأجوج ومأجوج يوم انقضاء السدّ يموجون في الدنيا بين الناس مختلطين لكثرتهم كحال الموج في البحر باضطراب أمواجه وذلك لقرب الساعة.

ثمّ ذكر سبحانه فقال: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ لأنّ خروج يأجوج ومأجوج من أشراط الساعة. واختلف في الصور قيل: هو قرن ينفخ فيه. وقيل: صور جمع صورة فإنّ الله يصوّر الخلق في القبور كما صوّرهم في الأرحام ثمّ ينفخ فيهم كما نفخ وهم في أرحام أمّهاتهم. وقيل: إنّه ينفخ إسرافيل في الصور ثلاث نفخات فالنفخة الأولى نفخة الفزع والثانية النفخة الّتي يصعق من في السماوات والأرض بها فيموتون، والثالثة نفخة القيام لربّ العالمين فيحشر الناس بها من قبورهم.

﴿فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾ أي: حشرناهم يوم القيامة كلّهم في صعيد واحداً ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ﴾ وأبرزناها لهم حتّى شاهدوها ورأوا ألوان عذابها قبل دخولها.

ثمّ وصف سبحانه الكافرين فقال: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى﴾ ذكر السبب الّذي استحقّوا به النار أي: الّذين غفلوا عن الاعتبار بقدرتي الموجب لذكري والتفكّر في آياتي ودلائل توحيدي فصاروا بمنزلة من يكون في عينه غطاء يمنعه عن الإدراك ﴿وَكَانُواْ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ أي: من كثرة الغفلة كان يثقل عليهم سماع القرآن وذكر الله كما يقال: فلان لا يستطيع أن ينظر إليك ولا يتمكّن من استماع كلامك ويثقل عليه ذلك.

القمّي: عن الصادق في هذه الآية قال عليه السلام: «**يعني بالذكر ولاية عليّ عليه السلام قال: كانوا لا يستطيعون إذا ذكر عليّ عليه السلام عندهم أن يسمعوا ذكره لشدّة بغضهم له**

ولأهل بيته»[1]. وعلى هذا فتمام الآية يؤول معناه في حقّ المنكرين للولاية.

﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ﴾ جحدوا، وقرئ «أ فحسب» بسكون السين ورفع الباء[2] بقراءة أمير المؤمنينعليه السلام أي: أفكافيهم الّذين اتّخذوا وعبدوا إلها غيري، أو أفظنّوا الّذين اتّخذوا عباداً غيري عبدوهم كالمسيح والملائكة الّذين عبدوهم واتّخذوهم أرباباً ينصرونهم ويدفعون عقابي عنهم ليس الأمر كذلك بل هم براء منهم ومن كلّ مشرك بالله ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا﴾ وهيّأنا لهم ﴿جَهَنَّمَ﴾ معدّة مهيّاة منزلاً لهم كما يهيّؤ النزل للضيف وهو ما يقام للضيف ممّا حضر من الطعام.

﴿قُلۡ﴾ لهم يا محمّد: ﴿هَلۡ﴾ نخبركم ﴿بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا﴾ والجمع في صيغة المتكلّم للإيذان بمعلوميّة الخبر عند المؤمنين وإنّما أتى بصيغة الجمع في العمل وقال: ﴿أَعۡمَٰلًا﴾ للإيذان بتنوّعها من أعمالهم الحسنة بزعمهم الباطل، وهم كفّار أهل الكتاب اليهود والنصارى ﴿ٱلَّذِينَ﴾ يظلّ و﴿ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ﴾ واجتهادهم ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ﴾ بفعلهم محسنون وأنّ أفعالهم طاعة وقربة.

القمّي: نزلت في اليهود وجرت في الخوارج. وعن الباقرعليه السلام: **«هم النصارى والقسّيسون والرهبان وأهل الشبهات والأهواء من أهل القبلة والحروريّة وأهل البدع»**[3].

وفي «الاحتجاج» عن امير المؤمنينعليه السلام أنّه سئل عن هذه الآية فقال: **«كفرة أهل الكتاب اليهود والنصارى وقد كانوا في زمانهم على الحقّ فابتدعوا في أديانهم وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً».**

ثمّ قالعليه السلام: **«وما أهل النهروان منهم ببعيد»**[1]. والعيّاشيّ عنهعليه السلام مثله. وفي

١ـ تفسير القمي، ج٢، ص٤٧.

٢ـ انظر: فتح القدير، ج٣، ص٣١٥.

٣ـ تفسير القمي، ج٢، ص٤٦.

١ـ الاحتجاج، ج١، ص٣٨٨.

الجوامع عنه عليه السلام:[١] هي كقوله: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾[٢] وقال: منهم أهل حرور أي: الخوارج.

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ﴾ أي: أولئك جحدوا بحجج اللّه وبيّناته. والمراد باللقاء لقاء جزائه في الآخرة فبطلت وضاعت ﴿أَعْمَالُهُمْ﴾ الّتي عملوها لأنهم أوقعوها على خلاف الوجه الّذي أمرهم اللّه به فلا قيمة لعملهم عندنا ولا قدر ولا وزن لها.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: حبوط الأعمال وخيبة القدر. والإشارة إلى هذه الأمور المذكورة ثمّ ابتدأ سبحانه فقال: ﴿جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ بسبب كفرهم واتّخاذهم آياتي من الرسل والقرآن مهزوءا به فقوله تعالى: ﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ من شواهد القائلين بالحبط والتكفير حبوطا كلّياً لعلّ لا ينصب لعملهم ميزان لانحباط أعمالهم والميزان إنّما يوضع لأهل الحسنات والسيّئات ليتميّز به مقادير الطاعات والمعاصي وذلك في الموحّدين بطريق الكمّيّة وأمّا الكفر وإنكار آيات اللّه ورسله وأوليائه فإحباطه للعمل بحسب الكيفيّة دون الكمّيّة، فحينئذ لا يوضع لهم الميزان لأنّها قد حبطت.

وفي «الاحتجاج» عن أمير المؤمنين في حديث يذكر فيه أهل الموقف وأحوالهم: «**ومنهم أئمّة الكفر وقادة الضلالة فأولئك لا يقيم لهم يوم القيامة وزناً ولا يعبأ بهم لأنّهم لم يعبئوا بأمره ونهيه وهم في جهنّم خالدون تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون**»[٣].

وفي «العيون» عن الرضا عليه السلام فيما كتبه للمأمون: «**ويجب البراءة من أهل المتقدّمين من غير مقدّم ومن أبي موسى الأشعريّ وأهل ولايته الّذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً أولئك الّذين كفروا بآيات ربّهم بولاية**

١ـ تفسير الصافي، ج٣، ص٢٦٧؛ ونورالثقلين، ج٣، ص٣١٢ وغيرهما من الجوامع عنه عليه السلام.

٢ـ سورة الغاشية: ٣.

٣ـ الاحتجاج، ج١، ص٣٦٤.

أمير المؤمنين، ولقائه أي: كفروا بأن لقوا الله بغير إمامته فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا فهم كلاب أهل النار»[١].

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾

لمّا تقدّم ذكر حال الكافرين عقّبه بذكر حال المؤمنين فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ﴾ صدقوا الله ورسله ﴿وَعَمِلُوا﴾ الأعمال الصالحة من أداء الفرائض والسنن، والعطف يدلّ على المغايرة ﴿كَانَتْ لَهُمْ﴾ جنّة ﴿الْفِرْدَوْسِ﴾ قيل: الفردوس وسط الجنّة وأفضلها. وعن كعب: ليس في الجنان أعلى من جنّة الفردوس، وفيها الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر. وعن مجاهد: «الفردوس» هو البستان بالروميّة. وعن النبي ﷺ أنّه قال: **«الجنّة مائة درجة ما بين كلّ درجتين مسيرة مائة عام والفردوس أعلاها درجة ومنها الأنهار الأربعة والفردوس من فوقها فإذا سألتم الله الجنّة فاسألوه الفردوس فإنّ فوقها عرش الرحمن ومنها يتفجّر أنهار الجنّة»**[٢].

﴿نُزُلًا﴾ على المعنيين يمكن عبارة عن المأوى أو عبارة عمّا يحضر للضيف من الطعام والتشريفات. دائمين في تلك الجنّات لا يطلبون عن تلك الجنات تحوّلاً إلى موضع آخر لطيبتها وحصول مرادهم فيها.

ثمّ أمر الله سبحانه نبيّه فقال: ﴿قُل﴾ يا محمّد لجميع المكلّفين بعد ما ذكر في هذه السورة من أنواع الدلائل والبيّنات وشرح بعض أقاصيص الأوّلين: إنّ البحار كيف ما فرضت في الاتّساع والعظمة لو جعلت بمنزلة المداد ـ والمداد اسم لما تمدّ به الدواة من الحبر ولما يمدّ به السراج من

١ـ عيون أخبار الرضا ﷺ، ج١، ص١٣٣.

٢ـ انظر: مجمع البيان، ج٦، ص٣٩٤؛ وبحار الأنوار، ج٨، ص١٩٦.

السليط ـ وأردت أن تكتب كلمات الله وحكمه وعلمه لنفدت، ومعلوم أنّ المتناهي لا يفي البتّة لغير المتناهي.

روي أنّ حييَ بن أخطب قال: في كتابكم: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[1] ثمّ تقرءون ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[2] فنزلت هذه الآية يعني: أنّ ذلك خير كثير ولكنّه قطرة من بحر كلمات الله.

وروى عكرمة عن ابن عبّاس قال: (لمّا نزل: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ قالت اليهود: أوتينا علماً كثيراً أوتينا التوراة وفيها علم كثير فأنزل الله هذه الآية). ثمّ علّم الله نبيّه التواضع فأمره أن يقرّ على نفسه بأنّه مع أنّه مخاطب الوحي ومكرّم بالقرآن والنزول عليه فإنّه آدميّ كغيره.

و﴿أَنَا﴾ في البشريّة ﴿مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ لا شريك له ولا فضل إلّا بالدين والنبوّة ولا علم إلّا ما علّمنيه الله ﴿فَمَن كَانَ﴾ يطمع في ﴿لِقَآءَ﴾ ثواب ﴿رَبِّهِۦ﴾ ويأمل الوقوف بين يديه ويخشى لقاء عقابه لأنّ الرجاء يشتمل المعنيين الخوف والأمل. قال الشاعر:

فلا كلّ ما ترجو من الخير كـائن ولا كلّ ما ترجو من الشـرّ واقـع

﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ خالصاً لله يتقرّب به ولا يجعل بعبادة الله أحدا شريكاً من ملك أو نبيّ أو بشر أو حجر أو شجر، لا يرائي في عبادته أحدا.

عن سعيد بن جبير وغيره: جاء رجل إلى النبيﷺ فقال: إنّي أتصدّق وأصل الرحم ولا أصنع ذلك إلّا لله فيذكر ذلك منّي وأحمد عليه فيسرّني ذلك وأعجب به»، فسكت رسول الله ولم يقل شيئاً فنزلت الآية[1].

قال عطا عن ابن عبّاس: أنّ الله تعالى قال: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ ولم يقل: «ولا يشرك به» لأنّه أراد العمل الّذي يعمل لله ويحبّ أن يحمد

١ـ سورة البقرة: ٢٦٩.

٢ـ سورة الإسراء: ٨٥.

١ـ مجمع البيان، ج٦، ص٣٩٦؛ وعدة الداعي، ابن فهد الحلي، ص٢٠٩.

عليه، قال: ولذلك يستحبّ للرجل أن يدفع صدقته إلى غيره ليقسمها كيلاً يعظّمه من يصله بها.

وروي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال الله عزّ وجلّ: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل عملاً أشرك فيه غيري فأنا منه بريء فهو الّذي أشرك**»[1].

وروي عن عبادة الصامت وشدّاد بن أوس قالا: سمعنا رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «**من صلّى صلاة يرائي بها فقد أشرك ومن صام صوما يرائي به فقد أشرك**»، ثمّ قرأ هذه الآية[2].

وروي أنّ أبا الحسن الرضا عليه السلام دخل يوماً على المأمون فرآه يتوضّأ للصلاة والغلام يصبّ على يده الماء فقال: «**لا تشرك بعبادة ربّك أحدا**» فصرف المأمون الغلام وتولّى إتمام وضوئه بنفسه[3].

وعن الصادق عليه السلام أنّه سئل عن هذه الآية فقال: «**العمل الصالح المعرفة بالأئمة ولا يشرك بعبادة ربّه أحدا التسليم لعليّ ولا يشرك معه بالخلافة من ليس ذلك لها أهل**»[4].

والقميّ عنه عليه السلام: «**ولا يشرك بعبادة ربّه أحدا، قال: لا يتّخذ مع ولاية آل محمّد غير ولايتهم، والعمل الصالح ولايتهم**»[5].

وقيل: إنّ هذه الآية آخر آية نزلت من القرآن. وفي «الكافي»: آخر سورة نزلت ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾ وأوّل ما نزلت بسم الله ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾.

وروى الشيخ أبو جعفر بن بابويه بإسناده عن عيسى بن عبد الله عن

١ـ الجواهر السنيّة، الحر العاملي، ص١٦٩؛ ومجمع البيان، ج٦، ص٣٩٦؛ وبحار الأنوار، ج٦٧، ص٢٢٣.

٢ـ مجمع البيان، ج٦، ص٣٩٦، بحار الأنوار، ج٦٩، ص٢٨٢.

٣ـ المصدر السابق نفسه.

٤ـ تفسير العياشي، ج٢، ص٣٥٣؛ وتفسير الصافي، ج٣، ص٢٧٠؛ وبحار الأنوار، ج٣٦، ص١٠٦

٥ـ تفسير القمي، ج٢، ص٤٧.

جدّه عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «**ما من عبد يقرأ ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠﴾ إلى آخره إلّا كان له نور في مضجعه إلى بيت الله الحرام فإن كان من أهل البيت الحرام كان له نور إلى بيت المقدس**»[١].

وقال أبو عبد الله الصادق: «**ما من عبد يقرأ آخر الكهف عند النوم إلّا تيقّظ في الساعة الّتي يريدها**»[٢].

هنا ينتهي الجزء السادس من الكتاب مشتملا على سور: يوسف، الرعد، إبراهيم، الحجر، النحل، الإسراء والكهف. وبهذا الجزء ينتصف القرآن الكريم، وفّقنا الله لإتمامه.

١ـ ثواب الأعمال، ص١٠٧.

٢ـ الكافي، ج٢، ص٥٤٠؛ ومن لا يحضره الفقيه، ج١، ص٤٧١؛ ومجمع البيان، ج٦، ص٣٩٦.

فهرس الأحاديث

(أ)

أتى موسى إلى العالم فأصابه في جزيرة من جزائر البحر ٣٩١

اجتمع أهل النار في النار ومعهم من يشاء الله من أهل القبلة ١٦٦

الآدميّ بنيان الربّ، ملعون من هدم بنيان الربّ ٢٩٥

أدنى العقوق أفّ ولو علم الله شيئاً أيسر منه وأهون منه لنهى عنه ٢٩٠

إذا اجتمع عدّة على قتل رجل واحد حكم الوليّ أن يقتل أيّهم شاء ٢٩٦

إذا آذاك البراغيث فخذ قدحاً من الماء فاقرأ عليه سبع مرات ١٤٠

إذا أقبلت عليكم أطراف النعم فلا تنفروا أقصاها بقلّة الشكر ١٠٢

إذا عملت بالتقيّة لم يقدروا لك على حيلة ٤١٥

إذا عملت سيّئة فاعمل حسنة بجنبها تمحها ١١٤

إذا قمت المقام المحمود تشفّعت في أصحاب الكبائر من أمّتي ٣٢٩

ألا أدلّكم على سورة شيّعها سبعون ألف ملك حين نزلت عظّمتها ما بين السماوات والأرض ٣٥١

إنّ أخوف ما أخاف عليكم اثنان ١٦٦

أنّ أرذل العمر خمس وسبعون سنة ٢٢٨

إنّ أقوام سائر الأنبياء استهزؤوا بهم فأطلت لهم المدّة بتأخير العقوبة ١٢٢

إنّ الأئمّة إمام هدى وإمام ضلالة ٣٢٠

إنّ الذي يمشيهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم ٣٤٢

إنّ الرجل من شيعتنا ليموت فيسقط من الشجرة ورقة ١٤٨

إنّ الشجرة الملعونة في القرآن هي بنو أميّة ٣١٢

أنّ الشجرة رسول الله وفرعها عليّ وعنصر الشجرة فاطمة وثمرها أولادها ١٤٨
إنّ الصفح الجميل هو العفو من غير عتاب وتوبيخ وتعنيف ١٨٦
إنّ الصواعق تصيب المسلم وغير المسلم ولا تصيب ذاكراً ١٠٧
إنّ العين حقّ والعين تنزل الحالق ٦٢
إنّ الله افترض أربع صلوات أوّل وقتها من زوال الشمس ٣٢٥
إنّ الله جعل النجوم أماناً لأهل السماء وجعل أهل بيتي أماناً لأهل الأرض ٢٠١
إنّ الله سخّر لي البراق وهي من دواب الجنّة ٢٦٦
إنّ الله لما فتح على نبيّه فدك وما والاها لم يوجف عليه بخيل ٢٩١
إنّ الله ليحفظ ولد المؤمن إلى ألف سنة ٤٠٣
إنّ الله ليصلح بصلاح الرجل المؤمن ولده وولد ولده ٤٠٣
إنّ الله ينشئ السحاب الثقال فينطق أحسن النطق ١٠٦
أنّ جبرئيل احتمل رسول الله حتّى انتهى به إلى مكان من السماء ٢٦٥
أنّ جهنّم لها سبعة أبواب أطباق بعضها فوق بعض ١٧٩
إنّ داري ودار عليّ في الجنّة بمكان واحداً ١١٨
إنّ دواب الأرض لتسمن وتسكر من لحومهم سكراً ٤١٥
أن طوبى شجرة في الجنّة غرسها الله بيد قدرته تنبت الحلل والحليّ ١١٨
إن عجزتم عن الليل أن تكابدوه وعن العدوان تجاهدوه ٣٨٢
إنّ لله تعالى ملائكة في السماء السابعة سجوداً ٢١٤
إنّ لله عباداً يعرفون الناس بالتوسيم ١٨٤
أنّ هذه الشجرة الطيّبة هي النخلة ١٤٨
إنّ يعقوب دعا الله سبحانه في أن يهبط عليه ملك الموت ٧٤
أنّ يعقوب كان يذبح كلّ يوم كبشاً فيتصدّق به ويأكل هو وعياله منه ١٠
أنا المنذر وعليّ الهادي من بعدي يا عليّ بك يهتدي المهتدون ١٠٠
أنا يعسوب المؤمنين ٢٢٧

أنبياء الله لا يموتون ولكن ينقلون من دار إلى دار ٣٣٥
أنت الشجرة وعليّ غصنها وفاطمة ورقها والحسن والحسين ثمارها ١٤٨
إنّما أنت منذر. ثمّ ردّها إلى صدر عليّ، ثمّ قال ١٠٠
أنّه عدّ من الآيات الّتي يكون قبل الساعة خروج يأجوج ومأجوج ٤١٤
أنّه كان بين ذلك الأب الصالح وبينهما سبعة آباء ٤٠٣
أنّه كتب الإحسان على كلّ شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة ٢٤٢
أنّهم ليتقرون بمعاول لهم دائبين فإذا كان الليل قالوا ٤١٤
أنّهما ابدلا عن الغلام المقتول ابنة فولد منها سبعون نبيّاً ٤٠١
أيّما عبد أنعم الله عليه فأقرّ بها بقلبه وحمد الله عليها بلسانه ١٣٧

(ب)

بينا أنا في المسجد الحرام في الحجر عند البيت ٢٦٢
بينا موسى قاعد في ملأ من أصحابه بني إسرائيل إذ قال له رجل ٣٩٠

(ت)

تبدّل الأرض بنار فتصير الأرض كلّها يوم القيامة ناراً ١٦٢
تبدّل الأرض خبزة نقيّة يأكل الناس منها حتّى يفرغ من الحساب ١٦٢
ترمي الأرض بأفلاذ كبدها ٣٨٣
تعلّموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم وتعلّموا من النجوم ما تستدلّون به على الطريق ١٣٨

(ج)

الجدي علامة قبلتكم وبه تهتدون في برّكم وبحركم ٢٠١
الجنّة مائة درجة ما بين كلّ درجتين مسيرة مائة عام ٤١٩
جنّتكم من النار، قولوا سبحان الله والحمد لله ولا إله إلّا الله والله أكبر ٣٨٢
الجهر بها رفع الصوت شديداً والمخافة ما لم تسمع أذنيك ٣٤٩

(ح)

الحمد لله الّذي أسقاني وإن شاء أظمأني ٢٧٧
الحمد لله الّذي أطعمني ولو شاء أجاعني ٢٧٧
الحمد لله الّذي حذاني ولو شاء أحفاني ٢٧٧
الحمد لله الّذي كساني ولو شاء أعراني ٢٧٧

(د)

الدنيا سبعة أقاليم يأجوج ومأجوج والروم والصين والزنج وقوم موسى وإقليم بابل ٤١٤

(ر)

رحم الله أخي موسى استحى قال ذلك ولو لم يقل ذلك ٣٩٩
رحم الله أخي يوسف لو لم يقل ٥٦
رحم الله يوسف لولا الكلمة الّتي قالها مالبث في السجن هذه المدّة الطويلة ٤٧

(س)

سلّموا على عليّ بإمرة المؤمنين ٢٤٤
سورة أصحاب الكهف، من قرأها يوم الجمعة غفر الله له إلى الجمعة الأخرى ٣٥١

(ص)

صلاة أربع ركعات يقرأ في كلّ ركعة خمسين مرّة سورة التوحيد هي صلاة الأوّابين ٢٩١
صلة آل محمّد معلّقة بالعرش يقول ١١٤
صلة الرحم وبرّ الوالدين يهوّنان الحساب ١١٤

(ض)

ضمّ أبويك إلى نفسك كما كانا يفعلان بك وأنت صغير ٢٩٠

(ع)

عاش يعقوب مع يوسف بمصر عامين ٨٤
عجبت لمن يعلم أنّ الموت حقّ كيف يفرح ٤٠٢
علّم جبرئيل يوسف في حبسه ٤٦
العلم علمان علم علّمه الملائكة ورسله وأنبياء، وعلم عنده مخزون ١٢٨
العلماء أمناء الرسل على عباد الله من حيث يحفظون لما يدعونهم إليه ٨٨
علّموا أرقاءكم سورة يوسف فإنّه أيّما مسلم تلاها ٥
عليكم بصلاة الليل فإنّها سنّة نبيّكم ودأب الصالحين قبلكم ٣٢٧
العمل الصالح المعرفة بالأئمّة ولا يشرك بعبادة ربّه أحدا ٤٢١

(ف)

في الزنى ستّ خصال ثلاث في الدنيا، وثلاث في الآخرة ٢٩٥

(ق)

قبل آدم الّذي هو أبونا قد انقضى ألف ألف آدم أو أكثر ١٧٤
قسّمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ١٨٧

(ك)

كان ذلك الكنز لوحاً من ذهب فيه مكتوب ٤٠٢
كان رسول الله إذا سمع الرعد والصواعق قال ١٠٦
كان عنده علم لم يكتب لموسى في الألواح ٣٩٦
كان ليعقوب أخ مؤاخ فقال له يوماً ٧٣
كان موسى أعلم من الخضر ٣٩٧
كانت دعوة إبراهيم لنا خاصّة ١٥٧
كانوا سبعة وأسماؤهم تمليخا، مكسلمنا، مسلثينا، ٣٦٨
كفرة أهل الكتاب اليهود والنصارى وقد كانوا في زمانهم على الحقّ ٤١٧

(ل)

لا تأكلوا ثمن الشجر فإنه سحت ١٩٨
لا تلقنوا الكذب أولادكم فيكذبوا، فإنّ بني يعقوب لم يعلموا ١٤
لا خير في دين ليس فيها ركوع ولا سجود ٣٢٢
لا صلاة إلّا بفاتحة الكتاب ولا يجوز الإبدال ١٨٧
لا نبيّ بعد نبيّنا ٤٠٤
لا نبيّاً ولا ملكاً بل هو عبد أحبّ الله فأحبّه الله ونصح لله فنصح له ٤٠٦
لكلّ زمان وامّة إمام. تبعث كلّ أمّة بإمامهم ٢٣٨
للعبد أن يستثني ما بينه وبين أربعين يوماً متى ما ذكر ٣٦٨
لما أسري برسول الله إلى السماء الدنيا لم يمرّ بأحد من الملائكة إلّا استبشر ٢٦٥
لما أقام العالم الجدار أوحى الله إلى موسى ٤٠٣
لما أقبل يعقوب إلى مصر خرج يوسف ليستقبله ٨٠
لما ألقى إخوة يوسف يوسف في الجبّ نزل عليه جبرئيل ١٥
لو علم الله لفظة أوجز في عقوق الوالدين لأتى به ٢٩٠
لو كان شيء يسبق القدر لسبقته العين ٦٢
لو كنت بين موسى والخضر لأخبرتهما أني أعلم منهما ٣٩٧
ليس شيء من ذلك بل بعثني الله إليكم رسولاً وأنزل كتاباً ٣٣٨
ليس منّا من لم يستغن بالقرآن ومن اوتي القرآن ١٨٨
ليس منهم رجل يموت حتّى يولد له من صلبه ألف ولد ذكر ٤١٤

(م)

ما أحد أعلم بكتاب الله بعد النبيّ من عليّ بن أبي طالب ومن الصالحين من أولاده ١٣١
ما بهذا بعثت وقد جئت بما بعثني الله به فإن قبلتم وإلّا فهو يحكم بيني وبينكم ٣٣٩
ما عليّ في أن ألمسهما والله يعلم أني لكاره لها ويدعو إلى استلام الحجر ٣٢٢
ما قضى لك يا ابن آدم فيما تكره خير لك ممّا قضى ٤٠١

ما كان في الجاهليّة فقد هدمه الإسلام وما في الإسلام يهدمه الاستغفار ٢١٧

ما من عبد يقرأ آخر الكهف عند النوم إلّا تيقّظ في الساعة الّتي يريدها ٤٢٢

مررت بعير بني فلان فنفر بكرة فلان فانكسرت يدها فاسألوهم عن ذلك ٢٦٥

مررت بعير بني فلان وقد ضلّوا بعيراً لهم وهم في طلبه ٢٦٤

مررت بيوسف ليلة عرج بي إلى السماء فقلت لجبرئيل ٣٥

ملك موكّل بالسحاب معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب حيث شاء الله ١٠٦

من أكثر قراءة الرعد لم يصبه الله بصاعقة وإن كان مؤمناً أدخل الجنّة بغير حساب ٩٣

من حفظ عشر آيات من أوّل سورة الكهف ثمّ أدرك الدجّال لم يضرّه ٣٥٢

من شرب الخمر لم تقبل صلاته أربعين يوماً ١٤١

من صلّى صلاة يرائي بها فقد أشرك ومن صام صوماً يرائي به فقد أشرك ٤٢١

من قرأ سورة إبراهيم والحجر أعطي من الأجر عشر حسنات ١٣٣

من قرأ سورة إبراهيم والحجر في ركعتين جميعاً في كلّ جمعة ١٣٣

من قرأ سورة الكهف في كلّ ليلة الجمعة لم يمت إلّا شهيداً ٣٥٢

من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة فهو معصوم إلى ستّة أيّام من كلّ فتنة ٣٥٢

من قرأ سورة النحل في كلّ شهر كفي المغرم في الدنيا ١٩٣

من قرأ سورة بني إسرائيل ثمّ رقّ قلبه عند ذكر الوالدين ٢٦١

من قرأ سورة بني إسرائيل في كلّ ليلة جمعة ٢٦١

من قرأ سورة يوسف في كلّ يوم أو في كلّ ليلة ٥

من قرأ عشر آيات من سورة الكهف حفظاً لم يضرّه فتنة الدجّال ٣٥١

من لم يستشف بالقرآن فلا شفاه الله ٣٣١

من لم يشكر الناس لم يشكر الله ٢٨٩

(ن)

نحن العلامات والنجم رسول الله ٢٠١

نحن المتوسّمون، والسبيل فينا مقيم ١٨٤

نحن أهل الذكر ٢١١
نحن بقية تلك العترة ١٥٧
نزلت في الحسين عليه السلام لو قتل أهل الأرض به ما كان مسرفا ٢٩٦
نهى أن يقتل غير قاتله أو يمثل بالقاتل ٢٩٦

(ه)

هذا أخي ووصيي ووزيري ووارثي عليّ ابن أبي طالب ١٧٥

(و)

وإنّ الله وضع الجنان على العرش ١٧٩

(ي)

يأجوج ومأجوج أمّتان وكلّ أمّة أربعمائة أمّة ٤١٤
يبدّل الله الأرض غير الأرض فيبسطها ويمدّها مدّ الأديم ١٦٢
يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء كقرصة النقيّ ١٦٢
يدعى كلّ أناس بإمام زمانهم وكتاب ربّهم وسنّة نبيّهم ٣٢٠
يلجم الناس يوم القيامة العرق فيقولون انطلق بنا إلى آدم يشفع لنا ٣٢٩
ينادي مناد يوم القيامة يسمع الخلائق ١٦٦

المصادر

١ـ القرآن الكريم، كتاب الله تبارك وتعالى الحي القيوم.

٢ـ الصحيفة السجادية، الإمام علي بن الحسين عليه السلام (السجاد) (ت ٩٤ هـ ق)

٣ـ الاحتجاج، الطبرسي أبو منصور أحمد بن علي بن أبي طالب (ت ٥٨٨ هـ ق).

٤ـ أحكام القرآن، الجصاص، أبي بكر أحمد بن علي الرازي.

٥ـ الاختصاص، الشيخ المفيد، أبو عبدالله محمّد بن محمّد بن النعمان العكبري البغدادي (ت ٤١٣ هـ ق).

٦ـ أسباب النزول، الواحدي، أبوالحسن علي بن أحمد بن محمّد النيسابوري (ت ٤٦٨ هـ ق).

٧ـ الإستبصار فيما اختلف من الأخبار، شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي، (ت ٤٦٠ هـق).

٨ـ الإستبصار في نسب الصحابة الأنصار، عبدالله بن أحمد بن موفق الدين ابن قدامة (ت: ٦٢٠ هـق).

٩ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة، إبن الأثير الجزري، عزالدين علي بن أبي الكرم محمّد بن محمّد بن عبدالكريم الشيباني (ت ٦٣٠ هـ ق).

١٠ـ إعانه الطالبين علي حل الفاظ فتح المعين، بكري المكي ابن السيد محمد شطا عمر الله الدمياطي.

١١ـ الألفية والنفلية، الشهيد الأول محمد بن مكي العاملي.

١٢ـ الأمالي الشيخ الطوسي، شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي، (ت ٤٦٠ هـق).

١٣ـ الأمثال في القرآن الكريم، ابن قيم الجوزية.

١٤ـ بحار الأنوار، المجلسي، محمّد باقر محمّد تقي (ت ١١١٠ هـ ق).

١٥ـ البداية والنهاية، ابن كثير، ابو الفداء، عماد الدين اسماعيل بن عمر البصري الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ ق).

(ت ٧٧٤ هـ ق).

١٦ـ بصائر الدرجات في فضائل آل محمدﷺ، الصفار، محمد بن حسن (ت ٢٩٠ هـ ق).
١٧ـ تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الزبيدي (ت ١٢٠٥ هـ ق).
١٨ـ تاريخ ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون (ت ٨٠٨ هـ ق).
١٩ـ تاريخ (الرسل والأمم والملوك)، أبو جعفر محمّد بن جرير الطبري (ت ٣١٠ هـ ق).
٢٠ـ تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر، ابو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الدمشقي (ت ٥٧١ هـ ق).
٢١ـ التبيان في تفسير القرآن، شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي، (ت ٤٦٠ هـ ق).
٢٢ـ تحرير الأحكام الشرعية على مذهب الامامية، العلامة الحلي، حسن بن يوسف، (ت ٧٢٦ هـ ق).
٢٣ـ التحصين في صفات العارفين، جمال الدين احمد بن محمد بن فهد الحلّي (ت ٨٤١ هـ ق).
٢٤ـ تحف العقول، ابن شعبة، أبو محمّد الحسن بن علي بن الحسين الحرّاني الحلبي (ت ٣٨١ هـ ق).
٢٥ـ تحفة الأحوذي (شرح جامع الترمذي)، محمد بن عبد الرحمن المباركفوري الهندي.
٢٦ـ تذكرة الفقهاء، العلامة الحلي، حسن بن يوسف، (ت ٧٢٦ هـ ق).
٢٧ـ تذكرة الموضوعات، أبو الفضل محمد بن طاهر بن أحمد المقدسي.
٢٨ـ تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم)، محمد بن محمد العمادي أبو السعود.
٢٩ـ تفسير البغوي (معالم التنزيل فى تفسير القرآن)، حسين بن مسعود البغوي (ت ٥١٦ هـ ق).
٣٠ـ تفسير البيضاوي (أنوار التنزيل وأسرار التأويل)، أبو سعيد عبد الله بن عمر الشيرازي البيضاوي (ت ٦٩١ هـ ق).
٣١ـ تفسير الثعلبي (الكشف والبيان عن تفسير القرآن)، ابو اسحاق احمد بن ابراهيم الثعلبى النيشابوري (ت ٤٣٧ هـ ق).
٣٢ـ تفسير الجلالين، جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر السيوطي.
٣٣ـ تفسير روح المعانى، ابو الفضل، شهاب الدين محمود الآلوسي البغدادي (ت ١٢٧٠ هـ ق).
٣٤ـ تفسير الرازي (روض الجنان وروح الجنان فى تفسيرالقرآن)، ابوالفتوح حسين بن على الرازي.

٣٥ـ تفسير السمرقندي (بحر العلوم)، نصر بن محمد بن احمد السمرقندي.

٣٦ـ التفسير الصافي، المولى محسن الفيض الكاشاني (ت ١٠٩١ هـ ق).

٣٧ـ تفسير العياشي، ابن عياش، أبو النصر محمّد بن المسعود بن محمّد التميمي الكوفي السلمي السمرقندي (من أعلام القرن الثالث الهجري).

٣٨ـ تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، أبو الفداء اسماعيل بن عمر البصري الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ ق).

٣٩ـ تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)، القرطبي، أبو عبدالله محمّد أحمد الأنصاري (ت ٦٧١ هـ ق).

٤٠ـ تفسير القمي، القمي، أبو الحسن علي بن ابراهيم بن هاشم (ت ٣٠٧ هـ ق).

٤١ـ تفسير الكشاف (الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل)، ابو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٢٨ هـ ق).

٤٢ـ التفسير المنسوب الي الإمام العسكري عليه السلام.

٤٣ـ تفسير جوامع الجامع، فضل بن حسن الطبرسي (ت ٥٤٨ هـ ق).

٤٤ـ تفسير كنز الدقائق وبحر الغرائب، محمد بن محمد رضا القمي المشهدي.

٤٥ـ تفسير نور الثقلين، عبد علي بن جمعة العروسي الحويزي (ت ١١١٢ هـ ق).

٤٦ـ تنبيه الخواطر ونزهة النواظر المعروف بمجموعة ورام، ورام بن أبي فراس (ت ٦٠٥ هـ ق).

٤٧ـ تنبيه الغافلين عن فضائل الطالبيين، شرف الاسلام بن سعيد المحسن بن كرامة (ت ٤٩٤ هـ ق).

٤٨ـ تنزية الأنبياء، الشريف المرتضى، علي بن الحسين الموسوي (ت ٤٣٦ هـ ق).

٤٩ـ تهذيب الأحكام، شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي، (ت ٤٦٠ هـق).

٥٠ـ ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، ابو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي النيسابوري (ت ٤٢٩ هـ ق)

٥١ـ ثواب الأعمال وعقاب الأعمال، الشيخ الصدوق، أبو جعفر محمد بن علي بن بابويه القمي (ت ٣٨١ هـ ق)

٥٢ـ جامع أحاديث الشيعة، السيد حسين البروجردي، (ت ١٣٨٠ هـ ق)

٥٣ـ جامع الأخبار، محمد بن محمد الشعيري (من اعلام القرن السادس الهجري).

٥٤ـ جامع البيان عن تأويل القرآن، الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ ق).
٥٥ـ جامع السعادات، العلامة النراقي، محمد مهدي بن أبي ذر (ت ١٢٠٩ هـ ق).
٥٦ـ جمهرة اللغة، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي البصري الدوسي (ت ٣٢١ هـ ق).
٥٧ـ الجواهر السنية في الأحاديث القدسية، محمد بن حسن الحر العاملي (ت ١١٠٤ هـ ق).
٥٨ـ جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام، محمد حسن بن باقر النجفي (ت ١٢٦٦ هـ ق).
٥٩ـ الحبل المتين في أحكام الدين، الشيخ البهائي، الشيخ محمد بن حسين العاملي (ت ١٠٣٠ هـ ق).
٦٠ـ الحدائق الناضرة في أحكام العترة الطاهرة، الشيخ يوسف البحراني (ت ١١٨٦ هـ ق).
٦١ـ حلية الأبرار في أحوال محمّد وآله الأطهار عليهم السلام، السيد هاشم البحراني (ت ١١٠٧ هـ ق).
٦٢ـ الخصال، الشيخ الصدوق، أبو جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت ٣٨١ هـ ق).
٦٣ـ الدر المنثور في التفسير بالمأثور، السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١ هـ ق).
٦٤ـ الدعوات (سلوة الحزين)، قطب الدين الراوندي (ت ٥٧٣ هـ ق).
٦٥ـ رسائل المرتضى، الشريف المرتضى، علي بن الحسين الموسوي (ت ٤٣٦ هـ ق).
٦٦ـ روضة الواعظين وبصيرة المتعظين، محمد بن احمد الفتال النيسابوري (ت ٥٠٨ هـ ق).
٦٧ـ زاد المسير في علم التفسير، عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ ق).
٦٨ـ زبدة البيان في أحكام القرآن، المقدس الأردبيلي، احمد بن محمد (ت ٩٩٣ هـ ق).
٦٩ـ سعد السعود، ابن طاووس، رضي الدين أبوالقاسم علي بن موسى بن جعفر الحسيني (ت ٦٦٤ هـ ق).
٧٠ـ سنن ابن ماجة، ابن ماجة، أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني (ت ٢٧٥ هـ ق).
٧١ـ سنن أبي داود، أبو داود السجستاني، سليمان بن الأشعث بن اسحاق بن بشير بن سداد الأزدي (ت ٢٧٥ هـ ق).
٧٢ـ السنن الكبرى، البيهقي، أبوبكر أحمد بن الحسين بن علي (ت ٤٥٨ هـ ق).

٧٣ـ سير أعلام النبلاء، الذهبي، أبو عبدالله شمس الدين محمّد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨ هـ ق).
٧٤ـ السيرة الحلبية (انسان العيون في سيرة الأمين والمأمون)، الحلبي، علي بن إبراهيم الحلبي الشافعي.
٧٥ـ شجرة طوبى، محمد مهدي الحائري.
٧٦ـ شرح احقاق الحق، السيد شهاب الدين المرعشي النجفي (ت ١٤١١ هـ ق).
٧٧ـ شرح أصول الكافي، المولى محمد صالح المازندراني (ت ١٠٨١ هـ ق).
٧٨ـ شرح الأزهار (المنتزع المختار من الغيث المدرار)، أحمد بن يحيى (ت ٨٤٠ هـ ق).
٧٩ـ شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، عبدالحميد بن هبة الله بن محمّد بن الحسين المدائني المعتزلي (ت ٦٥٥ هـ ق).
٨٠ـ شواهد التنزيل لقواعد التفضيل، الحاكم الحسكاني، عبيدالله بن عبدالله بن أحمد الحذاء الحنفي النيسابوري (من أعلام القرن الخامس الهجري) (المتوفى بعد سنة ٤٧٠ هـ ق).
٨١ـ صحيح البخاري، البخاري، أبو عبدالله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم بن مغيرة بن بودزيه الجعفي (ت ٢٥٦ هـ ق).
٨٢ـ صحيح مسلم، القشيري النيسابوري، أبو الحسين مسلم بن الحجاج (ت ٢٦١ هـ ق).
٨٣ـ الطبقات الكبرى، ابن سعد الواقدي، محمّد بن سعد بن منيع الزهري الكاتب (ت ٢٣٠ هـ ق).
٨٤ـ عدة الداعي ونجاح الساعي، جمال الدين احمد بن محمد بن فهد الحلّي (ت ٨٤١ هـ ق)
٨٥ـ علل الشرايع، الشيخ الصدوق، أبو جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت ٣٨١ هـ ق).
٨٦ـ عوالي اللآلي العزيزية، ابن أبي جمهور، محمّد بن علي بن ابراهيم الاحسائي (من أعلام القرن التاسع الهجري).
٨٧ـ عيون أخبار الرضا عليه السلام، الشيخ الصدوق، أبو جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت ٣٨١ هـ ق).
٨٨ـ عيون الحكم والمواعظ، علي بن محمد الليثي الواسطي (من اعلام القرن السادس الهجري).
٨٩ـ فتح الباري بشرح صحيح البخاري، العسقلاني، أحمدبن علي بن حجر (ت ٨٥٢ هـ ق).

٩٠ـ الفتوحات المكية، محمد بن علي بن محمد بن عربي الحاتمي الطائي الأندلسي (ت ١٢٤٠ هـ ق).

٩١ـ فرج المهموم في تاريخ علماء النجوم، ابن طاووس، رضي الدين أبوالقاسم علي بن موسى بن جعفر الحسيني (ت ٦٦٤ هـ ق).

٩٢ـ الفصول المهمة في معرفة أحوال الأئمة عليهم السلام، ابن الصباغ، علي بن محمّد بن أحمد المالكي المكّي (ت ٨٥٥ هـ ق).

٩٣ـ فقه القرآن، قطب الدين الراوندي (ت ٥٧٣ هـ ق).

٩٤ـ فلاح السائل ونجاح المسائل، ابن طاووس، رضي الدين أبوالقاسم علي بن موسى بن جعفر الحسيني (ت ٦٦٤ هـ ق).

٩٥ـ فيض القدير (شرح الجامع الصغير)، المناوي، أبو زكريّا يحيى بن محمّد عبدالرؤوف (ت ١٠٣١ هـ ق).

٩٦ـ قواعد المرام في علم الكلام، ميثم بن علي بن ميثم البحراني (ت ٦٩٩ هـ ق).

٩٧ـ الكافي، الكليني أبو جعفر محمّد بن يعقوب بن اسحاق الرازي (ت ٣٢٨ هـ ق).

٩٨ـ كشف الخفاء ومزيل الالباس عما اشتهر من الاحاديث على ألسنة الناس، العجلوني، اسماعيل بن محمد (ت ١١١٩ هـ ق).

٩٩ـ كشف الغطاء عن مبهمات شريعة الغراء، كاشف الغطاء، جعفر بن خضر (ت ١٢٢٧ هـ ق).

١٠٠ـ كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، المتقي الهندي، علاء الدين علي بن حسام الدين (ت ٩٧٥ هـ ق).

١٠١ـ كنز الفوائد، محمد بن علي الكراجكي (ت ٤٤٩ هـ ق).

١٠٢ـ كنوز الحقائق في حديث خير الخلائق، عبدالرؤف بن تاج العارفين المناوي الحدادي (ت ١٠٣١ هـ ق).

١٠٣ـ لسان العرب، ابو الفضل محمد بن مكرم، ابن منظور الافريقي المصري (ت ٧١١ هـ ق).

١٠٤ـ لسان الميزان، الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، (ت ٨٥٢ هـ ق).

١٠٥ـ مجمع البيان في تفسير القرآن، الطبرسي، أبو علي الفضل بن الحسن بن الفضل (ت ٥٤٨ هـ ق).

١٠٦ـ المجموع في شرح المهذب، يحيي بن شرف النووي (ت ٦٧٦ هـ ق).
١٠٧ـ المحاسن، ابو جعفر احمد بن محمد بن خالد البرقي، (ت ٢٨٠ هـ ق).
١٠٨ـ المحجة البيضاء في تهذيب الإحياء، المولى محسن الفيض الكاشاني (ت ١٠٩١ هـ ق).
١٠٩ـ المحصول في علم الأصول، محمد بن عمر بن الحسين الرازي (ت ٦٠٦ هـ ق).
١١٠ـ المحلى في شرح المجلى بالحجج والآثار، ابو محمد علي بن احمد بن سعيد بن حزم الأندلسي الظاهري (ت ٤٥٦ هـ ق).
١١١ـ مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل، حسين بن محمد تقي النوري الطبرسي (ت ١٣٢٠ هـ ق).
١١٢ـ مصباح المتهجد، ابن طاووس، رضي الدين أبوالقاسم علي بن موسى بن جعفر الحسيني (ت ٦٦٤ هـ ق).
١١٣ـ المصنف في الأحاديث والآثار، ابن ابي شيبة، أبوبكر عبدالله بن محمّد بن ابراهيم بن عثمان العنبسي الكوفي (ت ٢٣٥ هـ ق).
١١٤ـ مكارم الأخلاق، ابو نصر رضي الدين حسن بن فضل الطبرسي (من اعلام القرن السادس الهجري).
١١٥ـ الملاحم والفتن، ابن طاووس، رضي الدين أبوالقاسم علي بن موسى بن جعفر الحسيني (ت ٦٦٤ هـ ق).
١١٦ـ من لايحضره الفقيه، الشيخ الصدوق، أبو جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت ٣٨١ هـ ق).
١١٧ـ مناقب آل أبي طالب، ابن شهر آشوب، ابو جعفر رشيد الدين محمّد بن علي السروي المازندراني (ت ٥٨٨ هـ ق).
١١٨ـ الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ ق).
١١٩ـ النصائح الكافية، السيد محمد بن عقيل بن عبد الله بن عمر بن يحيى العلوي (ت ١٣٥٠ هـ ق).
١٢٠ـ وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، محمد بن الحسن الحر العاملي (ت ١١٠٤ هـ ق).

المحتويات

سورة يوسف ٥
سورة الرعد.. ٩٣
سورة إبراهيم.. ١٣٣
سورة الحجر... ١٦٥
سورة النحل ١٩٣
سورة الإسراء... ٢٦١
سورة الكهف... ٣٥١
فهرس الأحاديث ٤٢٣
المصادر ٤٣١
المحتويات... ٤٣٩